

سبح غنادري

الماركسية اللينينية
والمسألة القومية

«الطبقية» و«الأمة» و«القومية»

على ضوء الماركسية اللينينية

وفي كفاح الجماهير العربية في إسرائيل

طَبَقِيّون - أُمِّيّون ، وَطَنِيّون

نحن الشيوعيين العرب الفلسطينيين ، كما كل
الشيوعيين ، مفعمون بالكرامة القومية وبالمسؤولية
الوطنية تجاه وطننا . لسنا فقط خصوماً ألداء للعدمية
القومية والكوسموبوليتية ، وإنما الاعتزاز بشعبنا
وبتاريخه وبتراثه وبتقاليده ، هو المقدمة لطبقتنا
ولأمتنا ، هو مفتاح شيوعيتنا .

هَامَاتنا المرفوعة تطاول السماء ، عِزّة قومية
واعترازاً وطنياً . نمونا بين عمال وفلاحين ومثقفين هذا
الوطن ، وبرجوازيته الوطنية الصغيرة ، مقسمين ألا
نسقط علم الكفاح الوطني المُشَرَّع حتى نكنس كل
أعدائه وبنينه وطناً حراً سعيداً .

نعتز بانتمائنا لشعبنا ، الأقوى من كل احتلال
وعدوان والأكبر من كل حصار . وكما قال الشاعر
توفيق زيّاد ، لا ندّعي أننا أفضل شعب من شعوب
الأرض ، ولكن ليس هنالك من شعب أفضل من
شعبنا . وإن خير لنا أن نولد من جديد ، لما اخترنا إلا أن
نولد فلسطينيين ، في جليل ومثلث ونقب وساحل
وكرم ، وجبال وسهول ، هذا الوطن الجميل .

الماركسية - اللينينية والمسألة القومية

«الطبقي» و «الأممي» و «القومي»
على ضوء الماركسية - اللينينية
وفي كفاح الجماهير العربية
في إسرائيل

إصدار
دار ٣٠ آذار
الناصرة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
أيار ١٩٨٦

الغلاف : تصميم وتنفيذ فوزي ناصر

الموضوع الأول

الماركسية - اللينينية والمسألة القومية

المسألة القومية - مدخل وتعريفات

- * تعريفات .
- * مقومات تَكُونُ الأمة .
- * مراحل المسألة القومية .
- * اتجاهها الرأسمالية في المسألة القومية .

تعريفات

يُعرَّف الباحث السوفييتي ، س. غيليلوف ، المسألة القومية في معناها الأوسع ، بأنها : «تبحث في أصل الأمم وقوانين تطورها ، وتحرير الشعوب المضطَّهدة في البلدان التابعة والمستعمرات من نير الامبريالية ، وطرق إزالة عدم المساواة القومية وإقامة علاقات جديدة للتعاون والمساعدة الأخوية المتبادلة بين الأمم ، وفي توحيد عمال الأمم جمعاء ، وطرق التقارب بين الأمم ، واندماجها في المستقبل»^(١) .

يعكس هذا التعريف ، الماركسي - اللينيني ، اتساع وتشعب وشمولية المواضيع التي تدخل في اطار المسألة القومية . انها تبدأ من مرحلة تكون الأمم ، على أساس امتزاج القبائل والعشائر القديمة ، وتنتهي بمرحلة امتزاج الأمم جمعاء وزوال الفوارق القومية ، طبعاً بعد المرور في مرحلة الكفاح من اجل التحرر من الاستعمار والتبعية وكل مظاهر التمييز القومي ، ومن اجل الاستقلال القومي والمساواة والتعاون بين مختلف الأمم

وبناءً على هذا التعريف تتضح ليس فقط شمولية وتشعب هذه المسألة ، بل ومدى أهميتها ايضاً . لقد أكد لينين ، في اكثر من مناسبة ، ان مصير الثورة يتوقف ، الى حد بعيد ، على حل المسألة القومية . ونستطيع ان نجزم انه ليس بالامكان معالجة مسألة إحراز النصر الساحق في حرب التدخل الامبريالية لخلق ثورة اكتوبر الاشتراكية ، وضد الحرس الابيض ، وكذلك النصر الساحق للشعب السوفييتي في الحرب العالمية الثانية ، بالاضافة الى قضايا بناء الاشتراكية ، بمعزل عن الحل الصائب للمسألة القومية في الاتحاد السوفييتي ، هذا الحل الذي طرحه الشيوعيون قبيل الثورة بسنوات ، وجندوا حوله أبناء القوميات المختلفة .

ان أية دولة كانت تتآكلها التناحرات القومية تضع كل مصيرها على

كفه التوازن . واية ثورة تحررية ديمقراطية كانت ، ام اجتماعية استراكية ، مرتبط . ليس فقط مسألة نجاحها وانما ايضا مسألة استمرار حياتها ويطورها . بالبرنامج الذي تطرحه لحل المسألة القومية . خاصة اذا كانت نسائه القومية قضية أساسية ، في هذه الدولة أو تلك . أمام هذه الثورة أو تلك .

أضف الى هذا ان مسألتي التضامن الأُممي للبروليتاريا والتآخي والصداقة بين الشعوب . لا يمكن أن تبني بناءً سليماً إلا على قاعدة التوجه السليم والحل السليم للمسألة القومية . بما فيها مختلف جوانب العلاقات بين القوميات والشعوب والأُمم المختلفة . فما من شيء يعيق التضامن الأُممي والصداقة بين الشعوب مثل الظلم القومي . والعكس صحيح . فما من شيء يوطد هذا التضامن . على طريق التحرر وبناء الاستراكية ، مثل المساواة القومية وصيانة كافة الحقوق القومية .

ان تراث الماركسية - اللينينية في معالجة المسألة القومية تراث غني ومتجدد . وتقف على رأس هذا التراث مؤلفات آباء الماركسية - اللينينية : كارل ماركس وفريدريك انجلس وفلاديمير ايليتش لينين . وكذلك المساهمات الغنية لمختلف الاحزاب الشيوعية العالمية وتجارها ، والتي تقع في موقع القلب منها وناق وبرايمج الحزب الشيوعي السوفييتي . بهذا الخصوص ، وتجربة حل المسألة القومية في الاتحاد السوفييتي . ولا شك ان تعاضد حركة التحرر الوطني في القرن العشرين وتجارها ، أغنت النظرة الماركسية - اللينينية للمسألة القومية . على مختلف جوانبها .

لكن الى جانب هذا التراث الغني يبقى الواقع أغنى من أية نظرية . ان الماركسية اذ ترفض الكليشيات الجافة توصي ، في المسألة القومية وفي كل مسألة ، بدراسة الواقع دراسة غنية على مختلف جوانبه ، وبالأخذ بالاعتبار بأصالة وبصورة خلاقة ، ظروف الزمان والمكان والواقع الاقتصادي . في أثناء تطبيق التعاليم العامة .

ومحل أهمية خاصة مسألة الروية في التعامل ومراعاة الطابع المحلي وعدم التسرع «الورجي» الاصطناعي في محاربة عادات وتقاليد قومية مأساة . ولكنها رجعية . وكذلك الحساسية القصوى تجاه أي مس بالكرامة القومية أو بالمساواة وبالحقوق القومية . وحتى لو كان هذا المساس عن

طريق الكلام والمزاج ، كما أكد لينين . لأنه ما من مسألة أسد حساسية . لدى المظلوم قوميا ، من مسألة العبث بمساعره القومية وإهانة قوميته وبقافته وعدم احترام ثقاليده ودينه ولغته . ويجوز أحيانا تقديم التنازلات المؤقتة في بعض هذه المسائل وتأجيل البت الثوري النهائي بها ، لمرحلة متأخرة ، في سبيل توطيد الثقة والصداقة بين القوميات المختلفة أولا . ففي المسألة القومية ، كما في أية مسألة هامة أخرى ، قد يؤدي الحسم المتعجل الى نقیض الهدف المرجو . تماما كما ان تقرب الثمار الفجة من النار يؤدي الى احتراقها وليس الى نضوجها .

وعلى البروليتاريا المنتمية للأمة الظالمة ان تفهم مسألة الريبة وعدم الثقة التي قد تكنها لها بعض فئات جماهير الأمة المظلومة ، حتى بعد انتصار الثورة الاشتراكية - فكم بالحرى قبلها - وذلك بسبب الارث القديم والمتوارث . لذلك من المهم بمكان هنا ان يكون توجه هذه البروليتاريا خاليا من أية ملامح لتوجه «برجوازيته» ، أي خاليا من السعور «بالعظمة» و «الفوقية» ومن التوجه التعليمي الارشادي المتعالي . فدورها دور المساعد الأخوي لا دور المربي . ولازالة عدم المساواة القومية المتوارثة ، وعدم الثقة المبنية عليها ، تلجأ هذه البروليتاريا ، كما لجأت في الاتحاد السوفيتي ، الى تطبيق «عدم مساواة» لصالح القوميات المظلومة ، في سبيل اغلاق الفجوة القديمة من التخلف الذي خلفته سياسة الاستعمار والاضطهاد القومي . هكذا ، وهكذا فقط ، يمكن إعادة بناء الثقة وتوطيد التلاحم الأُمّی الحق . وبعد ، ويهدف توخي الدقة العلمية ، وقبل الانتقال الى بحث تفاصيل المسألة القومية ، علينا التوقف عند بعض التعريفات ، خصوصا وانه تجري أحيانا محاولات للخلط ، أو لعدم الفصل الدقيق ، بين معاني اصطلاحات مختلفة تخص المسألة القومية مثل : «القبيلة» و «العشيرة» و «الجنس» و «القومية» و الأمة* .

العشيرة : مجموعة من الناس تربطها رابطة القرى وظهرت في زمن التشكيلة الاقتصادية - الاجتماعية الأولى ، ألا وهي المشاعية البدائية .

* اعتمدت في وضع هذه التعريفات ، والتعريفات اللاحقة ، على «الفاموس الفلسفي» و «معجم الشيوعية العلمية» و «الموسوعة الاقتصادية» ، من إصدار دور النشر في الاتحاد السوفيتي .

وبداً لتحلل النظام العسائري ، حيث كانت تدار الأمور على أساس العمل الجماعي ورئاسة أكبر أعضاء العشيرة سناً ، مع بدء انحلال نظام المشاعية البدائية وظهور التقسيم الطبقي للمجتمع .

القبيلة : ظهرت هي أيضاً في عهد المشاعية البدائية على أساس اتحاد العساائر في بطون ومن ثم في قبائل . فالقبيلة فئة اتنوغرافية تمتاز بوحدة الأصل واللغة . وهي منظوية على نفسها وتدير شؤونها بنفسها . وظهرت في البدء على أساس اتحاد عساائر ، خصوصاً وان العشيرة كانت دائماً قليلة العدد . وفي مرحلة متأخرة ، ولستى الاعتبارات الاقتصادية والأمنية ، بدأت مرحلة اتحاد القبائل مع بعضها البعض .

الجنس (العنصر) : لا يجوز الخلط بين اصطلاحات «العنصر» و «القومية» أو «الأمة» . فالعنصر - أو الجنس - مجموعة بيولوجية من الناس تحدّد على أساس المظهر الخارجي . وتختلف الاجناس عن بعضها البعض باختلاف لون بشرتها وشعرها وتقاطيع وجهها وبناء جسمها . مثلاً السود أو الصفر ، الجنس السامي أو الجنس الآري . وهكذا

وتعود هذه الاختلافات الى عوامل طبيعية ، وخصوصاً في ظل أسلوب حياة الانفراد والتباعد وعدم الاختلاط ، والذي كان سائداً بين مختلف المجموعات من الناس . هذا الاسلوب الذي أخذ يخلي الطريق ، مع تطور المجتمع ، لنقيضه - أي للتقارب والاختلاط والامتزاج بين مختلف الاجناس .

القومية : انها ليست مجموعة بيولوجية وإنما مجموعة تاريخية - اجتماعية تكونت على أساس اتحاد قبائل مختلفة . وحدث هذا مع انهيار مجتمع المشاعية البدائية وظهور الملكية الخاصة والمجتمع الطبقي ، أي مع انقسام المجتمع الى طبقات متصارعة ومتعارضة . والقومية بهذا هي اتحاد لأناس تربط بينهم وحدة اللغة والأصل والارض . أما الوحدة الاقتصادية والوحدة الثقافية فما زالتا في هذه المرحلة ، مرحلة نسوء القوميات ، ضعيفتين . والأقوام تميز التجمعات البشرية في التشكيلتين الاقتصاديتين - الاجتماعيتين : العبودية والاقطاع .

الأمة : هي أيضاً مجموعة تاريخية - اجتماعية ثابتة ، وليست بيولوجية . وتكونت على أساس اتحاد مختلف الاقوام في مرحلة الرأسمالية ، مرحلة انهيار المجتمع الاقطاعي القديم وظهور التشكيلة الاقتصادية - الاجتماعية الجديدة : الرأسمالية . وتتكون الأمم على أساس وحدة اللغة والارض والحياة الاقتصادية وخصائص الصفات الروحية . وهنا تفقد

وحدة الأصل أهميتها المركزية وتتوحد وحدة اللغة والارض والحياة الاقتصادية . بينا الاقوام تتكون - (أنظر أعلاه) - على أساس وحدة اللغة والأصل والارض .

مقومات تكون الأمة

نستطيع ان نلاحظ ، بناء على ما وَرَدَ سابقاً ، انه لا يمكن فصل تشكيل المجموعات الاجتماعية المختلفة - عشيرة ، قبيلة ، قومية ، أمة - ، عن تشكيل الأنظمة الاقتصادية - الاجتماعية المختلفة . فالمجموعات الاجتماعية الأدنى ترتبط بمجتمعات أدنى . والعكس صحيح . ولم يكن بالامكان ، مثلاً ، ان تظهر الأمم في عهد المشاعية البدائية أو في عهد العبودية أو الاقطاع . لأن هذه التشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية ، وان كان بدرجات متفاوتة ، تتميز أولاً وقبل كل شيء بالتبعثر والتباعد وعدم التداخل ، أي بغياب الوحدة الاقتصادية الشاملة وغياب وحدة الارض ووحدة اللغة ايضاً . وحتى الدول والامبراطوريات الاقطاعية لم تؤد الى نشوء الأمم بسبب كونها دولاً وامبراطوريات وُحِّدَتْ بين قبائل وأقوام بالقوة ودون ان تضمن الوحدة الاقتصادية ، وغيرها ، بين الاقطاعات المختلفة . وبناءً عليه نستطيع ان نجزم ان الأمم ظاهرة يرتبط وجودها بانتصار الرأسمالية على الاقطاعية . انها نتاج تنسم البرجوازية الصاعدة لدفة الحكم . فهذه البرجوازية الصاعدة ، في صراعها الطبقي الضاري ضد الاقطاع ، كانت بحاجة الى بناء السوق المشتركة وتوحيد مختلف الاقاليم وضمان اللغة الواحدة والدولة الواحدة - مكان الاقطاعات المتبعثرة - حتى تضمن تطور القوى المنتجة الجديدة على أكمل وجه في حينه . وذلك عن طريق ضمان اوسع قاعدة ممكنة لوسائل الانتاج (وسائل العمل + مواضع العمل . أي الآلات والاعتدة والارض وما في باطنها وما عليها وكذلك كل ما تقصد انتاجه) ، بهدف نهجها ، وضمان اوسع عدد ممكن من الناس - الجزء الآخر من القوى المنتجة - بهدف استغلالهم . وهذا طبعاً الى جانب ضمان

اوسع سوق داخلية لتصريف الانتاج .

يكتب كارل ماركس وفريدريك انجلس في «بيان الحزب الشيوعي» ما يلي : «وتقضي البرجوازية اكثر فاكثراً على تبثّر وسائل الانتاج والملكية والسكان . وقد كدّست السكان ومركزت وسائل الانتاج وجمعت الملكية في أيدي أفراد قلائل . وكانت النتيجة المحتومة لهذه التغييرات نشوء التمرکز السياسي . فالمقاطع المستقلة ، التي كانت العلاقات بينها تكاد تكون علاقات اتحادية ، والتي كانت لها مصالح وقوانين وحكومات وتعريفات جمركية مختلفة ، انما جمعت كلها ودُججت في أمة واحدة مع حكومة واحدة ، وقوانين واحدة ، ومصصلحة قومية طبقية واحدة . وراء حاجز جمركي واحد»^(٢٧)

لنتفحص الآن مقومات تكون الأمة :

* أولاً ، وحدة اللغة : لا يمكن أن تنشأ وحدة قومية ما مع غياب وحدة لغتها . فاللغة هي وسيلة التخاطب والتفاهم بين الناس . وتتطور اللغة القومية على أساس لغات العشائر والقبائل والاقوام القديمة ، وفي ظل توسع الصلات الاقتصادية وغياب التبعر والتفوق . وتحل اللغة الفصحى الموحدة محل اللغة العامية - السعبية ، ويتسارع اكبر ، مع ازدياد تسارع اندماج الأمة الواحدة . فالحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية لأمة ما ، وتطورها ، مرتبطة حتماً بوحدة لغة ما ، لدى هذه الأمة .

يقول لينين : «ان اللغة وسيلة كبرى لاتصال الناس ببعضهم البعض . كما ان وحدة اللغة وحرية التطور هما من أهم الشروط لقيام مبادلات تجارية حرة شاملة حقاً تتوافق مع الرأسمالية الحديثة ، ولتكتل الناس تكتلاً حراً واسعاً داخل كل طبقة من الطبقات ، وأخيراً لاقامة علاقة وثيقة بين السوق وبين كل رب عمل كبير أو صغير ، بين السوق وبين كل بائع ومشتري»^(٢٨) . ويكتب في مكان آخر : «ان وحدة اللغة عامل هام في سبيل الظفر المطلق بالسوق الداخلية وفي سبيل حرية المبادلات الاقتصادية حرة تامة»^(٢٩) .

كذلك تجدر الإشارة الى انه من الممكن تكون أمة واحدة ، في ظل دولة واحدة وعلى أساس وحدتها الاقتصادية ، تتكلم أكثر من لغة قومية واحدة . ويرز ، في هذا الاطار ، مثال الأمة السويسرية أو الكندية أو البلجيكية .

* ثانياً ، وحدة الارض : انها هي الأخرى شرط ضروري لتكون الأمة . فالأمة تقوم وتتخالف وتندمج على رقعة معينة من الارض . لذلك فان انتهاك ارض أمة ما هو إلا انتهاك لحريتها . ان احتلال اراضي شعوب معينة ، في مراحل تاريخية سابقة ، أدى الى اضمحلال وزوال هذه الشعوب أحياناً ، أو الى تحويلها الى أقليات قومية . كذلك عسرات الشعوب في عصرنا الحاضر ، والتي جرى احتلال واستعمار اراضيها ، ناضلت وتناضل في سبيل حق تقرير مصيرها واستقلالها القومي على ارضها التاريخية . وهذا ما يناضل من أجله الشعب العربي الفلسطيني ، اليوم .

كذلك من المهم التأكيد انه ليس من المفروض ان تزول الأمة بزوال وحدة ارضها في فترة تاريخية معينة . بل نلاحظ بقاء وحدة الأمة ، خصوصاً في عصرنا الراهن ، وتزايد تلاحمها - بناء على مطلبها الوطني المشترك باستعادة ارضها وتحقيق تقرير مصيرها . اصف الى هذا انه من الممكن تكون اكثر من أمة في ظل دولة واحدة وظروف اقتصادية وسياسية واحدة . وبرز ، في هذا الاطار ، مثال الاتحاد السوفييتي . عدا هذا قد يحدث في ظروف اقتصادية - تاريخية معينة ، أن تؤدي تجزئة الارض وإقامة أنظمة اقتصادية - اجتماعية مختلفة ، على كل جزء منها ، الى تجزئ الأمة الواحدة وبدء اتجاه نشوء أمتين منها . وبرز هنا مثال ألمانيا الديمقراطية وألمانيا الاتحادية ، أمة اشتراكية وأمة برجوازية . وهذا تأكيد إضافي لأهمية عامل وحدة الحياة الاقتصادية ، في تشكيل الأمة .

* ثالثاً ، وحدة الحياة الاقتصادية : انه أهم شرط من شروط تكون الأمة . وبترتيبه في المقام الثالث لم نقصد التسلسل حسب الأهمية . اذ لا يمكن تكون الأمة دون ضمان وحدة صلاتها الاقتصادية ، حتى لو ضمنا بعض الصلات اللغوية والاقليمية . وهذه الوحدة من الصلات الاقتصادية تنشأ على انقراض الاطاحة بالأسلوب الاقتصادي للانتاج ونشوء الأسلوب البرجوازي ، حيث يجري - كما أشرنا سالفاً - تكوين اقتصاد موحد وسوق وطنية موحدة لضمان تطور القوى المنتجة ، لضمان تطور وتوطد وتوسع الاستغلال البرجوازي في ظل الدولة الواحدة .

وتجدر الإشارة الى ان العلاقة بين شروط تكون الأمة هي علاقة دابلكتيكية ، مترابطة ومتبادلة التأثير . فكما ان وحدة الحياة الاقتصادية

ضمان لوحدة الارض واللغة وتعزيز لها ، كذلك وحدة الارض واللغة ضمان وتعزيز لوحدة الحياة الاقتصادية . وكلها مجتمعة تضمن خصائص الصفات الروحية المشتركة .

* رابعا ، خصائص الصفات الروحية : ونقصد بها نفسية الأمة والشكل الوطني لثقافتها ، عاداتها وتقاليدها وطقوسها . طبعاً هذا مع الحذر وعدم المبالغة الى حد اذاعة البوصلة الطبقية . فان ثقافة ونفسية البرجوازية والبروليتاريا ، من ذات الأمة الواحدة ، تختلفان عن بعضهما البعض في عدة أمور . وهذا ما سنبيّنه في أثناء بحث الموضوع الثالث والأخير ، من هذا الكتاب .

بعد استعراض مقومات تكون الأمة يجدر التنبيه الى ما يلي : أولاً ، مجموع هذه المقومات ، سوية ، يؤدي الى تكون الأمة مع التأكيد على ان «وحدة الحياة الاقتصادية» هي الأساس . وهذه تنشأ بنشوء الاقتصاد الرأسمالي . أما السمات الأخرى فتتكوّن عادة في مرحلة ما قبل الرأسمالية . مثلاً نشوء وحدة اللغة أو الارض في ظل دولة الاقطاع أو العبودية . هذا مع التأكيد ان مثل هذه الوحدة تبقى ناقصة وغير متوطدة في ظل غياب الوحدة الاقتصادية ، التي تضمنها البرجوازية الصاعدة . ثانياً ، عملية تكون الأمم المختلفة تبقى في نهاية المطاف متباينة ومتعددة الاشكال ، نتيجة تباين ظروف المكان والزمان والوضع التاريخي الملموس . ويلاحظ البحاثة الماركسيون - اللينينيون ، ان عملية تكون الأمم في اوروبا الشرقية وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، بدأت قبل نشوء مرحلة الأسلوب الرأسمالي للانتاج وارتبطت بالنضال ضد الظلم القومي . بينما لم يكن الأمر هكذا في اوروبا الغربية .

ثالثاً ، ليس من المحتّم على مختلف القبائل والاقوام ان تمر في مرحلة الرأسمالية حتى تتوحد في أمم واحدة . اذ تستطيع ، في ظروف مواتية ، وفي ظل توفر الدعم من الدول الاشتراكية ، ان تتخطى مرحلة التطور الرأسمالي وان تصل الى الاشتراكية . وهذا ما حدث فعلاً في بعض مناطق الاتحاد السوفييتي وفي منغوليا ، مثلاً . ويتخطى تكون «الأمة البرجوازية» تنتقل مثل هذه القبائل والاقوام مباشرة الى مرحلة تكون «الأمة الاشتراكية» .

مراحل المسألة القومية

بناء على ما سبق ، وعلى تعريف المسألة القومية ، تؤكد الماركسية - اللينينية وجود ثلاث مراحل رئيسية مختلفة للمسألة القومية . وهي :
* المرحلة الأولى : انها مرحلة صعود الرأسمالية ، مرحلة القضاء على النظام -الاقطاعي وقيام الدول القومية البرجوازية . فالبرجوازية النامية والصاعدة ، في رحم النظام الاقطاعي القديم ، تقود جماهير الشعب للاتاحة بالعلاقات الاقطاعية القائمة ولإقامة الدولة القومية الواحدة والموحدة .

وهذه المرحلة مرحلة ثورية وتقدمية وتتجاوز مع حاجة التطور للقوى المنتجة ومع تطلع الاقوام والشعوب للاتاحة بنير الاقطاع ولبناء دولتها القومية العصرية المستقلة . ان البرجوازية ، ورغم مصلحتها الذاتية وسعيها الى توسيع قاعدة الاستغلال والربح ، تمثل في هذه المرحلة مصلحة الشعب ككل . انها القائد الطبيعي للحركة القومية ، في هذه الفترة .

يقول لينين : «في العالم كله كان عهد انتصار الرأسمالية التام على الاقطاع مقترنا بالحركات القومية . ان الأساس الاقتصادي لتلك الحركات يكمن في أن تفوق الانتاج البضاعي ، تفوقاً تاماً ، يتطلب استيلاء البرجوازية على السوق الداخلية وتوحيد الاراضي التي يتكلم سكانها لغة واحدة فالسعي الى إقامة دولة قومية تستجيب على الوجه الأكمل لمتطلبات الرأسمالية الحديثة هذه ، وهو أمر ملازم لكل حركة قومية . وتدفع الى ذلك أعمق العوامل الاقتصادية . ومن هنا يبدو ان الميزة النموذجية والشيء الطبيعي في المرحلة الرأسمالية هو قيام الدولة القومية في اوروبا الغربية كلها ، بل في العالم المتمدن كله»^(٥) .

وتقوم البرجوازية ، في هذه المرحلة ، بدور ثوري للغاية ، كما أكد ماركس وانجلز في «بيان الحزب الشيوعي»^(٦) . اذ انها تسحق العلاقات الاقطاعية وتخلق نظاماً جديداً ذا علاقات اجتماعية ومفاهيم جديدة . وتطلق المجال للنشاط الانساني المبدع وتطور مختلف مجالات الانتاج بشكل لم يسبق له مثيل . وتخلق قوى منتجة فائقة العظمة بالمقارنة مع ما سبق . والى جانب

توحيد الأمة الواحدة ، في الدولة الواحدة ، تقرب ما بين مختلف الاقوام والشعوب والأمم عن طريق سعيها للاسواق . ومكان الانعزال المحلي تحل الصلات الشاملة بين الأمم وتعلقها ببعضها البعض . وجنبا الى جنب مع الثورة الاقتصادية التي تحدثها ، تقود البرجوازية ثورة علمية - صناعية وكذلك ثورة أخرى في مجال الانتاج الفكري - الروحي . وتبني المدن الكبيرة وتمركز السكان وتقضي على الانعزالية الريفية وتبني وسائل المواصلات والاتصالات التي تكاد تجعل من عالمنا كله ، مدينة واحدة كبيرة الخ .

ويلاحظ ان البرجوازية في هذه الفترة ، فترة صعودها وكفاحها ضد الاقطاع ، تؤكد وتبرز مصالح «القومية» أو «الأمة» ككل ، في برامجها وكفاحها . بل وتتغنى بالشعارات الانسانية الليبرالية العامة - الأخوة ، الحرية ، المساواة ، العدالة - مقابل وحشية العلاقات الاقطاعية القائمة . انها تعرف انه ، في نهاية المطاف ، من يصنع التاريخ هي الجماهير الشعبية . وهي بحاجة لكسب هذه الجماهير في معركتها الفاصلة ضد الاقطاع . والجماهير الشعبية بدورها تعرف ان مصلحتها ، في هذه الفترة ، تتوافق مع مصلحة البرجوازية . اذ ان القضية المطروحة على نشاط البحث ، والتي فرضها كل التطور السابق ، هي التخلص من الحكم الاقطاعي البغيض . لذلك يلاحظ أيضا أنه مع ان القيادة ، في هذه المرحلة ، تعود للبرجوازية الصاعدة ، إلا ان الوقود الفعلي للمعارك الثورية الجارية ، هي الجماهير الشعبية ، وخاصة جماهير الفلاحين الكثيرة العدد ، وكذلك الفئات العمالية النامية .

وغني عن البيان ان ظروف تحقيق مهمات هذه المرحلة وزمنها تختلف بين قارة وأخرى ، بين أمة وأخرى . فلقد تمت ، مثلاً ، هذه المرحلة من التحولات الثورية الديمقراطية وبناء الدول البرجوازية ، في اوروبا ، في الأساس ، بين سنوات ١٧٨٩ - ١٨٧٠ . بينما القرن العشرون الحالي كان عصر تنفيذ مهمات هذه المرحلة في كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . حتى ان بعض شعوب هذه القارات ما زال يكافح ، حتى اليوم ، في سبيل تحقيق مصيره وإقامة دولته القومية المستقلة .

* المرحلة الثانية : أما المرحلة الثانية للمسألة القومية فانها ترتبط

بوصول الرأسمالية الى أعلى مراحل تطورها ، اي الى الامبريالية . انها مرحلة الانتهاء من عملية استيلاء الدول الامبريالية على دول وافئيم ومقاطعات الشعوب الأخرى وإنهاء تقسيم العالم ، جغرافيا واقتصاديا ، بين الدول الامبريالية . انها فترة اقامة الامبراطوريات الاستعمارية واستغلال الحروب الامبريالية لاعادة اقتسام العالم ، من جديد . وتصبح المسألة القومية ، في هذه المرحلة ، مسألة دولية وليس داخلية فقط .

اذ ما ان تصل البرجوازية الى الحكم حتى تكسر عن أنيابها الصفراء وتظهر على حقيقتها تماما ، فتتكرر حتى لسعات الأمس القريب . ويتكسف مجتمع «الحرية» و «الاخاء» و «المساواة» عن حرية وإخاء ومساواة البرجوازين في امتصاص عرق ودم شعوبهم . ومكان السيد القديم ، الاقطاعي ، يحل سيد جديد - البرجوازي ، سيد لا يقل ظلما وجسعا عن سابقه . ومكان عبودية الكرباج في يد الاقطاعي وارتباط «القن» بأرض سيده ، تحل العبودية المأجورة ، عبودية مدفوعة الأجرة ، عبودية ارتباط العامل بصاحب عمله ، عبودية انتاج العامل لصاحب عمله سلعا تفوق قيمتها ، بما لا يقاس ، قيمة أجره المدفوع . انها عبودية جديدة ، عبودية مغلفة ومموهة بدفع الأجر الضئيل مقابل العمل الكبير . لكن في الواقع ما زال العامل - وريث القن السابق - يعمل بالسخرة يوميا ، مجانا ، ولمدة ساعات ، لصالح البرجوازي ، لصالح صاحب العمل . اذ انه قد ينتج قيمة أجره في أول ساعة أو ساعتين او نلاب ساعات من عمله اليومي . فالبرجوازية ، في هذه المرحلة ، تستغل أبناء قوميتها أنفسهم ، طبقيا . وتستغل ايضا طبقيا وقوميا ، أبناء الاقليات القومية التي تعيش في كنف دولتها .

ولكن ما يميز هذه المرحلة الثانية ، من المسألة القومية ، وصول البرجوازية الى مرحلة الامبريالية ، مرحلة الاستعمار . فالبرجوازية ، في أعلى مراحل تطورها ، لم تعد تكفي باستغلال أبناء قوميتها فقط ، وتدوس على حريات مئات القوميات والشعوب . وتنقل بذلك المسألة القومية من كونها مسألة داخل الدولة الواحدة الى مسألة دولية . وفي سعي البرجوازية نحو الاسواق الجديدة ، لتصرف بضاعتها ولتهب المواد الخام الرخيصة ، اكملت عمليا استيلاءها ، في القرن التاسع عشر السابق ، على

دول وسعوب آسيا وأفريقيا وإمريكا اللاتينية ، هذا عدا الاستيلاء على بعض دول وشعوب أوروبا أيضا . ولم تكن الشمس ، في يوم مضى ، تغيب عن مستعمرات الامبراطورية البريطانية المترامية الاطراف ، في شتى القارات . وكان من الطبيعي ان تثير هذه العملية حركات قومية مقاومة تسعى هي الأخرى للتححر ولبناء دولها المستقلة .

* المرحلة الثالثة : انها مرحلة انتصار الثورة الاشتراكية . مرحلة استيلاء البروليتاريا على الحكم وإطاحتها بالنظام البرجوازي وإقامة النظام الاشتراكي . ومحل علاقات الاستغلال والاضطهاد والتمييز القوميين ، السابقة ، تجلب الاشتراكية معها علاقات الصداقة والتلاحم الأممي والأخوة الحققة والمساعدات النزهة المتبادلة بين مختلف الأمم . فلا ظلم واضطهاد وتمييز داخلي ولا استعمار خارجي . وانما وضع حجر الأساس لتطور لاحق ، طويل لكنه حتمي ، سيؤدي الى تلاحم مختلف الأمم وزوال الفوارق القومية ، والى بناء أمة اشتراكية عالمية واحدة . ان كلمات «الاضطهاد القومي» أو «التمييز القومي» أو «العنصرية» تصبح في ظل الاشتراكية ، كلمات لوصف عهد سبق . وتفتح ، بما لا يقاس مع السابق ، امكانيات تطور وتأخي وتلاحم الشعوب . اذ في هذا العهد ، عهد الثورات الاشتراكية ، وكما أكد كارل ماركس ، في مقالته «النتائج المقبلة للحكم البريطاني في الهند» : «لن يبقى التقدم البشري شبيهاً بذلك الصنم الوثني الكريه الذي كان لا يريد شرب الرحيق إلا من جماجم القتلى»^(٧) .

اتجاهها الرأسمالية في المسألة القومية

من استعراضنا السابق ، للمرحلتين الأولى والثانية للمسألة القومية ، نلاحظ وجود اتجاهين للرأسمالية في المسألة القومية ، ألا وهما اتجاه إقامة الدولة البرجوازية القومية واتجاه هدم الحواجز القومية وإنشاء العلاقات الرأسمالية العالمية .

كتب لينين يقول : «الرأسمالية تعرف في تطورها اتجاهين تاريخيين

في المسألة القومية : الأول هو استيقاظ الحياة القومية والحركات القومية والنضال ضد كل اضطهاد قومي وإنشاء دولة قومية . والثاني تطور شتى العلاقات بين الأمم وتكاثرها المتزايد وهدم الحواجز القومية وإنشاء وحدة الرأسمال العالمية ، ووحدة الحياة الاقتصادية بصورة عامة ووحدة السياسة والعلوم ، الخ

«وكلا الاتجاهين هما قانون عالمي للرأسمالية ، فالأول يسود في بدء تطورها والثاني يميز الرأسمالية الناضجة السائرة نحو تحولها الى مجتمع اشتراكي»^(٨) .

فهذان الاتجاهان ، إذن ، يختلفان جوهرياً مع أنها يخصان الرأسمالية . إذ ان الاتجاه الأول هو عهد انهيار الاقطاع وإقامة الدولة الديمقراطية البرجوازية . وتكون الحركة القومية ، هنا ، حركة جماهيرية ديمقراطية تجذب الى صفوفها اوسع فئات الشعب ، بما فيها الجماهير الفلاحية . أما الاتجاه الثاني فيأتي بعد توطد حكم البرجوازية ودخول الرأسمالية لمرحلة الامبريالية . هنا ينتهي عهد تأسيس الدولة البرجوازية ويبدأ احتداد الصراع الطبقي الداخلي بين برجوازية وبروليتاريا الدولة نفسها . وتنطلق البرجوازية نحو الاستيلاء على أسواق العالم . وتخفي هنا الحركة البرجوازية الجماهيرية الديمقراطية . ولكن سوية مع الاستيلاء على اسواق العالم تجر البرجوازية كل الأمم نحو العلاقات الاقتصادية العالمية ، الكوسموبوليتية ، ونحو التبادل التجاري بين الناس في شتى بقاع الارض . وهذا نقضي البرجوازية على الانعزالية والانطواء وتقارب وتمزج بين مختلف الأمم ومنجزاتها .

بهذا الفصل بين هذين الاتجاهين لا نقصد خلق جدار ، غير موجود أصلاً . فالاتجاهان مترابطان بحلقات انتقالية . وينشأ الاتجاه الثاني على قاعدة استكمال مهمات الاتجاه الاول . وكلاهما يخصان مرحلة الرأسمالية ، الأول يسود في بدايتها والثاني يسود في عشية انهيارها . إذ ان مرحلة الامبريالية هي مرحلة عشية الثورة الاشتراكية ، كما أكد لينين ، في اكثر من مكان ومناسبة .

تقرر الماركسية - اللينينية ان هذين الاتجاهين تقديمان . لماذا ؟ ! لا نعتقد ان تقديمية الاتجاه الاول قد تثير النقاش . إذ ان الحديث يجري

عن لاضحة بالاقطاع - او المستعمر - وإقامة الدولة القومية المستقلة . وتمتاز
نزعته قوميه هنا بتقدميتها وديمقراطيتها . ولها ما يبررها تاريخيا .
أما بخصوص تقدمية الاتجاه الثاني ، فلا نقصد بالتقدمية هنا
مستباحة اوطان الشعوب وحرياتها ، وانما نقصد النمو المطرد للقوى المنتجة
وربط أطراف العالم ببعضه البعض والقضاء على العزلة القومية وتقريب
شعوب من بعضها البعض وتقسيم العمل على الصعيد الدولي ، حتى ،
واكساب الرأسمال صبغة دولية والتقارب الاقتصادي بين شتى الاقوام
والشعوب والأمم . ان هذا الوضع يشكل عمليا مرحلة عشية الثورة
الاستراكية التي تريد هي الأخرى ، على أسس مختلفة طبعاً ، القضاء على
الانعزالية وتوحيد الاقتصاد على صعيد دولي وتقارب مختلف القوميات
والأمم .

صحيح ان الامبريالية تدوس حريات الشعوب وتستغل ثرواتها وتشوه
نمو اقتصادها . وصحيح ان النزعة القومية للبرجوازية تصبح هنا نزعته
رجعية . ولكن التطور التاريخي ، الاقتصادي - الاجتماعي ، فرض هذه
المرحلة في وقت لم يكن بالامكان به حلول الثورة الاستراكية . وفي وقت لم
يكن بالامكان ان تطرح فيه ، لا ماديا ولا حتى فكريا ، قضية انتقال
الشعوب الى المرحلة الاستراكية دون المرور بالمرحلة الرأسمالية . ولقد
ساهمت الرأسمالية ، حتى عندما دخلت مرحلة الامبريالية ، بدفع كل عملية
التطور الاجتماعي العالمي نحو التحرر من الاقطاع والاستعمار ، ونحو
التحرر من الرأسمالية ايضا ، عن طريق الثورة الاستراكية . صحيح ، كما
أسار ماركس ، ان هذا التقدم البشري أنسبه بشرب الرحيق من حمام
القتل ، ولكن أي تقدم كان بالامكان أن يجري في ظل الاوضاع السائدة
دون حمام القتل ؟ !

زد على هذا ان الاتجاه الثاني يسهل عملية التلاحم العالمي للشغيلة
في نضالها المشترك ضد العدو المشترك ، ألا وهو الامبريالية . كذلك يدفع
هذا الاتجاه مختلف القوميات ، المحتلة ارضها والمستباحة اوطانها واسواقها ،
الى الانخراط في عملية حركة التحرر الوطني ضد الاستعمار ، والتي
اصبحت تعرف ايضا اتجاه التحرر الوطني - الاجتماعي ، ضد الاستعمار
والرأسمالية عموما . وتكسب المسألة القومية هنا أهمية وجدة عالميتين فائقتي

الأهمية ، بانتقالها من كونها مسألة داخلية ، في المرحلة الأولى ، الى مسألة دولية - عالمية ، في المرحلة الثانية . هذا مع التأكيد ان المسألة القومية لا تختفي كلياً على الصعيد الداخلي . اذ تبقى مسألة المساواة القومية بين مختلف القوميات في اطار البلد الرأسمالي الواحد . ويبقى كذلك الاستغلال الطبقي لعمال أبناء القومية الحاكمة نفسها واستعمالهم طعاماً لمدافع «برجوازياتهم» الاستعمارية . وهذا بدوره يخلق قاعدة واسعة للتلاحم الأممي بين شغيلة البلد الامبريالي وأقلياته القومية وأبناء الشعوب المستعمرة ، في كفاحها المشترك ضد الامبريالية - عدوهم المشترك .

كذلك يجب ان نلاحظ ان هذين الاتجاهين - نشوء الدولة القومية وتطور العلاقات بين شتى الأمم - يبرزان كتناقضين تعجز الرأسمالية عامة ، والامبريالية خاصة ، عن حله . مع انها هي ، هي ، التي أوجدتها . اذ كيف تقرب الامبريالية بين مختلف الاقوام والأمم ؟ ! بالحديد والنار والاستغلال البشع . ان البرجوازية ، التي كانت في مرحلة صعودها محررة للشعوب وتحمل لواء حركة «التحرر» و «حق تقرير المصير» و «حرية التطور» و «اتاحة الفرص للجميع» ، تصبح في شيخوختها قابعة لهذه الحريات وهذه الحقوق ومستعيدة لمئات الشعوب . وتستولي حفنة من الدول الامبريالية المتطورة والغنية على غالبية ثروات شعوب العالم . بل ان هذه الحفنة مستعدة لزج العالم في حروب وحشية منقطعة النظير ، تفوق وحشية آلاف الحروب السابقة ، وذلك في سبيل الحفاظ على أسواقها أو لكسب أسواق جديدة . ويكفي ان نشير الى الحربين العالميتين ، الأولى والثانية . ان التناقض قائم بين اتجاه التقارب بين الشعوب ، والذي يفرضه الترابط الاقتصادي - العالمي ، وبين سعي الامبريالية الدائم الى قمع الشعوب ومصادرة حرياتها ومنع استقلالها ومنح امتيازات وافضليات لشعوب على أخرى وإثارة احترابات قومية الخ . وهكذا فعملية التقارب والاطاحة بالانغزالية والحواجز القومية ، والتي هي عملية تقدمية وضرورية تاريخياً ، يواجهها في الوقت نفسه القمع والظلم والتمييز القومي ، عدا الطبقي طبعا .

والحال ؟ ! لقد وصلنا عشية الثورة الاشتراكية . فقضية الساعة ، التي لم تعد تحتل التأجيل ، هي الاطاحة بالامبريالية ، وبالرأسمالية ، التي

اصبحت عائقا امام تطور إضافي للقوى المنتجة وامام تقارب ووحدة الشعوب الحققة ، الأممية فعلا . هذا التقارب الذي مهدت له الامبريالية عن طريق طبع الاقتصاد بطابعها وعن طريق تخطيطها للحواجز القومية . لكنها غصت به ، تحشرجت به ، وعلقت الشوكة بالعرض في حلقها ، ولم يعد بإمكانها دفعه الى الأمام لكون طبيعتها طبيعة امبريالية . انها ، دون ان تدري ودون ان تقصد ، تخلق رغبا عنها أحد أهم العوامل للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . تخلق حفار قبرها . وهذه هي حالة البرجوازية منذ ولادتها : محتوم عليها ان تخلق حفار قبرها ! تخلق الطبقة العاملة ، فتدفنها هذه . تطلق «قمقم» القوى المنتجة وتفوض في أزماتها الدورية وتعجز عن التطوير المطرد له ، فيدفنها هو الآخر . تقضي على العزلة الاقتصادية وتطبع كل الانتاج بالطابع الجماعي لكنها تبقى على ملكيتها الفردية لوسائل الانتاج ، فيدفنها هذا التناقض بدوره . تطبع العالم بالصبغة «الأممية» وتعجز في وسط الطريق فتتير القوى المختلفة والشعوب المختلفة لدفنها . والحال انها اعجز ، بسبب طبيعتها ، بسبب كونها برجوازية ، ان تحل المسألة القومية حلا جذريا عادلا ، رغم انها تضع اتجاهين تقديمين على طريق الحل الجذري . في كشف لينين لهذين الاتجاهين للرأسمالية ، في المسألة القومية ، أكد دوماً على مقدرة الاشتراكية وحدها على الجمع الصحيح بينها لأنها متحررة من التناقض بين تقديمية عملية توحيد الشعوب وبين الأساليب الرجعية الامبريالية لتحقيق هذا التوحيد ، ولهذا وحدها الاشتراكية تقدر على تحقيق الحل الجذري للمسألة القومية ، بإزالتها القاعدة الاقتصادية للظلم القومي وبتوحيدها للشعوب بأساليب ديمقراطية وبشكل طوعي .

ولكن الى جانب هذا طالب لينين بأن يأخذ «برنامج الماركسيين في المسألة القومية هذين الاتجاهين بعين الاعتبار ، اذ يدافع ، أولاً ، عن المساواة بين القوميات واللغات في الحقوق ، وعن استحالة القبول بأية امتيازات بهذا الصدد (وعن حق الأمم في تقرير مصيرها ...) واذا يدافع ، ثانياً ، عن مبدأ الأممية والنضال العنيد الحازم ضد تسميم البروليتاريا بسم التعصب القومي البرجوازي ، مهما رق ونعم»^(٩) .

وهكذا من المهم التأكيد ان الماركسية - اللينينية ، عندما وضعت الحل للمسألة القومية ، أكدت دوماً - وهذه مهمة كل حزب شيوعي

اليوم - على ضرورة تحديد اتجاهي الرأسمالية في المسألة القومية .
وكان ، ولا يزال ، برنامج الشيوعيين في مرحلة الاتجاه الاول : شعار
حق تقرير المصير . أما البرنامج والِشعار ، في مرحلة الاتجاه الثاني ، فهو :
الأممية البروليتارية . وهذا ما أكده لينين ، في الاستشهاد اعلاه .
وأخيرا نلاحظ ايضا ان هذين الاتجاهين - ازدهار الحياة القومية
وتوحيد الأمم - لم يعودا يميزان الرأسمالية فقط . انها اتجاهان للاشتراكية
ايضا . ففي الاتحاد السوفييتي ، مثلا ، تحقق هذان الاتجاهان بفضل الثورة
الاشتراكية . اذ ازدهرت الحياة القومية حتى لبعض الشعوب التي كانت
تعيش في ظل نظام اقطاعي أو قبائلي . وجنبا الى جنب ، مع هذا جرى
توحيد الأمم والأقوام على أسس اشتراكية ، أي بعكس التوحيد القسري
للرأسمالية .

الأممية البروليتارية والتعصب القومي سياستان متناقضتان في المسألة القومية

* الخلفية الطبقية .

* البرجوازية والمسألة القومية .

* البروليتاريا والمسألة القومية .

□ مصلحة الكفاح الطبقي .

□ التوجه العيني الملموس .

□ التعاون مع البرجوازية ؟ !

□ شوفينية الأمم الظالمة ،

وقومية الأمم المظلومة .

□ أحادية «ثنائية» التربية الأممية .

□ الارهاب القومي «المتبادل» .

□ وحدها الاشتراكية تحل المسألة القومية ، ولكن ...

الخلفية الطبقية

يكتب ماركس وانجلز في «بيان الحزب الشيوعي» : «ان تاريخ كل مجتمع [عدا مراحلہ المشاعية البدائية] الى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ النضال بين الطبقات . فالحر والعبد ، والنبيل والعامي ، والسيد الاقطاعي والفن ، والمعلم والصانع ، أي باختصار المضطهدون والمضطهدون ، كانوا في تعارض دائم ، وكانت بينهم حرب مستمرة تارة ظاهرة وتارة مستترة

«أما المجتمع البرجوازي الحديث الذي نشأ على انقاض المجتمع الاقطاعي ، فانه لم يقض على هذا التناحر بين الطبقات ، بل اقام طبقات جديدة بدلا من القديمة ، وأوجد ظروفًا جديدة للاضطهاد وأشكالا جديدة للنضال .

«إلا ان الذي يُمَيِّزُ عصرنا الحاضر ، عصر البرجوازية ، هو انه جعلَ التناحر الطبقي أكثر بساطة : فان المجتمع أخذ في الانقسام أكثر فأكثر ، الى معسكرين فسيحين متعارضين ، الى طبقتين كبيرتين ، العداء بينهما مباشر - هما البرجوازية والبروليتاريا»^(١٠) .

بناء عليه لا يمكن فهم تحليل أية قضية اجتماعية - سياسية بمعزل عن الطبقات وصراعاها . هذا الصراع الذي ينعكس في آراء ومواقف الناس ، في نظريات وبرامج الاحزاب المختلفة - هيئات الازكان المختلفة للطبقات المختلفة . وتبقى المواقف والآراء - وكل البناء الفوقي - انعكاساً للقاعدة المادية - الاقتصادية ، للبناء التحتي ، الذي نشأ عليها . لأنه في نهاية المطاف فان الوجود الاجتماعي للناس هو الذي يحدد وعيهم ، وليس العكس . ولا نقصد بهذا أبداً التقليل من أهمية الوعي الاجتماعي أو انكار العلاقة

الدليلكتيكية بين الوجود والوعي . انما نقصد إبراز الحقيقة الموضوعية : ارتباط المواقف الفكرية والسياسة المختلفة بالخلفية الطبقية ، وبالمصالح الطبقية .

لا يمكن ، مثلاً ، ان نفصل بين شكل نظام أية دولة وسياستها والاخلاق والمفاهيم الرسمية السائدة فيها الخ ، وبين القاعدة المادية - الاقتصادية لهذه الدولة . أية طبقة في الحكم ؟ من هي الطبقة السائدة اقتصادياً ؟ !

كذلك الأمر بالنسبة للمسألة القومية . بل كم بالحري المسألة القومية ! وتبقى محاولة البعض تصوير المسألة القومية كمسألة منعزلة وخاصة وقائمة بحد ذاتها ولا يربطها أي ارتباط بالقضية الطبقية ، اغبي واسدج من محاولة القول ان الارض تدور لأن غاليليو أراد ذلك . أما الارض فتأبته وقائمة بحد ذاتها وما الدوران إلا اقحام من غاليليو عليها . لن تظهر مثل هذه الفكرة ، في عصرنا الراهن ، الا في مستشفى للمجاذيب . فماذا نقول عن حركات سياسية تدعي ان الشيوعيين يقحمون الطبقة اقحاماً قسرياً في المسألة القومية ؟ !

سنعود لطرح هذا الموضوع ، لاحقاً . أما الآن فنقول كما لا يمكن فصل الشهيق عن الزفير ، كذلك لا يمكن فصل المسألة القومية عن الطبقات وصراعها . و «لقد كان الناس وسيظلون أبداً ، في حقل السياسة ، ضحايا ساذجة يخدعهم الآخرون ويخدعون أنفسهم - كما يقول لينين - ما لم يتعلموا استشفاف مصالح هذه الطبقات أو تلك وراء التعابير والبيانات والوعود الاخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية»^(١١) . فكم بالحري وراء هذا الموقف أو ذاك من المسألة القومية وطرق حلها ؟ !

بل يمكن فصل الكفاح من أجل حق تقرير المصير وإقامة الدولة الوطنية المستقلة عن نمو البرجوازية الصاعدة ؟ ! هل يمكن فصل الاستعمار وخنقه لاطنان وحريات الشعوب عن الامبريالية ، عن وصول الرأسمالية لأعلى مراحل تطورها ؟ ! هل يمكن ان نفصل مواقف الدول الاشتراكية والدول الامبريالية - الرأسمالية ، المختلفة والمتناقضة ، من شتى قضايا المسألة القومية ، عن الطبقات الحاكمة في هذه الدول ؟ ! هل يمكن فصل التنكر لحق تقرير المصير أو العنصرية عن البؤرة الطبقية التي غا فيها هذا

التنكر وهذه العنصرية ؟ ! هل يمكن أن نفصل كل مراحل المسألة القومية ، التي سبق وشرحنها ، بل وحتى تكون «القبيلة» و «القومية» و «الأمة» عن الاوضاع الطبقيّة السائدة ؟ عن الخلفيّة الطبقيّة التي نمت في ظلها ؟ ! ومليون سؤال آخر لن نكلف أنفسنا حتى عبء طرحه ولا عبء الإجابة ، حتى على ما قد طرحناه من أسئلة ، لأن القضية أوضح من صوت الرعد ولمعان البرق لكل من في رأسه أذنان تسمع وعينان ترى ، ولا يصمها أو يعميها فقد طبقي دفين ، يطيب له أن يتشدق بالقومجيات ، في محاولة بانسة منه لاختفاء موقفه الطبقي الرجعي من المسألة القومية . ان «مالطا بوك» تثبت غباء قائلها لا عدم وجودها الموضوعي !

أما نحن فنقول كما ان المجتمع البرجوازي افرز طبقتين متعارضتين هما البرجوازية والبروليتاريا ، كذلك أفرز ايدولوجيتين متعارضتين ، هما الايدولوجية البرجوازية والايدولوجية الاشتراكية - البروليتارية . وهكذا الأمر في المسألة القومية ايضا .

يكتب لينين : «ان التعصب القومي البرجوازي والأُمّية البروليتارية شعاران متناقضان تماما ، لا يمكن التوفيق بينهما أبداً ، شعاران يمثلان المعسكرين الكبيرين الطبقيين في العالم الرأسمالي بأسره ويعبران عن سياستين (بل عن مفهومين عن العالم) في المسألة القومية»^(١٢) .

البرجوازية والمسألة القومية

لاحظنا سابقاً ، ان الرأسمالية في تطورها تغطي مرحلتين من مراحل المسألة القومية ، وفقاً لكونها برجوازية صاعدة في مرحلة نشوء وترعرع الرأسمالية أو برجوازية مرحلة الامبريالية . فهي التي تقود الاتجاه التقدمي للاطاحة بالاقطاع ولإقامة الدولة القومية البرجوازية ، وهي ايضا التي تنقل المسألة القومية الى الصعيد الدولي ، بواسطة الاستعمار واستغلال اوطان وثروات وابناء الشعوب المختلفة .

فالبرجوازية ، عملياً ، ليس فقط لا تحل المسألة القومية وإنما توجدها ، تخلقها ، وتجعلها أكثر حدة وتفاقماً . إنها تستغل أبناء قوميتها ، وكذلك كل الاقليات القومية التي تعيش في كنف دولتها ، وتميز ضدها . وتدوس في المرحلة الثانية على حق الشعوب في التحرر وتستعبد قارات العالم وتقسم دوله فيما بينها .

أما شعارات «المساواة» و «الاخوة» و «الحرية» ، والتي تتشدد بها في مرحلة صعودها ، فسرعان ما تتكشف عن افطع ممارسات التمييز والعنصرية وخنق الحريات . أما «توحيدها» للقوميات على الصعيد الدولي فلا يتم بالطرق الطبيعية والموافقة الطوعية وإنما بقوة الرأسمال والحديد والنار . ولا تعرف «أخوة» أو «مساواة» إلا «أخوة ومساواة» الفارس مع الفرس . المحتل مع المحتلة ارضه . القاتل مع المقتول . المستغل مع المستغل ! لذلك تبقى شعاراتها عن «المساواة» وسيلة خداع ولصوصية . شعارات شكلية ومجردة ، تخفي تنافس البرجوازيين على «المساواة» في بلع ثروات اوطان بأكملها ، ونهب وإهانة شعوب بأكملها . وهي في سبيل هذا لا تتورع عن شن مئات الحروب وتعبيد شارع التقدم البشري بملايين الجثث والضحايا . ولا تتورع حتى عن إبادة قومية أو شعب ما ، جسدياً ، ومصر الهندود الحمر في الولايات المتحدة الامريكية لم يكن مصيراً فريداً .

ويدعى أيديولوجيو البرجوازية ان القضية الأساسية في حياة أي شعب هي «القومي» وليس «الطبقي» . وبناء عليه فالنفسية القومية لهذا الشعب أو ذاك هي القضية المركزية . والقوميات كانت منذ القدم وستبقى الى الأبد . وتقوم العلاقات بين الشعوب على أساس مميزاتها البيولوجية - العنصرية ، القومية ، وستبقى «المسألة القومية» الى الأبد ، اذ لا يمكن ان تزول لا القوميات ولا طبعا الفوارق بينها . وستبقى الاحترابات بين القوميات نتيجة لتضارب مصالحها .

وبناء عليه تغذي البرجوازية مشاعر التعصب القومي والعنصرية والشوفينية تجاه الاقليات القومية التي تعيش في كنفها وتجاه سائر القوميات الاجنبية . وتضع هذا التعصب في قالب «علمي» اذ انها تعتبر «القومية» أو «الأمة» ظاهرة بيولوجية تتسم بوحدة العنصر والدم والدين . وتبني ، اعتماداً على هذا الأساس ، نظريات في قمة الخناسة تتحدث عن شعوب

راقية بطبيعتها وأخرى متخلقة بطبيعتها . وكلما سمرت البرجوازية بحاجتها الى قمع الاقليات القومية أكثر وكلما سمرت بحاجتها الى اجتياح اوطان واسواق جديدة ، كلما غدت من هذا التوجه العنصري السوفيني . فالشوفينية تناسب طردياً مع ازدياد الجشع البرجوازي . ويصبح الاستعمار رسالة «حضرية» لأمريكا وأوروبا «المتحضرين» مقابل آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية «المتوحشة» . ووصلت هذه الايديولوجية الى قمة نتائجها في الافراز ، أو البراز ، الطبيعي للبرجوازية ، الا وهي الفاشية . لذلك ليس هنالك مثل البرجوازية خيانة لشعارات الأمس ، وخصوصاً في المسألة القومية . وتكفينا نظرة سريعة الى ما آلت اليه الحركة القومية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية وغالبية دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، حتى نتأكد من هذا . لقد كتب لينين ، منذ سنة ١٩١٦ ، يقول : «الحركة القومية في البلدان الغربية ماضٍ بعيد . ان «الوطن» في انجلترا وفرنسا وألمانيا والخب ، قد غنى أغنيته ولعب دوره التاريخي ، أي ان الحركة القومية لا تستطيع هنا ان تعطي أي شيء تقدمي يستنهض الى الحياة الاقتصادية والسياسية الجديدة جماهير جديدة من الناس ، فهنا يرد في جدول اعمال التاريخ ، لا الانتقال من الاقطاعية أو من الوحشية البطركية الى التقدم القومي ، الى الوطن المثقف والحر سياسياً ، بل الانتقال من «الوطن» الذي ولى زمنه والذي افرط في النضج على الصعيد الرأسمالي ، الى الاشتراكية»^(١٣) .

فالحركة القومية هنا قد انتهت وتحولت الى نقيضها . والأمم التي نادى بالحرية أصبحت هي نفسها أمماً ظالمة . أمماً شعاراتها القومية ، والتي كانت ترددها ، فلقد أصبحت تعصباً قومياً مقبلاً وعنصرية سافرة يقصد منها تيليد عقول العمال وتفريق صفوفهم ، حتى يسهل سيقاهم بعضا البرجوازية . وستان ما بين عنصرية وشوفينية اليوم وما بين إثارة مشاعر الكرامة القومية ، في الأمس ، رغم التشدد بالقومجيات . فالفكر القومجي البرجوازي في هذه المرحلة ، أو ما يسمى بالنزعة القومية البرجوازية ، يخفي عملياً علاقات الاستغلال والتمييز والاضطهاد القوميين واللامساواة في شتى مجالات الحياة - الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . انه يخفي محاولة تخليد الفوارق بين الأمم وزرع التناحر وعدم الثقة بين مختلف الشعوب . وكذلك استغلال ونهب

واضطهاد امم لأخرى . وشرعية سيادة أمم وخضوع أمم أخرى الخ .
هذا ما يميز ، عمليا ، شكل العلاقات القومية في ظل الرأسمالية . هذه هي
السمات الأساسية للنزعة القومية البرجوازية .

صحيح ان بعض الأنظمة البرجوازية، ذات التوجه الليبرالي ،
سمحت ببعض الإصلاحات والحريات القومية . وخفضت من حدة التمييز
والاحتكاكات ، لكنها تبقى حريات ناقصة . ويبقى الأساس عجز
البرجوازية الفاضح عن تطبيق المساواة القومية الحققة . لذا ليس صدفة ان
انهارت كل مجتمعاتها الدولية التي تميّزت بتعدد القوميات . وتكفينا الإشارة
الى انهيار النظام الاستعماري العالمي وإلى انهيار الامبراطورية النمساوية
المجرية وإلى انهيار الكومنولث (رابطة الشعوب البريطانية) . وواقع ايرلندا
اليوم والنزاعات القومية والكفاحات ضد التمييز في كل من الولايات المتحدة
الامريكية وبريطانيا واسبانيا وكندا وبلجيكا واسرائيل ، الخ ، تبقى
أكبر من امكانية انكارها ! فالعنصرية بنت شرعية للرأسمالية ، مهما
تمسحت البرجوازية بروتوش الليبرالية .

ماذا نعني بالعنصرية ؟ !

نعني تلك الايديولوجيا والممارسة الاجتماعية التي تدّعي وجود تفاوت
بدني وسيكولوجي - نفسي - بين مختلف الاجناس البشرية يؤدي الى وجود
اجناس «راقية» وأخرى «متخلفة» ، بطبيعتها ، مما يحتم سيادة الأولى
وخضوع الثانية . والعنصرية بهذا تكون غطاء فكريا ، شرعيا ، للتمييز
والاضطهاد القوميين ولاحتلال اوطان الشعوب . ولا يتورع العنصريون حتى
عن ابراز الفوارق البيولوجية - اللون أو بناء الجسم أو شكل الشعر والأنف
والعينين والشفنتين - كجوهر للانسان يميّزه عن أخيه الانسان الآخر . ويصل
بعض العنصريين الى حد المناادة بتطبيق الداروينية - نسبة الى داروين -
على المجتمع البشري ، وكذلك الى المالتوسية - نسبة الى مالتوس - داعين ،
الى بقاء «الجنس الافضل والاقوى» ، الجنس «المختار» . ومعروفة ، مثلا ،
على نطاق واسع مواقف «الفاشية» و «الابرتهايد» و «الصهيونية» من
المسألة القومية . وغني عن البيان ان الفاشية والصهيونية والابرتهايد بنات
شرعيات للبرجوازية !

وما هي الاخلاق القومية التي تميز البرجوازية ؟ انها اخلاق عبادة المال وتقدير الانسان حسب دخله وشرعية الاستغلال وتقديس القوة والعنف . انها اخلاق تسميم شعب بأكمله في الصين ، في مرحلة استعمار هذا البلد ، بهدف الربح - عن طريق الافيون . انها اخلاق إجازة سلب حرية شعب وإبادة شعب . اخلاق تبرير العنصرية والتمييز القومي واحتلال اوطان الشعوب .

وأمام هذا الإله الوحيد المعبود لدى البرجوازية - المال - تستعد البرجوازية ليس فقط لمص دماء أبناء قوميتها ، أبناء جلدتها ، وإنما أيضاً للتفريط بالوطن وباستقلاله وبالثقافة القومية - الوطنية ، على مذبح مصلحتها الطبقية ، على مذبح عقد الصفقات الامبريالية - الرجعية . وكم من برجوازية قومية تزعمت نضال شعبها لطرد المستعمر من الباب ، ثم فرشت الورود لاستقبال عودته من الشباك !

البروليتاريا والمسألة القومية

أولاً وقبل كل شيء ترفض الماركسية - اللينينية تقسيم الناس على أساس قومياتهم أو عناصرهم أو أممهم . فالتقسيم العلمي الوحيد والصحيح هو تقسيم البشرية على أساس طبقي . وتؤكد أيضاً ، كما بينا هذا من خلال التعريفات في مستهل هذا البحث ، ان «القومية» أو «الأمة» ليست ظاهرة بيولوجية وإنما ظاهرة تاريخية - اجتماعية برزت في فترة تاريخية معينة على أساس الخلفية الاقتصادية للمجتمع ، وستزول بزوال مسببات ظهورها وبقائها . فالقومية ليست ظاهرة أزلية ولا أبدية .

أما بخصوص تقسيم البشرية على أسس عنصرية فتؤكد الماركسية ان العنصر قضية بيولوجية تعود أسبابها الى الظروف الطبيعية والمناخية والاجتماعية التي يعيش في ظلها الانسان . وجوهر الانسان لا يكمن في كونه ينتمي الى عنصر معين ، أو قومية معينة ، وإنما يكمن في كونه كائناً

اجتماعيا ، بغض النظر عن قوميته . ولا توجد عناصر او قوميات راقية بطبيعتها ، أو العكس . وإنما الصفات التي توحد الانسان بكونه انسانا أعم وأكبر وأشمل من أي فارق بيولوجي في اللون والشكل . وأثبتت العلوم الحديثة بطلان كل النفايات والخزعبلات القديمة عن وجود فروق في خلايا ودماغ أو دم ، العناصر المختلفة ، تؤدي الى رقيها أو تخلفها .

فالماركسية - اللينينية ترفض العنصرية قلبا وقالبا . بل وترفض حتى الادعاء بوجود عناصر أو قوميات طاهرة ، صافية ، من أرومة واحدة ، من عرق واحد «طاهر» . فالبشرية ما هي إلا خليط وامتزاج بين شتى الاجناس . والجنس الالمانى «الراقى» الذي تغنى به هتلر ، ما هو الا خليط متنوع من اتحاد شتى القبائل والعناصر المختلفة عن بعضها البعض . وما من أمة إلا ووحدت في داخلها أبناء قبائل وأجناس مختلفة . فالأمة الايطالية تشكلت ، مثلا ، من رومان والمان ويونانيين وعرب . أما الفرنسية فتشكلت من الغالين والبريطانيين والالمان . ويعود العرب واليهود الى أصل واحد هو العنصر السامى . ولا حاجة للتذكير من أي خليط عجيب تشكلت الأمة الأمريكية . واجمالا ، كما كنا قد أشرنا سابقا ، لا تجوز ، إطلاقا ، مماثلة الأمة بالعنصر . فأبناء العنصر الواحد قد ينتمون الى قوميات وأمم مختلفة . والعكس صحيح ، أي ان الأمة الواحدة قد تتشكل من عناصر مختلفة . وإذا جرى حديث ما عن أمة راقية وأمم متخلفة ، بمعنى مثلا مساهمتها الحالية ، أو الماضية ، في صرح العلوم والحضارة الانسانية ، علينا البحث ليس في سمات عنصر أو عناصر هذه الأمة وإنما في الظروف التاريخية ، الاقتصادية - الاجتماعية - السياسية ، التي أدت الى هذا الأمر . فاوروبا التي افرزت اطنانا من اوساخ الايديولوجيات العنصرية عن الأمم «الراقية» والأمم «المتخلفة» ، «المتوحشة» بطبعها ، كانت تعيش في الوحل عندما كانت شعوب الشرق ، بمن فيهم العرب ، تدرس وتدرس الفلك والرياضيات والكيمياء والفلسفة وتصنع ادبا راقيا وتبنى حضارة معمارية تثير الدهشة في عظمتها ، حتى في العصر الحالي . ولا يمكن ان نفصل اليوم ، ما قد يظهر من تخلف لدى بعض هذه الشعوب ، عن مسؤولية ودور الاستعمار الاوروبي - التركي والبريطاني والفرنسي والالمانى والامريكى والايطالى والهولندي الخ ، في فرضه والسعي الدؤوب لابقائه . ولم نجد من مهمة «حضارية» لهذا

الاستعمار الا العمل ، بالحديد والنار وبالاغراء المالي ، على تكريس هذا التخلف . وأوضاع الأنظمة العربية الرجعية ودول الأنظمة الرجعية ، في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، المرتبطة بالاستعمار ، خير دليل على هذا . فالاستعمار يفرض ويصون التخلف والجهل ولا يتحالف الا مع المتخلفين والجهلة من اعوانه .

أضف الى هذا ان قضية الحضارة والرقى تحوي أكثر من جانب . فآية حضارة وأي رقى هذا الذي أنبت الفاشية والعنصرية ؟ ! آية حضارة وأي رقى هذا الذي استعمل ، وهدد بالاستعمال ثانية ، القبيلة الذرية ؟ ! آية حضارة وأي رقى هذا المبني على مص عرق ودماء وأوطان شعوب ، وابادة أخرى ؟ !

ان الماركسية - اللينينية ، في موقفها من المسألة القومية ، ترفض كل عنصرية ، كل شوفينية وكل تعصب قومي من أي نوع كان . وترفع بالمقابل شعار الوحدة الأممية للشعوب جمعاء ، دون فرق في اللون أو الجنس ، في الدين أو القومية ، في الأصل أو المنشأ الجغرافي الخ . وتدعو الثوريين والتقدميين في كل مكان الى دعم نضال أبناء كل قومية مهانة ، أو دين مهان ، أو عنصر مهان ، في سبيل المساواة التامة ، ولا أقل من المساواة ! يقول لينين : «ليس بماركسي ، ولا حتى ديمقراطي مَنْ لا يُقرّ بالمساواة في الحقوق بين القوميات واللغات ولا يدافع عنها ، وَمَنْ لا يناضل ضد كل إضطهاد قومي وضد كل عدم مساواة قومية»^(١٤) .

واذ تطرح الماركسية - اللينينية شعار «الأممية البروليتارية» مقابل التعصب البرجوازي ، فانها تقصد ضرورة الوحدة البروليتارية لأبناء مختلف الأمم في النضال المشترك ضد العدو المشترك : البرجوازية . انها تقصد تخليص أبناء كل الأمم من ظلمهم الطبقي والقومي وبناء الوحدة النضالية للأسرة الانسانية العالمية ، في الكفاح من أجل التقدم الاجتماعي ، من أجل الشيوعية .

وهذا الموقف الأممي لا يربطه أي رابط «بالكوسموبوليتية» أو «بالنهلستية» كما يحاول أعداء الماركسية ، أحياناً ، تصوير الأمر ، فالكوسموبوليتية - من كوسموس ، الفضاء ، الكون ، العالم - ضرب ايدولوجي رجعي ينادي باللامبالاة تجاه الوطن القومي والثقافة والتراث

القوميين . وقد نادى بعض الامبرياليين بهذه الفكرة بل ودعوا الى إقامة «حكومة عالمية» ، بهدف تخليد - يطرثهم على العالم وقتل حركة المقاومة القومية العادلة ضد الاستعمار ومن أجل حق تقرير المصير . أما «النهلستية» فيقصد بها نفي كل شيء ، وعدم الايمان بأي شيء ورفض كل قديم . انها تعني العدمية القومية . في أسوأ صورها .

ان الماركسية - اللينينية اذ تتبنى الموقف الأممي في المسألة القومية ليس فقط لا تنحاز باتجاه «الكوسموبوليتية» أو «النهلستية» ، وانما تشنها حرباً لا هوادة فيها ضد هذين التيارين الرجعيين . فالأهمية تعني ، فيما تعنيه ، ايضاً الاعتزاز بالوطن القومي وبالمشاعر الوطنية القومية التقدمية ، مهما كانت قديمة . فليس أمي ذلك الذي لا يعتز بوطنه وبقوميته ويبدل في سبيلهما كل غالٍ ونفيس . ان اعتزازه الصادق هذا هو المدخل لاعتزازه واحترامه لاطوان وقوميات كل الشعوب . هو المدخل لدعوته لوحدة قوميات واطوان الشعوب .

وبناء على ما سبق يتضح برنامج الشيوعيين في المسألة القومية . انه رفض كل مظاهر التعصب والشفونية وعدم المساواة ، انه الدعوة لحق الأمم في تقرير مصيرها وبناء دولها المستقلة ، انه الدعوة لبناء الوحدة الأمية لعمال العالم وهدف الوصول الى الوحدة والاندماج لمختلف الشعوب .

كتب لينين يقول : «ان المساواة التامة في الحقوق بين الأمم ، وحق الأمم في تقرير مصيرها ، واتحاد جميع عمال العالم : ان جميع هذه الأشياء هي البرنامج القومي الذي تلقنه الماركسية للعمال»^(٢٥) .
أما فيما يلي فسنعالج جوانب مختلفة ، اضافية ، لموقف البروليتاريا من المسألة القومية .

مصلحة الكفاح الطبقي

ما هو منطلق نظرتنا الى المسألة القومية ؟ ! لقد أشرنا الى هذا الأمر سابقاً ، أما الآن فنؤكد به بتفصيل خاص : ان الماركسيين - اللينينيين

ينظرون الى المسألة القومية ، وكذلك الى اية قضية سياسية - اجتماعية أخرى ، من وجهة النظر الطبقية ، من منطلق مصلحة كفاح الطبقة العاملة ومصلحة النضال ضد الاستعمار ومن أجل الديمقراطية والتحرر والتقدم الاجتماعي .

فكما لا يمكن فصل أية قضية سياسية - اجتماعية ، عن الخلفية الطبقية التي نشأت في ظلها ، عن القاعدة المادية الاقتصادية التي نمت عليها ، كذلك لا يمكن فصل المسألة القومية عن الطبقات ومصالحها وصراعها في المجتمع . ولقد لاحظنا ، سابقاً ، انه هذا هو ايضاً - أي خلفية المصلحة الطبقية - منطلق نظرة البرجوازية للمسألة القومية ، مع انها تحاول اخفاء هذا مصورة نفسها ممثلة لمصالح الأمة ككل ، بينما هي تمثل مصلحة الاقلية المستغلة لهذه الأمة .

يقول لينين : «القوميون البرجوازيون يقولون المهمات القومية أولاً ثم البروليتارية . أما نحن فاننا نقول : المهمات البروليتارية أولاً ، لأنها لا تؤمن مصالح العمل الدائمة الحوية وحسب ، ولا تضمن مصالح الانسانية وحسب ، بل تؤمن ايضاً مصالح الديمقراطية»^(١٦) .

فاتخاذ وجهة نظر البروليتاريا من المسألة ومصحتها ، لا يعني بأية جال من الاحوال الدوس على المصلحة القومية . بل على العكس فهذا المنطلق هو الذي يضمن كل المصالح الديمقراطية العامة ، وعلى رأسها المصلحة القومية ، وكذلك المصالح الاجتماعية . اذ لا يجوز عدم اخضاع المصلحة القومية الخاصة الى المصلحة الطبقية العامة . وذلك لأن تغليب المصالح القومية الضيقة يؤدي في نهاية المطاف الى الاطاحة بهذه المصالح القومية نفسها والى ضمان المصلحة الطبقية للبرجوازية ، مصلحة النعصب القومي والاستغلال الطبقي لأبناء قوميتها ، والطبقي - القومي ، لأبناء القوميات الأخرى . فوجهة المصلحة الطبقية لا تتنافى مع المصلحة القومية وإنما تضمنها فعلاً . [أنظر الموضوع الثاني من هذا الكتاب] .

لذلك أكد ماركس في رسالته الى انجلس ، بتاريخ (٤) تشرين الثاني ١٨٦٤ ان «مسألة القوميات» تحتل أهمية ثانوية بالنسبة الى «المسألة العمالية» . وكتب لينين ، فيما بعد ، انه باسم المصلحة القومية و «الثقافة - القومية» يرتكب «برجوازيو جميع القوميات مأثمهم الرجعية القذرة»

واضاف : «هكذا يبدو الواقع في الحياة القومية الراهنة ، اذا نظرنا اليها نظرة ماركسية ، أي من وجهة نظر النضال الطبقي ، واذا قارنا بين الشعارات وبين مصالح الطبقات وسياستها ، لا بينها وبين «المبادئ العامة» التي لا معنى لها ، والجمل الطنانة والتصريحات الجوفاء»^(١٧) . وكتب ايضا : «من المهم إخضاع مصالح الديمقراطية في بلد واحد لمصالح الديمقراطية في عدة بلدان وفي جميع البلدان»^(١٨) .

لنضرب مثلين ، من واقع القرن العشرين ، يوضحان ويشتان ما ذهبنا اليه أعلاه : قبيل انتصار ثورة اكتوبر ، وفي أثناء الحكم القيصري ، وقفت البرجوازية الروسية الكبيرة ، ومعها كل الدول الامبريالية والرأسمالية على الصعيد الدولي ، ضد حق تقرير المصير لعشرات القوميات التي كانت تعاني الأثرين ، تحت نير الحكم الاستبدادي القيصري . ولكن حال انتصار ثورة اكتوبر وضمان حق تقرير المصير ، فيها بعد ، لمختلف هذه القوميات في اطار الدولة الاشتراكية الواحدة ، وقف المعسكر العالمي للبرجوازية ، بما فيها البرجوازية القومية المحلية ، الى جانب «حق تقرير المصير» والذي قصدوا به انفصال الجمهوريات والمقاطعات الاقليمية عن الدولة الاشتراكية الأم ، ويهدف خنق الثورة الاشتراكية .

أما المثال الثاني فهو من أثيوبيا . لقد دعمت الامبريالية العالمية ، والرجعية العربية وكذلك اسرائيل ، نظام الامبراطور هيلاسيلاسي . ومدته بالدعم اللامحدود لتنفيذ سياسة القمع الوحشية تجاه الشعب في اريتريا ، والذي كان يكافح من أجل الحرية والانفصال عن أثيوبيا . ولم يكن الشعب في اريتريا يلاقي الدعم ، في كفاحه العادل هذا . إلا من جانب الدول الاشتراكية والحركة الشيوعية العالمية والأنظمة والقوى الديمقراطية ، بما فيها القوى الديمقراطية الاثيوبية . ولكن حال الاطاحة بنظام هيلاسيلاسي وإقامة نظام تقدمي ، مكانه ، ضمن الحقوق الكاملة للشعب في اريتريا ايضا ، وتبنى الماركسية - اللينينية لحل مجمل المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، حتى انقلب كل اصطفاف القوى على الساحة السياسية من وجهة نظرتها للمسألة الاريترية . فالدول الامبريالية والرأسمالية - بما فيها اسرائيل - وكذلك الدول الرجعية العربية ، من المملكة السعودية حتى

الامارات والمشيخات ، تدعم اليوم القوى الرجعية في اريتريا من اجل الانفصال . هذه القوى التي كانت ، حتى الأمس القريب ، تحبذ الاندماج في امبراطورية هيلاسيلاسي . بينما تغير موقف الشيوعيين والتقدميين - بما فيهم الاريتريون - جذريا . أي انهم اليوم يناضلون سوية من أجل اثيوبيا موحدة ، ديمقراطية اشتراكية .

فالنظر الى المسألة القومية من وجهة المصلحة الطبقية ، ليست «بدعة» شيوعية . وإنما هكذا هو موقف البرجوازية ايضا ، وان كانت تدعي عكس ذلك . ان من يناضل اليوم من أجل انفصال اوكرانيا ، مثلاً ، عن اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، أو من أجل انفصال اريتريا عن اثيوبيا ، لا يقصد ضمان المصلحة القومية للاوكرانيين أو الاريتريين وإنما يقصد مصلحة الطبقة في إضعاف معسكر قوى الاشتراكية والتحرر . ويحلم بعودة مجده لاستغلال الاوكرانيين والاريتريين ، طبقيا وقوميا . اذ انه ما من مصلحة قومية ، اليوم ، لدى الاوكرانيين والاريتريين أصدق وأهم وأعلى من مصلحة استمرار تقدمهم الاجتماعي في اطار دولتيهم الموحدين* واللتين ضمنا ليس فقط الاطاحة بكل مظاهر الاضطهاد القومي والتمييز العنصري ، وإنما ايضا ، استحالة إمكانية عودة هذا الاضطهاد وهذا التمييز . اصف الى هذا، التحرر التام من الاستغلال الطبقي ايضا . وهكذا فان تأكيدنا على المصلحة الطبقية أولاً ومن ثم القومية ، لا يعني التنكر للمصلحة القومية وإنما يعني ضمان تحقيقها بالشكل الصحيح والمضمون .

لذلك - وهذا ما سنتطرق اليه بشكل تفصيلي في أثناء بحث مسألة حق تقرير المصير - فإن لينين كان يؤكد دائما انه الى جانب دعم حق تقرير المصير للاوكرانيين والبلوروسيين والاذربيجانيين الخ ، على الشيوعيين ان يدعموا ايضا تقارب مختلف هذه الشعوب وصلتها مع الشعب الروسي . اذ ان فصل المصلحة القومية لهذه الشعوب عن مصلحة البروليتاريا الروسية ، وبروليتاريا هذه الشعوب ، ما هي إلا «سياسة خرقاء» و «خيانة بحق الاشتراكية»^(١٩) . وحذر من الافتتان بضجة جمل مثل «الاستقلال الوطني» و «الاعتراف بحق تقرير المصير بلا قيد ولا شرط» ، دون الانتباه للمصلحة البرجوازية التي قد تخفي وراءها . وطالب دوما بالاحتكام لمصلحة

«النضال الطبقي للبروليتاريا». وكتب يقول : «فلمصالح هذا النضال على رجه الضبط يجب ان نخضع مطلب حق الأمم في تقرير المصير . وفي هذا الشرط على وجه الضبط ، يقوم الفرق بين طرحنا للمسألة القومية وبين طرحها البرجوازي الديمقراطي . فان الديمقراطي البرجوازي (وكذلك الانتهازي الاشتراكي المعاصر الذي يقتفي خطواته) يتصور ان الديمقراطية تزيل النضال الطبقي ، ولهذا السبب يطرح جميع مطالبه السياسية بصورة مجردة ، بدون تمييز ، «بلا قيد أو شرط» ، من وجهة نظر مصالح «الشعب كله» أو حتى من وجهة نظر المبدأ - المطلق الاخلاقي الأبدي . ولكن الاشتراكي - الديمقراطي يفضح ، في كل مكان وزمان ، هذا الوهم البرجوازي بلا رحمة ولا هوادة ، سواء انعكس في فلسفة مثالية مجردة أم في طرح مطلب الاستقلال الوطني بلا قيد ولا شرط»^(٢٠) .

ان مسألة ظهور القوميات والأمم مسألة تاريخية . والماركسي ينظر الى هذه المسألة نظرة تاريخية محددة . انه اذ يدعم الحقوق القومية العادلة لمختلف الشعوب لا يصل ، بأية حال من الاحوال ، الى شفا هاوية التعصب القومي ، بل يدعم كل ما هو تقدمي في كل حركة قومية . وان تحطى هذا الأمر الى حد «الدعم العام والشامل» وبدون بحث المسألة ، تاريخياً ، فانه يتخلى عن نظريته البروليتارية ويقع في حماة المستنقع البرجوازي .

ان مصلحة النضال الطبقي البروليتاري تتطلب دعم الحركات القومية في كفاحها ضد الاقطاع والامبريالية ومن أجل الاستقلال وضد كل مظاهر الشوفينية والتعصب القومي والتمييز . ولكن الاستمرار في هذا الدعم ، وفي كل الظروف وحتى عندما تكف النزعة القومية البرجوازية عن كونها نزعة تقدمية وعادلة تاريخياً ، يعني اختيار موقع البرجوازية ، يعني التخلي عن مصلحة البروليتاريا . وهذا يعني - في نهاية المطاف - خيانة المصلحة القومية الحقيقية وتصوير مصلحة البرجوازية وكأنها تتطابق دوماً مع مصلحة الأمة ككل . انه ، ببساطة ، وضع المصلحة القومية في براثن البرجوازية . وضع الحمل في مغارة الذئب ، وضع الأمانة في خزانة الحرامي !

التوجه العيني الملموس

بناء على ما سبق فإن نظرة الماركسي - اللينيني للمسألة القومية هي دائماً نظرة عينية تاريخية وملموسة ، تأخذ ظروف القضية بعين الاعتبار . أي أنها نظرة دائلكتيكية وليست ميكانيكية وميتافيزيائية .

يكتب لينين : «حين يعمل المرء الى تحليل قضية اجتماعية أباً كانت ، توجب عليه النظرة الماركسية اطلاقاً ان يضع تلك القضية في نطاق تاريخي معين . كما تشترط عليه ايضاً ، اذا كان الموضوع يدور حول بلد بمفرده (مثلاً حول البرنامج القومي لهذا البلد) ، ان يأخذ بعين الاعتبار الخصائص الملموسة التي تميز هذا البلد عن سواه ، في حدود حقبة تاريخية واحدة معينة»^(٢١) .

عن أية مسألة قومية يجري الحديث ؟ ! في أي بلد ؟ ما هي ظروف هذا البلد ؟ ما هي المميزات الخاصة للمسألة القومية وللبلد العيني في المرحلة العينية ؟! عن أية مرحلة من مراحل المسألة القومية نتحدث ؟! من هي القوى الطبقيّة المتصارعة على الساحة وما هي مواقفها وما هو توازن القوى بينها ؟! وما هي الظروف التاريخية الخاصة ، وأهمها الاقتصادية ، لتطور هذه الأمة أو تلك ؟! ما هي الامكانيات الواردة للحل ؟! وما هي الظروف المحلية والمنطقية والدولية السائدة ؟!

هذه الأسئلة ، وأسئلة عديدة أخرى تشبهها ، تطرح نفسها أمام أي ثوري حقيقي قبل ان يحدّد برنامج العيني من المسألة المطروحة . والا لن يكون لطرحه أي معنى . فلا يوجد في المسألة القومية طرح واحد مناسب لكل زمان ومكان ولكل ظرف اقتصادي سائد . فقد يكون طرح شعار «حق تقرير المصير» تقدماً في ظرف ما ورجعياً في ظرف آخر . وكذلك مسألة الانفصال أو الاتحاد . وكذلك قضية التعاون مع البرجوازية أو النضال ضدها بخصوص المسألة القومية . وكذلك حتى مكانة حل المسألة القومية ... الخ . في بحثه للمسألة القومية في روسيا القيصرية ، لاحظ لينين ان الوضع الخاص لروسيا يميزها بكونها «سجن الشعوب» وهي ذات قطب قومي واحد (الروس) ، يحتل اوسع أجزاء البلد ، ضد ٥٧٪ من أبناء القوميات الأخرى التي تقطن اطراف البلاد ، وان الاضطهاد القومي السائد في روسيا القيصرية

يفوق أي اضطهاد في أية دولة مجاورة ، اذ ان أبناء العديد من هذه القوميات والذين يعيشون في دول مجاورة يتمتعون بحقوق قومية افضل . ولاحظ كذلك بدء عهد الثورات البرجوازية والحركات القومية لدى هذه القوميات . وبناء على دراسته مهمات المرحلة التي كانت تجتازها الثورة الروسية الصاعدة طرح لينين شعار حق تقرير المصير كقضية أساسية مركزية . بل ورأى ، في المرحلة الأولى ، المسألة القومية جزءاً من الثورة الديمقراطية البرجوازية ضد القيصرية . وفيما بعد رأى فيها - بعد سقوط القيصرية - جزءاً من مسألة الثورة الاشتراكية . وكان يبرز ضرورة وامكانية حل هذه المسألة على طريق النضال من أجل الثورة الاشتراكية . ولكن في ظروف مستجدة ، وخصوصاً عشية الحرب العالمية وابعانها ، نرى لينين يطرح - طبعاً الى جانب استمرار اعترافه بحق تقرير المصير والانفصال - المسألة عكسياً ولخدمة الهدف نفسه . انه يبرز الآن كون الثورة الاشتراكية ، والتي اصبحت أمر تنفيذها قضية آنية ، هي الطريق لحل المسألة القومية ، بما فيها ضمان حق تقرير المصير والانفصال .

لقد أثارت مواقف لينين من المسألة القومية ، أحياناً ، نقاشاً حاداً ، حتى ، داخل حزبه والاحزاب الاشتراكية العمالية الديمقراطية الأخرى . ووقع في الخطأ حتى ماركسيون كبار مثل روزا لوكسمبرغ . ولاحظ لينين ان منتقديه والذين يظهر ، انهم يعتمدون أحياناً على ماركس (اعتماداً شكلياً) يقعون ، فيما يقعون فيه من اخطاء ، ايضاً في خطأ عدم تناول الأمور وبحثها عينياً في اطار ظروفها التاريخية . فمسألة حق تقرير المصير ، مثلاً ، من الضروري ان تكون مسألة أساسية في برنامج الحزب الاشتراكي الديمقراطي لعموم روسيا (الشيوعي فيما بعد) ، رغم انها قد لا تطرح بتاتاً في برنامج احزاب شقيقة أخرى . فالنسب في حينه ، مثلاً ، بين القوميات ، في النمسا وكذلك الحقوق التي تتمتع بها لم تجعل من مسألة حق تقرير المصير في النمسا ، مسألة فائقة الأهمية وآنية . وطرح مسألة استقلال المجريين والتشيكيين ، يومها عن النمسا ، كانت تعني - وستؤدي - الى وقوعهم تحت نير حكم اكثر نهباً وأشدّ بأساً - هو الحكم الاستبدادي الروسي . ولنتناول مثلاً اضافياً أثار النقاش في حينه ، بل ومنذ أيام ماركس . انه المسألة البولونية . ففي مرحلة معينة ، في القرن التاسع عشر ، برز على

السطح التعصب القومي للاقطاع وللبرجوازية البولونية الصاعدة ، والذي وصل الى حد الشوفينية ، رغم التحالف والتعاون ، العلني والسري مع الحكم القيصري الروسي ضد القوى الثورية والتقدمية الروسية والبولونية . ولم تكن قضية انفصال بولونيا عن الامبراطورية الروسية تثير حماسا أو اهتماما خاصا لدى الحزب الاشتراكي الديمقراطي البولوني . اذ وضع هذا الحزب ، على رأس اهتماماته ، الكفاح المشترك من اجل الاشتراكية في اطار الدولة الواحدة والموحدة . كذلك «الألمية الأولى» رفضت ان تضع في برنامجها مطلب انفصال بولونيا . لكنها رفضت ايضا اقتراح قرار نص على عدم حق الاشتراكيين الديمقراطيين البولونيين برفع هذا المطلب . واقرت «الألمية» اقتراحا اعترف بحق تقرير المصير لكنه أكد ، في الوقت نفسه ، على ضرورة الوحدة الألمانية ، للبروليتاريا الروسية والبولونية في نضالها ضد العدو المشترك .

لكن من المعروف أنه في فترة سابقة ، في اربعينات وستينات القرن الماضي ، أي في عهد الثورة البرجوازية الديمقراطية في المانيا والنمسا ، قام ماركس وانجلس بتأييد مطلب استقلال بولونيا . ان تخلي ماركس وانجلس عن هذا المطلب ، فيما بعد ، ارتبط بانتقال بولونيا من مرحلة كفاح نبلاتها الديمقراطي ضد الاتوقراطية الروسية القيصرية ، في ستينات القرن الماضي ، الى مرحلة سيطرة الرأسمالين عليها وتعاونها مع القيصرية الروسية . لذلك فان نسخ أي من هذين الموقفين ، دون اعتبار الظروف السائدة ، يتناقض مع جوهر الماركسية ويتبنى الحرفية الجامدة في فهم الأمور ، بدلا من اتخاذ الدايالكتيك الثوري كمنهاج .

ولكن هل يعني هذا انه على الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، الآن ، ان يعارض انفصال بولونيا ؟! لا بتاتا . اذ بدأت مرحلة القرن العشرين ، حيث تعيش اوربا الشرقية فترة الثورات البرجوازية الديمقراطية وتحتمد المسألة القومية أكثر من أي وقت مضى . ولم تستكمل بعد البرجوازية البولونية مهماتها الثورية الديمقراطية . لذلك يفرض الموقف الأهمي الصحيح ، اليوم ، من جانب الشعب الروسي ، تبني حق شعب بولونيا في تقرير مصيره . إذ يجب التفريق بين مرحلة كانت فيها بولونيا حصنا للكفاح الديمقراطي ضد الاستبداد القيصري، وفي مرحلة ثانية كانت

البرجوازية فيها اعجز من ضمان حرية واستقلال بولونيا ، وبرزت الى المقدمة فيها شوفينية هذه البرجوازية مقابل الحاجة الماسة لتطوير الحركة الثورية في عموم روسيا ضد القيصرية ، وفي مرحلة ثالثة اصبحت فيها قضية انفصال الشعوب عن روسيا قضية الساعة للسير قدماً بكل العملية الثورية ، بما فيها عملية تحقيق الثورة الاجتماعية في روسيا وبولونيا .

لذلك يعمّم لينين هذا الاستنتاج الايديولوجي - السياسي الصحيح : «ان عدم الاكتراث بالظروف التي تغيّرت مُذاك ، والدفاع عن الحلول القديمة التي تقدمت بها الماركسية ، انما يعنيان الأمانة لحرف المذهب لا لروحه ، انما يعنيان تكرار الاستنتاجات السابقة المحفوظة عن ظهر قلب ، دون معرفة الاستفادة من أساليب البحث الماركسي لاجل تحليل الوضع السياسي الجديد . آنذاك والآن - عهد الحركات الثورية البرجوازية الأخيرة ، وعهد الرجعية المستميتة وتوتر جميع القوى اقصى التوتر عشية الثورة البروليتارية - يختلفان بينها أشد الخلاف»^(٢٢) .

ان أحد الأمثلة الساطعة الأخرى على ضرورة طرح الشعار المناسب ، في الوقت المناسب ، وكذلك على رجعية أو تقدمية ، ثورية أو انتهازية ، الشعار نفسه في ظروف مختلفة . يقدمه لنا التراث اللينيني الغني عشية ثورة اكتوبر وبالذات بين ثورة شباط البرجوازية سنة ١٩١٧ و ثورة اكتوبر الاشتراكية ، في السنة ذاتها . وكذلك البرامج الاقتصادية التي طرحها لينين في السنوات الأولى بعد انتصار الثورة . فقبل اكتوبر غير لينين مواقفه من قضايا مثل : العمل السلمي أم العمل المسلح ؟ العمل السري أم العلني ؟ العمل في البرلمان أم لا ؟ إعطاء السلطة للسوفييتات أم لا ؟ استمرار إجازة التحالف مع فئة سياسية ما ، أم لا ؟ ! الخ . أكثر من مرة . ودائماً من منطلق مصلحة الثورة الاشتراكية .

وبعد انتصار ثورة اكتوبر ، وaban حرب التدخل الاستعمارية والحرب الأهلية من قبل الرجعية المحلية ، طرح لينين شعار «شيوعية الحرب» والتي عنت ، فيها عنته ايضاً ، مصادرة بضائع ومواد أولية وأغذية وحبوب ، بالعنف ، لا طعام الفقراء ولصالح جنود الثورة وامكانية صمودهم في الحرب . لكن بعد انتهاء الحرب طرح لينين سياسة اقتصادية جديدة - «النيب» -

والتي تستعيز عن المصادرة بالضريبة العينية ، والتي شجعت وانعشت

البرجوازية الصغيرة ، عملياً . واستدعى هذا الأمر ضرورة كسب الفلاحين الى جانب الثورة . ولكن ما ان وقفت الثورة على رجليها حتى طرح لينين مسألة التأميمات والكولخوزات والسوفخوزات . ثلاثة مواقف متناقضة فيما بينها ، وفي فترة زمنية قصيرة بين ١٩١٧ و ١٩٢١ . لكنها عملياً خدمت الهدف نفسه : ضمان استمرار انتصار الثورة الاشتراكية .

وكان لينين في برامجه الاقتصادية هذه ، عدا عن اهتمامه المركزي بضمان مستقبل الثورة ، يأخذ ايضاً جانب مصلحة حل المسألة القومية . ولم يستطع ان يتجاهل كون الفلاحين الغالبية الساحقة من سكان المقاطعات الشرقية ، وضرورة اتباع سياسة تقربهم من البروليتاريا الروسية . ان عدم الانتباه لهذه المسائل العينية كان بالامكان ان يؤدي ليس فقط الى عدم حل المسألة القومية في الجمهوريات الشرقية ، حلاً صحيحاً ، بل والى خطر انفصالها الكلي وتهديد مستقبل جمهورية روسيا الاشتراكية ايضاً .

وبعد ، ان تأكيدنا على ضرورة بحث المسألة القومية ، وكذلك أية مسألة سياسية - اجتماعية أخرى ، من جميع جوانبها وارتباطاتها وتأثيراتها وخصوصيتها وظروفها التاريخية ، يجب الا يوصلنا الى نقيض الهدف المرجو ، أي خطأ الوقوع في حماة الخصوصية الضيقة والاقليمية القصيرة وضرب «العام» عرض الحائط . فالقوانين والمنطقات العامة للمسألة القومية لا بد لها ان تظهر في «خاص» هذا البلد أو ذاك . وجعل «العام» هو «الخاص» ، عن طريق التنكر للواقع الغني لهذا الخاص ولضرورة دراسته ، قد لا يقل خطأ عن جعل «الخاص» هو «العام» ايضاً - أي اعتماد الظروف الخاصة فقط والتنكر للقوانين العامة . أو القول ان الحل «الخاص» لهذه المسألة القومية يصلح لأن يكون ، حتى بتفاصيله ، الحل «العام» لكل مسألة قومية ، في أي بلد كان أو أي ظرف كان

وهكذا ، هكذا فقط ، يجب ان نفهم تأكيد لينين على ضرورة أن يأخذ موقف الحزب الشيوعي بعين الاعتبار ، في المسألة القومية ، « ... أولاً ، الحساب الدقيق لايوضاع الزمان والمكان وفي المقدمة الوضع الاقتصادي ... »^(٢٣) .

التعاون مع البرجوازية ... ؟ !

أشرنا ، سابقاً ، الى أن الرأسمالية تعرف في تطورها اتجاهين تاريخيين في المسألة القومية . اتجاه استيقاظ الحياة القومية وبناء الدولة القومية ، واتجاه هدم الحواجز القومية ودخول الرأسمالية الى اعلى مراحل تطورها - الامبريالية . وبيننا ايضاً ان الدول القومية الناشئة كانت دائماً دولا برجوازية . [باستثناء حالات نادرة ، وبفضل وجود العالم الاشتراكي ، حيث يمكن لبعض الشعوب تخطي مرحلة الرأسمالية في تطورها] .

ان اتجاه اقامة الدول القومية البرجوازية ، وبقيادة البرجوازية ، ان كان ضد الاقطاع أو ضد الاستعمار الأجنبي ، هو اتجاه تقدمي وثوري . ولا يمكن للماركسيين - اللينينيين إلا ان يدعموه . ان دعم المواقف والاتجاهات التقدمية للبرجوازية جزء لا يتجزأ من التكتيك والاستراتيجية الشيوعية الثورية . وهكذا كان الأمر منذ نشوء الماركسية ، وليس فقط في النظرة الى المسألة القومية ، بل الى مختلف القضايا الاجتماعية - السياسية .

لقد أكد ماركس وانجلس على هذا الأمر منذ صدور «بيان الحزب الشيوعي» في سنة ١٨٤٨ . وكتبوا يقولان انه في فرنسا يتحالف الشيوعيون مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي ضد البرجوازية المحافظة والراдикаلية . بينما في سويسرا يؤيدون الراديكاليين ، رغم تكون الراديكاليين من عناصر متناقضة ، بما فيها عناصر برجوازية . أما في بولونيا فيؤيد الشيوعيون «الحزب الذي يرى في الثورة الزراعية شرط التحرر الوطني» وفي المانيا «يناضل الحزب الشيوعي بالاتفاق مع البرجوازية ما دامت تناضل هذه البرجوازية نضالاً ثورياً ضد النظام الملكي المطلق وضد الملكية الاقطاعية العقارية وضد البرجوازية الصغيرة الرجعية»^(٢٤) .

لكن الى جانب هذا التأييد ، والتعاون مع شتى العناصر البرجوازية ، أكد ماركس وانجلس على ضرورة ان يحتفظ الشيوعيون «بحق انتقاد العبارات والادغام التي خلفتها التقاليد الثورية» وان لا يتغافلوا لحظة عن «ايقاز شعور واضح وادراك صريح لدى العمال عن التناحر العنيف القائم بين البرجوازية والبروليتاريا ، لأجل أن يتمكن العمال الالمان من الاستفادة على الفور من الظروف الاجتماعية والسياسية التي ترافق

بالضرورة سيادة البرجوازية ، واستخدامها سلاحاً ضد البرجوازية بالذات ، لكي يمكن اشهار النضال على البرجوازية نفسها ، اثر اسقاط الطبقات الرجعية في المانيا»^(٢٥) .

ان الاقطاعيين وكذلك ، البرجوازيين ، في الدول المستقلة ، لا يوفرون أية وسيلة في اضهاد أبناء الاقليات القومية ، في إطار الدولة نفسها ، أو عن طريق احتلال دول ومناطق قومية أخرى . وعلى الشيوعيين كتوريين وكدمقراطيين كبار أن يقفوا ضد كل صنوف الاضطهاد القومي والتمييز العنصري ، بما فيه اضطهاد برجوازية ومتقفي وفلاحى هذه الدول والمقاطعات القومية ، من قبل البرجوازية الامبريالية . ان المهمة المطروحة على بساط البحث في مثل هذه المرحلة ليست الاطاحة بالبرجوازية وبناء الاشتراكية ، وإنما الاطاحة بسياسة الاضطهاد والتمييز القوميين وضمان حق تقرير المصير ، بمساعدة البرجوازية ، وحتى بقيادتها - كما جرى هذا عادة وغالبا .

لقد تعاون حزب لينين في روسيا القيصرية ، أولاً ، ومن ثم بعد انتصار ثورة اكتوبر ، مع شتى الفئات البرجوازية المتناقضة ضد كل صنوف الاضطهاد ، بما فيها صنوف الاضطهاد والتمييز ضد الديانات الاسلامية واليهودية والمسيحية - اللا ارثوذكسية . ونصح دائماً بضرورة دراسة مختلف التيارات السياسية القائمة - الرجعية ، والليبرالية ، والاشتراكية والديمقراطية - وتعيين الخلافات بينها والاستفادة من كل حليف ، حتى لو كان مؤقتاً ومتذبذباً ولا يُرْكَن اليه دوماً ، لتوحيد القوى ضد العدو المركزي ، بالإضافة الى ضرورة الاستفادة من كل صدع بين الاعداء . وحذر لينين من ارتكاب الاخطاء في هذا المجال ومن التطرف «اليساري» الذي قد يؤدي الى تنفير وانعزال البرجوازية الصغيرة من فلاحين وتجار ومتقفيين . ولاحظ حتى ضرورة التفرقة بين من يريد الاضطهاد القومي «بقبضة حديدية» ومن يريده «بقفاز من حرير» . مع التنبيه الدائم ، طبعاً ، الى عدم الوقوع باوهم البرجوازية والليبرالية ولَبَسَة «قفازات الحرير» .

ووصل الأمر ، بعد انتصار الثورة الاشتراكية ، الى حد طلب التعاون ، وتحقيق التعاون أحياناً ، مع حكومات برجوازية متعصبة في شتى

المناطق القومية ، لم تكن قد وصلتها بعد الثورة الاشتراكية ، وذلك ضد التدخل الامبريالي وعصابات «الحرس الابيض» . وخصوصاً وان هذا التدخل وهذه العصابات لم تجدا دوماً التأييد من البرجوازية المحلية - في بشكيريا أو جورجيا أو ازربيجان أو اوكرانيا الخ . وعندما رفضت الحكومة البرجوازية الاوكرانية طلبات التعاون المتكررة ، بقيادة رئيسها فنييتشنيكو ، طالب تروتسكي الحزب بان «يقطع عهداً بعدم توقيع الصلح مع فنييتشنيكو» . فأجابه لينين ، في المؤتمر السابع للحزب ، : «وحيث يصوغ تروتسكي مطالب جديدة أردُّ عليه بأنني ، في أي حال من الأحوال ، لن اقطع على نفسي مثل هذا التعهد لأن ذلك سيعني اننا نقيد أيدينا من جديد بقرار رسمي ، بدلاً من اتباع خطة واضحة للمناورة : التراجع حين يجوز التراجع ، والتقدم أحياناً»^(٢٦) .

وعندما اتخذ المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الاوكراني قراراً بعدم السماح لممثلي البرجوازية الصغيرة باحتلال مراكز قيادية في السوفييتات ، في آذار ١٩١٩ ، الفى الحزب الشيوعي في روسيا هذا القرار ، على اعتبار انه يتعارض مع توجه الحزب تجاه البرجوازية الصغيرة واحزابها .

ولا حاجة تدعونا الى التأكيد ان هذا هو ، ايضاً ، موقف الشيوعيين في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية من مختلف حركات التحرر الوطني التقدمية . وهكذا كان موقف الشيوعيين العرب من حركة التحرر الوطني العربية وليس في زمن عبد الناصر فقط ، بل عندما قادها أناس هم اقزام بتقدميتهم الى جانب تقدمية عبد الناصر . وهذا هو موقفنا اليوم ايضاً من الثورة الفلسطينية . ولكن هذا الموقف الصحيح لا يمنعنا - بل يلزمنا - بالتحذير ، في الوقت نفسه ، من الاوهام والمطبات التي قد تقع بها القيادة البرجوازية .

اننا لم نطالب ابداً بصبغ الحركة التحررية الوطنية للشعوب بصبغة الشيوعية حتى نزيدها . على العكس لاحظنا دوماً انه رغم اخطاء وأوهام البرجوازية ، بما فيها الصغيرة ، فانه باستطاعتها ان تقود الحركة وسيكون انتصارها ذا أهمية كبرى بالنسبة للقضية العامة : النضال ضد الامبريالية ومن أجل الاشتراكية . اذ اننا ، كما يقول لينين لا «نتصور جيشاً يقف في مكان ما ويقول «أنا مع الاشتراكية» ويقابله جيش آخر في مكان آخر

ويقول : أنا مع الامبريالية»^(٢٧) . اننا في حربنا الطبقة الثورية ضد الامبريالية ، والرأسمالية عموماً ، على استعداد لدعم كل حركة قومية ، بغض النظر عن طبقية قيادتها ، بمدى استعداد هذه الحركة للكفاح الجدي ضد الاستعمار ومن اجل التحرر . ونحن على ثقة بأن الجماهير ، من خلال مشاركتها في الكفاح ومن خلال تجربتها الذاتية ، ستتوصل الى معرفة حقيقة كون ممثلي الطبقة العاملة هم افضل وضمن القوى لتحقيق التحرر القومي الحقيقي .

كذلك الى جانب عدم صبغنا للتيارات البرجوازية القومية التحررية بصبغة الشيوعية ، والى جانب تأييدنا لها ، على محدوديتها ، نعرف ان تحالفنا معها ، أحياناً ، يحمل طابعاً مؤقتاً . وذلك بسببها هي ، بسبب حشرجتها في وسط الطريق وبسبب تخوفها من حركة صعود التحرر الوطني نحو التحرر الاجتماعي . وبسبب استعدادها ، أحياناً ، لاعادة استقبال الاستعمار من الشباك بعد ان طردته من الباب . وبسبب فتحها السجون وتعليقها اعداء المشانق ، أحياناً ، لممثلي الطبقة العاملة ، لحلفاء الأمس في الكفاح ضد الاستعمار . لذلك فان قيادة الطبقة العاملة اذ تدعم حركة التحرر الوطني البرجوازية ، يجب ان تحرص على عدم حل نفسها والامتزاج كلياً باحزاب هذه الحركة . اذ انه لا تحل كل جوانب المسألة القومية والمسائل الاجتماعية الأخرى ، حال التحرر من الاستعمار . وكذلك لا يمكن ضمان حل المسألة القومية حلاً جذرياً ونهائياً دون تعميق المسيرة في اتجاه التحرر الاجتماعي . ان التجربة المأساوية لحل الحزب الشيوعي المصري واندماجه في «الاتحاد الاشتراكي» تبين بوضوح خطر توجه كهذا .

وبعد ، ان تأييد هذه الحركة البرجوازية او تلك ، في سعيها لحل المسألة القومية ، مرتبط هو الآخر بظروف الزمان والمكان والوضع الاقتصادي وكل جوانب التوجه التاريخي العيني للموس . فليس من المفروض على الطبقة العاملة دعم كل حركة قومية برجوازية ، في كل زمان ومكان وفي كل طرح تطرحه . خصوصاً وانه قد نجد حركات برجوازية تقتصر مهمتها على اجهاض حركة التحرر الوطني الحقيقية . ونجد حركات برجوازية قد اشترتها برجوازية الدول الاستعمارية نفسها

بهدف التخريب وقصر مهمة التحرر على اصلاحات فوقية ليبرالية . وعلينا التمييز دوما بين الحركة القومية البرجوازية الاصلاحية وبين الحركة البرجوازية القومية ، الثورية حقاً والصادقة حقاً ، في كفاحها ضد الاستعمار . اذ نجد يومياً ، امام اعيننا ، ترابطاً بين مصلحة برجوازية الدول المستعمرة وشرائح برجوازية معينة من الدول المستعمرة . وكثيراً ما «تناضل» هذه الشرائح ، بمثابة وبغف ضد الحركة القومية الثورية في بلدها هي وضد الطبقات الثورية في بلدها هي ، بدلاً من ان توجه هذه «المنابر» وهذا «العنف» ضد البرجوازية الامبريالية . بل وحيثما تتفق مع البرجوازية الامبريالية ، في ضرب الحركة الوطنية - الثورية . وهكذا تقع هذه الحركة الوطنية البرجوازية في براثن الاصلاحية والرجعية .

لذلك نبه المؤتمر الثاني للأمية الشيوعية- (الكومنترن) لهذا الأمر . وقرّر توضيح أية حركة وطنية برجوازية ستحظى بتأييد «الأمية» ، وذلك عن طريق استبدال تعبير تأييد «الحركة البرجوازية الديمقراطية» بتعبير تأييد «الحركة الوطنية الثورية» ، حتى يجري التفريق بين تيارين مختلفين وان كانا يتبعان الحركة البرجوازية الديمقراطية نفسها ، عامة - اذ ان التحرر القومي هو عادة حركة تحرر برجوازية ديمقراطية ، بمفهومها العام ، وليس بالتحديد المفرز اعلاه .

وفسر لينين هذا الأمر قائلاً : «ومغزى هذا التبديل يتلخص في انه لا يتوجب علينا ، بوصفنا شيوعيين ، ان نؤيد ، ولن نؤيد ، الحركات التحررية البرجوازية في المستعمرات إلا في الحالات التي تكون فيها هذه الحركات ثورية حقاً»^(٢٨) .

وهكذا ، في نهاية المطاف ، ان تأييدنا للحركة القومية البرجوازية منوط بمواقف ومثابرة هذه الحركة نفسها ! ونعود ونذكر ان تأييد الشيوعيين للتعاون مع البرجوازية ، في المسألة القومية ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً باتجاهي الرأسمالية في هذه المسألة . فاذ يؤيد الشيوعيون التعاون والكفاح المشترك مع البرجوازية من اجل تحقيق الاستقلال الوطني ، يناضلون في الوقت نفسه ضد برجوازية مرحلة الامبريالية ، وبالتعاون مع البرجوازية الوطنية .

شوفينية الأمم الظالمة وقومية الأمم المظلومة

بناء على ما سبق فان الموقف الثوري السليم من المسألة القومية هو أبعد ما يكون عن السجود أمام كل مشاعر قومية دون تفحص تقدميتها أو رجعيته . هذا ، ايضاً ، حتى لو جرى الحديث عن المشاعر القومية لأمة مظلومة . اذ يحدث ان تلجأ برجوازية الأمة المظلومة ، أو بعض فئاتها الاجتماعية ، الى تسخير مشاعر التعصب القومي او الى بيع المصلحة القومية على مذهب تعاونها مع برجوازية الأمة الظالمة . ولا يعدم التاريخ عشرات الأمثلة التي تثبت هذا . ففي روسيا القيصرية ، في المقاطعات والاقاليم القومية ، وجدت برجوازية قومية محلية كانت تبرز ، في كفاحها ضد القيصرية ، العداء للشعب الروسي كشعب روسي ، بما فيه العداء للطبقة العاملة الروسية ولسائر القوى الثورية والتقدمية داخل هذا الشعب . ووجدت برجوازية قومية محلية كانت تتحالف عضواً مع القيصر الروسي لضرب الحركة الثورية داخل قومياتها .

لقد أكد لينين ان «العمال يهتم التمييز مبدئياً بين اتجاهين : فطالما تناضل برجوازية الأمة المضطهدة ضد الأمة المتسلطة ، فنحن معها دائماً وأبداً ، في جميع الظروف ، بعزيمة تفوق تأييد الآخرين جميعاً ، لأننا ألد أعداء الاضطهاد ، نكافحه بجرأة واستقامة . وطالما تعمل برجوازية الأمة المضطهدة في سبيل تعصبها القومي البرجوازي ، فنحن ضدها . أي اننا نقاوم امتيازات الأمة المتسلطة الظالمة واعمالها العنيفة من جهة ، ولا نتسامح مطلقاً مع سعي الأمة المضطهدة وراء الامتيازات»^(٢٩) .

ان الموقف البروليتاري الحق من المسألة القومية يتناقض جذرياً مع الموقف البرجوازي . فالبروليتاريا مطالبة دوماً بالتمييز بين القوميات المختلفة بناء على مواقعها الطبقة - السياسية ، أي كونها تتبع أمة ظالمة أو مظلومة ، مُستعمرة أو مُستعمرة . فلا يجوز أبداً ، مثلاً ، عدم التفريق بين الفوجية الامريكية وقوميات الشعوب المكافحة ضد الاستعمار الامريكي ، بين الفوجية اليهودية المتعصبة والمشاعر القومية لدى أبناء الشعب العربي

«ان الحديث عن القومية بوجه عام ، بصورة مجردة ، لا يصلح أبداً . فمن الضروري التفريق بين قومية الأمة الظالمة وقومية الأمة المظلومة ، بين قومية الأمة العظمى وقومية الأمة الصغيرة»^(٣٠) . - هذا ما أكده لينين ، دوماً ، في أثناء حديثه عن المسألة القومية . وهذا ما أشرنا اليه سابقاً ، ايضاً ، عندما عالجنا اتجاهي الرأسمالية في المسألة القومية . فهل يجوز ، مثلاً ، المساواة حتى بين القومية نفسها في مرحلة تبلورها وصعودها نحو بناء دولتها المستقلة ، ومرحلة تحولها الى أمة مستعمرة لأمة أخرى ؟! طبعاً لا . ففي المرحلة الأولى تصعد الأمة نحو «أغنيتها الثورية» . أما في المرحلة الثانية فيكون الوطني قد «غنى أغنيته» . والمسألة الآن تقوم في السماح لاطنان أخرى لأن «تغني أغنيتهما» هي الأخرى ، وفي تعميق التحولات الاجتماعية داخل الوطن الذي «غنى أغنيته» باتجاه الاطاحة بالبرجوازية التي كانت «المايسترو» القائد في المرحلة الاولى ، لكنها اصبحت الآن ، في المرحلة الثانية ، العثرة الكأداء أمام انطلاقه انغام الاغنية !

وتكتسب تعاليم لينين ، في المسألة القومية ، عن الفرق بين الأمم الظالمة والأمم المظلومة أهمية خاصة ليس من وجهة النظر السياسية الاجتماعية العامة فقط وانما ايضاً من وجهة ابسط قضايا التكتيك السياسي والتوجه العملي الملموس لكل حزب شيوعي ، تجاه هذه المسألة او تلك ، بالنسبة لهذه القومية او تلك .

فالأمة الظالمة تنشر عادة بين صفوف أبناء قومها الشوفينية والتعصب القومي المقيت ومشاعر «الدولة العظمى» و «الأمة الراقية ، أو المختارة» مقابل الازدراء والتحقير لأبناء القوميات الأخرى «البدائية» و «المتوحشة» و «المتخلفة» . وللأسف تنجح مثل هذه الأمة في ادخال هذه النظرة المرضية ، الشوفينية ، حتى الى اقسام لا يستهان بها من البروليتاريا - «بروليتاريتها» . لقد لاحظ ماركس في زمنه ، وكذلك لينين ، ان الأمم المستعمرة - كالبريطانية والروسية - تنجح في رشوة عمالها عن طريق «اشراكهم» في استغلال أمة أخرى ، عن طريق تخصيص بعض فئات الارباح التي تجنيها من استغلال الأمم الأخرى لهم . ويظهر على السطح ، أحياناً ، وكأن هذه

الفئة العمالية المرشوة لها مصلحة في دوام استعمار واستغلال الآخرين . ان نجاح البرجوازية اليهودية الحاكمة ، في اسرائيل ، بتسميم فئة واسعة من الطبقة العاملة الاسرائيلية - اليهودية ، بالشوفينية ، ماثل امام أعيننا كحقيقة موضوعية لا يمكن انكارها .

وذلك لأن البرجوازية ، والامبريالية منها بشكل خاص ، معنية بنفث روح الشوفينية والتعصب القومي لكي تبرر استمرار احتلالها وظلمها القومي والطبقي لآبناء الشعوب الأخرى ، وكذلك استمرار استغلالها الطبقي لآبناء قوميتها . فالشوفينية تعمي البصر والبصيرة وتصبح سلاحاً ، لا غنى عنه ، في يد البرجوازية لخنق ، أو لتأجيل ، المعركة الطبقيّة الفاصلة - انفتاح أعين العمال على حقيقة كون برجوازياتهم الظالمة ، هي ، هي ألد أعدائهم . وانه ، بناء عليه ، ما عليهم من مهمة اشد وطنية من مهمة التخلص من هذه البرجوازية والاطاحة بها . وهذا يتطلب تضامنهم البروليتاري - الأممي - وكذلك تضامنهم مع أبناء الشعوب المضطّهدة . ومن الطبيعي ان تثير هذه الشوفينية لدى الأمة الظالمة - نقيضها . أي قومية الأمم المظلومة . ولا نقصد «بالقومية» المشاعر القومية الصادقة لدى أبناء هذه الأمم المظلومة ، والتي تتميز بمحتواها الديمقراطي ، ولذلك ندعمها ونؤيدها كل الدعم والتأييد ، وإنما نقصد وقوع أبناء هذه الأمة المظلومة ، أو قسم كبير منهم ، في حماة التعصب القومي ، بما فيه الكره لمحتليهم ومستغليهم ، ليس فقط كمستغلين ومحتلين ، وإنما الكره العام للقومية التي ينتمون اليها .

ما هو موقفنا من هذه الظاهرة ؟! اننا ، أولاً ، وقبل كل شيء ، اعداء ألداء لشوفينية الأمة الظالمة . ثانياً ، ان كوننا ندعو للأممية لا يقصد به ، بأية حال من الاحوال ، المساواة الميكانيكية بين شوفينية الأمة الظالمة وقومية الأمة المظلومة . فرد الفعل هو ليس الفعل . فالجزم الأساسي هو الفاعل وهو المسؤول الأول عما قد تثير جرائمه من مشاعر وافعال مضادة ، قد تتسم بالقومية . ثالثاً ، الى جانب فهمنا العلمي ، الثوري الصحيح ، للشوفينية وللقومية المضادة فان رسالتنا دوماً هي «الأممية» ، هي التلاحم البروليتاري بين أبناء مختلف القوميات ، والصدقة بين الشعوب ، والعداء المشترك لعدو الشعوب : الامبريالية واستعمارها، وبرجوازياتها واستغلالها .

ان تفهّمنا لرد الفعل «القومجي» لا يعني ، بآية حالٍ من الاحوال ، قبوله واعلان المصالحة معه وعدم نفيه ورفضه . خصوصاً انه يضر ، قبل كل شيء ، بالكفاح الوطني العادل للأمة المظلومة .

لقد وقع ، أحياناً ، حتى بعض الماركسيين الكبار ، ولفترة معينة ، في خطأ المساواة بين «الشوفينية» و «القومجية» ، مثلاً ، روزا لوكسمبورغ . لقد وصل الأمر بها ، في فترة معينة قصيرة ، الى حد عدم المطالبة بحق تقرير المصير لأبناء القوميات المحرومة من هذا الحق . وكان يجري تبرير هذه الدعوات ، أحياناً ، من منطلق الأهمية البروليتارية وضرورة وحدة الشغيلة في كفاحها للإطاحة بالبرجوازية عن طريق الثورة الاشتراكية . هذا عدا الإشارة الى خطر انتشار «القومجية» المنافية للأهمية البروليتارية ، بين أبناء الشعوب المضطهدة .

لقد فضح لينين هذا الموقف المنافي للماركسية اشد فضيحة مبيناً عدم أهميته وضحالة فهمه للماركسية ووصفه بأنه «افطع انواع الانتهازية» المصابة بلوثة شوفينية الأمم الظالمة . وناقش روزا لوكسمبورغ قائلاً انها : «حين اندفعت بنضالها ضد نزعة التعصب القومي في بولونيا ، قد نسيت نزعة التعصب القومي لدى الروس ، على الرغم من ان هذه النزعة هي الآن الاكثر خطراً ، اي انها اقل برجوازية واشد اقطاعية ، وانها هي العائق الاساسي في وجه الديمقراطية والنضال البروليتاري»^(٣١) .

بل وحذّر بروليتاريا الأمم المظلومة المضطهدة من خطر ان يكون نضالها : «غاية في الضراوة ضد التعصب القومي لدى تلك الأمم الى حد تشوّه الأفق ونسيان نزعة التعصب القومي لدى الأمة الظالمة المضطهدة»^(٣٢) .

وبناء عليه فان مهمة بروليتاريا الأمم الظالمة ، أولاً وقبل كل شيء ، محاربة النزعة الشوفينية لدى أممها والاصرار على المساواة التامة لأبناء الشعوب المظلومة وعلى ضمان جميع حقوقهم ، بدون أدنى مس ، بما فيه ضمان حقهم في تقرير مصيرهم وبناء دولهم المستقلة . هذا بالاضافة الى الدعوة الدائمة الى الأهمية ووحدة نضال البروليتاريا ضد كل تعصب قومي برجوازي مهما كان مصدره . ولكن ممنوع أبدا الخلط في هذه المهمة المزدوجة

لدرجة وضع التعصب القومي المضاد على قدم المساواة مع شوفينية الأمة
الظالمة . اذ من المهم دوماً تحديد العدو الرئيسي ومكمن الخطر الرئيسي .

لقد بحث كارل ماركس أيضاً هذه المسألة . ويكفي ان نقرأ رسائله
الى انجلس بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٨٦٤ وبتاريخ ٧ حزيران ١٨٦٦
وبتاريخ ٣ حزيران ١٨٦٧ وبتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٨٦٧ وبتاريخ ٣٠
تشرين الثاني ١٨٦٧ ، حتى نتأكد من هذا الأمر . ففي رسالتيه ، مثلاً ،
بتاريخ ٧ و ٢٠ حزيران ١٨٦٦ يسخر ماركس من اتباع برودون الفرنسيين
الذين يدعون ان «اوروبا تستطيع ويجب ان تبقى قاعدة على مؤخرتها
بكل هدوء وسكينة بانتظار ان يقضي الاسياد في فرنسا على الجهل
والبؤس» ويفهم بأنهم «سخفاء» . ويقول : ان نعلن ان القوميات أمر
أخرق ، في كفاحنا ضد غاريبالدي وبسمارك وضد الشوفينية ، أمر مفيد
ويمكن تبريره . ولكن شان ما بين هذا النقاش وبين دعوة اوروبا للانتظار
حتى تحدث الثورة الاجتماعية الفرنسية . أي الغاء المسألة القومية وأهميتها
وحق الشعوب في الكفاح في سبيل حريتها بحجة ان الكفاح الهم هو
«الثورة الاجتماعية - الاشتراكية» . ان مثل هذا الموقف يعني الشوفينية
والتعصب القومي للأمة الظالمة .

وكتب ماركس الى صديقه انجلس ساخراً ، بتاريخ ٢٠ حزيران
١٨٦٦ ، «.... لقد ضحك الانجليز كثيراً عندما قلت في مستهل خطابي ان
صديقنا لافارغ والآخرين ، الذين ألغوا القوميات ، يخاطبوننا
بالفرنسية ، أي بلغة لا يفهمها تسعة اعشار المجتمعين . ثم ألمحت الى ان
لافارغ ، دون ان يدرك ما يقول ، يفهم ، كما يبدو ، من انكار
القوميات ، امتصاصها من قبل الأمة المثالية ، الأمة الفرنسية» . وكان
من عادة ماركس ان يفحص «اسنان معارفه» من الاشتراكيين ، بمن فيهم
لوباتين الروسي أو لافارغ الفرنسي (فيما بعد اصبح ماركسياً حقيقياً) .
وكان يكتشف ، أحياناً ، اختباء الشوفيني في داخلهم ، في أثناء الحديث عن
حقوق قوميات تظلمها أمتهم ! وكان يحذر من هذا الخطر ، الذي يقع فيه
اليوم ايضا بعض الماركسيين - اللينينيين السطحيين وكل الاتجاه «الاشتراكي»
الليبرالي .

أحادية «ثنائية» التربية الأممية

بناء على تأكيد لينين الواضح بأنه لا يجوز الحديث عن الأمة بشكل عام ومجرد وأنه من الضروري التمييز بين الأمم الظالمة والمظلومة ، وتأكيد ذلك «إن كل نزعة قومية برجوازية في أمة مظلومة تتضمن مضموناً ديمقراطياً عاماً ينتصب ضد الاضطهاد . وهذا المضمون هو الذي نؤيده تأييداً تاماً ، مميزين في الوقت نفسه ، بدقة بالغة ، كل ميل الى الاستئثار القومي ، ونناضل ضد سعي البرجوازي البولوني الى سحق اليهودي الخ ... الخ ...»^(٣٣) ، يضع توجهاته بخصوص مهمات التربية الأممية بين الأمم الظالمة والأمم المظلومة .

الأمة الظالمة ليست هي الأمة المظلومة . هذه حقيقة . ولكن بناء عليها ، وبناء على ضرورة معالجة أية قضية اجتماعية - سياسية ، كانت ، في اطرافها وزمانها ومكانها ، وعلى ضوء خلفيتها الاقتصادية ، فان الماركسية - اللينينية تؤكد وجود مهمات مختلفة للتربية الأممية بين بروليتاريا الأمم الظالمة والمظلومة . ولقد أثار هذا الأمر في حينه ، ويشير حتى اليوم أحياناً ، نقاشاً حاداً . وجرى اتهام لينين ، على أساسه ، بأنه «ثنائي» - يقع في النظرة الثنائية - أو الأتينية - بدلاً من أن يتبنى النظرة «الواحدية» الصحيحة . وان تعاليمه تناقض بعضها البعض . والحال فان كل تفكير منطقي وسليم يجب ان يكون «أحادياً» . أين تكمن المشكلة؟! لنقرأ لينين :

كتب لينين يقول : «ان مركز الثقل في التربية الأممية للعمال في البلدان الظالمة المضطهدة يجب ان يقوم حتماً على الدعاية لحرية البلدان المظلومة المضطهدة في الانفصال وعلى الدفاع عن هذه الحرية . بدون هذا لا تكون هناك أممية . وكل اشتراكي ديمقراطي من أمة ظالمة ، لا يقوم بهذه الدعاية يحق لنا ، ويجب علينا ، ان ندعوه امبريالياً ونذلاً . ان حرية الانفصال هي مطلب مطلق ، حتى لو كان هذا الانفصال غير ممكن ، وغير «قابل للتحقيق» قبل انتصار الاشتراكية ، الا في حالة واحدة من ألف حالة»^(٣٤)

ويتابع لينين : «أما الاشتراكي الديمقراطي في أمة صغيرة فمن واجبه ، على العكس من ذلك ، ان ينقل مركز الثقل لدعايته

التحريرية ، الى القسم الاول من صيغتنا وهي «الاتحاد الاختياري الحر بين الأمم» . وفي وسعه ، دون أن يخل بواجبه من حيث هو أممي ، أن يكون مؤيداً لاستقلال أمتة السياسي ، مؤيداً لدمجها مع دولة مجاورة هي أ ب أو ج ، الخ ... انما يجب عليه ، في كل الاحوال ، أن يناضل ضد ضيق الأفق القومي وضد الميل الى الانحصار والانغزال وان يكون من انصار النظر الى الحركة بمجموعها وشمولها ، أن يكون من انصار اخضاع المصلحة الخاصة للمصلحة العامة»^(٣٥) .

وهكذا يقرر لينين أن الواجب الأممي المركزي لبروليتاريا الأمة الظالمة الدفاع عن حق تقرير المصير ، حتى الانفصال ، للأمم المظلومة . مقابل كون هذا الواجب لبروليتاريا الأمم المظلومة يعني حق الدعوة الى الانفصال أو رفضه ، مع التركيز على ضرورة محاربة القومية الضيقة والانغزالية .

ونستطيع أن نضيف ، بناء عليه وبناء على تعاليم الماركسية - اللينينية اجمالاً بخصوص المسألة القومية ، أن الواجب الأممي الأساسي لبروليتاريا الأمة الظالمة يتطلب رفض ، أولاً وقبل كل شيء ، شوفينية أمتها ومحاوله تفهم قومية الأمة المظلومة كرد فعل ، لا تضخيم خطرها والتركيز على تبيانها . أما بروليتاريا الأمة المظلومة فمن واجبها ، الى جانب المطالبة بحق تقرير مصير أمتها ، بشكل مستقل أو مندمج - حسب متطلبات الظروف - أن تبرز ضرورة التحالف الأممي مع بروليتاريا الأمة الظالمة وان تقف ضد التعصب القومي لأبناء أمتها وتبين أخطاره ، مؤكدة على رفض الكره للأمة الظالمة كآمة ، من منطلق قومي متعصب .

ولكن هذا التناقض الظاهري لا يؤدي الى وقوع لينين في «الأثنينية» . إذ أن جوهر المسألة واحد . فنظرة لينين «الأحادية» تكمن في الهدف الواضح والواحد ألا وهو : التربية بروح الأممية البروليتارية وتحقيق شروط الاندماج في المستقبل . إذ لا يمكن أن تقوم وحدة الشعوب إلا على أساس ضمان الحقوق المتساوية والغاء كل مظاهر الشوفينية والتعصب القومي والغبن القومي . وعلى كل بروليتاريا أن تصل الى هذا الهدف الواحد - الاندماج الأممي للشعوب - بطرق مختلفة بناء على انتماها المختلف ، لأمة ظالمة أو مظلومة .

لذلك ، فالأثنينية هنا شكلية وتستدعيها الظروف الموضوعية . هذا مع الإشارة الى ان الماركسية ، وهذا ما كتبه في حيته انجلس ، في رده على ديورينغ ، لا تقصد «بالأحادية» : «التوحيد بين فرشة الاحذية والحيوانات الضرعية» اذ تبقى هذه «أحادية» خاطئة ولفظية وشكلية وفجة . وهكذا هي «أحادية» الاصرار على ان يكون توجه بروليتاريا الأمة الظالمة مطابقاً ، حتى في الشكل ، مئة بالمئة ، لتوجه بروليتاريا الأمة المظلومة ، دون اعتبار فوارق الظروف الموضوعية القائمة والتي لا يمكن تجاهلها .

ان الاستشهادين الواردين اعلاه ، نقلا عن لينين ، قد يعكسان تناقضاً ، - «أثنينية» - ، ولكن هذا للوهلة الاولى ولدى اصحاب التفكير غير السليم . فالنظرة «الواحدية» هي المسيطرة هنا . وهذا ما أكدته لينين حين شرح هذه المسألة قائلا : «هل وضع بروليتاريا الأمم المضطهدة ووضع بروليتاريا الأمم المضطهدة حيال الاضطهاد القومي واحد . متماثل ؟ كلا . انه ليس متماثلاً لا اقتصادياً ولا سياسياً ولا فكرياً ولا روحياً وما الى ذلك .

يعني ؟

«هذا يعني ان البعض سيذهب على هذا النحو والبعض الآخر على نحو آخر الى الهدف الواحد (امتزاج الأمم) من نقاط انطلاق مختلفة . ان انكار هذا هو «أحادية» توحد بين فرشة الاحذية والحيوانات الضرعية»^(٣٦) .

فيما يكمن عدم التماثل «الاقتصادي» و «السياسي» و «الفكري الروحي» ؟ !

ان عدم التماثل الاقتصادي بين بروليتاريا الأمتين المختلفتين يكمن في ان قسماً من بروليتاريا الأمة الظالمة تشارك في حصة ما من الارباح الزائدة التي تحصل عليها «برجوازيتهما» وكذلك في نهب عمال الأمة المظلومة ، بل ويترقى بعضها الى منصب «وكلاء» والى مستوى «الارستقراطية العمالية» . أما عدم التماثل السياسي فيقوم في الوضع المتميز في شتى ميادين الحياة السياسية لبروليتاريا الأمة الظالمة بالمقارنة مع بروليتاريا الأمة المظلومة . وتكفي الإشارة هنا الى كونها بروليتاريا أمة مستقلة ولا تعاني من الاحتلال أو من سياسة التمييز القومي . أما عدم التماثل الفكري -

الروحي فيمكن في نفخ الكرامة القومية لدى بروليتاريا الأمة الظالمة حتى الوصول الى نقيضها - الشوفينية . هذا مقابل الازدراء والاذلال القومي التي تواجه بروليتاريا الأمة المظلومة ، يومياً ، في المدرسة والشارع ووسائل الاعلام ، وفي مختلف نواحي الحياة والتعامل .

لقد وصل لينين ، أحياناً وفي حالات عينية خاصة ، حتى الى التأكيد ان عدم التماثل هذا قد يؤدي الى حد حتمية ابراز مطالبة بروليتاريا الأمة الظالمة بحق تقرير المصير للأمم المظلومة ، حتى الانفصال ، مقابل شرعية إصرار بروليتاريا الأمم المظلومة على عدم دعم الانفصال ، بشروط معينة ، وعلى ابراز أهمية التلاحم الأممي . هكذا عالج ، في فترة معينة ، عدم التماثل وما يؤدي اليه من فروق في الدعاية الأممية الواحدة بين بروليتاريا روسيا وبولونيا ، أو السويد والنرويج . فالعامل الروسي أو السويدي - عامل الأمة الظالمة - الذي لا يقوم بهذا يكون «خادماً للقصر وللإمبريالية» و«شوفينياً» و«وغداً» و«لا مكان له في حزب اشتراكي» . أما العامل البولوني أو النرويجي - عامل الأمة المظلومة - فيحق له الوقوف ضد الانفصال ، في شروط معينة ، ويبقى اشتراكياً . ولا يكف عن كونه كذلك الا في حالة مد يد العون والمساعدة لعامل رجعي لدى الأمة الظالمة يعارض حرية بلده في الانفصال^(٣٧) .

وتجدر الإشارة كذلك الى ان الظلم القومي والطبقي المزدوج لأبناء الأمة المظلومة قد يخلق مشاعر الريبة والتخوف وعدم الثقة تجاه بروليتاريا الأمة الظالمة . ريبة وحقد وتخوف وعدم ثقة ، فرضتها ظروف واقع اقتصادي - اجتماعي - سياسي . ظروف ظلم السائد وشقاء المسود . فالإمبريالية وممارساتها ، وكذلك حياة أبناء الأمة المظلومة والتي هي عادة ، حياة اقتصادية متخلفة ترتع فيها البرجوازية الصغيرة وجماهير الفلاحين وتتقوى فيها مشاعر الانغلاق ، لا بد إلا ان تولد مثل رد الفعل هذا . وليس بالامكان إزالة مثل ظاهرة رد الفعل هذا بالنصائح التربوية الأممية العامة . ان تفهم بروليتاريا الأمة الظالمة لهذه المشاعر أمر هام . ولكن يجب ، أولاً وقبل كل شيء ، العمل على إزالة عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويجب الروية والحذر والانتباه في التعامل والتوجه . وخصوصاً ان هذه المشاعر قد لا تزول حتى في المراحل الأولى لبناء الاشتراكية .

وهنا ، في ظل الاشتراكية ، بعد ازالة الاسس الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للظلم القومي ، تحتل التربية الأُمّية مكانة بارزة خاصة .

الارهاب القومي «المبادل»

قد تُثار ، في هذا الاطار ، مسألة ما يُسمى في الأدبيات البرجوازية «بالارهاب المبادل» . أي ارهاب الأُمّة الظالمة و «ارهاب» الأُمّة المظلومة . ان الماركسية - اللينينية ترفض هذا الطرح الميكانيكي الفج والمثاني لابسط الحقائق . فالارهابي ، أولاً وقبل كل شيء ، هو الظالم ، هو المحتل والمستعمر ، هو المستغل . أما نضال الشعوب ضد الاستعمار والاحتلال والظلم والاستغلال فهو نضال شرعي عادل ، مهما اتخذ من أساليب الكفاح ، بما فيها أسلوب الكفاح المسلح .

صحيح انه أحياناً يلجأ بعض أبناء الأُمّة المظلومة الى أساليب واعمال ارهابية وخاطئة . والماركسية - اللينينية تشجّب مثل هذه الاعمال ليس من وجهة نظر انسانية عامة فقط ، وإنما ايضاً ، بل وأولاً ، بسبب كونها تضر بكفاح الشعوب العادل من اجل التحرر والاستقلال والتقدم الاجتماعي . لكن شتان ما بين هذا الشجب وبين الحديث عن «ارهابين متبادلين» . ارهاب المظلوم اليائس والمتهور الذي قد يلقي قبلة ، كيفما اتفق ، مقابل ارهاب دولة وحكومة ومؤسسة تلقي اطنان القنابل ، كيفما اتفق ايضاً ، على شعب بأكمله وتسلب حريته ولقمتته . ان الذي يساوي بين ارهاب أُمّة الظالمة ومقاومة الأُمّة المظلومة ، - (بما فيها بعض الاعمال الارهابية فعلاً) - ومن منطلق أُمّي ، لا يفهم ألف باء الوطنية الحقّة ولا الأُمّية . وهو بعيد عنها بعد السماء عن الارض . فكم بالحري اذا جاءت هذا «المساواة» من انتهازيي أُمّة مظلومة ؟!

ولنا ، في ماركس ، الذي اعتبر نفسه نصف بريطانيّاً ، خير معلم في هذا المجال . ففي مقالته «الانتفاضة الهندية» الى جانب شجبه لسلوك فرق «السباهي» الهنود ضد المستعمر البريطاني ، كشف كل رياء البرجوازية البريطانية وتباكيها «الانسائي» و «إستيائها» من السلوك الوحشي . وبين ان البرجوازية البريطانية صفقت دانثا لاعمال ارهابية أشد وحشية من هذه ،

قام بها الملكيون الفرنسيون ضد الجمهورية الفرنسية والأنصار الاسبان ضد الملحدین الفرنسيين والصرب حبال الالمان والمجرين ، وجنود بونايرت حبال أبناء وبنات البروليتاريا الفرنسية الخ . وأضاف : «ومهما كان سلوك السباهي مقبلاً ، فانه ليس الا انعكاساً لسلوك بريطانيا ذاتها في الهند» . وبعد تعداد بعض جرائم الوحشية البريطانية في الهند ، التي تصور وكأنها اعمال بسالة حربية ، كتب يقول انه «بمقدور خيال القسيس البريطاني ان يلد من الفظائع اكثر مما يلد الخيال الوحشي لمنتفض هندي» . ومزق الغلاف عن هذا الرياء البرجوازي قائلاً : «ان جذع الأنوف وبتر الاذنء وما الى ذلك ، وبكلمة ، التشويهات الرهيبة التي يحدثها السباهي ، تثير بالطبع مشاعر الاوروبيين أشد بكثير مما يثيرها قصف مساكن كانتون بالقنابل المحرقة أو إحراق المارشال الفرنسي للعرب بعد حشرهم في مغارة . أو سلخ جلود الجنود البريطانيين وهم أحياء ، بسوط من تسع جدائل بناء على قرار من محاكم الميدان العسكرية ، أو أي من الوسائل «الانسانية» الأخرى المستعملة في الأصلاحيات البريطانية» .

وعن زيف الغضب «القومي» البريطاني وعن المجرم الأساسي كتب ماركس يقول : «ان زئير الغضب الذي تطلقه جريدة «تايم» ، السفاحة العجوز [...] والدور الذي أخذته هذه الجريدة على عاتقها ، دور شخص شرس من إحدى اوبيرات موزارت ، يستمتع على نغم في غاية النعومة والعدوبة بفكرة كيف سيسحق عدوه أولاً ثم يشويه ثم يقطعه إرباً ثم يطعنه طعناً وأخيراً يسلمه جلده [...] وسعي «تايم» الى تأجيج نيران الرغبة في الانتقام ودفعها هذه الرغبة الى اقصى النشوة الروحية ... كل هذا يبدو سخيفاً . أما في الواقع فان كل ما تحتاج اليه انما هو الدعاية لسندبات الدولة ووقاية الحكومة من الحملات» . وينهي ماركس مقالته قائلاً إن الحكومة البريطانية «تتحمل المسؤولية عن البلايا التي وقعت كما تتحملها عن كونها اتاحت لهذه المصائب ان تتخذ مثل هذه الابعاد الهائلة»^(٣٨)

هكذا ايضاً تصرف لينين الذي كان ، أولاً وقبل كل شيء ، معادياً لارهاب وشوفينية أمته الروسية الظالمة . وكان نصيراً يفيض حماساً لحركة

التحرر لشعوب آسيا وافريقيا ، ضد تسلط أمته الروسية أو الجنس الاوروبي ، الذي ينتمي اليه . وعزى لينين ، في كل كتاباته عن الاستعمار ، وحشية الارهاب الاستعماري وحقيقة «مدنيته» المزعومة مقابل عدالة مقاومة الشعوب المستعمرة . وتحدث عن اوروبا المتأخرة والمتوحشة مقابل استيقاظ آسيا الديمقراطية . وعزى سياسة «التمدين» الاستعمارية ومآثرها «المسيحية» ، تمدين ومآثر الوحشية والقتل والاستغلال والاهانات والارهاب والعنف ونشر العبودية والامراض الزهرية ... والتجارة بالدعارة والسلع الحية .

وكشف لينين رياء وزيف هذه الحضارة اذ ترفع عقيرتها بالصياح ، لأن «المتوحشين» يقاومون ويجرأون برفع أيديهم على الاوروبيين «المتمدنين» . و اضاف ان هؤلاء «المتمدنين» الذين يضطلعون بدور الجلاد ، على الصعيد الدولي ، والذين اجتازوا اسمى مدارس الروح الدستورية ، يتحولون الى وحوش - وأية وحوش ! - عندما يبلغ الأمر حد استيقاظ الجماهير ضد الرأسمال ، أي ضد النهب والقتل . ان أبناء «الكلاب الانجليز» - هكذا كتب لينين بالحرف الواحد - وأمثالهم من الساسة الاوروبيين المتمدنين ، ملطخين بالافذار وبالدماء من الرأس الى اخمص القدم .

ولنقرأ السخط المنجلي في كلمات لينين على وحشية الامبراليين الايطاليين وغزوهم ل ليبيا ، سنة ١٩١١ ، مقابل حماسه للمقاومة الليبية . ان هذه الحرب الاستعمارية «التمدنية» ، كما يقول لينين : «كانت مجزرة بشرية متمدنة ومثقفة . كانت تقتيلاً للعرب بواسطة «احدث» العتاد . لقد قاوم العرب مقاومة المستميت . فحينما انزل الاميرالات الطليان في بدء الحرب ، بدون حذر ، (١٢٠٠) بحار ، هاجمهم العرب وقتلوا منهم حوالي ٦٠٠ شخص . و «عقاباً» قتلوا من العرب حوالي (٣٠٠٠) ونهبوا وذبحوا عائلات بأكملها وقتلوا النساء والاطفال . الطليان أمة دستورية ، متمدنة . لقد علقوا على المشانق حوالي (١٠٠٠) عربي [.....] . وقد قتل من العرب حوالي (١٤٨٠٠) شخص . وستستمر الحرب في الواقع ، بالرغم من «الصلح» ، لأن القبائل العربية الموجودة بعيداً عن الساحل ، في داخل القارة الافريقية ، لن ترضخ . وسيستمرّون زمناً طويلاً في «تمدنيها» بالحرب والرصاص وحبس المشانق

فقط الاشتراكية تحل المسألة القومية ، ولكن

«ازيلوا استثمار الانسان للانسان ، تزيلوا استثمار أمة لأخرى .
وعندما يزول تناحر الطبقات في قلب كل أمة يزول في الوقت نفسه
العداء والحد بين الأمم» (٤٠) .

هذا ما كتبه ماركس وانجلس في «بيان الحزب الشيوعي» ، منذ سنة
١٨٤٨ . وبيننا هذا جذر الاضطهاد القومي ، والخلفية الطبقيّة التي تنشأ على
أساسها ، وفي ظلها ، العداوات والاحقاد بين الأمم . انها استثمار الانسان
للانسان ، استغلال الانسان للانسان . هذا الاستثمار وهذا الاستغلال
المميزان للمجتمع الاستغلالي ، منذ انقسام المجتمع الى طبقات متصارعة اثر
زوال عهد المشاعية البدائية .

فالمسألة القومية ، بناء عليه ، هي البنت الشرعية للمجتمع
الطبقي الاستغلالي . ولم تكن هنالك «مسألة قومية» في عهد المشاعية
البدائية . ولن تعرف البشرية هذه المسألة في عهد الشيوعية المقبل .
فاضطهاد أبناء القبائل أو القوميات أو الأمم الأخرى ، كان دائما وليد مجتمع
طبقي تضطهد فيه طبقة معيّنة طبقة أخرى من قوميتها أو أمتها .

وهذا الاستغلال الطبقي الداخلي هو الذي يستدعي احتلال واستغلال
الآخرين ، سعياً وراء الاسواق والمواد الخام والأيدي العاملة الرخيصة اذ
ليس هنالك اسخف من فصل السياسة الخارجية عن السياسة الداخلية ؛
ولقد عانت البشرية من مئات ، لا بل آلاف الحروب . ويخيم عليها ايضا
خطر حرب عالمية ثالثة أو حرب نووية ، بسبب الطبقات الاستغلالية
واطماعها . وتكفي الإشارة هنا الى الحروب الاستعمارية في القرنين التاسع
عشر والعشرين والتي كانت نتيجتها احتلال قارات بأكملها من قبل حفنة
من الدول الامبريالية . وغني عن البيان ان هذه الدول الامبريالية هي
المسؤولة عن اشعال نار الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ويهدف السيطرة
على العالم واقتسامه واعادة اقتسامه ثانية . وهذا كان يتم تسعير حدة المسألة

القومية أكثر فاكثراً . وهكذا كانت شعوب وبلدان الشرق ، في فترة سابقة ، مجرد سماء «للمدنية» الأوروبية - كما أشار لينين .

والبرجوازية هي المعنية بالاضطهاد القومي لكي تغذي جشعها الطبقي ولكي تضمن استمرار سلطتها الطبقي على أبناء قومها . فبالإضافة إلى مصلحتها الطبقية في نهب الشعوب الأخرى ، أو أبناء الأقليات القومية التي تحكمها ، واستغلالها استغلالاً بشعياً ، لها مصلحة أيضاً في تسعير العداء بين الأمم والشعوب . وذلك حتى تبرز حروبها العدوانية ونهبها . وحتى تبذل وتُحبل عقول «طبقتها» العاملة وتفسدها ، لكي لا تفتح هذه أعينها على حقيقة كون «برجوازياتها» ألد أعداء قوميتها ووطنها . وهذا بدوره يسهل عملية سوق العمال «بعضا البرجوازية» . فعن طريق الشوفينية وتسعير العداء بين الأمم والحديث عن الأمم «الراقية» والأمم «المتخلفة» ، عن الأمم «المتمدنة» والأمم «المتوحشة» ، تعرقل البرجوازية مسألة التضامن الأممي وتفرق بين صفوف العمال مما يضر بالكفاح المشترك من أجل الحرية ، وبالنضال الطبقي للبروليتاريا ضد الرأسمالية ومن أجل الاشتراكية . لذلك فإن الصراع بين القوميات «هو كإيج يحول دون قيام أي تحالف جدي وصادق بين العمال»^(٤١) . كما أكد ماركس في أثناء بحثه المسألة الأيرلندية ، في مقالته «خبر سري» . وأضاف يقول إن أيرلندا هي «الذريعة الوحيدة» للحكومة البريطانية لتشكيل جيش نظامي كبير ستوجهه ، عند الحاجة ، ضد العمال البريطانيين أنفسهم .

وعن هذه الفكرة نفسها تحدث لينين حين بين ، في أكثر من مناسبة ، أن الحكم الاستبدادي القيصري الروسي ترك إرثاً رهيباً من العداوات بين القوميات . وهذا الإرث هو العقبة الكبرى أمام تكاتف جهود بروليتاريا وأبناء هذه القوميات للاطاحة بهذا الحكم الاستبدادي . وفي مقالته بعنوان «المساواة القومية» كتب يقول : «سياسة اضطهاد القوميات هي سياسة تفرق بين القوميات . وهي في الوقت ذاته سياسة منتظمة لتخريب وعي الجماهير . إذ تقوم حسابات المائة السود [العصابات القيصرية الرجعية - س.غ.] على أساس إثارة المواجهة بين مصالح الأمم المختلفة وتسميم وعي الجماهير الجاهلة والمظلومة»* . وأضاف : «إن اضطهاد الاجناس

* الأصل بالروسية في المجلد الخامس والعشرين لمؤلفات لينين الكاملة ، ص : ٨٥ .

الأخرى عصاً ذات طرفين . وهي تضرب بأحدهما الاجناس الأخرى ، وبالأخر الشعب الروسي» .

ولقد كان انجلس هو أول من قال : «ان شعباً يضطهد شعوباً أخرى لا يمكن أن يكون حراً ، فان القوة التي يحتاجها لقمع شعب آخر تنقلب دوماً ، في نهاية المطاف ، عليه نفسه» . وكثيراً ما أكد ماركس وانجلس هذا المبدأ سوية . وكتب ماركس ، في أثناء بحثه المسألة الايرلندية ، في مقالته «خبر سري» ، ان : «الشعب الذي يستعبد شعباً آخر يصنع سلسله بالذات» . وسمى لينين هذا المبدأ - في مقالته «خلاصة المناقشة حول حق الأمم في تقرير مصيرها» - «بالمبدأ الاشتراكي الاول» . هكذا طرح الماركسية - اللينينية المسألة ، مبيّنة الارتباط الدايكتيكي بين الاضطهاد الطبقي والاضطهاد القومي ، وايضاً ، بين كفاح الشعوب لتحررها من الاستعمار والظلم القومي وكفاحها لتحررها من البرجوازية واستغلالها الطبقي . فالأمة الظالمة هي في الوقت نفسه أمة مظلومة ، بمعنى كونها أمة تسيطر عليها البرجوازية وتستغلها طبقياً ، وإلا لما كانت أمة ظلمة . والأمة التي تحتل ارض الآخرين تدفع هي ايضاً ثمن هذا الاحتلال : ارواحاً ودماءً وعسكرة وفساداً روحياً واخلاقياً ... إلخ .

لذلك ليس بمقدور الرأسمالية ان تقدم حلولاً جذرية للمسألة القومية . ان نظرة سريعة للعالم الرأسمالي في عصرنا الحالي ، وفي العصور التي خلت تبين ، بما لا يترك مجالاً لأدنى شك ، ان هذا العالم ليس فقط لم يستطع حل المسألة القومية - بما فيها حتى مسألة المساواة النامة للاقليات القومية - وانما هو عرّاب المشاكل القومية ومعرقلي حلها .

لذلك نقول انه لا يمكن حل المسألة القومية حلاً جذرياً إلا في اطار الاشتراكية . فالاشتراكية التي تزيل استثمار الانسان للانسان تزيل معه استثمار أمة لأخرى . وهي التي تدفع المسألة القومية نحو حلها النهائي - فعن طريق إزالة كل مظاهر الغبن القومي ، والشوفينية والعنصرية والاستعمار والاطاحة بالرأسمالية ، تخلق القاعدة المادية للتلاحم الأممي للشعوب ومن ثم اتحادها واندماجها ، مستقبلاً ، في أمة اشتراكية عالمية واحدة . اذ ان القوميات كانت وليدة انقسام المجتمع الى طبقات وستزول - وان احتاج هذا الى فترة تاريخية طويلة - مع زوال الطبقات

كذلك فإن الظلم القومي هو ابن شرعي للظلم الطبقي ، واستمرار له . وكما خلفت الرأسمالية الظلم الطبقي فستقبره الاشتراكية ، بقبرها للرأسمالية ، عن طريق إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وبناء عليه لا نستطيع الا ان نربط بين حل المسألة القومية حلا جذريا وتسلم الطبقة العاملة للحكم . فهذه الطبقة هي الطبقة الوحيدة التي لا مصلحة لها في الظلم القومي . بل ان هذا الظلم القومي عقبة أمام تحقيق أمانها . وهي لا تستطيع ان تضمن مصحتها إلا على أساس التلاحم الأممي بين بروليتاريا وشعوب العالم اجمع .

يقول لينين : «في ظل الرأسمالية يستحيل القضاء على الاضطهاد القومي (والاضطهاد السياسي ، بعامه) ولهذا كان من الضروري القضاء على الطبقات ، أي إقامة الاشتراكية . ولكن الاشتراكية ، اذ تركز على الاقتصاد ، لا تقتصر اطلاقا على الاقتصاد . فلأجل القضاء على الاضطهاد القومي لا بد من قاعدة . وهذه القاعدة هي الانتاج الاشتراكي . الا انه لا بد ايضا من ان يقوم على هذه القاعدة تنظيم ديمقراطي للدولة وجيش ديمقراطي ، الخ ... ان البروليتاريا اذ تحول الرأسمالية الى اشتراكية تخلق إمكانية القضاء على الاضطهاد القومي قضاء تاما [.....] ويتم التقارب والاندماج بين الأمم بتسارع ، مما يؤدي في آخر المطاف الى اضمحلال الدولة وزوالها»^(٤٢) .

وتبنى العلاقات القومية ، في ظل الاشتراكية ، على أسس جديدة . اذ يتم خلق القاعدة الاقتصادية ، عن طريق القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، لضمان المساواة القومية فعليا وليس قانونيا فقط . وتعيش جميع الاقوام والأمم في ظل الاشتراكية مرحلة ازدهارها المطرد وتقاربها في جميع الميادين - الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية . وهذا ما نشهده اليوم في الاتحاد السوفيتي . وهذا ما يميز العلاقات بين الأمم والشعوب في العالم الاشتراكي . ان اصطلاحات «كالظلم القومي» أو «التمييز العنصري» أو «الأمم الراقية والأمم المتخلفة» أو «العنصرية» وما شابهها ... تصبح مسألة ماضٍ جرى دفنه مع دفن الرأسمالية وما يميزها من علاقات قومية . ولا ننفي بهذا الكلام حقيقة إمكانية حدوث انحرافات عن مبادئ الأنمية البروليتارية والأنمية الاشتراكية ، في هذا البلد الاشتراكي أو ذاك

ومن ثم ظهور نزعات قومية ضارة . لكنها تبقى نزعات الانحراف عن المبادئ الاشتراكية ، وليست وليدة الاشتراكية .
كذلك تؤكد ان الشيوعية لن تعرف المسألة القومية . فكما ان ظهور القوميات ارتبط بانقسام المجتمع الى طبقات ، كذلك زوالها مرتبط بالقضاء على الطبقات وبناء المجتمع الشيوعي . اننا نعرف ان هذه عملية طويلة المدى ومرتبطة بانتصار الشيوعية ، على الصعيد العالمي وبزوال الدول . ولكنها عملية حتمية ما دمنا نعتقد ان انتصار الشيوعية أمر حتمي . ان الامتزاج ، الظاهر للعيان اليوم ، بين مختلف قوميات الاتحاد السوفيتي ، وبعد مرور عقود قليلة فقط على انتصار الاشتراكية وبالرغم من استمرار قوة الرأسمالية على الصعيد العالمي ، هو دليل واضح على مسيرة التطور المستقبلي . هذا مع التأكيد ايضا ان هذا هو امتزاج عهد الاشتراكية المتطورة ، وليس عهد الشيوعية الذي لم نصله بعد . فمع زوال جميع الفوارق الاقتصادية وانتصار مجتمع «من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته» لن يبقَ أي عائق لامتزاج الأمم في أمّة اشتراكية عالمية واحدة . لن يبقَ أي داعٍ لاستمرار الفوارق القومية .

ولكن قولنا انه لا يمكن حل المسألة القومية حلاً جذرياً إلا في ظل الاشتراكية لا يعني اطلاقاً انتظار مجيء الاشتراكية . صحيح ان مجمل القضايا السياسية - الاجتماعية لا يمكن حلها إلا في ظل الاشتراكية ولكن هل يعني هذا عدم النضال في سبيل حلها ولو جزئياً ؟! لا أبداً . فمثلاً مع معرفتنا التامة ان اوسع ديمقراطية برجوازية تبقى أضيق من الديمقراطية البروليتارية ، فاننا نناضل ، ليلاً نهاراً ، لنيل المكاسب الديمقراطية تلو المكاسب الديمقراطية ، في ظل النظام الرأسمالي . وهكذا أيضاً مسألة تأمين العمل ورفع مستوى الحياة ... الخ . ومع معرفتنا انه ما دامت الرأسمالية قائمة فإن خطر الفاشية وارد ، لكننا نناضل ، في ظل الرأسمالية وبالتحالف مع شرائح برجوازية معينة ، ضد هذا الخطر . ولا نقول لنترك الأمر حتى تحقيق الاشتراكية .

هكذا نتوجّه أيضاً للمسألة القومية . ففي ظل الرأسمالية نناضل من أجل المساواة في الحقوق وضد الشوفينية والتعصب القومي ، ونحقق المكاسب في نضالنا هذا . وغني عن البيان ان الظلم والتمييز القوميين

متفاوتان بين هذا البلد الراسمالي اوداك . وان كنا لا ننجح في القضاء عليهما جذريا في ظل الرأسمالية . كذلك نناضل من اجل حق تقرير المصير لمختلف الشعوب المحرومة من هذا الحق في ظل الرأسمالية ، بل وأحيانا عديدة بقيادة البرجوازية . هذا مع معرفتنا انه ليس هنالك ، اسهل على البرجوازية من بيع هذا الحق على مذبح مصلحتها الطبقية ومن تحجيره ، بعد تحقيقه ، لمصلحتها الذاتية عن طريق حلول المستغل والظالم «الوطني» مكان المحتل والظالم والمستثمر «الاجنبي» .

وأكثر من هذا فالنضال من أجل حل المسألة القومية هو نضال ديمقراطي وهو جزء من النضال العام من أجل الاشتراكية ، وشرط من شروطه . ولا نستطيع ان نكون ، فعلا ، مناضلين في سبيل الاشتراكية اذا لم نكن في الوقت نفسه مناضلين ضد كل مظاهر الغبن القومي ، وبشكل ثوري ومثابر .

يقول لينين بهذا الخصوص : «فليس حق الأمم في تقرير مصيرها هو وحده «غير قابل للتحقيق» في ظل الامبريالية إلا بصورة غير كاملة ، وعلى نحو مشوه ، وبشكل استثنائي جدا بل ايضا جميع المطالب الأساسية للديمقراطية السياسية [.....] ولكن هذا القول لا يعني أبداً انه يترتب على الاشتراكية - الديمقراطية أن تتخلى عن خوض نضال مباشر حازم جدا في سبيل جميع هذه المطالب [.....] بل انه يعني على العكس ان من الضروري صياغة وتحقيق جميع هذه المطالب ، لا بروح اصلاحية ، بل بروح ثورية ، لا بالانحصار في نطاق الشرعية البرجوازية بل بتخطيمه ، لا بالاكْتفاء بالنشاط البرلماني والاحتجاجات الشفوية ، بل باجتهاد الجماهير الى العمل النشط ، وبتوسيع وإذكاء النضال حول كل مطلب ديمقراطي أساسي ، حتى هجوم البروليتاريا المباشر على البرجوازية ، أي حتى الثورة الاشتراكية التي تصادر ملكية البرجوازية»^(٤٣) .

حق تقرير المصير وحركة التحرر الوطني

* حق تقرير المصير
* حركة التحرر الوطني

حق تقرير المصير

أشرنا سابقاً الى ان الاعتراف «بحق تقرير المصير» هو أحد المبادئ الأساسية الأهم في نظرة الماركسية - اللينينية للمسألة القومية . وبيناً كذلك اننا ننظر الى هذا الحق من منطلق مصلحة النضال البروليتاري ضد الامبريالية والرأسمالية . وسنتناول فيما يلي دراسة هذا المبدأ من مختلف جوانبه .

ان هذا المبدأ برجوازي في أساسه . بمعنى انه طُرح في البدء من قبل البرجوازية الصغيرة والمتوسطة الصاعدة في نضالها ضد الالحاق والضم الاقطاعي ، أو ضد الالحاق الامبريالي والاستعمار . ولكن ، كأبي شعار سياسي ديمقراطي آخر ، فان البرجوازية تخونه حال بدء تعارضه مع مصالحها . فكم من امبريالية - اعلى مراحل الرأسمالية - داست هذا الحق وحرمت عشرات الشعوب منه ، بعد ان كانت هي الداعية اليه في طفولتها - في مرحلة صعودها البرجوازي . وكم من برجوازية محلية باعت هذا الحق وفرغته من محتواه ، حال ظفرها بدولتها القومية ، عن طريق تأمرها مع الامبريالية والرأسمال العالمي وإرجاع الاستعمار بشكله الحديث . لذلك وحدها الطبقة العاملة تبقى امينة ومبدئية في طرحها لهذا الحق، في الحفاظ عليه ، على طول الخط .

ومحاول البعض اسناد هذا الحق الماركسي الى لينين . وهذا غير صحيح كلياً . صحيح ان لينين هو صاحب التراث الأغنى والتفصيلي في بحث مسألة حق تقرير المصير ، خصوصاً وأنه عاش في مرحلة وصول الرأسمالية الى اعلى مراحلها - الامبريالية ، وفي مرحلة بدء تصاعد حركة

التحرر الوطني وكونها قضية الساعة على بساط بحث مختلف الشعوب . ولكن ماركس وانجلس ايضاً كانا أمينين لهذا الحق حتى النهاية . وكل من يقرأ كتاباتها عن الاستعمار ونضال الشعوب ضده ، يتأكد من هذا الأمر . هذا دون انكار حقيقة ان لينين هو ليس فقط صاحب التراث الأغني في هذا المجال وانما هو ايضاً مطوّر التعاليم الماركسية بخصوصه ، بشكل خلاق ، في ظل الظروف الجديدة .

وتكفي هنا الإشارة الى ان قرار مؤتمر احزاب العمال الاشتراكية والنقابات العالمي - الأممية الثانية - المنعقد في لندن بتاريخ ٢٧ تموز الى أوائل آب ١٨٩٦ ، وان كان عُقد بعد وفاة ماركس وانجلس . لقد نص هذا القرار ، وبناء على تراث وتعاليم ماركس وانجلس ، على ما يلي : «يعلن المؤتمر تأييده لحق جميع الأمم التام في حرية تقرير مصيرها . ويعرب عن عطفه نحو عمال كل قطر يقاسي في الوقت الراهن نير الاستبداد العسكري أو القومي أو غيرها . ويدعو المؤتمر عمال جميع هذه الاقطار الى الانضمام الى صفوف العمال الواعين لمصالح طبقتهم ، في العالم اجمع ، للنضال معهم في سبيل التغلب على الرأسمالية وتحقيق أهداف الاشتراكية - الديمقراطية الأممية»^(٤٤) .

فالقرار أعلاه يعكس أمرين متداخلين ومكملين لبعضهما البعض . الأمر الأول الاعتراف بحق تقرير المصير في ظل الرأسمالية . والأمر الثاني دعوة عمال جميع الأمم للاطاحة بالرأسمالية وبناء الاشتراكية . وهذان الأمران ينعكسان ايضاً في مجمل تعاليم لينين عن حق تقرير المصير .

ان الاعتراف بحق تقرير المصير يعني ، كما أكد لينين في أكثر من مناسبة ، الاعتراف بحق الانفصال وإقامة الدولة القومية المستقلة . لقد كتب يقول : «اذا أردنا ... ان نفهم معنى حرية الأمم في تقرير مصيرها ، دون أن نتلاعب بالتعاريف الحقوقية ، ودون ان نخترع مفاهيم مجردة ، بل بتحليل الشروط التاريخية والاقتصادية للحركات القومية ، لا بد ان نصل الى النتيجة التالية : ان المقصود بحرية الأمم في تقرير مصيرها ، هو انفصالها كدول عن مجموعات قومية أخرى ، هو بالطبع تكوينها دولا قومية مستقلة»^(٤٥) .

وكتب أيضاً يقول : «ان حق الأمم في تقرير مصيرها يعني بوجه
الحصر حق الأمم في الاستقلال بالمعنى السياسي ، في حرية الانفصال
السياسي عن الأمة المتسلطة المضطهدة . وهذا المطلب ، الذي تنادي به
الديمقراطية السياسية ، إنما يعني ، عملياً ، الحرية التامة في التحريض من
أجل الانفصال وحل قضية الانفصال ، باستفتاء الأمة ، التي تطالب
به»^(٤٦) .

وتؤكد الماركسية ، - اللينينية على هذا الحق من منطلق مصلحتين تكمل
إحداها الأخرى . مصلحة وحق الشعوب في التحرر والاستقلال وبناء دولها
الوطنية ، والتي تتجانس ايضاً مع مصلحة بروليتاريا هذه الشعوب اذا كانت
قد تكونت ، ومصلحة بروليتاريا الأمة الظالمة المستعمرة نفسها . لأن
اضطهاد الشعوب واستعمارها عصباً ذات طرفين ، كما بينا سابقاً . فليس من
مصلحة وطنية - قومية - اعلى ، لدى بروليتاريا وأبناء الأمم الظالمة
والمظلومة ، من مصلحة القضاء على الاستعمار . وهذا القضاء يفتح بدوره
الباب على مصراعيه من اجل مسار النضال الاجتماعي نحو الاطاحة
بالرأسمالية عموماً وبناء الاشتراكية . فحق تقرير المصير هو حق ديمقراطي
وعادل وفي صالح الأمتين المظلومة والظالمة .

وحاول البعض تفريغ هذا الشعار من محتواه الحقيقي عن طريق
الحديث عن «الاستقلال الثقافي القومي» أو «الاستقلال الثقافي الذاتي» ،
كما دعا ، مثلاً ، التنظيم اليهودي المتعصب - «البوند» - في حينه ، في روسيا
القيصرية . أي الدعوة للاستقلال الذاتي الثقافي لأبناء أية أقلية قومية بغض
النظر عن الرقعة الجغرافية التي يقطنونها ، وتوحيدهم في منظمة فوق
طبقية ، في مختلف أماكن سكنهم ، وتحويلهم مهمة الاهتمام بشؤون أبناء
قوميتهم الثقافية في الأساس - التعليم وما شابه ، وكل ما يدخل في اطار
الثقافة القومية . انه استقلال لا مكاني عملياً ، بل انه انغلاق قومي .
كأن نقول مثلاً ان اليهود - وهذا ما دعا اليه «البوند» - وبغض النظر عن
أماكن تواجدهم في روسيا القيصرية المترامية الاطراف ، وبغض النظر عن
تكاثر هذا التواجد أو قلته ، يشكلون وحدة واحدة مستقلة ومسؤولة عن
إدارة شؤون حياتها .

ان مثل هذه الدعوة تناقض ، قلباً وقالباً ، المبدأ الماركسي - اللينيني بحق تقرير المصير . اذ نقصد بهذا الحق الاستقلال السياسي وإقامة الدولة على بقعة جغرافية محددة ، وبالأخذ بالاعتبار الظروف الاقتصادية لهذه البقعة وليس التركيبة القومية فقط أو الانتهاء الديني واللغوي أو الموصفات الروحية ، فقط . فلا أحد يطالب بحق تقرير المصير لبضع مئات من أقلية قومية تعيش بين مئات آلاف وملايين الناس ، لقومية أخرى في مدينة أو دولة كبيرة ، إلا إذا أصيب بالجنون . والشعار الذي يجب طرحه هنا ليس الانفلاق القومي عن طريق ما يسمى «بالاستقلال الثقافي الذاتي» وإنما المساواة القومية ، ولا أقل من المساواة ، لأبناء هذه الأقلية ، في مختلف مجالات الحياة . ان حق تقرير المصير «الثقافي» ، على هذا الشكل الرجعي ، لا يعني سوى نفي حق تقرير المصير السياسي والوقوع في حماة القومية الضيقة .

وتجدر الإشارة الى ان ليس «البوند» وحدهم لم يفهموا البرنامج اللينيني لحق تقرير المصير . فلقد واجه هذا البرنامج ، في فترات متفاوتة ، هجوماً شرساً من اوساط حزبية كانت تتبنى الماركسية ، ومن مرتدين عن الماركسية ، ومن شخصيات اشتراكية عالمية مرموقة ، وقع بعضها في خطأ رفض هذا الحق ، لفترة معينة أو على طول . ونذكر هنا ، على سبيل المثال لا الحصر ، نقاش لينين بهذا الخصوص ضد روزا لوكسمبورغ وكاوتسكي وبلخانوف وبوخارين وبياتكوف وآخرين كثيرين . هذا طبعاً الى جانب محاربة هذا المبدأ بضراوة من قبل القيصرية الروسية وخدمها من البرجوازية ورجالات الاقطاع .

ولكن ما يهمننا هنا هو النقاش ضد هذا الحق ، من وجهة نظر «ماركسية» (!؟) كما ادعى مثيروه . وكيف كان ذلك ؟!

لقد ادعى هؤلاء «الماركسيون» ان شعار «حق تقرير المصير» يؤدي الى التفريق بين الأمم ، وحتى الى تسعير اتجاهات قومية محلية . مع ان هدف البروليتاريا هو وحدة الأمم واندماجها ، وليس تفرقها وتباعدها وانفصالها . لذلك يبقى طرح هذا الشعار بمثابة انحراف عن «الماركسية» ، التي يجب ان لا تشغلها كثيراً مسألة الخلافات القومية ، وإنما مسألة دعوة بروليتاريا جميع الأمم الى التكاتف في سبيل الثورة الاشتراكية ضد الرأسمالية . أضف الى

هذا ان هذا السعار وتحقيقه يقوي البرجوازيات المحلية التي ستسعر بدورها القويحة الضيقة والتنافر بين بروليتاريا مختلف الشعوب . أضف الى هذا ان الأمة تتكوّن من برجوازية وبروليتاريا وعلى الشيوعيين ان لا يطالبوا بحق تقرير المصير إلا للبروليتاريا ، وذلك عن طريق الثورة الاجتماعية - الاشتراكية .

كذلك ادّعى بعض هؤلاء «الماركسيين» ان طرح مثل هذا السعار ما هو إلا طوبى لأن الامبريالية لا تسمح به ، ولأن البرجوازية المحلية ستفرغه من محتواه . ولن يكون بمقدورها ضمان الاستقلال الاقتصادي في ظل سيطرة الامبريالية العالمية . لذلك يجب تركيز الجهود للاطاحة بالراسمالية العالمية . أما طرحه في ظل الاشتراكية ، أي بعد انتصار الثورة الاشتراكية ، فانه مخالف للمبدأ الماركسي بضرورة وحدة الأمم لا انفصالها . أضف إلى هذا ان العديد من القويحين البرجوازيين المحليين سيستغلون هذا السعار بهدف ضرب البروليتاريا المحلية وفسخ تضامنها الأممي مع بروليتاريا الأمة الظالمة . وهذا ما تلجأ اليه أيضا برجوازية الأمة الظالمة مثيرة الفرع حول تقسيم الوطن الواحد ومُسعرة للاحتراب القومي ، مما يضر بالتضامن الطبقي البروليتاري .

ما هو ردنا على هذه الترهات ؟ ! ان ما أوردناه أعلاه هو مثال ساطع على تبني مواقف شوفينية رجعية تحت علم «الماركسية» . انه ترديد فج ، لمصطلحات الماركسية ، يريد صاحبه ان يظهر نفسه ، من خلاله ، انه هو «اليساري الاشتراكي» و «الثوري الحقيقي» . اذ انه لا يريد إلا «الثورة الاشتراكية العالمية» ، مقابل «اليميني» و «المنحرف» الذي يهتم «بسفاسف» المسألة القومية على حساب الثورة الاشتراكية ، ويتغنى بحق تقرير المصير . ان مثل هذه المواقف تبقى ، في احسن الحالات ، مؤشرا بارزا لفهم نصية وحرفية الماركسية لا روحها الثورية . انها مثال على سيطرة التوجه الميكانيكي السطحي مقابل التوجه الدايالكتيكي الثوري والذي يضع كل قضية في اطار زمانها ومكانها وظروفها الاقتصادية ، وتبقى «كاريكاتور» عن الماركسية ، كما كتب لينين ناقدا إياها .

ان من يرفض حق تقرير المصير ، عندما يجري الحديث عن النضال ضد الاقطاع ، أو ضد الامبريالية ، ليس فقط لا يفهم ألف - باء

الماركسية ، كما أكد لينين في أكثر من مقال وبحث ومناسبة ، وإنما أيضاً ، كما أضاف ، يكون «متعصباً قومياً» و «شوفينياً» و «ندلاً ووغداً» و «خادماً للامبريالية» و «مؤيداً لامتيازات أمته» و «خائناً لوطنه وللإشتراكية» ... الخ .

ثم إن الماركسية - اللينينية وضعت دائماً هذا الحق من وجهة نظر مصلحة الطبقة العاملة والنضال العام ضد الاستعمار والرأسمالية . وهي لم تدع ، ولا تدعو ، أبداً ، الى تأييد هذا الشعار في كل زمان ومكان ، بدون قيد أو شرط ، وبغض النظر عن كونه شعاراً تقدمياً أو رجعياً ، في هذه المرحلة أو تلك ، في هذا الاطار أو ذاك . [كنا قد فصلنا شرح هذه المسألة ، سابقاً .]

أضف الى هذا انه من الضروري التفريق بين الاتجاهين التاريخيين في المسألة القومية ، اللذين تعرفهما الرأسمالية في تطورها . فكل نضال ، حتى لو قاده البرجوازية ، ضد الاقطاع أو الامبريالية وفي سبيل حق تقرير المصير ، هو نضال تقدمي وثورى ومن واجب الطبقة العاملة تبنيه ودعمه . أما الحديث عن عدم إمكانية تحقيق هذا الشعار وطوبوته فيبقى حديثاً منافياً للحقيقة . إذ ان ما يميز عهد الامبريالية ، فيما يميزها من خصوصيات ، هو أيضاً نمو وانتصار حركة التحرر الوطني للشعوب المكافحة في سبيل حق تقرير مصيرها . أما الحديث انه لا يمكن ضمان هذا الحق وان البرجوازية القومية المحلية قد تبيعه وقد تتاجر به وتخونه وتؤجج مشاعر التعصب القومي الخ ، لا ينفي أبداً ضرورة طرح هذا الحق من قبل الطبقة العاملة . إذ انه ما من مطلب سياسي ديمقراطي - بما فيه مطلب حق تقرير المصير - إلا ويبقى مطلباً ناقصاً في ظل الرأسمالية . لكن هذا لا يمنع الكفاح العنيد في سبيل تحقيق هذه المطالب ودفعها نحو الاكتمال في ظل الإشتراكية . وخائن للماركسية ذلك الذي يدعى انه بحجة كون الإشتراكية وحدها تزيل الظلم السياسي ، جذرياً ، علينا ألا نضع برنامجاً للمهام السياسية ، بما فيها القومية ، في ظل الرأسمالية .

ثم ان خيانة البرجوازية المحلية القومية لمثل هذه المطالب يجب ان يثير لدى الطبقة العاملة واجب فضح وسطية وتذبذب البرجوازية ، لا العداء للمطلب الديمقراطي كمطلب ديمقراطي . ان عداءنا لحق تقرير

المصير بحجة ان البرجوازية تتاجر به وتخونه ، لا يعني تبني موقف العداء للبرجوازية ، وإنما يعني الوقوع في شراكها وفي برائن الامبريالية الشوفينية ، بدلا من فضح فساد وتشويه وامتهان البرجوازية .

أما بخصوص عدم إجازة طرح مثل هذا المطلب بعد انتصار الثورة الاشتراكية ، فان هذا يعني اختيار موقع «الاشتراكية الشوفينية» وليس الأمية البروليتارية . اذ ان الاشتراكية لا تسعى لتحقيق الوحدة بين الأمم بالالزام وبالحديد وبالنار ، وإنما بالاقناع الحر . ولا يمكن هذا الاقناع الحر إذا لم نضمن «حق الانفصال الحر» . ويجب ألا ننسى ان الاشتراكية ما هي إلا مرحلة أولى على طريق «الشيوعية» - حيث ينتصر الاندماج الكامل للشعوب . ثم ان القول ان حق تقرير المصير لا لزوم له في ظل الاشتراكية ، أشبه بسخافة الادعاء ان الحرية لا لزوم لها في ظل الاشتراكية !

أما الحديث عن ضرورة التركيز على الثورة الاشتراكية فانه لا يعني أبداً رفض مرحلة الثورة الديمقراطية البرجوازية . بل على العكس تماما . ان الأمور ليست مُبسَّطة إلى هذه الدرجة : إما «امبريالية» وإما «اشتراكية» ، إما «ثورة عمالية» وإما «حق تقرير المصير للبرجوازية» . اذ ان حق تقرير المصير والقضاء على الاستعمار وإقامة الدول المستقلة تبقى مقدمة ضرورية لتحقيق الثورة الاشتراكية ، لانتقال الثورة من مرحلة التحرر الوطني الى مرحلة التحرر الاجتماعي ولتعميق الصراع الطبقي داخل الدول الامبريالية نفسها . واذا حدث الأمر عكسياً - مثلاً كما حدث في روسيا القيصرية ، بانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية - فلن نعارض الأمر وإنما سنفضله وسندعمه وسنضمن ، عندها ، حق تقرير المصير في اليوم التالي لانتصار الثورة ، أما عن طريق الاتحاد في اطار الدولة الاشتراكية الواحدة ، واما عن طريق ضمان حق الانفصال . وكل من يطرح الأمور بشكلها العكسي الفج ، لا يتبنى نظرة المادية التاريخية ، كما يدعي ، وإنما يتكلم عملياً باسم الامبريالية المستعدة عندها لأن تطالب : «أتوني بالمزيد من مثل هؤلاء الأصدقاء الشيوعيين» !

يقول لينين : «ولا بدّ للاشتراكية الظافرة من ان تحقق بالضرورة الديمقراطية الكاملة ، ومن ان تحقق بالتالي لا المساواة التامة في الحقوق بين الأمم وحسب ، بل ان تطبق ايضاً حق الأمم المضطهدة المظلومة في

تقرير مصيرها بنفسها ، اي حقها في حرية الانفصال السياسي . فاذا لم تثبت الاحزاب الاشتراكية بكل نشاطها ، الآن ، وابان الثورة ، وبعد انتصارها ، انها ستحرر الأمم المظلومة وتقيم علاقاتها معها على أساس حرية الاتحاد - مع العلم ان حرية الاتحاد تظل مجرد ادعاء باطل دون حرية الانفصال - فان هذه الاحزاب تخون الاشتراكية»^(١٧) .

طبعاً لا يوجد أي ضمان لدوام حق تقرير المصير في ظل الرأسمالية . بما فيه ضمان الاستقلال الاقتصادي . ولكن الذهاب الى ابعد من هذه الحقيقة ، الى حد رفض هذا الحق ، يعني دعم الاقتصاد الامبريالي لا الدعوة الى الشيوعية !

اننا بالنضال من أجل حق تقرير المصير تناضل عملياً ، ايضاً ، من أجل حق البروليتاريا في تقرير مصيرها . من اجل خلق افضل الشروط لتطور وانطلاق نضال البروليتاريا . وكل طرح معاكس ، كأن نرفض حق الشعوب في تحقيق مصيرها بحجة ان هذا الحق هو حق مقدس للبروليتاريا ، فقط ، يبقئ خيانة للماركسية تنسّر بجمل «ماركسية» طنانة . اننا لسنا فقط لا نضحى بمصلحة البروليتاريا في سبيل هذا الحق ، وإنما ايضاً لا نوافق عليه إلا إذا كان في مصلحة البروليتاريا ، في مصلحة الثورة الاجتماعية . أي ، عملياً ، في مصلحة الجماهير الشعبية ككل . لأنه لا تعارض بين مصلحة البروليتاريا ومصلحة الجماهير الشعبية .

أما الحديث عن ضرورة الاهتمام بالتربية الأممية لا بالانقسامات القومية ، فانه يبقى حديثاً عاماً ، ما لم يلزمه الاعتراف بحق الأمم في تقرير مصيرها ورفض أي قسر قومي من أي كان . ان معيار أممية البروليتاريا هو موقفها ، ايضاً ، من حق الشعوب في تقرير مصيرها . وليس هنالك من عدو للأممية وللتقارب بين الشعوب وللتضامن البروليتاري أخطر من الاستعمار والإلحاق والظلم القومي والشوفينية . وليس هنالك من تربية أممية حقة أفضل من تربية بروليتاريا الأمة الظالمة على الاعتراف بحق الأمم المظلومة بالانفصال . وهذا وحده يضمن ، بدوره ، تربية بروليتاريا الأمم المظلومة تربية أممية . اننا اذ ندافع عن حق تقرير المصير لا نساعد الشوفينية الامبريالية ولا القومية المحلية وانما نناضل ضد هذين التيارين ، مع معرفة التفريق بينها طبعاً وعدم وضعها على قدم المساواة . وهكذا ،

هكذا فقط ، نضمن الوحدة الأممية للأمم .
يقول لينين : «وكما ان الانسانية لا تتمكّن من إلغاء الطبقات إلا
عبر مرحلة انتقالية هي مرحلة ديكتاتورية الطبقة المظلومة ، كذلك فهي
لا تستطيع التوصل الى اندماج الأمم المحتوم إلا عبر مرحلة انتقالية هي
مرحلة تحرر جميع الأمم المضطهدة تحرراً تاماً ، أي عبر مرحلة تتمتع فيها
بحرية الانفصال»^(١٨) .

ويقودنا هذا الكلام الى مناقشة الحجة الأخيرة والتي تُصور حق تقرير
المصير دعوة للانفصال بين الأمم ، تتناقض مع دعوة الماركسية للاندماج
بينها .

هذا الطرح الخاطئ ، يعكس هو الآخر فهم «نصية» الماركسية لا
جوهرها الثوري . اذ ان البروليتاريا معنية فعلاً بتقارب الأمم وامتزاجها
وبناء الدولة الكبيرة . وتقف ضد التجزئة الاقتصادية . ولكن لا يمكن تحقيق
هذا الأمر إلا على قاعدة ديمقراطية حقاً وأمية حقاً - أي على قاعده
الاعتراف بحق تقرير المصير . اننا اذ نعترف بهذا الحق لا ننشر الدعوة الى
الانفصال وإنما نمهد الطريق الى الامتزاج الحق والفعلي . ولا يوجد أي
تناقض في قولنا : اننا ضد الانفصال ودعاة للاندماج ، من خلال الدعوة
الى الحق في الانفصال ! اذ لا يمكن ان يتم الاندماج الديمقراطي الذي
نتوخاه عن طريق القسر والظلم القومي ، وإنما يتم عن طريق ضمان
المساواة التامة في الحقوق القومية ، بما فيها حق الانفصال . هذه المساواة
وهذه القاعدة الديمقراطية هي التي تضمن الاندماج المرجو .

يقول لينين : «واذا كنا نطالب حكوماتنا بأن تخرج من المستعمرات
- أي اذا تركنا صيحات الدعاية واستعملنا الاصطلاح السياسي الدقيق
- وطالبناها بأن تمنح المستعمرات الحرية التامة في الانفصال ، بأن تمنحها
فعلاً حق تقرير المصير ، واذا كنا أنفسنا سنطبق هذا الحق على التأكيد
وسنمنح هذه الحرية فور استيلائنا على السلطة ، فإننا نطلب ذلك من
الحكومة الحالية ، وسنفعل ذلك عندما نصبح أنفسنا حكومة ، لا لكي
«ننصح» بالانفصال ، وإنما نفعل ذلك ، بالعكس ، لكي يصبح التقارب
الديمقراطي بين الأمم والاندماج الديمقراطي بين الأمم أسهل وأسرع
[.....] واذا كنا نطالب بحرية الانفصال للمونغوليين والفرس والمصريين

ولجميع الأمم المظلومة المهضومة الحقوق دون استثناء ، فنحن لا نفعل ذلك قط لأننا نؤيد انفصالها ، إنما نفعل ذلك لمجرد كوننا نؤيد تقارب الأمم واندماجها بملء حرّيتها واختيارها ، لا عن طريق القسر ، وليس من سبب غير هذا السبب»^(٢٩) .

وغنيّ عن البيان ان الاندماج الديمقراطي لن يتحقق إلا بفضل الاشتراكية التي بمقدورها وحدها حل المسألة القومية حلا جذرياً . ولكن كيف نفسر ان الدعوة لحرية الانفصال لا تعني النصح بهذا الانفصال ؟ ! لقد شبه لينين هذا الأمر بقانون «حرية الطلاق» . فمنح المرأة الحق الديمقراطي بحرية الطلاق لا يعني بأية حال من الأحوال ، نصح كل امرأة بضرورة ترك زوجها في كل الأحوال . ولكن يعني حقها في ترك زوجها اذا كان اتحادهما الزوجي اتحاداً قسرياً يضر بأحد شقيه ويسلبه حقوقه . ثم كلما كان النظام القائم أقل ديمقراطية كلما أحسّ الناس ان ممكن الشر يكمن في نقص الحقوق الديمقراطية . ولكن مع ازدياد كسبهم للحقوق الديمقراطية - ودون التقليل من أهمية هذا الأمر - يكتشفون أن وضعهم ما زال سيئاً وأن جوهر الشر يكمن في النظام الرأسمالي القائم وليس فقط في نقص ديمقراطية النظام القائم . فالدعوة الى حرية الانفصال وتطبيقها تسرع من عملية الصراع الطبقي وتجعله أكثر حدة وسفوراً واتساعاً ، مما يسهل عملية الاندماج مستقبلاً . أي انها تؤدي الى عكس ما تنهم به من كونها دعوة للتصدع وللتنافر القومي .

كذلك الرجعية تنهم حق «حرية الطلاق» بأنه «يصدّع العائلة» ، حتى تخفي الأسباب المادية الحقيقية التي تقف وراء هدم العائلة . إذ ان حرمان العائلة من هذا الحق لا يضمن سعادتها ووحدتها وإنما يضمن العلاقة القسرية الظالمة وشقاءها . وتبقى حرية الطلاق ضماناً لتماسك العائلة على أسس ديمقراطية متقدمة .

لقد لخص لينين تعاليمه بخصوص «حق تقرير المصير» مبيناً ان النضال ضد شوفينية الأمة الظالمة لا يعني أبداً السجود أمام كل مطلب قومي لأمة مظلومة ، ولكن إنكار حق تقرير المصير يعني خدمة الأمة الظالمة والضرر بمسألة الأهمية والاندماج . فكتب يقول : «ان مصلحة الطبقة العاملة ومصلحة نضالها ضد الرأسمالية ، تحتمان النضال التام والوحدة

الوثيقة العرى بين عمال جميع الأمم . وهما تتطلبان التشديد في الرد على سياسة التعصب القومي التي تنتهجها برجوازية أية قومية من القوميات . ولذا سواء اذا شرع الاشتراكيون - الديمقراطيون ينكرون على الأمم المظلومة الحق في تقرير مصيرها ، أي حقها في الانفصال ، أم اذا شرعوا يؤيدون جميع المطالب القومية التي تطرحها برجوازية الأمة المظلومة ، فان كلا من هذين الموقفين يكون تهرباً من أهداف السياسة البروليتارية وإخضاعاً للعمال للسياسة البرجوازية . [.....] ان أدنى تأييد تقدمه بروليتاريا أمة من الأمم لنصرة امتيازات «برجوازياتها» القومية ، لا بد ان يثير حذر بروليتاريا الأمة الأخرى ، وان يضعف التضامن الطبقي الأممي بين العمال ويحدث الانقسام بينهم لما فيه فرح البرجوازية وابتهاجها . لذا فكل نكران لحق تقرير المصير ، لحق الانفصال ، معناه حتماً من الناحية العملية ، تأييد امتيازات الأمة الحاكمة»^(٥٠) .

وبعد ، لقد حسمت قضية كون «حق تقرير المصير» مبدءاً أساسياً من مبادئ الماركسية - اللينينية في نظرتها للمسألة القومية ، منذ انتصار ثورة أكتوبر . ولا نجد اليوم ماركسياً حقيقياً واحداً يعارض هذا الحق ، من منطلقات «ماركسية» (١؟) . وما الشرح التفصيلي الذي أوردناه اعلاه إلا محاولة لتعميق وتوسيع شرح المبدأ وتبيان صلابة الشيوعيين في الدفاع عنه ، من خلال الرد على منتقديه . فالشيوعيون كانوا دوماً ، وما زالوا ، في طليعة المكافحين من اجل ضمان حق تقرير المصير للشعوب . هذا ما تشهد عليه حركة التحرر الوطني في العالم بأسره .

ان أعداء حق تقرير المصير كانوا وبقوا ، الامبرياليون ، على مختلف قومياتهم . وما من حق تحقق إلا بالنضال ضدهم ، بما فيه النضال المسلح . وهذا يقودنا الى موضوع «حركة التحرر الوطني»

حركة التحرر الوطني

مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت الرأسمالية

قد وصلت الى اعلى مراحلها - الامبريالية . وواكب هذه العملية ، على الصعيد الدولي ، استكمال استعمار قارات بأكملها - ضُمَّتْ أكثر من مئة دولة - من قبل حفنة صغيرة من الدول الامبريالية الغربية : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية وروسيا القيصرية والمانيا وايطاليا وغيرها من الدول الامبريالية . وبات تصدير الرأسمال نموذجاً يميّز السياسة الاستعمارية التي استولت على العالم بقوة السلاح وبقوة الرأسمال . والدولة التي لم تستعمر مباشرة وجدت نفسها مستعمرة ، بقوة الرأسمال الأجنبي . وكانت المستعمرات وشبه المستعمرات سوقاً للبضاعة الغربية و «منجماً» للمواد الخام الرخيصة ، في خدمة الصناعة الامبريالية . وسمى الاستعمار هذا النهب الاقتصادي والاستغلال الفاحش والقمع العسكري الوحشي بـ «رسالة حضارية أوروبية» تهدف نقل «الشعوب الشرقية المتوحشة» الى عصر «المدنية» (!؟) .

ولكن اليوم ، وتحت تأثير انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى وتحت تأثير النصر على الفاشية والنازية في الحرب العالمية الثانية وظهور مجموعة الدول الاشتراكية ، وتحت تأثير تصاعد كفاح الشعوب المستعمرة ، فانه بالكاد نجد بقعة مستعمرة على ارضنا . ويُذكر في هذا المجال ، مثلاً ، استمرار سلب الشعب الفلسطيني وشعب ناميبيا حق تقرير مصيرهما . وبعض المستعمرات أو شبه المستعمرات القليلة العدد ، وحرمان النظام العنصري ، في جنوب افريقيا ، للسكان الأصليين، من ممارسة حقوقهم الشرعية والديمقراطية .

لقد سجلت سبعينات القرن الحالي ، وبعد انهيار المستعمرات البرتغالية ، إثر ثورة البرتغال على الفاشية ، انهيار آخر معاقل الاستعمار تقريباً . وظهرت الى الوجود ، في هذا القرن ، مئة دولة جديدة تقريباً ، كانت مستعمرة . وهذا ساعد في تغيير وجه العالم وحل مسألة حق تقرير المصير - أحد أهم أجزاء المسألة القومية - لعشرات الشعوب . لقد انتهى العهد الذي نسي فيه الامبرياليون ان الشعوب المضطهدة والمستعمرة هي أمم أيضاً ، كما قال لينين في حينه .

وتؤكد الماركسية - اللينينية اليوم وجود ثلاث قوى ثورية رئيسية لعصرنا الراهن ، عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وهي :

العالم الاشتراكي - وحركة الطبقة العاملة في الدول الرأسمالية الغربية - وحركة التحرر الوطني . وهذه القوى الثلاث مدعوة الى تعزيز تضامنها وتحالفها حتى يتم القضاء على آخر معاقل الاستعمار ومخلفاته ، بشكله القديم والجديد ، وحتى تتصاعد عملية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية .

لقد كان ماركس وانجلز ولينين ، دائماً ، انصاراً لحركة التحرر الوطني للشعوب ورأوا أهميتها الثورية المزدوجة : تحرر الشعوب من الاستعمار وبناء دولها المستقلة من جهة ، وتعميق أزمة العالم الرأسمالي عن طريق فقدان مواقعه من جهة ثانية ، مما يقرب الطريق نحو الاشتراكية . وأكدوا كذلك على أهمية التحالف الثوري بين بروليتاريا الأمم الظلمة وجماهير الشعوب المظلومة في سبيل حل المسألة القومية وفي سبيل الثورة الاجتماعية . بل وتنبأ لينين بتحالف حركة التحرر الوطني ، حتى قبل ان تتصاعد قوتها ، مع الدول الاشتراكية ، حتى قبل ان تنتصر أول ثورة اشتراكية في عالمنا .

وبينما ، في البحث السابق ، كيف دافع لينين عن حق تقرير المصير ، أمام كل أعدائه ، من «اليسار» ومن اليمين ... ولقد أكد لينين ، في أكثر من مقالة وبحث ، ان إستيقاظ شعوب آسيا وشروع بروليتاريا أوروبا في النضال من أجل تسلم السلطة ، تبشر ببدء مرحلة جديدة في التاريخ . وان حركة البروليتاريا الأوروبية حصلت على رفاق آسيويين جدد يكافحون ضد الاستعمار .

وأشرنا كذلك الى انه من الخطأ انكار دور ماركس وانجلز في هذه المسألة . فلقد كانا - وهذا ما تثبته كتاباتها عن الهند والصين وايرلندا وشعوب روسيا القيصرية والجزائر الخ ، وكذلك كتاباتها عن الدول الاستعمارية - نصيرين عنيدين ودائمين لحركة الشعوب الوطنية . وتسطيع في هذا المجال ، بشكل خاص ، جملة انجلز : «ان شعباً يضطهد شعوباً أخرى ، لا يمكن أن يكون حراً» .

وعن حتمية تحرر المستعمرات وعبورها بمراحل مختلفة حتى وصولها الى الاشتراكية ، وعن حتمية قبول البروليتاريا الأوروبية لهذا التحرر وتقدمها لطريقها الاشتراكي العتيد كمثال ، وعن ضرر فرض نظام اجتماعي معين

على الشعوب المتحررة ، كتب انجلس ، في رسالة الى كاوتسكي بتاريخ ١٢ ايلول ١٨٨٢ يقول : «اني أرى ان المستعمرات بكل معنى الكلمة [.....] ستغدو مستقلة [....] من الصعب القول كيف ستتطور هذه الحركة . فقد تقوم الهند بثورة ، بل ان هذا الأمر محتمل جداً ، ولما كانت البروليتاريا في سبيل التحرر لا تستطيع خوض حروب استعمارية ، فينبغي القبول بالثورة [.....] وقد يجري الشيء نفسه في بلدان أخرى ايضاً ، مثلاً في الجزائر وفي مصر ، وهذا سيكون ، بالنسبة لنا ، وبكل تأكيد ، خير حل ، اذ سترتب علينا القيام بأشياء كثيرة عندنا . ان إعادة تنظيم اوروبا وامريكا الشمالية توفر قوة هائلة ومثلاً بليغاً الى حد ان البلدان شبه المتمدنة ستسير من تلقاء نفسها وراءنا ، والحاجات الاقتصادية وحدها تتعهد بهذه المهمة . ولكن أية اطوار اجتماعية وسياسية يترتب على هذه البلدان اجتيازها ، قبل ان تبلغ ايضاً التنظيم الاشتراكي ، فهذا ما لا نستطيع اليوم ، كما اعتقد ، ان نجيب عليه إلا بفرضيات لا طائل تحتها . غير ان ثمة أمراً لا يقبل الشك : هو ان البروليتاريا الظافرة لا تستطيع ان تفرض أية سعادة على شعب أجنبي دون ان تقوض بذلك انتصارها بالذات»^(٥١) .

ففي هذه الرسالة يضع انجلس ، عملياً ، خطوطاً عريضة واضحة لموقف الشيوعيين من مسألة حركة التحرر الوطني ، هذه الخطوط التي عمقها وطورها لينين ، والحركة الشيوعية العالمية ، في الظروف الجديدة . حتى انه في ايلول ، سنة ١٩٢٠ ، وفي أثناء انعقاد المؤتمر الأول لشعوب الشرق في باكو التسوفييتية ، ظهر الشعار - ولأول مرة : «أيها العمال ويا أيتها الشعوب المظلومة ، اتحدوا» ! وهذا كان تجديداً لشعار ماركس وانجلس «يا عمال العمال اتحدوا» ، الذي تصدر «بيان الحزب الشيوعي» وفسر لينين هذا التبديل بكون «البيان» قد كتب في ظروف أخرى . وهذا لا يعني بطلان شعار «يا عمال العالم اتحدوا» وإنما يعني ضرورة اتحاد حركة الطبقة العاملة وحركة التحرر في الكفاح ضد الامبريالية ومن أجل السلام والديمقراطية والتقدم الاجتماعي ..

وأكد لينين على ان حركة التحرر الوطني ، في عهد الامبريالية والثورات الاشتراكية ، تنتقل من كونها احتياطياً محتملاً للثورة الاشتراكية

الى حليف مباشر لها . خصوصا وانه لا يمكن ان تنتصر الثورة الاشتراكية في كل البلدان ، في زمن واحد . وترفض الماركسية المعادلات المبسطة والرجعية في جوهرها ، رغم تشدقها «بالماركسية» ، والتي لا ترى الأمور إلا على شكل «إما» و «أو» . اما ثورة اجتماعية اشتراكية واما «امبريالية» رجعية ! وهذا تقصد التقليل من أهمية ثورات التحرر الوطني . يقول لينين : «ان الثورة الاجتماعية لا يمكنها ان تحدث إلا بصورة عهد يجمع الحرب الأهلية التي تشنها البروليتاريا على البرجوازية في البلدان المتقدمة الى جملة كاملة من الحركات الديمقراطية والثورية ، بما فيها حركات التحرر الوطني في الأمم غير المتطورة والمتأخرة والمظلومة»^(٥٢) .

فالرأسمالية تتطور بصورة متفاوتة في مختلف البلدان . ولا يمكن ان تنضج ظروف الثورة الاشتراكية في آن واحد ، في كل البلدان . وتحتل حركة التحرر الوطني مكانا هاما ، الى جانب الثورات الاشتراكية ، في توجيه ضربة للامبريالية وفي تعبيد طريق التقدم الاجتماعي .

* هل تحمل حركة التحرر الوطني المسألة القومية !!

لا حل جذري ونهائي للمسألة القومية ، إلا في ظل الاشتراكية ، كما أثبتنا هذا سابقا . ولكن هذه الحقيقة يجب ألا تقلل أبدا من الخدمة الرائعة التي تقدمها حركة التحرر الوطني للمسألة القومية ، وهي القضاء على الاستعمار وبناء الدول الوطنية المستقلة . اذ انها عامل فعال في اسقاط الامبريالية العالمية .

وتقف أمام هذه الحركة مهمات وطنية في غاية الأهمية ومنها : عدا طرد المستعمر ، القضاء على التخلف الاقتصادي - الاجتماعي ، بناء الصناعة الوطنية ، إجراء اصلاحات زراعية والقضاء على بقايا الاقطاع واصلاح جهاز الدولة ورفع المستوى العلمي والثقافي للجماهير وبناء القوات المسلحة الوطنية وإشاعة الحياة الديمقراطية ... الخ . والى جانب هذا ، ومع هذا ، ضمان عدم عودة الاستعمار بشكله الحديث ، والكفاح ضد الاحتكارات . ويمدى نجاح ، أو عدم نجاح ، حركة التحرر الوطني - في هذا البلد أو ذاك - في تنفيذ هذه المهمات ، تتحدد مدى خدمة هذه الحركة لحل المسألة القومية .

ويجب ألا يغيب عن البال ان الاستعمار يترك وراءه تخلفاً رهيباً ، على

مختلف الاعداء ، واقتصادا مشوها ، عدا الحزبات والاحترابات القومية والقبلية . أضف الى هذا ان مجرد الاستقلال السياسي لا يضمن بعد إزالة الارث الاستعماري الرهيب . ومدى النجاح والسرعة في إزالة هذا الارث تحدده قيادة حركة التحرر الوطني . لمن القيادة ؟! وما هي وجهة التطور الاجتماعي التي تتخذها ، بناء عليه ، ؟! هذا ما يقرر ، في نهاية المطاف ، ليس فقط مدى حل المسألة القومية وانما بحمل القضايا الاجتماعية - السياسية التي تواجهها حركة التحرر الوطني .

وهنا لا بد من التنويه اننا لا نقصد بتاتا ، في هذه العجالة ، بحث بحمل قضايا حركة التحرر الوطني . وليس هذا هدفنا ، في هذا الكتاب . وانما سنتناول بعض القضايا بمدى ارتباطها بالمسألة القومية .

تنزعم حركة التحرر الوطني ، عادة وليس دائما ، البرجوازية الصاعدة . البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، بما فيها فئة المثقفين المنحدرة منها ، في الأساس . وتكون الحركة حركة جماهيرية واسعة ، اذ تمثل هذه القيادة ، في هذه المرحلة وعلى ضوء المهام المطروحة ، مصالح الأمة ككل ، ما عدا تلك الشرائح البرجوازية التي ربطت مصيرها بمصير الاستعمار وما عدا القوى الاقطاعية ، اذا كانت متوفرة . ويحتل الفلاحون - غالبية الجماهير - مركزاً بارزاً في هذه الحركة ، على خلفية ضعف الطبقة العاملة - حتى عددياً - في هذه المرحلة .

ولا يتأنف الشيوعيون وحلفاؤهم ، من الديمقراطيين الثوريين ، من قبول قيادة البرجوازية لهذه الحركة . بل على العكس ، فاذا ما وجدوا ، يكونون عادة أشد فصائل حركة التحرر الوطني إخلاصاً وثباتاً في مقارعة الاستعمار . ولا يشترطون قيادتهم للحركة حتى يشاركوا فيها ، كما تتهمهم الابواق الرجعية القوجية . ولا يفرقون وحدة الناس في مقارعة الاستعمار وتنفيذ المهام - الوطنية المطروحة ، على أساس التقسيم الى «طبقتي» و «قومي» . بل ما يحدث ، أحياناً ، هو العكس . اذ تلجأ شرائح برجوازية معينة الى محاولة استثناء الشيوعيين ، بل وقمعهم بحجة «القومية» و «الطبقية» ، فيؤدي الأمر الى بيع المصلحة القومية والطبقية !

ولقد خبرت حركة التحرر الوطني في مسيرتها التاريخية طريقتين مختلفتين ، ميزتها قيادتان مختلفتان . وهما : قيادة البرجوازية القومية وقيادة

القوى الديمقراطية الثورية . فطريق مصر عبد الناصر وجزائر بن بلا ، اختلف مثلاً ، عن طريق كوبا كاسترو وفيتنام هوشي منه وحتى عن طريق اليمن الديمقراطي . ان تفضيلنا للطريق الثاني - طريق قيادة الشيوعيين ومختلف القوى الديمقراطية الثورية ، لا يعني بأية حال من الاحوال التقليل من دور وأهمية الطريق الأول في مقارعته للاستعمار وفي قسطه لحل المسألة القومية .

كذلك تجربة الحركة الثورية في روسيا القيصريّة سجّلت طريقين مختلفين : طريق قيادة البرجوازية القويّجية ، والتي تهادت مع القيصر أحياناً وحاولت قمع اليسار وسعرت أحياناً العداء للروس كروس بما فيه العداء لأضمن حليف لها - البروليتاريا الروسية ، وطريق ثوري ديمقراطي تزعمه البلاشفة الذين سعوا لتوحيد مختلف روافد النقمة ، الوطنية - القومية ، العادلة ، وناضلوا للقضاء على الاضطهاد القومي والاجتماعي ، عن طريق التحالف الأعمى مع البروليتاريا الروسية . أي مزجوا بين حركة التحرر الوطني وبين الحركة الثورية للتحرر الاجتماعي . ولقد كان النصر لهذا الطريق . وهكذا كان في كوبا وهكذا كان في الفيتنام وهكذا كان في انغولا . وهذا هو طريق بنين وأثيوبيا واليمن الديمقراطي الخ ، اليوم . لذلك ساقطة ولا تصمد حتى أمام الجدل ، وخبرة التاريخ وتجاربه الغنية ، كل تلك المحاولات التي تنفي دور القوى الديمقراطية الثورية في حركة التحرر الوطني ، بحجة ان الموضوع على بساط البحث هو المسألة القومية ولذلك لا يجوز قيادة اليسار - الطبقي ! - لها . ان من يطرح مثل هذا الطرح يلتقي عملياً مع نقيضه الذي يدعي انه لا يجوز السماح للبرجوازية بقيادة حركة التحرر بحجة كونها متذبذبة وغير ثورية حتى نهاية المشوار . انه مثال كلاسيكي صارخ عن التقاء «اليسار» المتطرف مع اليمين الانتهازي في عدائها للخط السليم ، رغم ظهورهما على طرفي نقيض . لقد قدّمت التجربة السوفييتية - وغيرها - ليست فقط مثلاً غنياً عن قيادة الشيوعيين لحركة التحرر الوطني ، بل حتى عن عدم إجازة انتصار هذه الحركة أحياناً ، إلا عن طريق الثورة الاشتراكية . فشعوب روسيا القيصريّة تحررت واستقلت قومياً - عن طريق الثورة الاشتراكية في روسيا وانتشارها في المقاطعات والاقاليم القومية .

لكن لا يشترط أي ماركسي - لينيني ، اليوم ، هذا الشرط على أية حركة تحرر وطني سليمة تتبوأ قيادتها البرجوازية . رغم معرفة محدودة وتذبذب هذه القيادة . كتب لينين ، في رده على ناعتي الانتفاضة القومية الايرلندية «بالفتنة» ، لأنه لم تزعمها البروليتاريا ، أولأنها لم تنتظر الثورة البروليتارية في بريطانيا : «ان من ينبعث مثل هذه الانتفاضة بالفتنة ، إما رجعيأ من شر الرجعيين واما عقائديأ متحجراً يعجز عن تصور الثورة الاجتماعية ظاهرة حية .

«وذلك لأن التفكير بأن الثورة الاجتماعية ممكنة دون انتفاضة تقوم بها الأمم الصغيرة في المستعمرات وفي اوروبا ، دون انفجارات ثورية يفجرها قسم من البرجوازية الصغيرة رغم كل أوهامها وأفكارها الخاطئة ، دون حركة تبعثها الجماهير البروليتارية وشبه البروليتارية اللاواعية ضد الاضطهاد الاقطاعي والاكليروسي والملكي والقومي ، الخ . . - لأن التفكير على هذا النحو يعني انكار الثورة الاجتماعية . فكأننا نتصور جيش يقف في مكان ويقول : «انا مع الاشتراكية» ويقابله جيش آخر في مكان آخر ويقول : «أنا مع الامبريالية» ، واذا نحن نهتف : هذه هي الثورة الاجتماعية ! كلا ان من يحقر الانتفاضة الايرلندية وينعتها «بالفتنة» انما هو ، بقينأ ، دعي سخيف جدير بالسخرية .

«ومن ينتظر ثورة اجتماعية «خالصة» لن يراها أبداً . فهو ثوري قولأ ، ولا يدرك ما هي الثورة الحقيقية»^(٥٣) .

وهكذا نحن لا نشترط قيادة الطبقة العاملة لحركة التحرر الوطني حتى نؤيدها . ولم نطلب من قيادة حركة تحرر قومي عادلة ان تتخلي عن كونها قيادة برجوازية حتى ندعمها . لكن في الوقت نفسه لا نسمح لأحد بأن يشترط علينا أن نتخلي عن كوننا شيوعيين ، أو ان نتخلي عن تبيان الفوارق الطبقية بين البروليتاريا والبرجوازية ، في حل المسألة القومية ، حتى «بتفضل» هذا «الأحد» «بالسماح لنا» بالمشاركة في حركة التحرر الوطني أو حتى يعترف لنا بقيادتها ، اذا كنا قادتها فعلا . ان خزعبلات افتعال التناقض بين المصلحة الطبقية للعمال والمصلحة القومية للشعب قد دفتتها تجربة الشعوب منذ انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية ، سنة ١٩١٧ ،

[أنظر بحث الموضوع الثاني في هذا الكتاب] .

إنّ يصح ان تزعم البرجوازية حركة التحرر الوطني - والمسألة القومية . بل هذا ما حدث غالباً . ولكن عن أية برجوازية يجري الحديث ؟! انها ليست تلك البرجوازية التي «غنت أغنية الوطن» وانتهت منها وأصبح جل اهتمامها ، بعد التحرر الوطني ، استغلال الوطن ، واطنانا أخرى اذا أمكن . ليست البرجوازية في مرحلة تعفنها وتقيحها ورجعيتها ووحشيتها . ليست البرجوازية العجوز السائرة نحو حتفها القريب والتي لا تبخل ، ولا تتورع ، عن اللجوء الى أية جريمة بشعة أو وسيلة مجرمة لاطالة عمرها ، ولو اصطناعياً . فمثل هذه البرجوازية أصبحت خائنة لكل ما هو وطني وقومي شريف . كذلك ليست تلك البرجوازية المحلية المتحالفة مع الاستعمار ومؤامراته والساعية لتفريغ حق تقرير المصير من محتواه الديمقراطي .

اننا نقصد البرجوازية الفتية ، الشابة الصاعدة والمكافحة ضد الاستعمار والاقطاع والاحتكارات . البرجوازية الوطنية الديمقراطية المخلصة . برجوازية ، قال عنها لينين ، انها ليست غاربة وانما تكره الماضي ولا تسير انحداراً بل تصعد صعوداً . برجوازية كفؤ لتمثيل ديمقراطية مستقيمة ومكافحة . لكن حال انتصار هذه البرجوازية واقامة الدولة الوطنية يُثار السؤال : وماذا بعد ؟ !

هنا ايضاً عرفت حركة التحرر الوطني طريقين للتقدم الاجتماعي ، طريقين لـ «ماذا بعد» ، يختلفان جوهرياً في مدى قسطنها في حل المسألة القومية : وهما طريق التطور «الرأسمالي» ، وطريق التطور «اللارأسمالي» أو «ذات التوجه الاشتراكي» .

وستتناول هذين الطريقين ، هنا ، فقط من وجهة ارتباطهما بالمسألة القومية . فالطريق الأول ، الرأسمالي ، ليس فقط لا يبني الصناعة الوطنية المستقلة ولا ينفذ التقدم الاجتماعي والثقافي ولا يشجع الديمقراطية في الحياة الداخلية ، وانما حتى لا يقوم بالاصلاح الزراعي المطلوب . وقد يحافظ على بقاء الاقطاع . وكل هذا يتعلق بربط البلاد بالرأسمال الغربي وبالاحتكارات . ويوما بعد يوم يتضح ان الاستعمار القديم المباشر قد عاد في حلة جديدة - حلة الارتباط الكلي تقريباً ، لبعض الدول المنحرة ،

بالاقتصاد الرأسمالي الأجنبي . هذا الى جانب تشجيع الرأسمالية المحلية بقدر ما تسمح الظروف والارتباطات بالغرب الرأسمالي . وتحس الجماهير الشعبية - في ظل هذا الطريق - ان حالتها لم تتحسن . وانه مكان الظالم والمستغل الأجنبي حل الظالم والمستغل «الوطني» ، «القومي» - ابن البلد !

أما الطريق الآخر فأحياناً نبرز تسميته بأنه الطريق «الارأسمالي» بمعنى رفض الارتباط بالرأسمالية الغربية والعمل على تشجيع القطاع العام . وأحياناً نبرز تسمية «طريق التوجه الاشتراكي» والذي يؤكد فيه أكثر على وجهة المستقبل الاشتراكي . ويجري في ظله تنفيذ اصلاحات اقتصادية - اجتماعية - ثقافية - إدارية عميقة ، جنباً الى جنب مع تعميق الصداقة والتحالف مع العالم الاشتراكي . ويحدث ان يتوصل ، أحياناً ، قادة هذا الطريق ، حتى الى اختيار الماركسية - اللينينية كإيديولوجية رسمية ، وإلى بناء الحزب الماركسي - اللينيني ، الطبيعي .

وبناء على اتحاد هذه الطرق المختلفة، اما ان تباع المصلحة القومية على مذهب الاستعمار الحديث والجشع البرجوازي «الوطني» ، واما ان يتعمق حل المسألة القومية باتجاه الحل الاشتراكي .

والاستنتاج الهام هنا ان المسألة القومية - كغيرها من المسائل - لا تنتهي بانتهاء طرد الاستعمار القديم . وإنما تبقى موضوعاً على بساط البحث وتعرف اتجاهات مختلفة . فالقضاء على الاستعمار لا يعني القضاء على الرأسمالية . وما دامت الرأسمالية قائمة فالمسألة القومية قائمة . صحيح ان مكانة «القومية» ، بوصفها إيديولوجية حركة التحرر الوطني ، تهبط : لأن «القومي» - الموحد ، أي طرد الاستعمار ، قد تم . وصحيح انه يبرز الآن عجز الإيديولوجية «القومية» عن تقديم الحلول الاقتصادية - الاجتماعية ، وتبرز على السطح وجهة التطور الطبقي - الاجتماعي . ولكن قد تظهر في هذه المرحلة أيضاً خاصتان خطرتان في التوجه القومي : الأولى تتحدث عن الوحدة القومية ، وحدة الأمة ككل بدون أية فوارق طبقية ، ويهدف طمس التناقضات الطبقية وحتمية تعميق مسار حركة التحرر الوطني - [لنتذكر خطابات السادات ، الرئيس السابق لمصر وأحد أقطاب «كامب ديفيد» ، عن «أحبابه» و «أولاده» أبناء «العائلة المصرية

الواحدة» [- وهذه الخاصة تخدم ، في نهاية المطاف ، البرجوازية المحلية والاستعمار . وقد تظهر أيضاً خاصة التعصب القومي المحلي والذي يصل الى حد الشوفينية ورفض كل ما يأتي من اوروبا . مثلاً : «نحن آسيا وهم اوروبا» ، «نحن السود والسمر وهم البيض» ، «نحن الفقراء وهم الأغنياء» ، «نحن المستغلون وهم المستغلون» - هذا بدون التفريق بين غرب وشرق ، بين الدول الامبريالية والرأسمالية والدول الاشتراكية . ونجد أحياناً من يضع حتى الاشتراكية في قالب قومي ضيق ، يجعلها تختلف عن معناها الحقيقي . وتكثر المدارس «القومية» للاشتراكية : فهذه «اشتراكية عربية» وتلك «اسلامية» وهذه «آسيوية» وتلك «أفريقية» أو «زنجية» ... الخ .

ما هو موقفنا ؟ !

كنّا في السابق نفهم حتى بعض ملامح التعصب في التوجه القومي للأمة المظلومة بسبب كونه رد فعل على شوفينية الأمة الظالمة وبسبب محتواه الديمقراطي المعادي للغرب الاستعماري . ولكننا ، الآن ، وبعد انتصار حركة التحرر القومي ، نشهد عملية تحوّل هذا التوجه القومي الى شوفينية ضيقة تخدم البرجوازية المحلية ، حتى لو تلوّنت بألوان اشتراكية . لقد اختفى المحتوى الديمقراطي ليحل محله المحتوى الرجعي . ولهذا نرفضه . اننا على استعداد للاستمرار في دعم «الوحدة القومية» في عدائها للاستعمار وفي كفاحها للقضاء على التخلف الاستعماري البغيض . أما ان ندعم «وحدة قومية» يُقصد منها التستر على عدم إجراء اصلاحات اقتصادية - اجتماعية - سياسية عميقة ، ويُقصد منها التستر على بقايا الاقطاع وجشع البرجوازية المحلية ، فهذا يعني ان ندعم الرجعية . وهذا هو ، عملياً ، محتوى تشدق البرجوازية المحلية الرجعية بالقومجيات و «بالوحدة القومية» .

أما بخصوص الطريق «القومي» للاشتراكية . فان آباء الماركسية - اللينينية أكدوا ، أكثر من مرة ، ان التعاليم الاشتراكية ليست كليشيات جامدة . وان النظرية الماركسية - اللينينية هي مرشد للعمل وانه لا يمكن تطبيق الاشتراكية بدون الأخذ بعين الاعتبار الظروف والخصائص المحلية ، وأن أمية الاشتراكية العلمية تعني ، فيما تعنيه ، تطبيقها الخلاق في الظروف

المحلية المختلفة . واكثر من هذا فلقد اُكِّدَ لـينين ان تجارب هذا التطبيق الوطني المحلي ، كما كانت ايضا التجربة الروسية ، ستغني الاشتراكية العلمية عموما . ولكن شتان ما بين هذا الموقف الصحيح والوقوع في حماة القومية المحلية الى درجة إنكار القوانين العامة للاشتراكية والتي بدونها لا وجود للاشتراكية . فمثلا ان ادعاء تطبيق «اشتراكية قومية» ، بمعنى اشتراكية لا تعرف الصراع الطبقي ، هو سخافة لا تقل عن سخافة ادعاء امكانية وجود الرأسمالية بدون وجود الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج . وهكذا فالأمة ، في دول حركة التحرر الوطني ، ايضا ليست متجانسة . ان كون «الأمة» قد كانت مظلومة ، وما زالت تعاني من مخلفات الاستعمار ، لا يعني انكار وجود طبقات داخل هذه الأمة ، ومن ثم توجهات قومية مختلفة . فهناك قومية الطبقات المستغلة ، البرجوازية والاقطاعية . وهناك قومية الفئات العمالية والفلاحية - أي الطبقات المستغلة . وهناك قومية الفئات البرجوازية الوسطى والصغيرة .

فقومية الطبقات المستغلة ، بعد الاستقلال ، تطلق توجهها الديمقراطي ، الذي ميزها في مرحلة النضال لتحقيق الاستقلال الوطني ، وتصبح رجعية تغني «بالوحدة الوطنية» بهدف التستير على جشعها البرجوازي . ولذلك ندعم ، في هذه الفترة ، قومية الطبقات الشعبية ، وحتى تحالفها مع قومية فئات البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، بقدر استعداد هذه للسير بهذا التحالف لاستكمال تنفيذ المهمات الوطنية ، التي كنا قد تحدثنا عنها سابقاً .

وجنباً الى جنب مع هذا يجب ألا يغفل عن الطبقة العاملة تذبذب وتراجع هذه الفئات البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، مما قد يجلب الضرر على يحمل المهمات الوطنية . ولا تتأفف هذه الفئات حتى عن اللجوء ، أحيانا ، الى اشبع سياسة قمعية رجعية امام فزعها من تعميق مسار خط التحرر الوطني . وطبعاً تشهد شرائح من هذه الفئات عملية تحول نحو اليسار - نحو تبني موقف الطبقة العاملة .

وبعد ، ان دول حركة التحرر الوطني اذ تقدم خدمة رائعة ، على طريق حل المسألة القومية ، قد تحشرج ايضا في وسط الطريق وقد تخون مهامها الوطنية . وتبقى المسألة - اذ اردنا حل المسألة القومية حلا جنورياً ،

تعميق مسار حركة التحرر الوطني باتجاه التحرر الاجتماعي ، وتبني الاشتراكية العلمية - كأيديولوجية لإعادة بناء المجتمع بناءً ثورياً ، وتبني الأممية البروليتارية - كسياسة لهذه الاشتراكية في المسألة القومية . وهذا الاتجاه هو الذي يميز العديد من حركات التحرر الوطني ، في العقود الأخيرة ، في كل من إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . وهذه هي المهمة الموضوعية على بساط البحث أمام القوى الثورية في دول التحرر الوطني ، التي لم تتبن بعد طريق التحرر الاجتماعي .

وتجد حركة التحرر الوطني في مرحلة كفاحها من أجل الاستقلال وضد الاستعمار وفي مرحلة كفاحها ضد مخلفاته ، وفي مرحلة تعميق مسارها باتجاه التحرر الاجتماعي ، كل الدعم والمساعدة النزيهة من العالم الاشتراكي في سبيل بناء اقتصادها الوطني وتقديمها لإجماعي - الثقافي . وهذه هي إحدى مظاهر الأممية البروليتارية في الواقع التطبيقي .

ان تعميق صداقة وتحالف حركة التحرر الوطني مع العالم الاشتراكي هو الضمان لحل مهماتها القومية على أكمل وجه . أما غياب هذه الصداقة وهذا التحالف فيؤدي الى ابلغ الضرر لهذه المهمات القومية . هذا ما أثبتته أيضاً التجارب الغنية المتعددة للحركات القومية فيما اصطلح على تسميته «بالعالم الثالث» . فما من مكسب جدي حققته هذه الحركة الا وكان من خلال الصداقة مع العالم الاشتراكي . وما من هزيمة منيت بها الا وكانت في ظل غياب توطيد الصداقة والتحالف مع العالم الاشتراكي . وتبقى تجربة حركة التحرر الوطني ، في العالم العربي ، أحد أبرز الاثباتات لهذه الحقيقة .

ومن المفيد ان نذكر ، في هذا الصدد ، بمقررات وابحاث المؤتمر السابع «للأممية الثالثة» (الكومنتيرن) التي أكدت على ضرورة إقامة جبهة وطنية معادية للامبريالية واحتكاراتها . وكان على هذه الجبهة - وما زال - ان توحد بين مختلف الفئات الوطنية - القومية - في الكفاح ضد العدو المشترك ، ألا وهو الامبريالية واحتكاراتها والتي تسعى ، دوماً ، ليس فقط لمنع الاستقلال الوطني وإنما أيضاً لتفريغه من محتواه ، بعد أن يتحقق . وهذه الجبهة الوطنية ، والتي توحد مختلف الفئات المعنية ، بغض النظر عن خلافاتها الايديولوجية ، تستطيع ان تقوم ، في الوقت نفسه ، على الصعيد

الدولي ، بين عالم الاشتراكية وحركة الطبقة العاملة التقدمية في الدول الرأسمالية وحركة التحرر الوطني . ان تعزيز مثل هذه الجبهة هو الضمان لتعزيز الاستقلال الوطني . هو الضمان لحل المهمات القومية ، الموضوعه على بساط حركة التحرر الوطني ، حلا صحيحا وثابتا .

كذلك فان احدى المهمات الوطنية الرئيسية ، امام حركة التحرر الوطني في الوقت الراهن ، هي محاربة الاستعمار الجديد . فالامبريالية اضطرت الى تغيير أسلوبها أمام تغيير توازن القوى لصالح الاشتراكية ، على الصعيد الدولي ، وأمام انتصارات حركة التحرر الوطني . وبدلاً من أسلوب القمع العسكري القديم - والذي لم تطلقه كليا (فوكلاند بريطانيا ، وغرينادا امريكا وغيرهما ...) - نراها تلجأ الى الطرائق الاقتصادية . وهذا ما نسميه بالاستعمار الجديد . والذي يهدف الى تقويض الاستقلال الوطني للدول المتحررة عن طريق ربطها بعجلة الاقتصاد الامبريالي وبمؤسساته وسوقه وفرض سياسة تجارية غير متكافئة عليها واغراقها بالديون وتوسيع نشاط سيطرة احتكاراته على اقتصادها الوطني .

ان القاعدة المادية لهذا الاستعمار هي الملكية الاحتكارية للدول الامبريالية لوسائل الانتاج . أما سنده الاجتماعي فهي الاوساط العليا من الطبقات والفئات الاستغلالية في الدول المتحررة . أما مرتكزه الايديولوجي فهو العداء للشيعوية وللشوفييت ولسائر الدول الاشتراكية . ولا يتورع هذا الاستعمار عن اللجوء الى أسس الساليب من غرس أنظمة معادية وتدخل وقح وتجسس وتخريب وإلقاء وتنظيم انقلابات دموية ، (مثلا تشيلي)، وتآليب جماعات على أخرى وتشجيع إثارة نعرات قومية وقبلية وفرض اتفاقيات عسكرية «ثنائية» أو جماعية ... الخ .

ان هذا الاستعمار الجديد هو آخر تقليعة لتكثيف الامبريالية للتطورات الجديدة . وهو يمثل ، من ناحية جوهره ، الاستعمار على طريق التراجع والاضمحلال . ولكنه نذير جديد يؤكد انه بالامكان تشويه حق تقرير المصير وتقويض سيادة البلدان المتحررة والاطاحة باستقلالها الوطني . انه يؤكد ان قيام الدولة القومية ووضع النشيد القومي ورفع العلم القومي ، على مبنى البرلمان القومي ، وفرش البساط الاحمر في المطار القومي ، لا يعني نهاية حل المسألة القومية وانما بدء مرحلة جديدة من

مراحل حلها ، ذات مهمات وتعقيدات جديدة .
واذا ما ربطنا حركة التحرر الوطني بمبدأ حق تقرير المصير ، فإننا نؤكد ان هذا الحق يعني ، أولاً وقبل كل شيء ، الاستقلال الوطني السياسي . ولكنه يعني أيضاً التصرف الحر بالثروات الطبيعية وممارسة التطور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بحرية . ففي مرحلة ترسيخ الرأسمالية يكون لتقرير الأمم لمصيرها وجهة مناهضة للاقطاع . ولكن يكون لهذا الحق وجهة مناهضة للرأسمالية ، في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . وفي هذه المرحلة الثانية يكون المضمون الاجتماعي لحق تقرير المصير ليس النضال الوطني ضد الاضطهاد القومي من الخارج ، بل وضد الاعداء الطبقيين في الداخل ، الذين كفوا عن تمثيل مصالح الأمة ككل عندما استعدوا لبيع استقلال البلاد على مذبح الاستعمار الحديث ، برفضهم مسار تعميق حق تقرير المصير باتجاه التحرر الاجتماعي . برفضهم عملياً ، ايضاً ، الحل المضمون للمسألة القومية . هذا مهما تشدقوا بسخافات واوساخ دعارة ايدولوجيتهم القومية التي تتحدث عن التعارض بين المصلحة الطبقية للبروليتاريا ، ولجماهير الشعب الكادح ، وبين المصلحة القومية للأمة .

ثلاثة أمثلة ... ثلاث تجارب وتلخيص

- * مثال ايرلندا .
- * مثال التجربة السوفيتية .
- * مثال الحزب الشيوعي الاسرائيلي والمسألة القومية .
- الموقف من الصهيونية .
- الموقف من القضية الفلسطينية وحق تقرير المصير .
- الموقف من المساواة القومية ،
للجماهير العربية في اسرائيل .
- * تلخيص .

مثال ايرلندا

تبقى كتابات آباء الماركسية - اللينينية ، وبالذات ماركس وانجلس ، عن المسألة الايرلندية ، مثلاً ساطعاً عن السياسة البروليتارية تجاه المسألة القومية . لذلك كثيراً ما يجري الاستشهاد بهذه الكتابات من قبل الماركسيين الحقيقيين ، وأحياناً من قبل المرتدين أو الرجعيين . الأوائل يقصدون تبيان حقيقة الموقف واستخلاص الاستنتاج الفكري الصحيح للاعتماد عليه ، أما الرجعيون والمرتدون فيستشهدون بهذه المواقف ، أحياناً ، بشكل تشويهي وبدون وضعها في إطارها التاريخي ، بهدف خدمة مواقفهم الرجعية أو الخاطئة . لذلك اقتضى منا الأمر التوقف قليلاً عند مثال ايرلندا !

ونستطيع تبيان موقف ماركس من المسألة الايرلندية في مقالتيه «المسألة الهندية - حق الایجار الايرلندي» و«خبر سري» وفي رسائله الى انجلس بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٨٦٧ و ٣٠ تشرين الثاني ١٨٦٧ و ١٨ تشرين الثاني ١٨٦٩ و ١٠ كانون الاول ١٨٦٩ وفي رسالته الى كوغلمان بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٨٦٩ والى ماير وفوغت بتاريخ ٩ نيسان ١٨٧٠ .

أما عن موقف انجلس فنستطيع ان نقرأ مقالته «أضواء على المسألة الايرلندية» ورسائله الى ماركس بتاريخ ٢٣ ايار ١٨٥٦ و ٢٠ تشرين الثاني ١٨٦٨ و ٢٤ تشرين الاول ١٨٦٩ . [هذا عدا بعض كتابات وملاحظات متفرقة أخرى لماركس وانجلس . أنظر كتاب ماركس وانجلس «في الاستعمار» - مجموعة مقالات ورسائل - اذ تضمن بعض كتاباتها عن المسألة

أما لينين فتطرق هو الآخر للمسألة الايرلندية وخصوصاً في أثناء الرد على منتقدي شعار «حق تقرير المصير» ويهدف تبين ضرورة تحليل كل مطلب ملموس من مطالب الاستقلال الوطني من وجهة نظر ماركسية . أي من وجهة نظر مصلحة نضال الطبقة العاملة ومن خلال التأكيد على ضرورة وضع القضية في اطار ظروفها التاريخي ، الزماني والمكاني ، والنظر إليها من مختلف جوانبها وعلاقاتها . [انظر ، مثلاً ، مقالة لينين «حق الأمم في تقرير مصيرها» - المختارات في عشرة مجلدات . المجلد الخامس ص ١٩٧ - ٢٠٦ . وكذلك مقالته «خلاصة المناقشة حول حق الأمم في تقريرها مصيرها» . المجلد السادس . ص ١٣١ - ١٣٧] .

عانت ايرلندا من شتى الولايات من جراء الحملات البريطانية عليها والتي ابتدأت منذ سنة ١١٠٠ . وفي سنة ١٨٠١ أصبحت ايرلندا تابعة لبريطانيا عملياً . أي فَرَضَ عليها الاستعمار البريطاني الاتحاد القسري معه . وهي لم تستطع ، حتى يومنا هذا ، فك هذا «الاتحاد القسري» رغم تحقيق الشعب الايرلندي لبعض المكاسب الديمقراطية ، بالمقارنة مع الفترة التاريخية السابقة ، وهذا مثال آخر قديم ومتجدد لعدم حل المسألة القومية في اطار الرأسمالية .

ولقد صورَ ماركس وانجلس ، في كتاباتها ، الدمار الذي جلبه الاستعمار البريطاني لاييرلندا ، في زمنها . فاشارا الى تخريب صناعة وزراعة البلاد والى ظلم فلاحها وفقرهم المدقع مقابل سيطرة حفنة بريطانية من ملاكي الاراضي ، لدرجة ان الفلاح الايرلندي كان لا يجد أمامه أحياناً من وسيلة للعيش إلا الهجرة من ايرلندا . وكل هذا كان يتم عن طريق اللجوء الى أشنع وأخس صنوف القمع والظلم بما فيه القمع الوحشي الذي قام به رجال الدرك المنتشرون في كل مكان واللجوء الى القتل والسجون والاذلال والرشوة . هذا عدا التدخل البريطاني في كل صغيرة وكبيرة لدرجة انه لم يبقَ حتى مجال للحديث عن «الادارة الذاتية» المزعومة و «المنوحة» لاييرلندا . وشبهَ ماركس علاقة بريطانيا بايرلندا «كعلاقة بين قاطع طرق يسحب مسدسه ومسافر يسحب محفظة نقوده» .

وتحس ماركس وانجلس لحركة المقاومة الايرلندية الوطنية ، رغم

سلبياتها وأخطائها . ودافعا عنها واتخذها قرارات في الأهمية الأولى بالتضامن مع هذه الحركة وبطلب اطلاق سراح معتقليها ، رغم انتقادهما الحاد لبعض ممارساتها ولما وقفها السياسية .

وأشار انجلس الى وجود ثلاثة تيارات داخل الحركة الوطنية الايرلندية . وهي ، أولاً ، التيار الفلاحي المحدود في طروحاته اذ يركز دعايته على بعض المطالب الخاصة ، دون أن يطور نفسه كتيار «للمنضال السياسي» . ولكن رغم هذا ، أكد انجلس ، انه يستحيل قمع هذا التيار مهما لجأت بريطانيا الى شتى أساليب القمع ، لأنه لن يزول إلا بزوال الأسباب التي استدعته .

أما التيار الثاني فهو تيار البرجوازية الليبرالية والذي تزعمه المثقفون - بمن فيهم المحامون ، في الأساس . وهذا التيار يُبرز أكثر مسألة «التحرر الكاثوليكي» ثم يتحدث عن فصل «الاتحاد» . وهو يناضل بشدة ضد اقطاع أسياذ الارض لكنه يساوم في المسألة القومية الى درجة الاكتفاء ببرلمان ايرلندي الى جانب البرلمان البريطاني مع توسيع «الحكم الذاتي» . أما التيار الثالث فهو ما اصطلح على تسميته بالحركة «الفينيانة» . وركز هذا التيار عمله في مجال المقاومة المسلحة . وهو يدعو الى الانفصال ، حتى لو كان هذا الانفصال يعني الانضمام الى الولايات المتحدة الامريكية أو الوقوع تحت حمايتها . أما قادته فهم من الثوريين البرجوازيين الصغار الذين عكسوا في برنامجهم نقمة واحتجاج الجماهير ومطلبها باقامة جمهورية ديمقراطية مستقلة . ولقد أثرت مواقفهم ، وكذلك كفاحهم المسلح ، حتى على الليبراليين باتجاه أخذ مواقف أكثر حزمًا . لكنهم امتازوا بالنظر «الباكوني» المعروف وبالشعارات الطنانة دون دراسة امكانيات الواقع . واعتمدوا على الاغتيالات الفردية ايضاً .

لذلك في مرحلة معينة ، وامام عدم رؤية انجلس لامكانية الانفصال التام عن إنجلترا ، نراه يتحدث عن ان اشتعال حرب خارجية - بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، مثلاً ، أو بين فرنسا وبريطانيا ، سيساعد الانتفاضة الايرلندية في تحقيق استقلال البلاد . وانه قد تضطر حتى بريطانيا «لمنح» هذا الاستقلال امام الظرف الجديد - اشتراكها في الحرب . ولكن الحرب لم تشتعل ولا تستطيع الحركة الوطنية الايرلندية في انتفاضتها ، تحقيق

الانتصار في المرحلة الحالية . وبناء عليه يوافق انجلس على الحلول الوسط والتي تبنتها البرجوازية الليبرالية . ويكتب بصراحة انه ما من سبيل بقي غير «السبيل الدستوري للظفر تدريجياً بموقع بعد آخر» . وينتقد الفينيان لأنهم لا يفهمون هذا الأمر ويواصلون أسلوب الاغبيالات . ويكتب انجلس ان «الحل الوسط افضل شيء الآن» . اذ ان المطلب الاول في الوضع الراهن هو وقف الهجرة الايرلندية الجماهيرية . وقف ، كما قال ، «هذا التفرغ المنتظم لايرلندا» . لا اللجوء الى تلك الشعارات والأساليب «الباكونينية» - المتبجحة ، والثرثارة والصبيانية والتي تهدد «بالثورة الايرلندية التي لا تأتي» .

ولكن الى جانب هذا يحذر انجلس من مدح السياسي الايرلندي (البرجوازي الليبرالي) ، بدون تحفظ . لأن هذا السياسي مستعد للارتشاء ولبيع وطنه . وخصوصاً ان بريطانيا اشترت «الاتحاد» مع ايرلندا بانفاق مليون جنيه استرليني على مثل هذه الرشوة . وعندما وجه اللوم لأحد المرتشين بأنه باع وطنه أجاب : «أجل . ولقد كنت سعيداً للغاية لأني وجدت عندي وطناً للبيع»^(٥٤) .

ويمكن في هذه المواقف اكثر من درس بالنسبة لنا . اما الدرس الاول والاساسي ، الذي نتعلمه من مثال ايرلندا ، فهو ضرورة الاعتراف بحق تقرير المصير للأمم المظلومة وتأثير تنفيذ هذا الحق على الثورة الاجتماعية للأمم الظالمة ، كما سنبين هذا أدناه . هذا عدا ضرورة طرح الشعار المناسب في الوقت المناسب وعدم الوقوع في خطأ «اليسارية» الفوضوية .

ولقد بين انجلس ان الظلم القومي البريطاني هو الذي فجر التعصب القومي الايرلندي . واكسب الشعب طابعاً أصيلاً .. ، عن طريق تحويله الى أمة فقيرة لا تشعر انها تعيش في بلادها حتى . وتشعر انه ما من اختصاص لها الا تزويد بريطانيا وأمريكا وأستراليا بالبغايا والعمال الميامين والقوادين والمجرمين والفقراء والمتشردين والمستسلمين . ولم يسلم من هذه المصائب حتى ملاكو الارض الايرلنديون الذين بدلا من أن يتبرجزوا ، كما يحدث لآتراهم في البلدان الأخرى ، فانهم ينحدرون هم ايضا الى هاوية الفقر المدقع ، من جراء سياسة الاستعمار البريطاني .

ولكن هذا جانب واحد من المسألة أما الجانب الآخر فهو استمرار

ظلم البرجوازية البريطانية واستغلالها للبروليتاريا البريطانية وبحجة المسألة
الاييرلندية ، وما يواكب هذا الأمر من تخريب للتضامن البروليتاري الأُمّمي
ومن تأجيل للثورة الاجتماعية .

يقول ماركس ، في مقالته «خبر سري» ، ان بريطانيا هي قلعة الملكية
الاقطاعية والرأسمالية . وايرلندا هي القلعة البريطانية في مجال ملكية
الارض . وهي وسيلة لكي تستمر الارستقراطية البريطانية في ضمان
سيطرتها على انجلترا بالذات . ومن جهة أخرى اذا غادر الجيش الانجليزي
ايرلندا ، فستقع انتفاضة فلاحية فيها . وهذه بدورها ستؤثر . اذ أن سقوط
الارستقراطية الانجليزية في ايرلندا يستدعي سقوطها ايضا في بلادها . أما
بخصوص البرجوازية فان مصلحتها تقتضي جعل كل ايرلندا مرعى
لاسواقها ، وبأرخص ما يمكن من النفقات . وتستطيع عن طريق هذا الأمر
رشوة «عمالها» وتخريب مسألة التضامن البروليتاري .

وعن تخريب هذا التضامن كتب ماركس ، شارحاً ، ان البروليتاريا
الاييرلندية تشعر تجاه البروليتاريا البريطانية كشعورها نحو الأمة
المستعمرة . أما العامل الانجليزي فيكره العامل الايرلندي كمنافس له في
سوق العمل . منافس قد يخفض مستوى حياته المتوسط . بل ويعامله كفرد
من الأمة السائدة وهكذا يتحوّل هذا العامل البريطاني الى «أداة في أيدي
ارستقراطييه ورأسمالييه ضد ايرلندا ، ويُعزّز بالتالي سيادتهم عليه
بالذات . وهو يحمل آراء مسبقة دينية واجتماعية وقومية حيال العامل
الايرلندي ويعامله تقريباً كما يعامل الفقراء البيض الزوج ، في ولايات
الاسترقاق السابقة من الاتحاد الامريكي . والايرلندي يعامله بالمثل
واكثر . فهو يرى العامل الانجليزي شريكاً وأداة عمياء في أن واحد في
السيادة الانجليزية في ايرلندا»⁽⁵⁰⁾ .

ويؤكد ماركس انه في هذا التناحر ، الذي تُغذّيه أيضاً الصحافة
والكنيسة ، وجميع الوسائل التي تملكها الطبقات السائدة ، «يمكن سر عجز
الطبقة العاملة الانجليزية ، رغم تنظيمها» . أضف الى هذا انه يتم نقل
هذا التناحر ، عبر المحيط ، حول المسألة الايرلندية ، بين بريطانيا
والولايات المتحدة الامريكية . مما يتيح لحكومتى هذين البلدين تخفيف حدة
التنازع الاجتماعي الداخلي عن طريق تسعير الخلاف والاحتراب الخارجي .

ويوضح ماركس موقفه من المسألة الايرلندية في رسالته الى ماير وفوغت ، بتاريخ ٩ نيسان ١٨٧٠ ، اذ يؤكد الاستنتاج السياسي الهام في هذا المجال وهو ان هدف جمعية الشغيلة العالمية (الأممية الاولى) : «التعجيل بالثورة الاجتماعية في انجلترا ، والحال ان الوسيلة الوحيدة لبلوغ هذا الهدف ، انما هي جعل ايرلندا مستقلة» . ولهذا على الأممية : «ان تضع في كل مكان النزاع بين انجلترا وايرلندا في المقام الاول ، وان تأخذ في كل مكان جانب ايرلندا على المكشوف» . أما بخصوص مهمة «الأممية» في بريطانيا فانه عليها ان «توقظ في الطبقة العاملة الانجليزية إدراك ان تحرر ايرلندا القومي هو بالنسبة لها ليس مسألة مجردة من مسائل العدالة وحب البشر . بل انه الشرط الاول لتحررها الاجتماعي نفسه»^(٥٦) .

وكان ماركس قد عالج هذا الأمر أيضاً في مقالته «خبر سري» حين كتب ان النقطة الوحيدة التي يمكن تسديد ضربة من خلالها الى بريطانيا هي ايرلندا . وبين ان الصراع القومي هو كابح للصراع الاجتماعي ويضر بمسألة التحالف بين عمال مختلف القوميات ويؤجل عملية تحررهم المشترك . و اضاف يقول : «يتكرر في انجلترا ، في الوقت الحاضر ، ما كان يمكن رؤيته في روما القديمة بمقاييس فظيعة . فان الشعب الذي يستعبد شعباً آخر يصنع سلاسله بالذات»^(٥٧) . وعبر انجلس عن هذه الفكرة نفسها حين كتب في رسالته الى ماركس ، بتاريخ ٢٤ تشرين الاول ١٨٦٩ يقول : «بين ايرلندا وروسيا ... ليس إلا خطوة واحدة ان تاريخ ايرلندا يبين أية مصيبة تحمل بشعب اذا استعبد شعباً آخر . ان مصدر الحسنة الانجليزية كلها هو ايرلندا» .

وبتاريخ ١٠ كانون الاول ١٨٦٩ كتب ماركس رسالة الى انجلس جاء فيها : «لنطرح جانباً كل لغو «أممي» و «انساني» حول إنصاف ايرلندا - لأن الامر بديهي بحد ذاته في مجلس الأممية - فان مصالح الطبقة العاملة الانجليزية ، المباشرة ، المطلقة ، توجب قطع صلاتها الحالية مع ايرلندا لقد اعتقدت طويلاً انه بالامكان دك النظام الايرلندي بفضل نهوض الطبقة العاملة الانجليزية . وقد دافعت دائماً عن هذا الرأي ... غير انه دراسة المسألة ، بمزيد من التعمق ، اقنعني بالعكس . ان الطبقة العاملة الانجليزية لن تتمكن من القيام بأي شيء اذا لم تتخلص من

ايرلندا ... ان جذور الرجعية الانجليزية في انجلترا قائمة في استعباد ايرلندا» .

أما لينين ، فإنه اذ يستذكر هذه الرسالة في مقاله «حق الأمم في تقرير مصيرها» ، يُعرِّي بحدة كل منتقدي «حق تقرير المصير» من وجهة نظر «ماركسية» ، كما يدعون . ويقول ان ماركس أيضاً حسب ادعاءاتهم يصبح «طوباوي» و «غير عملي» و «ينسى النضال الطبقي» . اذ ان ماركس ، في كتاباته اعلاه ، بين انه تخلى عن فكرة ان الثورة الاجتماعية الاشتراكية البريطانية هي التي ستحرر ايرلندا ، أمام رؤية تأخر هذه الثورة ، وخصوصاً على ضوء إفساد الطبقة العاملة البريطانية بالليبرالية وبغيرها . وأكد على ان الثورة القومية - الوطنية للشعوب المضطهدة ، أي حق تقرير المصير لهذه الشعوب ، يساعد على انتصار الثورة الاجتماعية في صفوف الأمة الظالمة . أي انه عملياً أيد ثورة البرجوازية الفتية الناشئة في الأمة المظلومة ضد البرجوازية الامبريالية المتعفنة .

وعاد لينين الى ذكر هذا الدرس في «خلاصة المناقشة حول حق الأمم في تقرير مصيرها» حين كتب يقول : «فمن قوانين دايكتيك التاريخ أن الأمم الصغيرة ، العاجزة بوصفها عاملاً مستقلاً في النضال ضد الامبريالية ، تضطلع بدور خميرة من الخمائر التي تسهم في ابراز وتحريك القوة الحقيقية المعادية للامبريالية ، ونعني بها البروليتاريا الاشتراكية»^(٥٨) .

وينتهي ماركس ، مقاله «خبر سري» بالقول : ان تحرير ايرلندا ، عدا كونه مطلباً عادلاً ، هو الشرط المسبق لتحرير الطبقة العاملة الانجليزية . وان البرنامج البديل المطلوب هو اما اقامة «اتحاد حر على قدم المساواة» واما ، بدلا من استعباد ايرلندا ، «انفصال ايرلندا التام» اذا كان هذا ضرورياً ...

وفي رسالة ماركس الى انجلس ، بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٨٦٧ ، يكتب قائلاً : «فيما مضى كنت اعتبر انفصال ايرلندا أمراً مستحيلاً . أما اليوم فاني اعتبر هذا الانفصال أمراً محتوماً ، ولو أدى الأمر بعد الانفصال الى الاتحاد الفيدرالي» . وفي رسالته التالية بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٨٦٧ ، يتساءل ماركس بما يجب ان ننصح العمال الانجليز

بخصوص المسألة الأيرلندية ؟ ! ويجب أن عليهم : «أن يجعلوا من فسخ الاتحاد نقطة من نقاط برنامجهم» . أما بخصوص الأيرلنديين فينصحهم بالحكم الذاتي والاستقلال عن إنجلترا وبالثورة الزراعية وبرسوم حماية جمركية ضد غزو البضاعة الأجنبية ، الذي دمر الحياة الصناعية في أيرلندا . ويكتب ماركس إلى كوغلمان ، بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٨٦٩ ، قائلا إن مطلب البروليتاريا البريطانية بفسخ الاتحاد لا ينبع من منطلق التعاطف مع الأيرلنديين وإنما من «وجهة نظر مصالحها بالذات» . إذ إن تحطيم مواقع الطغمة العقارية الإنجليزية في بريطانيا يتطلب تحطيم مواقعها الأمامية في أيرلندا .

بناء على كل ما سبق فإن مثال المسألة الأيرلندية وعلاج ماركس وانجلس لها يبين تأكيد الماركسية - اللينينية ، في المسألة القومية ، أن شعبا يضطهد شعبا آخر لا يمكن أن يكون هو نفسه حرا . ويبين أية سياسة يجب أن تتبعها البروليتاريا الأمة الظالمة تجاه الأمة المظلومة . ويبين أيضا أن تحرير الشعوب المضطهدة يمكن أن يتأتى عن طريق الثورة الاجتماعية للأمة الظالمة ، ولكن لا ننتظر هذه الثورة وخصوصا أنها قد تتأخر أمام كايح العداء القومي . لذلك تؤيد الحركات القومية من أجل حق تقرير المصير والانفصال حتى لو كان التطور اللاحق هو إعادة الاتحاد ، بعد الانفصال . وهذه الحركات الوطنية هي في الوقت نفسه انتفاضات وثورات وليست فتنا ، ولها ما يبررها . وعلى البروليتاريا دعمها ، إذا كانت موجهة ضد الامبريالية والرجعية ، رغم ما يعتورها أحيانا من سلبيات وأخطاء ، يجب التحذير من أضرارها . وهذه الثورات الوطنية هي الخميرة للثورات الاجتماعية اللاحقة بين صفوف أبناء الأمة الظالمة أيضا . وهذه المواقف الماركسية السليمة من المسألة القومية هي التي تضمن بناء وتوطيد وتصعيد التضامن الأممي والنضال البروليتاري المشترك لأبناء مختلف القوميات ضد العدو المشترك : الامبريالية والرأسمالية !

لذلك فإن مثال أيرلندا ما زال يلهم مختلف الماركسيين - اللينينيين حتى يومنا هذا . وعن أهمية هذا المثال كتب لينين يقول : «أن سياسة ماركس وانجلس في قضية أيرلندا قد أعطت أعظم مثال ، ما يزال يحتفظ حتى الآن بأهمية عملية هائلة على السلوك الذي ينبغي أن تنتهجه بروليتاريا الأمم المضطهدة ، أزاء الحركات القومية»^(٥٩)

مثال التجربة السوفيتية

ان افضل اصطلاح يعكس وضع القوميات المختلفة ، في روسيا القيصريّة ، قبيل انتصار ثورة اكتوبر ، هو «سجن الشعوب» . هكذا سُمي الوطنيون والثوريون الامبراطورية الروسية الاستعماريّة ، وبحق . اذ كان يقطن هذه الامبراطورية الاستعماريّة الكبيرة ١٨٠ أمة وشعبا وجماعة قومية تراوح اعداد بعضها بين العشرة آلاف والملايين . وكانت الاطراف القومية عبارة عن مستعمرات داخلية جرى تطبيق السياسة الاستعماريّة فيها ، بكل معنى الكلمة بل وبصورة أشد من تطبيق دول امبريالية أخرى لها . وبلغت مساحة الاراضي المستعمرة (١٧،٤) مليون كيلومتر . وهذا يساوي ٧٦٪ من مساحة الدولة التي بلغت (٢٢،٤) مليون كيلومتر سنة ١٩١٤ . وكان يقطن في المستعمرات (٣٣،٢) مليون إنسان ، أي خمس سكان البلاد قاطبة . وكانت روسيا القيصريّة بلدا رأسماليا متوسط التطور ، وتشابكت فيه العلاقات الرأسمالية مع العلاقات الاقطاعية . وتفاوتت درجات تطور مختلف الأمم والقوميات . فكان بعضها يعيش في ظل العلاقات الرأسمالية وبعضها الآخر في ظل العلاقات الاقطاعية البطريركية . بل وعاش البعض حياة القبائل أو الرُحّل .

وكانت السياسة الرسميّة القيصريّة تجاه القوميات المستعمرة من اشنع السياسات الشوفينية التي عرفها التاريخ . اذ قامت على البطش والتنكيل والقمع وتنظيم المذابح وإثارة العداوات والاحترابات ، بين مختلف الأمم والشعوب والجماعات القومية . هذا بالاضافة الى التعامل الشوفيني الاستعلائي معهم ونعتهم رسمياً حتى «بالغرباء» واللجوء الى شتى صنوف الاذلال والاستثمار الوحشي . وكثيراً ما كان يُطرد الناس الاصليون من أماكن وارضٍ أو مقاطعات معينة لتسليمها للمالك الاقطاعي الروسي . وكان اصطلاح «فيليكروس» - (الروسي العظيم) - اكره اصطلاح على مسمع الشعوب المضطهدة ، كما أكد لينين .

وفرضت القيصريّة على هذه المستعمرات والمقاطعات والاقاليم القومية تأخراً اقتصادياً - اجتماعياً - ثقافياً ندر مثيله . اذ لم تعرف العديد من

الاطراف القومية حتى الصناعة . وبقيت كمناجم للمواد الخام وسوقا للبضاعة . وجرى فرض ضرائب وعقوبات عليها يفوق تصورها الخيال . وجرى تنفيذ ذلك من قبل جهاز موظفين فاسد يعتمد على بطش الجيش والدرك القيصري . وكان من الممنوع على بعض القوميات إصدار الكتب أو التعلم بلغتها القومية . وعاش غالبية السكان في فقر مدقع وأمية شبه مطلقة ، لدى البعض . لدرجة ان نسبة اللأأمين بلغت لدى بعض القوميات ٠,٦٪ فقط !

وأثر هذا الوضع على بروز التعصب القومي لدى بعض القوميات . هذا التعصب الذي وصل ، عند البعض ، الى حد عدم الثقة بالبروليتاريا الروسية والتشكك بها . كذلك وقعت قطاعات معينة من الشعب الروسي بحمأة شوفينية الدولة الكبرى . وكان يظهر أحيانا انه من غير الممكن اعادة الثقة بين مختلف القوميات وبينها وبين الشعب الروسي . أما انتصار البرجوازية على القيصرية ، في ثورة شباط ١٩١٧ ، ورغم تقدميته ، فانه لم يأت بحل للمسألة القومية . وتابعت البرجوازية ، بشكل ملطف أحيانا ، طريق القيصرية .

من المعروف ان لينين اهتم بشكل خاص بدراسة خصوصيات المسألة القومية في روسيا القيصرية وأولى هذا الأمر جل اهتمامه في فترة معينة . وحاربت السياسة - اللينينية ، في المسألة القومية ، قبل انتصار الثورة ، شوفينية الدولة الكبرى ونادت بالمساواة التامة لمختلف الأمم والقوميات والشعوب وبالغاء امتيازات الأمة الروسية . كذلك طالبت هذه السياسة بحق تقرير المصير للأمم المختلفة ، حتى الانفصال التام . وأكد لينين ان هذا الأمر في مصلحة الشعب الروسي ، ايضا ، الذي لا يمكنه العيش في دولة ديمقراطية اذا لم يستأصل شوفينية الدولة العظمى وكل صنوف الظلم والاضطهاد والتمييز القومي . وطالب لينين البروليتاريا الروسية بالحرص على هذه السياسة وبالحرص على الروية والحذر في التعامل مع أبناء القوميات الأخرى ، وعدم التصرف معهم كأسبياد من الأمة السائدة . ورغم اعتقاد لينين الراسخ بأن الثورة الاشتراكية هي الكفيلة بحل المسألة القومية ، الا انه طالب بالنضال لتحقيق اقصى المطالب الديمقراطية الممكنة في اطار النظام القائم . واستعد في سبيل هذا للتحالف وللتعاون مع

مختلف التيارات البرجوازية والقومية .

وبين انتصار ثورة شباط البرجوازية ، سنة ١٩١٧ ، ان البرجوازية خانت المسألة القومية وتنكرت للمبادئ التي وعدت بتنفيذها ، حال تسلمها للحكم . كذلك ثبت للعديد من أبناء الأمم والقوميات المختلفة ، وحتى قبيل انتصار ثورة شباط ، ان «برجوازياتهم» المحلية كثيراً ما تلجأ الى التعاون مع القيصر وإلى المساومة على مذهب خيانة المصلحة القومية . وثبت في الواقع انه لم يبقَ من طبقة أمينة ، حتى النهاية ، في المسألة القومية ، إلا البروليتاريا . وعلى رأسها بروليتاريا الأمة الروسية التي وضعت دانها ، في مركز براجمها ، العمل على تحقيق المساواة القومية وعلى ضمان حق تقرير المصير . وكان انتصار ثورة اكتوبر ، بتاريخ ٢٥ - ٢٦ تشرين الاول - ١٩١٧ ، حسب التقييم القديم ، ومن ثم الانتصار على الحرس الابيض والانتصار في حرب التدخل الامبريالي لقمع الثورة الوليدة ، الى حد بعيد - أيضاً ، بفضل السياسة اللبينية في المسألة القومية ، والتي ضمنت وقوف مختلف الشعوب الى جانب البروليتاريا الروسية الطاغرة .

وحال انتصار ثورة اكتوبر ، وبعدها ، صدرت البيانات والمراسيم التالية : «مرسوم السلام» ، بتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩١٧ و «مرسوم الارض» - «تقرير عن الارض» ، بتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩١٧ و «بيان حقوق شعوب روسيا» ، بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ و «نداء الى جميع المسلمين الكادحين في روسيا والشرق» ، بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٧ . وغيرها من البيانات التي وضحت ، فيها وضحته ، ايضاً موقف الثورة الاشتراكية من المسألة القومية .

ففي «مرسوم السلام» صدر النداء الى وقف الحرب العالمية الاولى وإلى إلغاء احتلال وضم القوميات سواء كانت في اوروبا أو وراء المحيطات ، والاعتراف بحق تقرير مصيرها . ونادى المرسوم بمبادئ جديدة للعلاقات بين الأمم تقوم على أساس المساواة التامة والديمقراطية واستبعاد الاحتلال والعنف . كذلك اعلنت الحكومة السوفيتية ، في بيانها هذا ، رفضها للدبلوماسية السرية وإلغاءها للمعاهدات والاتفاقيات الاستعمارية السابقة واصرارها على فضحها . (مثلاً تم فضح معاهدة سايكس بيكو الموقعة مع القيصر الروسي حول اقتسام بعض المناطق في العالم) .

أما «مرسوم الارض» والذي تضمن إلغاء ملكية الملاكين العقاريين والملكية الخاصة للارض ... الخ فقد أكد على حق الفلاحين من الانتفاع من الارض بغض النظر عن قومياتهم . وخلق عمليا القاعدة لتطبيق المساواة بين مختلف القوميات .

وتضمن «بيان حقوق شعوب روسيا» ضمان المساواة التامة والسيادة لكافة شعوب روسيا ، بما فيها ضمان حق تقرير المصير بحرية وتأسيس دولٍ مستقلة ، والغاء جميع الامتيازات والتضييقات القومية والدينية ذات الصبغة القومية ، وضمان التطور الحر لكافة الاقليات القومية .

أما في النداء «الى جميع المسلمين الكادحين في روسيا والشرق» فقد أكدت الحكومة السوفييتية على ضرورة خلع المحتلين المزمين واعلنت عن الغاء المعاهدات السرية ، التي عقدها القيصر ، بخصوص بلاد فارس وتركيا . وكذلك اعلنت الحرية التامة للعقائد وحرمة مؤسسات المسلمين . اذ جاء في البيان : «ان معتقداتكم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية تعتبر من الآن فصاعدا حرة ومضمونة . فانبوا حياتكم القومية بحرية ودون عائق ... واعلموا ان حقوقكم ، شأنها شأن حقوق جميع شعوب روسيا ، محروسة بكامل قدرة الثورة وهيئاتها - سوفييتات نواب العمال والجنود والفلاحين وينبغي ان تكونوا أنتم أسياد بلدكم ! وينبغي أن تبنيوا حياتكم بأنفسكم بالشكل الذي يليق بكم . فلکم الحق في ذلك ، لأن مصيركم في أيديكم ...» .

وهكذا ، وفي بضعة أيام عمليا ضمنت الحكومة الاشتراكية ، في شتى مراسيمها الأولية ، الحقوق القومية التي ناضلت في سبيلها الشعوب على مدى مئات السنين وعانت من جراء غيابها ، شتى الولايات . وخلقت الأساس الاقتصادي للمساواة التامة بين مختلف الأمم ، كبيرها وصغيرها . وزامنت هذه الاعلانات عملية تنفيذها الفعلي في ارض الواقع . ويبقى منح حق الانفصال التام لفنلندا وبولونيا ، عن الدولة السوفييتية ، لأن هذا ما ارتأتها ، أحد اسطع الأمثلة عن مبدئية وصدق السياسة اللينينية في المسألة القومية . وصرح ممثلو الدولة الفنلندية ان البروليتاريا الروسية فقط منحتهم الاستقلال !

وتبقى الماثرة السوفييتية الكبرى ، في المسألة القومية ، هي بناء اتحاد

الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية . ولقد شهدت هذه العملية تطورات مختلفة حال انتصار الثورة . اذ قامت في البدء جمهوريات سوفييتية مستقلة عن بعضها البعض . وكان ايضا اقاليم ومقاطعات ومناطق قومية تتمتع بالحكم الذاتي . وجرت اتحادات فدرالية ضمن الجمهورية الواحدة أو بين مجموعة جمهوريات ومقاطعات . الى أن جرى التوصل أخيراً في المؤتمر الاتحادي للسوفييتات ، بتاريخ ٣٠ كانون الاول ١٩٢٢ ، الى اعلان تأسيس «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية» - «الاتحاد السوفييتي» والذي عني ، عملياً ، الاتحاد الحر للجمهوريات السوفييتية المستقلة المختلفة وللجمهوريات والمقاطعات والدوائر ذات الحكم الذاتي ، في اطار جمهورية مركزية واحدة ، هي الاتحاد السوفييتي .

ولم ينف هذا الاتحاد المركزي الديمقراطية المحلية . فكل جمهورية ومقاطعة تدير شؤونها ، بحرية ، في اطار البرنامج العام . هذا الى جانب حفظ حق الخروج من الاتحاد . فالاتحاد هو اتحاد حرٍّ لأُمَم حرة . وضمن هذا الاتحاد الوحدة الاقتصادية والعسكرية للبلاد وقوتها . كذلك سهّل عملية بناء الاشتراكية في مختلف الجمهوريات ، عن طريق الاستغلال المشترك للموارد وتقسيم العمل والدعم المتبادل ومركزه الخطة العامة ، من قبل الدولة الأم .

ويضم الاتحاد السوفييتي اليوم ١٥ جمهورية متحدة و ٢٠ جمهورية ذات حكم ذاتي و ٨ مقاطعات و ١٠ دوائر ، ذات حكم ذاتي هي الأخرى . ويوحد في صفوفه أكثر من مئة قومية مختلفة ! وضمن الاتحاد السوفييتي ، في دستوره وفي الحياة الفعلية ، المساواة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية لمختلف الأمم والشعوب والقوميات . بل وعنت هذه المساواة ، في مرحلة معينة ، «عدم المساواة» بحق الروس . اذ جرى تركيز الجهود على تطوير الجمهوريات والمقاطعات والقوميات المتخلفة ، لقطع البون الشاسع بينها وبين تطور الأمة الروسية . وقُدِّمت البروليتاريا الروسية التضحيات وأوسع الخدمات والمساعدات في سبيل هذا الأمر ، وعن طواعية ووفق إرادتها .

ولا تعرف الشعوب السوفييتية اليوم حياة العداوة القديمة . «فسجن الشعوب» اصبح «بستان الشعوب» ، بفضل التعااضد الأُممي الاشتراكي

الذي ضمن المصالح القومية وتفتح الثقافة القومية الى ابعد الحدود . ان الاقتصاد والتطور العلمي والثقافي لتلك الشعوب ، التي كانت تعيش في شبه أُمَّية مطلقة وفي تخلف وفقر رهيبين ، تضاهي اليوم ، وتفوق أحيانا ، مثيلاتها في ارقى الدول الغربية والتي قامت بثوراتها البرجوازية منذ القرن السابع عشر أو الثامن عشر أو التاسع عشر ، وليس سنة ١٩١٧ !

ويكفي في هذا المجال ايراد بعض الأمثلة التالية ، وبالذات من تلك المستعمرات والمقاطعات القومية المتخلفة ، والتي أصبحت جمهوريات سوفيتية . لقد كانت ، مثلا ، آسيا الوسطى وكازاخستان تستوردان حتى المسامير أما الآن فهما مركز إحدى ارقى صناعات النفط والغاز والكيمياء . وزاد حجم الانتاج الصناعي إبان السلطة السوفيتية ، وحتى سنة ١٩٨٠ ، أكثر من ٥٠٠ مرة في طاجيكستان و ٦٠٠ مرة في كازاخستان و ٤٠٠ مرة في اوزبكستان و ٢٤٠ مرة في تركمانيا وهكذا ... كذلك تمّ القضاء على التخلف الزراعي وحياة الرّحل للبعض . وجرت كهربة البلاد وادخال ارقى وسائل التكنولوجيا المتوفرة لابعد الاقاليم والجمهوريات القومية .

أما على صعيد الثورة الثقافية فقد وضعت حروف أبجدية حتى لمن لم تكن متوفرة لديه هذه الحروف ! واذا كانت احدى الصحف التربوية الروسية توقعت مرور (٤٦٠٠) سنة ، منذ عام ١٩٠٦ ، حتى يتم القضاء على الأمية في آسيا الوسطى ، فقد نفذت السلطة السوفيتية هذه المهمة بصورة اسرع ب ٢٠٠ مرة . واختفت الأمية في الاتحاد السوفيتي . وبلغ عدد طلاب مؤسسات التعليم العالي لعام ١٨٧٩ - ١٩٨٠ ، بالنسبة لكل ١٠ آلاف نسمة ، ١٧٢ طالبا في اوزبكستان و ١٧٣ في كازاخستان و ١٥٢ في قرغيزيا و ١٤٢ في طاجيكستان و ١٢٤ في تركمانيا . بينما كانت النسبة في انجلترا ٩٦ وفي تركيا ٧٣ وفي ايران ٥٠ وفي الهند ٣٩ طالبا .

أما على الصعيد الصحي فلكل مائة ألف انسان في الاتحاد السوفيتي ، عموماً ، يوجد ٣٨٥ طبيباً . وفي كازاخستان ٣١٧ ، وفي اوزبكستان ٢٨٦ ، وفي تركمانيا ٢٧٩ ، وفي قرغيزيا ٢٩١ . أما النسبة في الولايات المتحدة فكانت ٢٢٥ ، وفي فرنسا ١٥٣ ، وفي انجلترا ١٦٤ ، وفي اليابان ١٦٢ . وهكذا هو الأمر في مختلف المجالات الأخرى . فان نسبة العلامات والمتعلمات ، مثلا ، في أية جمهورية سوفيتية شرقية تفوق نسبة مثيلاتها في

والى جانب هذا ظهرت فى الاتحاد السوفيتى وحدة تاريخية جديدة بين الناس ألا وهى «الشعب السوفيتى» - شعب واحد يتكوّن من أكثر من ١٠٠ قومية وشعب ! وقامت هذه الوحدة التاريخية الجديدة على أساس الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، على أساس الوحدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والايديولوجية للاتحاد السوفيتى . اذ ان بناء الاشتراكية المتطورة والقضاء على التناحرات الطبقية والقومية وإرساء القواعد لتحقيق التقارب بين مختلف الطبقات والجماعات الاجتماعية والأمم والاقوام المختلفة ، أدى الى قيام الوحدة الوثقى والانسجام التام فيها بينها .

«فالشعب السوفيتى» - وحدة تاريخية اجتماعية جديدة للناس نشأت

على خلفية بناء الاشتراكية المتطورة ، بعد ان كانت قد رست مقدماتها فى مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . انه اتحاد اشتراكي لسببكية اجتماعية لجميع شغيلة الاتحاد السوفيتى . ويؤلف الأساس الاجتماعى للدولة السوفيتية - دولة الشعب بأسره والمتعدد القوميات . ان الأساس الاقتصادى والسياسى والايديولوجى ، الماركسى - اللينينى ، الواحد فى الدولة الواحدة والمحتوى الاشتراكي الواحد للثقافة القومية المتعددة - كان الدفينة التى ينمو ويتشكل فى ظلها الشعب السوفيتى .

ولكن اقرار هذه الحقيقة لا يعنى بعد زوال الأمم والاقوام فى الاتحاد السوفيتى وتشكيل أمة سوفيتية واحدة ، لا تعرف الفوارق القومية . لا أبداً . فتشكل الشعب السوفيتى يواكبه تفتح وازدهار مختلف الأمم والقوميات . ويبقى وحدة طبقية - قومية على طريق الوحدة البشرية الشاملة فى ظل الانتصار التام والنهائى للشيوعية .

أما العلاقات القومية فى الاتحاد السوفيتى فقائمة على أساس الوحدة الأممية الاشتراكية وعلى أساس المساواة التامة فى جميع مجالات الحياة . وترعرع السمات الأممية جنباً الى جنب مع تفتح الوعي القومى الاشتراكي الذى يجمع بين المصالح القومية والمصالح الأممية ولا يرى أى تناقض بينها . وأصبح حب الوطن السوفيتى الواحد هو السمة المميزة لأية قومية ، كبيرة أو صغيرة ، فى أية جمهورية أو مقاطعة أو دائرة قومية .

ولا نقصد بهذا الكلام انكار بقية بقايا ملامح قومية بائدة ، وريث

عهود غاربة ، لدى فئات ضئيلة وهامشية . وانما نقصد ابراز الحقيقة الموضوعية الغالبة والمسيطرة ، رغم محاولات التخريب للدعاية الامبريالية العربية .

وتتضح عظمة ، بل «معجزة» ، حل المسألة القومية في الاتحاد السوفييتي ، على ضوء انه في أية دولة رأسمالية - ومهما بلغ تطور الديمقراطية فيها - لا بد إلا ان نرى مظاهر التعصب والتمييز القوميين ، حتى لو كان يقطعها ولو قوميتان فقط . اما تحت قبة سماء الاتحاد السوفييتي فيعيش بمساواة تامة وبتعاضد أممي اكثر من مائة قومية . بل وأحياناً نرى هذه الاكثر من مائة قومية - أو اقل منها- تحت قبة سماء مدينة واحدة أو مصنع واحد أو جامعة واحدة أو صف دراسي واحد ، دون ان نشهد أية احتكاكات قومية . وهذا دليل ساطع على عظمة حل الاشتراكية للمسألة القومية ، بل دليل على انه فقط الاشتراكية بإمكانها حل هذه المسألة حلاً جذرياً . ان الأمة التي قضت على استثمار الانسان للانسان ، في داخلها ، وحدها كانت قادرة على القضاء فعلاً على استثمار أمة أخرى !

وكثيراً ما نادى الثورات البرجوازية على مر تاريخها بمبادئ الأخوة والمساواة والحرية للجميع . وكانت غالباً ما تتمخض هذه المناداة عن فأر برجوازي شنيع يقطر استغلالاً ونهباً وتمييزاً واستعماراً . فقط الثورة الاشتراكية كان بإمكانها تجسيد هذه المبادئ في الحياة ، اذ انها ألغت الاستغلال الطبقي - فالغت معه كل مظاهر الاستغلال القومي .

مثال الحزب الشيوعي الاسرائيلي والمسألة القومية

ان الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، وقبله الحزب الشيوعي الفلسطيني في زمن الانتداب البريطاني ، اذ استوعب المبادئ والتعاليم الماركسية - اللينينية بخصوص المسألة القومية ، عمد الى تطبيق هذه المبادئ ، تطبيقاً خلاقاً ، على الوضع الذي نشأ في فلسطين ومن ثم في اسرائيل . وكان

بذلك ، ولا يزال ، امناً للأمية البروليتارية وللمصلحة الوطنية لشعبي هذه البلاد : العرب واليهود . ونستطيع تبيان وإثبات هذه الحقيقة من خلال مواقفه من الصهيونية والقضية الفلسطينية ومسألة حق تقرير المصير ، وكذلك من خلال برنامجه للمساواة القومية والمدنية للجماهير العربية في اسرائيل .

وغني عن البيان أننا في هذا العرض ، الوارد أدناه، لا نقصد لا معالجة الصهيونية ، كفكر وممارسة ، ولا مختلف جوانب القضية الفلسطينية ولا مجمل قضايا الجماهير العربية في اسرائيل . وإنما نقصد التطرق الى هذه المواضيع فقط من خلال عرض موقف الحزب الشيوعي من المسألة القومية ، التي نحن بصدد بحثها في هذا الكتاب .

✽ الموقف من الصهيونية

● أولاً ، وقبل كل شيء ، يرفض الحزب الشيوعي الاسرائيلي المنطلق الصهيوني الذي يؤكد وجود أمة يهودية عالمية . فالأمة ظاهرة تاريخية تتميز بوحدة الحياة الاقتصادية واللغة والارض والصفات الروحية . ولا ينطبق أي مُكوّن من هذه المكونات الاربعة للأمة على الطوائف اليهودية المنتشرة في مختلف بقاع الارض . وحتى في اطار البلد الواحد ، من دول العالم عدا اسرائيل ، ولنقل مثلاً في الاتحاد السوفيتي أو في فرنسا . اذ لا نجد تلك الوحدة القومية لليهود . فيهود الجمهوريات الشرقية في الاتحاد السوفيتي غير يهود الجمهوريات الاوروبية . وفي أية دولة اوروبية غربية نجد طوائف مختلفة لليهود وفق أصلهم والبلاد التي قدموا منها . وحديث الصهيونية عن الأصل المشترك الواحد ، على اعتبار اتحاد اليهود من العبرين القدماء لا يثبت كونهم أمة ولا يخلق مكونات الأمة . فاليهود في العالم يعيشون في مناطق وبلاد مختلفة وفي ظل أنظمة اجتماعية مختلفة ويندمج غالبيتهم في اطار الدولة التي يعيشون فيها : «اليهود السوفييت» أو «اليهود الامريكيين» ... الخ . ولا يعتبرون أنفسهم لاجئين مؤقتين في ارض «الشتات» .

ان حقيقة نجاح الصهيونية والايوساط الامبريالية المعنية ، الى حد

ما ، في تسميم اوساط معينة من اليهود بالايديولوجية الصهيونية ، وفي ربط بعضهم بسياسة حكام اسرائيل ، لا يعني تحويلهم الى أمة عالمية .

● ثانياً ، نرفض اعتبار الصهيونية حركة تحرر قومي لليهود .

يرفض الحزب الشيوعي الاسرائيلي وجود أمة يهودية عالمية ، ويرفض وجود حركة تحرر قومي عالمية لهذه الأمة ، فلا وجود لحركة تحرر قومي بدون وجود الأمة . ثم ان حركة التحرر القومي هي حركة معادية للاستعمار وجزء من الحركة الثورية العالمية . أما الصهيونية فهي معادية للحركة الثورية العالمية ورييبة للاستعمار وعدوة للتقدم . ولا تضع لنفسها مهمة تحرير بلد أو شعب من السيطرة الاجنبية . انها تيار سياسي رجعي ومتعصب وعنصري يمثل مصلحة البرجوازية اليهودية والامبريالية العالمية ، وخصوصاً الامبريالية الامريكية في وقتنا الراهن . والصهيونية ، في أية بقعة تتواجد فيها ، كانت وبقيت حليفة للاستعمار وإحدى أدوات مخططاته . وكذلك ربيبة للبرجوازية الكبيرة ، في أي بلد كان ، ضد حركة الطبقة العاملة وضد الشيوعية . هذا عدا عدائها المميز للسوفييت وللعالم الاشتراكي . وحتى في فلسطين ، وعندما كانت تدعى حمل لواء التحرر القومي ، سعت الى التعاون مع الاستعمار البريطاني وقبلت ببقائه في البلاد ، شريطة أن يأخذها بعين الاعتبار وان لا يعتمد على حلفائه من العرب . وكان من اقطابها من استعد لاستبدال الاستعمار البريطاني باستعمار امريكي ، في فلسطين . وكان من استعد لاقامة «الدولة اليهودية» في أفريقيا !

● ثالثاً ، نرفض منطلق الصهيونية بخصوص ما يُسمى «المسألة

اليهودية» وبخصوص اللاسامية :

تدعي الصهيونية ان العداء لليهود هو متوارث ولا يمكن ان يزول إلا بتجميعهم في دولة واحدة وهكذا تحل المسألة اليهودية . أما الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، فلقد حدد في قرارات مؤتمره السادس عشر ما يلي : «عندما نتحدث عن المسألة اليهودية نقصد مسألة التمييز ضد اليهود ومطاردتهم حتى إفناءهم (ولا سيما في أيام الحكم النازي) لمجرد كونهم يهود . ولذا فقضية حل المسألة اليهودية ، هي قضية تحرير الجماهير اليهودية من مرض اللاسامية ، الذي يظهر بأشكال مختلفة في مجتمع الاستغلال الطبقي . والقضية هي كيفية استئصال مرض اللاسامية من

كذلك الأمر بالنسبة للإسلامية . ان المسألة ليست مسألة عداء متوارث لليهود ، غير مرتبط بالنظام القائم ، كما تدعي الصهيونية . لذلك يؤكد الحزب الشيوعي الاسرائيلي انه لا يجوز الحديث عن «مسألة يهودية» كمسألة عالمية في كل اقطار العالم ، الرأسمالية منها والاشتراكية . فقضية التمييز ضد اليهود ومطاردتهم ، وكذلك قضية الاسلامية كأحد اشكال التمييز العنصري ، هي وليدة المجتمع الطبقي الاستغلالي . ولا يمكن القضاء عليها كلية إلا عن طريق القضاء على المجتمع الذي ينبتها . ولذلك واجب اليهود ، في هذا الاطار ، هو تعميق وتصعيد النضال ، أينما تواجدت هذه الظاهرة ، سوية مع القوى الديمقراطية الثورية الوطنية المناضلة ضدها .

ان المنطلق القومي الشوفيني الصهيوني بأن كل شعب يكره الشعب الآخر وان الجميع يكره اليهود ، هو منطلق رجعي ومنافٍ للعلم ويقصد به ضمان سيطرة الصهيونية على الطوائف اليهودية . وكذلك عزل اليهود ، أينما كانوا ، عن النضال الديمقراطي التقدمي والاجتماعي الذي تقوده ، في الأساس ، الطبقة العاملة وأحزابها ومنظماتها .

ثم ان الاسلامية ، كأحدى اشكال التمييز العنصري ، كانت دائماً ملجأً للطبقات الرجعية بهدف تفسيح وحدة الطبقة العاملة والجماهير الشعبية ولصرف النظر عن العدو الحقيقي . والرأسمالية ، على مر تاريخها ، سعت وتسعى لتأجيج العداء القومي والديني بهدف تثبيت سلطتها وتنفيذ مآربها . لذلك فالنضال ضد الاسلامية ليس مسألة تخص اليهود فقط . بل هي مسألة ديمقراطية عامة تخص كل القوى الديمقراطية والثورية .

ثم تجدر الإشارة الى ان قيام اسرائيل لم يجذب جميع يهود العالم . بل اننا نشهد ، منذ نهاية الستينات ، حركة واسعة للهجرة من اسرائيل . كذلك وجود اسرائيل لم يقضِ لا على «المسألة اليهودية» في العالم ولا على الاسلامية . بل أحيانا تشد الاسلامية على خلفية ممارسات حكام اسرائيل العدوانية . أضف الى هذا ان الصهيونية ، وعلى مر تاريخها ، كانت تستفيد من الاسلامية ، لدرجة ان بعض قادتها حببوا وعبروا عن هذا صراحة ، وذلك لكونها تسهل عملية هجرة اليهود الى البلاد . ولم يحجم بعض قادة الصهيونية عن تفجير كنس يهودية في العراق لتحقيق هذا الهدف ! ونشرت ،

في السنوات الاخيرة ، عدة دراسات كشفت النقاب حتى عن تعاون بعض الصهيونيين مع الاوساط الفاشية والنازية .

وغني عن البيان انه لولا صعود الفاشية والنازية في اوروبا ، في النصف الاول من هذا القرن ، ولولا اشتعال الحرب العالمية الثانية ، وما اكبها من مذابح ومطاردة نازية وفاشية لليهود ، لما استطاعت الصهيونية ضمان الهجرة الواسعة لليهود نحو فلسطين ، في الاربعينات وبدء الخمسينات .

● رابعاً ، نرفض الحجة الصهيونية بأن اليهود شعب بلا ارض قدموا الى ارض بلا شعب :

فالصهيونية ، كما أشرنا سابقاً ، حركة رجعية تهدف الى تجميع اليهود في فلسطين لمآرب امبريالية . و «ارض» اليهود هي اوطان العالم حيث يتواجدون . أما فلسطين فكانت دائماً أرضاً مليئة بشعبها . والشعب الفلسطيني ليس فقط تواجد في البلاد وعمرها وطورها ، رغم الاستعمار البريطاني ، وإنما أيضاً كافح من أجل حق تقرير مصيره منذ ثورة ١٩٣٦ وقبلها بكثير ، وبعدها وحتى اليوم .

● خامساً ، نرفض التماثل الكاذب «يهود» ، «اسرائيل» ، «صهيونية» .

فليس كل يهودي اسرائيلياً . وليس كل يهودي صهيونياً . كذلك ليس كل صهيوني اسرائيلياً . وليس كل اسرائيلي صهيونياً . ان الصهيونية اذ تؤكد هذا «التماثل» تقصد خدمة مآربها الرجعية ، عن طريق التأكيد ان كل من لا يتماثل مع الصهيونية أو مع سياسة حكام اسرائيل يكون معادياً لليهودية ، يكون لاساميا . انه «تماثل» رجعي يقصد منه تسميم عقلية اليهود وفصلهم عن القوى الديمقراطية ، في مختلف بلدان العالم ، وطمس الوعي الطبقي لليهود في اسرائيل وتسعير العداء للعالم الاشتراكي ولقوى التقدم والسلام ، في العالم اجمع .

ان اليهودي يستطيع صيانة يهوديته ، بل والحفاظ على عدم تلويثها ، اذا كان معادياً للصهيونية ولمخططات حكام اسرائيل وحليفاً لقوى التقدم والاشتراكية .

● سادساً ، الصهيونية وحكام اسرائيل لا يمثلون مصلحة الشعب

وهذا بناء على ما قلناه سابقاً . فحكام اسرائيل الصهاينة ، والصهيونية ، أعداء للمصلحة الحقيقية لليهود بل ومستعدون لتقديم قرابين على مذابح مصلحتهم الطبقية . فليس من مصلحة وطنية ، قومية ، عليا لليهود في اسرائيل ، اهم من مصلحة الافلات من برائن الصهيونية العدوانية والتخلص من حكام البلاد . ان من يحتل الاراضي العربية ويتنكر لحق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني ويربط مصيره بمصير الاستعمار ، ليس فقط لا يضمن أمن شعبه ، بل ويضع كل مستقبل بلاده وشعبه على «كف عفريت» ، كما يقولون . فحكام اسرائيل والحركة الصهيونية هم ، الاعداء الطبقيون والوطنيون للشعب في اسرائيل اذ يستغلونه طبقياً ويجعلونه طعاماً لمدافع اطماعهم .

كذلك ليس من مصلحة عليا لليهود ، في العالم ، أعلى من مصلحة تحقيق المساواة التامة والتقدم الاجتماعي وحل المعضلات حلاً ثورياً ، في الاقطار التي يتواجدون فيها .

● سابعاً ، الحزب الشيوعي الاسرائيلي يرفض المعادلة القائلة «نحن اليهود» . وهم «العرب» ، أو العكس .

بما أننا سنفصل في شرح علاقة «الأممي» و «الطبقي» و «القومي» ، في الموضوع الثاني من هذا الكتاب ، نكتفي الآن بالقول ان هذا هو منطلق الصهيونية ، عملياً . اذ هي المعنية بتصوير العداء على أساس قومي وبتسعير الشوفينية . أما نحن فنقول توجد امبريالية وتوجد صهيونية وتوجد رجعية عربية . وكما لا تماثل بين العربي والرجعية العربية ، وبين الامريكي والامبريالية الامريكية ، كذلك لا تماثل بين اليهودي والصهيونية وسياسة حكام اسرائيل . ان المصلحة الحقيقية لليهود ، كمصلحة العرب ، ايضاً ، هي التخلص من مخططات الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية . هذا ما عدم وضع هذه الاقاليم الثلاثة المدنسة على قدم المساواة من ناحية المسؤولية على مأساة الشعب العربي الفلسطيني . ولذلك وَصَّعَ وابرز الحزب الشيوعي الاسرائيلي شعاره المشهور «مع الشعوب العربية ضد الاستعمار وليس مع الاستعمار ضد الشعوب العربية» .

● ثامنا ، تقييم الصهيونية :

بناء على ما سبق ، كيف قيّم الحزب الشيوعي الاسرائيلي الصهيونية ؟ ! لقد عالج الحزب الشيوعي الاسرائيلي هذه المسألة ، بشكل خاص وتفصيلي ، في مقررات المؤتمرين السادس عشر (سنة ١٩٦٩) والسابع عشر (سنة ١٩٧٢) .

جاء في مقررات المؤتمر السادس عشر : «الصهيونية في أيامنا هي ايدولوجية وسياسة قومية رجعية للبرجوازية اليهودية الموالية للاستعمار ، التي مركزها في اسرائيل والولايات المتحدة . وتعمل الصهيونية لمصلحة الدول الاستعمارية . وتعمل لعزل العمال وجماهير الشعب اليهودي عن النضال المشترك ، مع باقي العمال وجماهير الشعب في اوطانهم من أجل التقدم والاشتراكية . وبهذا تسبّب الصهيونية ضررا كبيرا للكادحين اليهود ولكل الجماعات اليهودية التي تعمل فيما بينها . وتعمل الصهيونية في الشرق الاوسط من أجل توطيد المواقع السياسية والاقتصادية والاستراتيجية للدول الاستعمارية . وبمساعدها تعمل من أجل التوسع الاقليمي لدولة اسرائيل . وتقف الصهيونية ضد الشعب العربي الفلسطيني وضد كافة الحركة الوطنية العربية المعادية للاستعمار . وبهذا تعمل الصهيونية ضد المصالح الوطنية الحقيقية لشعب اسرائيل .

«وتقوم الصهيونية بدور نشيط في الحرب الباردة التي تشنها الدول الاستعمارية ضد الاتحاد السوفييتي ودول اشتراكية أخرى ، وفي النشاط النظري والسياسي والتخريبي ضد الاقطار الاشتراكية . وتخدم الصهيونية الاستعمار الجديد في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . في كل هذا تلحق الصهيونية ضررا كبيرا بجماهير الشعب اليهودي ، وشعب اسرائيل وبالقضية العامة للتقدم الانساني . ان النضال ضد الايدولوجية والسياسة الصهيونية هو مصلحة حيوية لشعب اسرائيل وللجماعات اليهودية في العالم ولجميع قوى التقدم»^(٦٢) .

كذلك قرّر الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، في مؤتمراته المختلفة ، انه لا توجد ولا يمكن ان توجد صهيونية تقدمية ، اذ ان الايدولوجية الصهيونية والممارسة الصهيونية كانت ، ولا تزال ، ايدولوجية وممارسة رجعية . ولكن

الى جانب هذا قرّر الحزب ان الانقسام الأساسي في اسرائيل هو الانقسام الطبقي . وليس الانقسام بين الصهيونيين واللاصهيونيين . والانقسام الطبقي هو نقطة انطلاق الحزب التي تقرر استراتيجيته وتكتيكه . كذلك لاحظ وجود صهيونيين يتخذون موقفاً صحيحاً من هذه القضية أو تلك ويقعون ، بهذا ، في تناقض بين مواقفهم وايدولوجيتهم الصهيونية . لذلك قرّر الحزب إجازة ، بل ضرورة ، التعاون مع أوساط صهيونية حول قضايا عينية مشتركة ، هذا دون التخلي عن النضال الايدولوجي - السياسي ضد الصهيونية . ودون التخلي عن الموقف المبدئي من الصهيونية كحركة رجعية شوفينية ، قررت أيضاً الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة ، بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٥ ، انها شكل من اشكال العنصرية .

* الموقف من القضية الفلسطينية وحق تقرير المصير

يُقيم الحزب الشيوعي الاسرائيلي الحركة القومية للشعب العربي الفلسطيني كحركة تحرر وطني بدأت كفاحها للتحرر من الاستعمار البريطاني وانتهت اليوم الى مطلب التحرر من الاحتلال الكولونيالي الاسرائيلي . ويؤيد الحزب كفاح الشعب العربي الفلسطيني في سبيل هذا ، مؤكداً على عدالة مطلب حق تقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة الى جانب اسرائيل ، ضمن حدود حزيران ١٩٦٧ ، وعلى حق اللاجئين بالعودة أو التعويض - وفق اختيارهم ووفق قرارات الأمم المتحدة المعروفة بهذا الخصوص .

ويبرز الحزب خصوصية هذه الحركة القومية . اذ منذ البدء وجدت الحركة القومية الفلسطينية نفسها تكافح على ثلاثة أصعدة : ضد الاحتلال البريطاني وضد الحركة الصهيونية والاستيطان الصهيوني وضد الرجعية العربية . ولم تبقى المسألة مسألة تحرر عادية من الاستعمار الاجنبي - البريطاني . اذ نشأت ايضاً مشكلة قومية داخل فلسطين نفسها ، بسبب من الاستيطان الصهيوني الذي غير الطابع الديمغرافي للبلاد وأنشأ قومية يهودية

في طور التكوّن والنمو .

لقد رأى الحزب الشيوعي الفلسطيني - قبل قيام دولة اسرائيل - حركة التحرر القومي الفلسطيني كرافد من روافد حركة التحرر القومي العربية ودعمها في كفاحها من أجل التحرر من الاستعمار البريطاني ، رغم كون القيادة الرسمية لها ، في حينه ، قيادةً طبقيةً رجعيةً على الصعيد الاجتماعي - ومتذبذبةً على الصعيد السياسي . واذ حذر الحزب من تذبذبتها ومغازلتها للاستعمار وللرجعية العربية ، طالب بتوحيد كافة القوى المعنية بالتحرر الوطني لتشديد الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية ومؤامرات الرجعية العربية المتواطئة معها . وحذر من خطأ الوقوع في شوفينية العداء القومي ، العربي - اليهودي . اذ ان هذا يخدم ، في نهاية المطاف ، مخطط «فرق تسد» للاستعمار البريطاني وكذلك شوفينية الحركة الصهيونية . وطالب الحزب الشيوعي الفلسطيني ، قبل صدور قرار التقسيم ، بالحل الديمقراطي التالي للمسألة القومية : طرد الاستعمار البريطاني وإقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية ، التي سيعيش فيها اليهود أيضاً كمواطنين كاملي الحقوق .

لكن تطور الاحداث - التي ليس هذا مجال بحثها - أدّى الى قبول الحزب بقرار تقسيم فلسطين . لماذا ؟

لقد قيم الحزب الشيوعي الفلسطيني انه نشأت في فلسطين ، في ظل ظروف خاصة ، مقومات تكون القومية اليهودية ، وان كان هذا عن طريق الاستيطان الصهيوني وعلى حساب الشعب العربي الفلسطيني . فمع نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأمام ازدياد الهجرة اليهودية للبلاد ، بسبب من الفاشية والنازية وليس دوماً بسبب الاقتناع الصهيوني ، وصل عدد اليهود في البلاد الى ٦٥٠ ألف نسمة . وبدأ يتمتع هؤلاء بمقومات تكون الأمة وان لم تكن هذه المقومات قد اكتملت نهائياً بعد . ونقص وحدة الارض - اذ استوطنوا في الأساس على امتداد السهل الساحلي في فلسطين - ووحدة الاقتصاد المتطور ، الذي فاق في بعض فروعه حتى الاقتصاد الفلسطيني ، ووحدة اللغة العبرية ، التي كان يزداد انتشارها ، ووحدة التماسك الروحي على خلفية مطاردة الفاشية ونجاح الصهيونية في التسلط عليهم واقناعهم ان العرب هم اعداؤهم كيهود . وساعدت ممارسات الرجعية العربية على تقوية

كذلك تبرز في هذا الاطار خصوصية الاستيطان الصهيوني الذي تمّ تحت سيطرة الانتداب البريطاني . ولم يكن استيطاناً لفئة تابعة لأمة الدولة الكولونيالية . اذ في هذا انه لا يمكن نسب هذا الاستيطان للدوافع الصهيونية فقط . فليس صدفة ازدياد كثافة هذا الاستيطان بعد انتصار النازية في المانيا . سنة ١٩٣٣ .

أما القيادة الرجعية العربية والتي تألفت ، في الأساس ، من أسياد الارض والبرجوازية التجارية ، فلم تستطع لا مواجهة الاستعمار ولا مواجهه الصهيونية بالشكل الصحيح . ولم تطرح «المسألة اليهودية» في اطارها الصحيح . فمن جهة تعاونت مع الاستعمار البريطاني ، المتحالف مع الصهيونية ، بدلا من التعاون مع الاتحاد السوفيتي وقوى التحرر العالمية . ومن جهة أخرى انزلت في باب الاصطدامات العنصرية التي أرادها الاستعمار البريطاني والصهيونية ايضاً . هذا عدا انه كان دائماً هنالك تعاون خفي بين الاقطاعيين والبرجوازيين العرب الكبار والقيادة الصهيونية ، ولو في السر . ويشهد على هذا بيع أجزاء واسعة من فلسطين من قبل اقطاعيين وملاكين عرب للقيادة الصهيونية . وليس هذا فقط !

المهم ان نظور الاحداث في فلسطين أدّى الى عدم نجاح الحل الديمقراطي والى عدم حسم المعركة من قبل حركة التحرر الوطني الفلسطينية والى استمرار الانتداب البريطاني والاصطدامات الدموية العربية - اليهودية . وطرحت القضية على الأمم المتحدة . وصدر قرار تقسيم فلسطين بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ .

ونص القرار على تصفية الانتداب البريطاني وجلاء الجيوش الاجنبية وعلى تقسيم فلسطين لدولتين - دولة عربية ودولة يهودية - . وعلى ضرورة قيام التعاون الاقتصادي بين هاتين الدولتين . وكان من المفروض ان يعيش في الدولة العربية ، حسب التقسيم ، (٧٢٥) ألف عربي و (١٠) الاف يهودي . أما في الدولة اليهودية فكان من المفروض ان يعيش (٤٩٥.٠٠٠) يهودي و (٤٩٠.٠٠٠) عربي . أما القدس فيجري تدويلها (١٠٥ آلاف عربي و ١٠٠ ألف يهودي) .

ولا بدّ هنا من الاشارة الى خصوصيات ظروف القرار . فبريطانيا

كانت تقصد من خلال اضطرابها لطرح الموضوع على الأمم المتحدة . استمرار انتدابها لفلسطين على ضوء تعذر التفاهم بين العرب واليهود - هذا التعذر الذي كانت تغذيه وتنميه . وكانت قد طرحت ، في فترة سابقة ، تقسيم فلسطين الى «كانتونات» ، عربية ويهودية ، تتمتع بالادارة الذاتية فقط ، مع استمرار انتدابها على البلاد . أما الدول العربية ، والتي كانت دولاً رجعية في ذلك الوقت ، فقد ركزت جهودها ليس ضد الاستعمار البريطاني والصهيونية بل ضد امكانية التفاهم بين العرب واليهود . ولم تطرح البديل الديمقراطي : جلاء الاستعمار وإقامة دولة ديمقراطية تؤمن حقوق السكان اليهود ايضاً .

ووافق الشيوعيون الفلسطينيون على هذا القرار ، من منطلق فهمهم الثوري والخلاق والصحيح لمبادئ الماركسية - اللينينية بخصوص المسألة القومية ، وبناء على الظرف العيني الملموس وخصوصياته . وأكدوا ان هذا القرار ليس أفضل قرار اطلاقاً . فالأفضل هو قيام الدولة الديمقراطية التي تحفظ حقوق جميع السكان ، عرباً ويهود - وهذا كان موقف المندوب السوفييتي في الأمم المتحدة في حينه ، اندريه غروميكو . ولكن ، وبما ان الأمر كان من المتعذر تحقيقه ، على ضوء ما بيناه سابقاً ، وافق الشيوعيون الفلسطينيون على قرار التقسيم بصفته القرار المناسب للظرف المناسب ، بصفته أفضل قرار ، نسبياً ، كان من الممكن اتخاذه وتحقيقه في ذلك الوقت . وخصوصاً ان البديل لم يكن قيام الدولة الديمقراطية وإنما استمرار الانتداب البريطاني او قيام الدولة اليهودية فقط وحرمان الشعب العربي الفلسطيني من حق تقرير مصيره - وهذا ما حدث فيما بعد . صحيح انه لم ينص القرار على العدل الكامل . ويصح اعتباره كذلك تنازلاً بالنسبة للشعب العربي الفلسطيني عن حق تقرير المصير على كامل التراب الفلسطيني . ولكن ماذا كان البديل ؟ !

أضف الى هذا الاعتبارات المبدئية التالية والتي لا يمكن تجاهلها في أثناء بحث حل المسألة القومية :

١. القرار أنهى الاستعمار البريطاني لفلسطين .
٢. القرار نص على ضمان حق تقرير المصير لشعبي البلاد .

٣. القرار نص على التعاون الاقتصادي المستقبلي بين الدولتين العتيدتين .

فالشيوخون الفلسطينيون الأمينون لمبدأ حق تقرير المصير وللشروط اللينينية بخصوص تطبيقه - أي ان يكون ضد الاستعمار وفي صالح الشعب المعني بتقرير مصيره وفي صالح العملية الثورية ، لما فيه خدمة التحرر والتقدم السياسي والاجتماعي لصالح نضال الطبقة العاملة وضد الامبريالية - رأوا ان هذا القرار ، رغم نواقصه ، لا ينافي هذه المبادئ . اذ انه انهي الاستعمار وضمن حق تقرير المصير في دولتين ، بعد أن تعذر موضوعياً وذاتياً ضمان هذا الحق في دولة واحدة . وأمل الشيوعيون ان تؤدي هذه الخطوة - وخصوصاً بعد انتهاء الانتداب البريطاني وتحقيق التعاون الاقتصادي - الى تقارب الدولتين العتيدتين ، وحتى الى اتحادهما في المستقبل ، بعد الانفصال . وهنا يجب ان نشير انه صحيح جرى حرمان (٤٩٠،٠٠٠) فلسطيني عربي من حق تقرير المصير في اطار الدولة اليهودية ، حسب قرار التقسيم ، ولكن كان من الممكن ان يكون هذا الأمر عاملاً مساعداً اضافياً ، في المستقبل ، لتوحيد الدولتين .

لا يعنينا ، في هذا البحث ، تفاصيل تطور المسألة الفلسطينية فيما بعد ولا كون الامبريالية والصهيونية قد عملتا على تفرغ هذا القرار من محتواه . ولا نفصل أيدي الرجعية العربية من هذه المسؤولية ، مع تحميل الامبريالية والصهيونية المسؤولية الأساسية . ولكن يعنينا التأكيد انه لا الامبريالية ولا الصهيونية ولا الرجعية العربية كانت أمينة لمبدأ حق تقرير المصير . فالرجعية العربية تأمرت ، في العلن والسر ، في أثناء حرب ١٩٤٨ وعلى ضوء نتائجها ، وقبلها ، وسوية مع الامبريالية والصهيونية ، لحرمان الشعب العربي الفلسطيني من تقرير مصيره ولضم بعض المناطق المخصصة له لممالكها - لمصر الملك فاروق ولاردن الملك عبد الله . أما القسم الآخر من هذه المناطق فجرى ضمه لاسرائيل . وهكذا حُرم الشعب العربي الفلسطيني ، حتى يومنا هذا ، من حق تقرير مصيره . هذا عدا تشريد مئات الآلاف من أبنائه وهدم مئات قراه والمآسي التي يواجهها يومياً .

ان النتائج العينية التي اسفر عنها قرار التقسيم لا تعنى عدم صحته .
فالشيوعيون لم يقصدوا هذه النتائج عندما وافقوا عليه . على العكس تماماً .
ان الذين تظاهروا بالموافقة عليه - كالامبريالية والصهيونية - والذين
تظاهروا بعدم الموافقة عليه ، بحجة مطلب حق تقرير المصير على كل
التراب الفلسطيني - الرجعية العربية - هم ، هم ، الذين تأمروا على حرمان
الشعب العربي الفلسطيني من تقرير مصيره ، ولو على جزء من ارض
فلسطين . ان النتائج المأساوية لحرب ١٩٤٨ واستمرار المأساة الفلسطينية
حتى اليوم ، بما فيها احتلال البقية الباقية من اراضي الشعب العربي
الفلسطيني في حزيران ١٩٦٧ ، تثبت كم كان الشيوعيون الفلسطينيون
أمينين وواقعيين وبعيدي النظر في موقفهم من حل المسألة القومية ، وفي
موافقتهم على قرار التقسيم .

أما حكام اسرائيل ، الذين ربطوا مصير بلادهم بمصير الاستعمار
وجعلوا من اسرائيل رأس حربة امبريالية ضد حركة التحرر الوطني العربية
وضد السلام والتقدم ، في كل بقعة على الارض ، وقاعدة عسكرية
واقتصادية للامبريالية الامريكية - فلقد فرطوا ، هم الآخرون ، بمبدأ حق
تقرير المصير لشعبهم .

واليوم لا يزال الحزب الشيوعي الاسرائيلي أميناً لمبدأ حق تقرير
المصير للشعب الفلسطيني . ولم يتنازل عن طرح هذا المبدأ حتى عندما تنازل
عنه الآخرون ، أو تجاهلوه ، عندما غابت عن الساحة الفلسطينية قيادة
شرعية تمثله ، قبل تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية . ويرى الحزب ، في
الظروف الجديدة والقائمة وعلى ضوء الواقع الاسرائيلي والعربي ، المحلي
والشرق اوسطى ، وعلى ضوء توازن القوى الدولي ، انه من الممكن الآن
تطبيق حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني عن طريق انهاء
الاحتلال الاسرائيلي لجميع المناطق العربية المحتلة في حرب حزيران ١٩٦٧
وانسحاب الجيش الاسرائيلي منها ، بدون قيد او شرط ، وعن طريق إقامة
الدولة الفلسطينية المستقلة في هذه المناطق . هذا مع ضمان حل مشكلة
اللاجئين وفق قرارات الأمم المتحدة - أي ضمان حق العودة أو التعويض ،
لمن لا يريد العودة .

ولقد رفض الحزب الشيوعي الاسرائيلي برامج قديمة معينة طرحتها

وأيدتها فصائل فلسطينية ، في فترات سابقة - مثل الدعوة لازالة اسرائيل - واعتبرها برامجاً غير واقعية ولا تخدم مصلحة النضال في المرحلة الحالية من أجل التحرر الوطني وضد الاستعمار ولصالح كفاح الطبقة العاملة . كذلك رأى انها تضر بوحدة القوى الكفاحية على الصعيد العالمي والشرق اوسطى ، بما فيه الفلسطيني والاسرائيلي - الديمقراطي ، المناضلة في سبيل حل المسألة الفلسطينية وإحلال السلام الشامل والعاقل والثابت في الشرق الاوسط .

ويعتز الحزب بأن برنامجه لحل هذه المسألة أصبح البرنامج المقبول دولياً وفلسطينياً ، في وقتنا الراهن .

لكن الى جانب هذا أكد الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، ويؤكد ، ان المتطرف الأساسي - بل والمجرم - هو حكام اسرائيل ، الذين ليس فقط يتنكرون لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإنما ايضا يحاولون إبادة جسديا ويتخذون قراراً رسمياً في الكنيسة بحق اليهود على ما يسمى «كل ارض اسرائيل التاريخية» . فالعدو الأول كان وما زال الشوفينية الاسرائيلية . أما التطرف الفلسطيني ، مهما بلغ شأوه في مراحل سابقة ، لا يمكن ولا يجوز وضعه على قدم المساواة مع تطرف المحتل . ولكنه مرفوض هو الآخر ويضر بالكفاح العادل للشعب العربي الفلسطيني ، أولاً وقبل كل شيء .

ولا يشغل الحزب نفسه اليوم ببحث مستقبل التطور عندما يتحقق هذا الحل ، لأنه ليست هذه هي المسألة الأساسية الآن . ولكن هذا لا يمنع من الاشارة الى ان اقامة الدولة الفلسطينية ، في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين ، لا يعني نهاية المطاف ولا الحل الجذري النهائي للمسألة القومية . فهناك احتمال الاتحاد المستقبلي وهناك ايضا الحل الاشتراكي النهائي . لقد نصت ، مثلاً ، قرارات المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي الاسرائيلي (حزيران ١٩٧٢) على ما يلي : «ولا نستبعد في المستقبل البعيد إمكان حدوث تطورات في اتجاهات مختلفة ومنها إقامة اتحاد فدرالي بين الدول في منطقتنا . ولكن مهما تكن التطورات ، ان ارتباط الدول مع بعضها البعض ، على هذا الشكل أو ذاك ، لا يمكن أن يتم إلا نتيجة رغبة الشعوب الحرة»^(٦٣) .

وجاء ايضا : «اما من حيث التطور التاريخي في منطقتنا فان الحل الكامل والتام للقضايا القومية سيكون متعلقا بالتغيرات التقدمية في الاقطار العربية وفي اسرائيل ويطرد الامبريالية عن مواقعها في المنطقة ، الأمر الذي يضع العلاقات جميعها على أسس جديدة . والقضايا التي قد تثار في المستقبل سيكون من الضروري حلها وفقا لحقوق الشعوب ومصالحها ، وفقا للمصلحة العامة في النضال ضد الامبريالية ومن اجل السلام والاشتراكية»^(٦٢) .

اما بخصوص مسألة «الارهاب» فيقرر الحزب الشيوعي الاسرائيلي ان الارهاب القائم والموجود والرسمي هو الارهاب الاسرائيلي - الصهيوني ضد حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره وضد الشعوب العربية التي تحتل اسرائيل أجزاء من اقطارها ، أو تغير عليها بين الحين والآخر . أما كفاح الشعب العربي الفلسطيني فهو كفاح وطني وعادل من أجل إنهاء الاحتلال وتحقيق الاستقلال الوطني . واذ يشجب الحزب الشيوعي الاسرائيلي هذا العمل الارهابي الفلسطيني أو ذلك ، الذي قد يقع فيه أحيانا بعض الفلسطينيين ، من وجهة نظر إنسانية ومن وجهة ضرر هذه العملية الارهابية أو تلك بكفاح الشعب العربي الفلسطيني نفسه ، يؤكد الحزب ان من حق الشعب العربي الفلسطيني اللجوء الى مختلف أساليب الكفاح العادل ، بما فيه الكفاح المسلح ، لتأمين حقوقه الشرعية . ويبرز الحزب الخلفية التي تنشأ عليها مثل هذه الاعمال - ألا وهي استمرار الاحتلال والارهاب الاسرائيلي الرسمي ، واللا رسمي ، والتنكر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني .

* الموقف من المساواة القومية للجماهير العربية في اسرائيل

إثر عدم تحقيق حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني وتشريد مئات آلاف أبنائه وقيام اسرائيل على رقعة أكبر من التي حددها لها قرار التقسيم ، بقي في اسرائيل ١٦٠ ألف عربي فلسطيني فقط . ووصل عددهم

اليوم الى ٦٥٠ ألف نسمة .

لقد قاد الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، منذ اليوم الاول لقيام دولة اسرائيل ، كفاح الأقلية القومية العربية في البلاد التي عانت ولا تزال من الاضطهاد المزدوج : الطبقي والقومي . واقتنعت الجماهير العربية ، من خلال تجربتها الخاصة ، ان الحزب الشيوعي الاسرائيلي هو الممثل الأمين للدفاع عن مصالحها القومية والطبقية ، في آن واحد .

يرى الحزب ان هنالك «مسألة قومية» داخل اسرائيل ايضاً . انها مسألة المساواة القومية والمدنية للجماهير العربية في اسرائيل والتي تعاني من شتى صنوف الاضطهاد والتمييز القومي . وهذه المسألة مرتبطة ايضاً بحل المسألة القومية العامة ، ألا وهي حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني ، والتي تشكل الأقلية القومية العربية ، في اسرائيل ، جزءاً لا يتجزأ منها .

وبحث الحزب الشيوعي الاسرائيلي مسألة الجماهير العربية في اسرائيل ، في جميع مؤتمراته . ووضع في المؤتمر الثامن عشر (كانون الاول ١٩٧٦) برنامجاً تفصيلياً للمساواة القومية والمدنية للجماهير العربية ؛ وعاد وأكد عليه وفصله في المؤتمر العشرين (كانون الاول ١٩٨٥) .

لقد جاء في قرارات المؤتمر الثامن عشر ان الحكومة الاسرائيلية تمنع عن الجماهير العربية المساواة في الحقوق المدنية والقومية ولا تعترف بها اطلاقاً كأقلية قومية ولا تعترف لها الا بحقوق دينية وثقافية ، وحتى هذه تقوم على أساس التمييز والغبن .

وقرر المؤتمر الثامن عشر أن : «الجماهير العربية في دولة اسرائيل هي أقلية قومية وهي جزء من الشعب العربي الفلسطيني . وهي تناضل في سبيل المساواة في الحقوق المدنية والقومية في دولة اسرائيل ، ولمنح الشعب العربي الفلسطيني حقوقه القومية العادلة ولأجل السلام العادل بين اسرائيل والدول العربية ، والديمقراطية والتقدم الاجتماعي»^(٦٥) .

وبناءً عليه يرى الحزب في هذه الجماهير عابلاً كبير الوزن ، كماً ونوعاً . ولها مصلحة حيوية في النضال من أجل السلام ، المبني على حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني ، وفي النضال ضد العنصرية والشوفينية الرسمية من أجل المساواة التامة في الحقوق القومية والمدنية .

كذلك لها مصلحة في النضال من اجل الديمقراطية وحقوق العاملين والتقدم الاجتماعي وضد السياسة الرسمية لحكام اسرائيل وارتباطها بالسياسة الامبريالية العالمية .

ولا يمكن فصل النضال من اجل المساواة عن النضال من اجل السلام والديمقراطية وحقوق العاملين . فالسلام العادل ، مثلاً ، سيعني بالنسبة للجماهير العربية ، إنجاز حق تقرير المصير لشعبها والتي هي جزء منه . هذا عدا حل مشكلة اللاجئين . وسيعني ايضاً نشوء ظروف افضل ، داخل اسرائيل ، للنضال ضد سياسة التمييز القومي ، وظروف افضل لزيادة وزن الجماهير العربية في النضال العام من أجل تغيير تقدمي في طابع الحكم في اسرائيل . وغني عن البيان ان العكس ايضاً صحيح ، أي ان كل نجاح في النضال من اجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي وفي تغيير طابع نظام الحكم في اسرائيل ، سيكون دافعاً كبيراً للنضال من اجل حل المشكلة القومية وتحقيق المساواة في الحقوق .

كذلك يبرز الحزب الشيوعي الاسرائيلي ضرورة النضال الديمقراطي المشترك ، اليهودي - العربي ، ضد سياسة حكام اسرائيل وممارساتهم العدوانية والعنصرية . فالتناقض ، في نهاية المطاف ، قائم ليس بين العرب واليهود في البلاد وإنما بين الجماهير الشعبية في البلاد ، يهودية وعربية ، وبين عدوّها المشترك : السياسة الصهيونية ، التوسعية والعنصرية ، لحكام اسرائيل .

كذلك قرّر الحزب انه «يرفض رفضاً قاطعاً تصريح رئيس الحكومة اسحق رابين - في حينه - بأن دولة اسرائيل هي دولة يهودية وصهيونية ، ولذلك فلا مكان للاعتراف بحقوق الجماهير العربية القومية في اسرائيل ولا الاعتراف بها كأقلية قومية»^(٦٦) . وأشار الحزب الى ان دولة اسرائيل دولة يهودية ، بمعنى تعبيرها عن تقرير المصير للشعب اليهودي . ولكنها ليست دولة يهودية فقط ، بل دولة ذات أكثرية يهودية وأقلية قومية عربية ، كبيرة الوزن . أما بخصوص طابعها الصهيوني ، وتبرير عدم المساواة بناء عليه ، فلقد قرّر الحزب ان هذا يتناقض حتى مع التعهدات التي وردت في وثيقة استقلال اسرائيل . عدا أنه في دولة اسرائيل ، اذا كانت ديمقراطية حقاً ، يجب ضمان المساواة التامة في الحقوق للأقلية القومية

العربية ، بغض النظر عن الفوارق القومية .
واذ يعتبر الحزب سياسة التمييز تجاه الجماهير العربية جزءاً من
السياسة العامة ، المغامرة والسوفينية ، لحكام اسرائيل والمعادية للعاملين
وللديمقراطية وللسلام ، يؤكد على ضرورة النضال اليهودي - العربي المشترك
وعلى أن النضال من أجل المساواة يخدم مصلحة شعبي البلاد ومصلحة السلام
والصداقة بين الشعوب . اذ ان السوفينية ، في نهاية المطاف ، تخدم مصلحة
حكام اسرائيل . كذلك يبرز الحزب كونه سياسة التمييز عِصاً ذات رأسين ،
وتضر بالشعب اليهودي أيضاً ، مؤكداً أن شعباً يستعبد شعباً آخر لا يمكن أن
يكون حراً !

هذا ويضيف الحزب ان من مصلحة الامبريالية ان توقع الخلاف بين
الشعوب ، اذ ان تحقيق السلام العادل والمساواة القومية سيؤدي الى صب
الجهود المشتركة على النضال من اجل إجراء تحولات سياسية - اجتماعية
عميقة في البلاد ومن ثم من اجل الاشتراكية . ويؤكد الحزب ان
الاشتراكية وحدها - «قادرة على حل كامل وأساسي لكل القضايا
القومية ، لأنها تقتلع من الأساس الجذور الطبقية والاجتماعية للتمييز
والاضطهاد القومي وتخلق ظروفاً موضوعية افضل لاقامة علاقات
الصداقة والأخوة بين الشعوب»^(١٧) .

لكن الحزب الشيوعي الاسرائيلي لا ينتظر الاشتراكية حتى يتم تحقيق
المساواة القومية للجماهير العربية ، وانما يضع برنامجاً تفصيلياً للمساواة
ويناضل في سبيل تحقيقه . وتبرز بين البنود ال (١٤) لهذا البرنامج ، حسب
قرارات المؤتمر العشرين ، المطالب الأساسية التالية : الاعتراف بالجماهير
العربية كأقلية قومية وإلغاء كل قوانين وأنظمة التمييز والاجراءات المبنية
عليها ومنع التحريض القومي - العنصري واحترام اللغة العربية كلفة رسمية
وإلغاء مصادرة الاراضي العربية وارجاع ما صودر منها وإعادة اراضي
اللاجئين في الدولة وكذلك ارجاع املاك الوقف الاسلامي لاصحابه . والغاء
القوانين والأنظمة الصهيونية التي تمنع بيع الارض أو تأجيرها للعرب .
وإلغاء كل تمييز بحق الفلاحين العرب . واحترام حقوق السكان العرب
(البدو) في النقب .

كذلك يتضمن البرنامج المطالبة بالغاء البنود التي تميز ضد العرب في

قانون الجنسية ، وبضمان حرية التنقل والسكن ، وبإشراك العرب على قدم المساواة في جهاز الدولة المركزي والمحلي وفي إدارة الخدمات العامة وإلغاء التمييز بحق العاملين العرب ، بما فيه وضع قانون لمنع عدم تشغيلهم في بعض المصانع والمؤسسات على أساس قومي وكذلك إلغاء التمييز القومي في الهستدروت . هذا بالإضافة الى مطلب إلغاء التمييز في جهاز التعليم ، بما فيه مسألة قبول الطلاب للمؤسسات العليا . واحترام الثقافة والتراث والتاريخ العربي . وتحسين برامج وجهاز التعليم وفتح جامعة في الناصرة تعلم باللغة العربية . ومطلب إلغاء التمييز عن السلطات المحلية العربية ، بما فيه التمييز في الميزانيات والخدمات وتوسيع مسطح البناء ، وكذلك إلغاء التمييز تجاه الأحياء العربية في المدن المختلطة . ومطلب اقامة مشاريع صناعية في الوسط العربي ودعم اقتصاد المدن والقرى العربية ... الخ .

* * *

وبعد ، ان مواقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي من الصهيونية والمسألة الفلسطينية ، وحق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني ولليهود ، ومن الجماهير العربية في اسرائيل ، تعكس ليس فقط الأمانة التامة لمبادئ الماركسية - اللينينية بخصوص المسألة القومية ، وإنما ايضاً تطبيق هذه المبادئ تطبيقاً خلاقاً على خصوصيات الوضع الذي نشأ في فلسطين ومن ثم في اسرائيل .

وتجدر الإشارة الى ان الحزب الشيوعي الاسرائيلي قبل بضربة الانشقاق في عام ١٩٦٥ ، وبكل ما تبعها من محاسر مؤقتة ، رافضاً ان يتخلى أو يتراجع قيد أنمله عن موقفه الأُمِّي السليم من المسألة القومية ومختلف المسائل الأخرى . فالمنشقون كانوا تياراً انتهازياً ، قومياً متطرفاً ، داخل الحزب . تيار يهودي قومي وقع في براثن النظرة الصهيونية وعادى الأُمِّيَّة البروليتارية . ولفظ الحزب هذا التيار محافظاً على نفسه كحزب ماركسي - لينيني ، يهودي - عربي ، وأُمِّي ووطني . وواجه ، بشجاعة ، كل الهجوم الشوفيني المنفلت العقال عليه .

وإذا كانت الاحزاب الشيوعية العالمية تُجسِّد مبادئ الماركسية -

اللينينية بخصوص المسألة القومية ، في بنائها ايضا ، كاحزاب قائمة على أساس طبقي - أممي وليس علمي أساس قومي ، فان هذا الأمر بارز ، بشكل خاص ، في الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، اليهودي - العربي ، ونمئل للمصالح الوطنية الحقيقية للشعبين اليهودي والعربي في هذه البلاد . ومسألة الأُممية البروليتارية ، والأخوة اليهودية - العربية الثورية الحقّة ، في هذا الحزب ، هي مسألة حياة أو موت . اذ ان أدنى انحراف عنها ، في اتجاه السوفينية اليهودية الرسمية أو القومجية العربية ، يعني فقدان الحزب لبوصلته الثورية - الأُممية البروليتارية، في حل مختلف القضايا التي تواجهه وعلى رأسها ، في المرحلة الراهنة ، قضية السلام وإنهاء الاحتلال وضمان حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني .

تلخيص

بناءً على كل العرض السابق نستطيع ان نلخص موقف ومنطلق وتعاليم الماركسية - اللينينية من المسألة القومية في النقاط التالية ، هذا مع الإشارة الى ان تسلسل هذه النقاط لا يعكس مدى أهميتها وإنما جاء مطابقاً ، الى حد بعيد ، لتسلسل العرض السابق ، : -

* المسألة القومية هي تلك المسألة التي تبحث في أصل الأمم وقوانين تطورها وكفاحها من أجل تحقيق تقرير مصيرها والقضاء على الاستعمار ، وتحقيق المساواة والتقارب بين الأمم ومن ثم اندماجها .

* تمر المسألة القومية في ثلاث مراحل رئيسية ، مرحلة تكون الأمم وقيام دولها القومية ومرحلة الاستعمار ومرحلة انتصار الاشتراكية وتحقيق الوحدة الأممية .

* الأمم ظاهرة تاريخية - اجتماعية يرتبط وجودها ونشؤها بنسوء المجتمع الطبقي ، وخاصة بانتصار الرأسمالية على الاقطاع . وبناء عليه المسألة القومية ليست منفصلة عن الخلفية الطبقية التي تنشأ عليها ولا يمكن دراستها إلا من خلال ارتباطها بهذه الخلفية .

* مقومات تكون الأمة هي : الوحدة الاقتصادية ووحدة الارض ووحدة اللغة ووحدة الخصائص والصفات الروحية .

* تعرف الرأسمالية في تطورها اتجاهين تاريخيين في المسألة القومية : اتجاه استيقاظ الحياة القومية وتشكيل الدولة الوطنية ، واتجاه تطور العلاقات بين الأمم وقيام وحدة الرأسمال العالمية ووحدة الحياة الاقتصادية . كلا الاتجاهين تقدميان ويعكسان مرحلة نشوء البرجوازية ومرحلة وصول الرأسمالية الى أعلى مراحل تطورها - الامبريالية .

* ننطلق في نظرنا للمسألة القومية من وجهة نظر مصلحة كفاح

الطبقة العاملة ومصلحة النضال ضد الامبريالية والراسمالية ومن اجل التحرر الوطني والاجتماعي وتحقيق الاشتراكية .

* التعصب القومي والاممية البروليتارية شعاران يمثلان معسكرين طبقيين متناقضين ويعبران عن سياستين مختلفتين في المسألة القومية . سياسة البرجوازية وسياسة الطبقة العاملة .

* ليس بمقدور البرجوازية حل المسألة القومية ، وما دامت الرأسمالية قائمة ستبقى قائمة ، أيضاً ، المسألة القومية . وتنتظر البرجوازية الى الأمة كظاهرة بيولوجية وتغذي التعصب القومي . ان العنصرية والتمييز القومي والامبريالية والفاشية بنات شرعية للرأسمالية . لكن هذا لا ينفي حقيقة الدور التقدمي الذي تضطلع به البرجوازية ، في المسألة القومية ، في مراحل معينة .

* لا وجود لأمر راقية ولأمر متخلفة بطبيعتها . والأمة ليست ظاهرة بيولوجية وإنما تاريخية . ونرفض رفضاً عميقاً كل اشكال العنصرية والتمييز القومي .

* الأممية البروليتارية اذ تؤكد على وحدة بروليتاريا العالم وأخوة الشعوب ترفض ، في الوقت نفسه ، الكوسموبوليتية والنهلستية . فالأممية تعني ايضا الكرامة القومية ، ولا تصح بدونها .

* يخضع حل المسألة القومية لعملية الصراع الطبقي لما فيه صالح كفاح الطبقة العاملة ومصلحة النضال ضد الامبريالية والرأسمالية وفي سبيل الثورة الاشتراكية . والكفاح من أجل حلها هو تعبير جلي لوحدة النضال في سبيل الديمقراطية والاشتراكية . اذ ان النضال من أجل الديمقراطية - بما فيه حل مسألة التمييز القومي وحق تقرير المصير - هو جزء من النضال من أجل الاشتراكية .

* ننظر للمسألة القومية من خلال وضعها في اطارها التاريخي ، الزماني والمكاني . وتوجهنا دائماً توجه عيني ملموس يعتمد على دراسة خصائص المسألة والحقبة والبلد التي تظهر فيها ، ومن وجهة نظر مصلحة كفاح الطبقة العاملة طبعاً . وقد تتغير مواقفنا بحكم تغير الظروف ، وإلا سنقع في النصية الجامدة وسنخالف الماركسية - اللينينية ، حتى لو كنا ندعي تبنينا .

* الماركسية - اللينينية تؤكد ضرورة التعاون مع البرجوازية ، بل ودعمها ، ما دامت تؤدي دوراً تقدماً وثورياً . ولكنها ، رغم قبولها قيادة البرجوازية للنضال القومي في مراحل معينة ، تنصح بالانتباه لمحدودية البرجوازية وبعدم تجاهل تذبذبها . ان دعم البرجوازية يجب ألا يمنع من البروليتاريا عرض موقفها هي من المسألة .

* الشيوعيون يصرون على التفريق بين قومية الأمم الظالمة والأمم المظلومة ، ولا يتحدثون عن القومية عموماً . ولا تجوز حتى المساواة بين قومية أمة مظلومة وشوفينية أمة ظالمة رغم تفضيل الأمية طبعاً ، في كل الحالات . فالخطر الأساسي يكمن في شوفينية الأمة الظالمة . أما قومية الأمة المظلومة فتمتاز بنزعتها التقدمية للتححرر .

* وبناء عليه التربية الأممية تختلف بين بروليتاريا الأمة الظالمة وبروليتاريا الأمة المظلومة . فالأولى عليها التأكيد على حق الأمة المظلومة بتقرير مصيرها حتى الانفصال . أما الثانية اذ تدافع عن هذا الحق عليها ايضاً إبراز ضرورة الاتحاد الحر على أسس ديمقراطية . وهذه ليست «ثنائية» وإنما نظرة «أحادية» لتبني الأممية بحكم اختلاف ظروف حياة بروليتاريا الأمة الظالمة وبروليتاريا الأمة المظلومة : اقتصادياً وسياسياً وروحياً .

* اننا اذ نكافح ارباب الأمة الظالمة نؤيد حق الأمم المظلومة باللجوء الى مختلف وسائل الكفاح ، بما فيه الكفاح المسلح . نرفض الحديث عن «الارهاب المتبادل» والذي يقصد من ورائه المساواة بين ارباب الظالم وكفاح المظلوم . هذا الى جانب تأكيدنا ان الكفاح العادل يجب ان يتبنى وسائل عادلة .

* ان شعباً يضطهد شعباً آخر لا يمكن أن يكون هو نفسه حراً . فالاضطهاد القومي واحتلال ارض الغير عصاً ذات رأسين تضرب أبناء الأمة المظلومة والأمة الظالمة ، بل وتفسدها . اضطهاد الآخرين يعكس وجود اضطهاد داخلي قائم على الاستغلال .

* فقط الاشتراكية تستطيع حل المسألة القومية حلاً جذرياً ونهائياً . بإزالة استثمار الانسان للانسان نزيل استثمار أمة لأخرى . الاشتراكية تعني المساواة التامة ، تعني رفض الاستعمار وتعني القضاء على الاستغلال . فعلى أساس إزالة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج نزيل استثمار الانسان لاختيه

* مثلما نسأت الأمم بانقسام المجتمع الى طبقات كذلك ستزول بزوال الطبقات . انها عملية تاريخية طويلة ، لكنها حتمية .

* قولنا ان الاشتراكية هي الكفيلة بحل المسألة القومية لا يعني تأجيل المطالب القومية حتى تحقيق الاشتراكية . بل يجب الكفاح المتواصل لتحقيق اكثر ما يمكن من المطالب القومية في ظل الرأسمالية .

* «الطبقي» و «الأممي» و «القومي» ، بالنسبة للبروليتاريا ، ومن وجهة نظر الماركسية - اللينينية ، لا تحوي تناقضا . فالدفاع عن المصلحة الطبقية للعمال وعن الأممية البروليتارية يعني الدفاع عن اسنى المبادئ القومية . يعني إزالة كل اشكال الاستغلال الطبقي والظلم القومي وتحقيق أخوة الشعوب .

* نحن مع حق الأمم في تقرير مصيرها حتى الانفصال واقامة دولها المستقلة . ونضع هذا الحق في اطاره التاريخي ومن وجهة مصلحة البروليتاريا ونرفض استغلاله لمصلحة طبقات رجعية وتفرغه من محتواه . ونحن في الوقت نفسه من أجل اندماج الأمم واتحادها ، لا انفصالها .

* تؤيد حركة التحرر الوطني ونعتبرها إحدى القوى الثورية الثلاث لعصرنا . نميز بين مختلف مراحل تطورها ولا نشترط قيادة الطبقة العاملة لها حتى تؤيدها ، وان كانت افضل من يقودها ويضمن انتصارها . نحذر من عودة الاستعمار بثوب جديد وتدعم تطور الحركة نحو التحرر الاجتماعي .

* وأخيرا ، وليس آخرأ ، المسألة القومية مسألة ذات أهمية قصوى ويتوقف أحيانا ، على حلها ، مصير ثورة ما أو دولة ما . والماركسية - اللينينية اذ تنصح بمراعاة المبادئ العامة لحل المسألة القومية ، تطالب بتطبيق هذه المبادئ تطبيقا خلاقا وأصيلا في الواقع العيني ، وتطالب ، في الوقت نفسه ، بالحذر والاحترااس والرؤية وعدم التسرع ومراعاة المشاعر والتقاليد القومية وعدم فرض الحلول بشكل اصطناعي ميكانيكي ، والا كانت النتائج عكسية ، مهما كانت النية طيبة والمنطلق مبدئي .

﴿ المصادر ﴾

- ١ . س. غليلوف ، «لينين وحل المسألة القومية في الاتحاد السوفيتي» ، دار التقدم ، موسكو - ١٩٧٨ . ص : ٥ .
- ٢ . ماركس وانجلز ، «بيان الحزب الشيوعي» . دار التقدم ، موسكو . ص : ٤٦ - ٤٧ .
- ٣ . لينين ، «حق الأمم في تقرير مصيرها» . المختارات في عشرة مجلدات . المجلد الخامس . دار التقدم ، موسكو ١٩٧٦ . ص : ١٤٦ .
- ٤ . لينين ، «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» . المصدر السابق . ص : ٩٦ .
- ٥ . لينين ، «حق الأمم في تقرير مصيرها» . المصدر السابق . ص : ١٤٥ - ١٤٦ .
- ٦ . ماركس وانجلز ، «بيان الحزب الشيوعي» . انظر ص : ٤٣ - ٤٧ .
- ٧ . ماركس ، «النتائج المقبلة للحكم البريطاني في الهند» . مجموعة ماركس وانجلز «في الاستعمار» . ص : ٧٢ .
- ٨ . لينين ، «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٦٧ .
- ٩ . لينين ، المصدر السابق . ص : ٦٧ .
- ١٠ . ماركس وانجلز ، «بيان الحزب الشيوعي» . ص : ٤٠ - ٤١ .
- ١١ . لينين ، «مصادر الماركسية الثلاثة واقسامها المكونة الثلاثة» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٣٨ - ٣٩ .
- ١٢ . لينين ، «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» . المختارات ، المجلد الخامس . ص : ٦٦ .
- ١٣ . لينين ، «بصدد الكاريكاتور عن الماركسية» . المختارات . المجلد السادس . دار التقدم ، موسكو - ١٩٧٧ . ص : ١٦٨ .
- ١٤ . لينين ، «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٦٨ .
- ١٥ . لينين ، «حق الأمم في تقرير مصيرها» . المصدر السابق . ص : ٢٢٣ .
- ١٦ . لينين ، «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» . المصدر السابق . ص : ٧٣ .
- ١٧ . لينين ، المصدر السابق . ص : ٦٢ .
- ١٨ . لينين ، «خلاصة المناقشة حول حق الأمم في تقرير مصيرها» . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٢٠ .
- ١٩ . لينين ، «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٧١ .

٢٠. لينين ، « المسألة القومية في برنامجنا » . المختارات . المجلد الثاني . دار التقدم ، موسكو - ١٩٧٥ . ص : ٣٦٥ - ٣٦٦ .
٢١. لينين ، « حق الأمم في تقرير مصيرها » . المختارات . المجلد الخامس . ص : ١٥١ - ١٥٢ .
٢٢. لينين ، « المسألة القومية في برنامجنا » . المختارات . المجلد الثاني . ص : ٣٦٨ .
٢٣. لينين ، « الموضوعات في المؤتمر الثاني للأمية الشيوعية » . المختارات . المجلد العاشر . دار التقدم ، موسكو - ١٩٧٨ . ص : ١٦ .
٢٤. ماركس وانجلز ، « بيان الحزب الشيوعي » . ص : ٨٣ - ٨٤ .
٢٥. ماركس وانجلز ، المصدر السابق . ص : ٨٤ .
٢٦. لينين ، المؤلفات الكاملة بالروسية . المجلد السادس والثلاثين . ص : ٣٠ - ٣١ .
٢٧. لينين ، « خلاصة المناقشة حول حق الأمم في تقرير مصيرها » . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٣٤ .
٢٨. لينين ، « المؤتمر الثاني للأمية الشيوعية » . المختارات . المجلد العاشر . ص : ٩٣ - ٩٤ .
٢٩. لينين ، « حق الأمم في تقرير مصيرها » . المختارات . المجلد الخامس . ص : ١٦٦ .
٣٠. لينين ، « حول مسألة القوميات أو «الحكم الذاتي» » . المختارات . المجلد العاشر . ص : ٥٣٨ .
٣١. لينين ، « حق الأمم في تقرير مصيرها » . المختارات . المجلد الخامس . ص : ١٦٦ .
٣٢. لينين ، المصدر السابق . ص : ٢١٩ .
٣٣. لينين ، المصدر السابق . ص : ١٦٦ - ١٦٧ .
٣٤. لينين ، « خلاصة المناقشة حول حق الأمم في تقرير مصيرها » . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٢١ .
٣٥. لينين ، المصدر السابق . ص : ١٢٢ .
٣٦. لينين ، « بصدد تيار «الاقتصادية الامبريالية» الناشئ » . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٤٩ .
٣٧. لينين ، « بصدد الكاريكاتور عن الماركسية » . المختارات . المجلد السادس . انظر ص : ١٨٠ - ١٩٣ .
٣٨. ماركس ، « الانتفاضة الهندية » . مجموعة ماركس وانجلز «في الاستعمار» . انظر ص : ١٠٠ - ١٠٥ .
٣٩. لينين ، « نهاية الحرب بين ايطاليا وتركيا » . انظر مجموعة «حركة شعوب الشرق التحررية» . دار التقدم ، موسكو . ص : ٧٠ - ٧١ .
٤٠. ماركس وانجلز ، « بيان الحزب الشيوعي » . ص : ٦٥ .

٤١. ماركس ، «خبر سري» . مجموعة ماركس وانجلس «في الاستعمار» . ص : ١٦٨ - ١٦٩ .
٤٢. لينين ، «خلاصة المناقشة حول المسألة القومية» . المختارات . المجلد السادس . ص : ٩٢ - ٩٣ .
٤٣. لينين ، «الثورة الاشتراكية وحق الأمم في تقرير مصيرها» . المصدر السابق . ص : ٣٨ - ٣٩ .
٤٤. انظر معالجة لينين لهذا القرار في بحثه «حق الأمم في تقرير مصيرها» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ١٩١ - ١٩٤ .
٤٥. لينين ، المصدر السابق . ص : ١٤٦ .
٤٦. لينين ، «الثورة الاشتراكية وحق الأمم في تقرير مصيرها» . المختارات . المجلد السادس . ص : ٤٠ .
٤٧. لينين ، المصدر السابق . ص : ٣٦ - ٣٧ .
٤٨. لينين ، المصدر السابق . ص : ٤١ .
٤٩. لينين ، «بصدد الكاريكاتور عن الماركسية» . المختارات . المجلد السادس . ص : ٢٠٥ - ٢٠٦ .
٥٠. لينين ، «حق الأمم في تقرير مصيرها» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ١٨٢ - ١٨٣ .
٥١. رسالة انجلس الى كاوتسكي بتاريخ ١٢ ايلول ١٨٨٢ . انظر مجموعة ماركس وانجلس «رسائل مختارة» . دار التقدم ، موسكو - ١٩٨٢ . ص : ٢٥٨ .
٥٢. لينين ، «بصدد الكاريكاتور عن الماركسية» . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٩٦ .
٥٣. لينين ، «خلاصة المناقشة حول حق الأمم في تقرير مصيرها» . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٣٣ - ١٣٤ .
٥٤. انجلس ، «أضواء على المسألة الايرلندية» . انظر مجموعة ماركس وانجلس «في الاستعمار» . ص : ١٧٠ - ١٧٥ .
٥٥. ماركس ، رسالته الى مايير وفوغت بتاريخ ٩ نيسان ١٨٧٠ . انظر مجموعة ماركس وانجلس «رسائل مختارة» . ص : ١٦٦ .
٥٦. ماركس ، المصدر السابق . ص : ١٦٧ .
٥٧. ماركس ، «خبر سري» . مجموعة ماركس وانجلس ، «في الاستعمار» . ص : ١٦٩ .
٥٨. لينين ، «خلاصة المناقشة حول المسألة القومية» . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٣٦ .

٥٩. لينين ، «حق الامم في تقرير مصيرها» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٢٠٦
٦٠. الارقام الواردة في هذا الفصل مستقاة من عدة نشرات ووثائق سوفيتية رسمية وخصوصا تلك التي نُشرت بمناسبة الذكرى ال - ٦٠ لتأسيس الاتحاد السوفيتي
٦١. كتاب المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي الاسرائيلي . ص : ٥٦٢ - ٥٦٣
٦٢. المصدر السابق . ص : ٥٩٥ - ٥٩٦ .
٦٣. كتاب «المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي الاسرائيلي» . ص : ١٦٨ - ١٦٩
٦٤. المصدر السابق . ص : ١٧٠ .
٦٥. كتاب «الحزب الشيوعي الاسرائيلي . المؤتمر ال - ١٨» . ص : ١٨٧ .
٦٦. المصدر السابق . ص : ١٨٩ .
٦٧. المصدر السابق . ص : ١٩١ .

الطبقي والأممي والقومي
على ضوء الماركسية
اللينينية

وفي كفاح الجماهير
العربية الفلسطينية في
اسرائيل

الطبقي والأممي والقومي على ضوء الماركسية - اللينينية

- * افتراء رجعي قديم .
- * الطبقات والصراع الطبقي .
 - ماذا نعني بالطبقات ؟
 - الصراع الطبقي .
 - أشكال الصراع الطبقي .
- * البنية الطبقية - الاجتماعية للمجتمع البرجوازي .
 - البرجوازية .
 - الفئات المتوسطة .
 - البروليتاريا ... ولماذا هي الطبقة الأكثر ثورية ؟ !
 - التحليل الطبقي .
- * الأممية البروليتارية .
- * النزعة القومية .
 - مرة أخرى عن «الطبقي» و«القومي»

يبقى اتهام الشيوعيين بالكوسموبوليتية - بالمواطنة العالمية - وبالغربة عن الانتماء القومي وشعور الكرامة القومية وباستحالة ، تبعاً لذلك ، تمثيلهم للمصالح القومية لشعوبهم ولأُمَمهم - بسبب من طبقيتهم وأُميتهم ، من أسخف الافتراءات التي تفتقت عنها ترسانة الأكاذيب الامبريالية والرجعية ، في التاريخ الحديث والمعاصر .

هذا الافتراء ليس افتراءً جديداً . ولا يحق ، مثلاً ، لنشرة عربية ، تُوزَّع مجاناً في اسرائيل ، حتى «شرف» ان تنسب لنفسها براءته . فالحديث عن تقسيم الأقلية العربية القومية ، في اسرائيل ، الى شيوعيين - أُميين - وقوميين ، إلى طبقين ووطنيين ، وعن استحالة تمثيل الأوائل - تبعاً لذلك - للمصالح القومية الوطنية للجماهير العربية في اسرائيل ، حديث قديم سبقت اليه الصحف الصهيونية الرجعية ، في هذه البلاد ، منذ قيام الدولة . كذلك سبقت اليه الرجعية الفلسطينية الاقطاعية ، قبل قيام دولة اسرائيل ، حين اتهمت الشيوعيين الفلسطينيين بالعمالة وبالخيانة القومية . وذلك في وقت كانت توقع فيه هذه الرجعية صفقات العمالة والخيانة القومية مع الامبريالية والصهيونية ، وبمباركة الرجعية العربية من المحيط الى الخليج .

من المفيد ان نذكر انه ما من تنظيم أو حزب شيوعي الا وُوجِّهت ضده هذه الفرية ، وذلك منذ صدور «بيان الحزب الشيوعي» عام ١٨٤٨ . لقد اتهمت الرجعية القيصرية والملكية ، في بروسيا وغيرها ، حتى ماركس

وانجلس بأنها عميلان بريطانيان . أمّا القيصريّة الروسية فقد اتهمت لينين بأنه عميل لألمانيا .

وتتابعت الاتهامات للشيوعيين ، أينما تواجدوا ، بأنهم أعداء أمهم ، بسبب طبقيتهم وأميتهم ، وبأنهم عملاء لهذه الدولة الأجنبية أو تلك ، إلى أن سطع النجم الأحمر فوق بتروغراد (لينينغراد) وموسكو . عندها توحدت التهم . جميعهم أصبحوا «عملاء» لموسكو وعلى استعداد لبيع المصلحة القومية لشعوبهم على «المذبح الطبقي والأُمّي» للشيوعية الدولية !

كنّا نرغب في أن يكون التطور التاريخي المعاصف للبشرية ، خصوصاً في قرنا العشرين هذا ، قد وضع حدّاً لهذا الافتراء السافل . إذ إن التجربة العملية قد أثبتت ، على ضوء المقارنة بين العالمين الاشتراكي والرأسمالي وعلى ضوء ممارسات الأحزاب الشيوعية في دول العالم قاطبة ، ليس فقط أن طبقيّة وأُميّة الشيوعيين هي الضمان الأكيد للمصالح القومية - الوطنية الحقيقية ، وإنّما أثبتت أيضاً ، أنه من المتعذر إيجاد مَنْ هم أشدّ من الشيوعيين وحلفائهم إخلاصاً قومياً وأكثر مشاركة في الكفاح القومي ، وثباتاً وصموداً في هذا الإخلاص وهذا الكفاح .

لكن يظهر أن الرجعية الآيلة إلى مزيلة التاريخ ، حتّى ، ليس فقط عاجزة عن استعادة مواقعها ، أو حتّى الحفاظ على ما تبقى لها من بقايا مواقع ، وإنّما عاجزة أيضاً عن الاتيان باتهام «أصيل ومعاصر» بحق الشيوعيين ، في محاولة يائسة منها لمنع تزايد الالتفاف الوطني حولهم ، أو اتساع دائرة حلفائهم القوميين - الوطنيين . فالرجعية المعاصرة ، وبسبب من افلاسها التاريخي ، تعود لتبحث في الدفاتر العتيقة إياها ، وتلوك وتمضغ افتراءاتها القديمة إياها ، مردّدة الدعاية الايديولوجية إياها - عن التناقض العدائي المزعوم بين الطبقي والوطني ، بين الأُمّي والقومي .

كيف تطرح الماركسية - اللينينية مسألة «الطبقي» و «الأُمّي» و «القومي» ؟ وكيف ترى العلاقة بين هذه المفاهيم ؟ ! - هذا ما سنشرحه فيما يلي .

الطبقات والصراع الطبقي

ماذا نعني بالطبقات ؟

الطبقات (*) الاجتماعية هي مجاميع بشرية تتكوّن من خلال اشكال معينة لعلاقات الانتاج السائدة في التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية المختلفة ، أي في الأنظمة الاجتماعية المختلفة .

ويبقى التعريف الأشمل والاعمق «للطبقات» هو ذلك التعريف الذي وضعه لينين في مقالته «المبادرة الكبرى» . اذ كتب يقول : «ان كلمة طبقات تطلق على جماعات واسعة من الناس ، تمتاز بالمكان الذي تشغله في نظام للانتاج الاجتماعي محدّد تاريخياً ، بعلاقتها (التي يحددها ويكرسها القانون في معظم الاحيان) بوسائل الانتاج ، بدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبالتالي ، بطرق الحصول على الثروات الاجتماعية وبمقدار حصتها من هذه الثروات . ان الطبقات هي جماعات من الناس ، تستطيع إحداها ان تستملك عمل جماعة أخرى بسبب الفرق في المكان الذي تشغله في نمط مُعَيّن من الاقتصاد الاجتماعي»^(١) .

يضع لينين ، في هذا التعريف اربعة معايير رئيسية لتحديد الطبقات . وهي : الموقع في نظام الانتاج و العلاقة بوسائل الانتاج و الدور في التنظيم الاجتماعي للعمل و الحصة من الثروات الاجتماعية . والمعياران الأساسيان هما الأول والثاني . أما المعياران الثالث والرابع ، فهما نتاجهما . اننا نحدّد ونميز الطبقات ، كما يظهر في التعريف أعلاه ، بناء على المكان الذي تشغله في نظام الانتاج الاجتماعي . هل هي طبقات سائدة أم مسودة ؟! والذي يشترط هذا الأمر هو «اللاقة بوسائل الانتاج . هل هي

* اعتمدتُ في وضع وشرح هذه التعريفات ، والتعريفات اللاحقة ، على «الموسوعة الاقتصادية» و «معجم الشيوعية العلمية» و «القاموس الفلسفي» ، من إصدار دور النشر في الاتحاد السوفيتي .

مالكة لوسائل الانتاج ام محرومة من ملكيتها . هل تملك مجموع المواد ، بكافة أنواعها ، والمستخدمه في عملية الانتاج ، أم لا ؟! أي هل تملك وسائل العمل (آلات ، أدوات ، منشآت ، وسائل نقل ، الارض ...) ومواضيع العمل (بروات طبيعية : نباتية وحيوانية ومعدينية ، ومواد أولية : معادن وغيرها ، والارض ...) أم لا ؟!

ان العلاقة بوسائل الانتاج هي حجر الزاوية في التقسيم الطبقي . والملكية الخاصة لوسائل الانتاج هي الأساس لانقسام المجتمع الى طبقات متناقضة ومتصارعة . وبزوال الملكية الخاصة لوسائل الانتاج تزول الطبقات . فالعامل يعمل على موضوع عمل معين (ونقل الخشب) وبمساعدة وسيلة عمل (المنشار ، مثلاً) ، ووظيفته تشغيل المنشار (هكذا يتحدد موقعه في الانتاج) انه عامل ، تشغيل . هو لا يملك وسائل الانتاج (لا المنشار ولا الخشب) لذلك هو ملزم بالعمل لدى مالِكها . لقد تحددت ، إذن ، الهوية الطبقيه له وللمالك !

ان هذه العلاقة بوسائل الانتاج ، كما يؤكد التعريف اعلاه ، اذ تحدّد دور الطبقة في التنظيم الاجتماعي للعمل تحدّد بالتالي طرق حصولها على الثروة الاجتماعية ومقدار حصتها منها . فالعامل ، مثلاً ، يضطر لأن يبيع قوة عمله - مقدّره على العمل ، ويقبض بالمقابل : الأجرة ، المعاش . أما البرجوازي ، وبصفته مالِكاً لوسائل الانتاج ، فانه يستخدم العمل المأجور ، أي أنه يشتري قوة عمل العامل مقابل أجرة . أما شكل دخله فهو الربح الذي يجنيه من خلال استغلال العامل .

وتعرف البشرية خمسة تشكيلات اقتصادية - اجتماعية وهي : نظام المشاعية البدائية والنظام العبودي والنظام الاقطاعي والنظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي (الشيوعي في أعلى مراحلها) . ويميّز كل نط انتاج عدائي - العبودي والاقطاعي والرأسمالي - وجود طبقتين أساسيتين متصارعتين . وهما السادة والعبيد - في النظام العبودي . والاقطاعيون والأقنان - في النظام الاقطاعي . والبرجوازية والبروليتاريا - في النظام الرأسمالي . أما مجتمعا المشاعية البدائية والشيوعية فانها مجتمعان لا طبقيان .

ان تحديد وجود طبقتين أساسيتين ، في كل مجتمع طبقي - عدائي ، لا ينفي وجود طبقات لا أساسية مثل فلول طبقات قديمة في مجتمع جديد ذات

تقسمة طبقية جديدة ، أو بدء نشوء طبقتين جديدتين في مجتمع قديم آيل الى السقوط والزوال . أضف الى هذا وجود درجات اجتماعية مختلفة داخل الطبقة الواحدة (برجوازية احتكارية وكبيرة ومتوسطة وصغيرة) وكذلك وجود فئات اجتماعية مختلفة لا تشكل طبقات (مثقفين ، مثلاً) .

الصراع الطبقي

الصراع الطبقي - عملية اجتماعية وموضوعية وحتمية ، بحكم التناقض والتضاد الجذري بين المصالح الموضوعية المتنافرة للطبقات ، في المجتمع الطبقي الاستغلالي . ويشترط هذا التضاد شكل علاقات الانتاج المرتبط بملكية وسائل الانتاج . فالملكية الخاصة لوسائل الانتاج تؤدي الى استيلاء طبقة على عمل طبقة أخرى . وبناء عليه لا يمكن تجنب وجود الصراع الطبقي ما دامت قائمة الملكية الخاصة ومن ثم المصالح المتنافرة . انه ضرورة قانونية لتطور كل تشكيلة اقتصادية - اجتماعية متناقضة . فالمحرومون من وسيلة الانتاج مضطرون للعمل مجانا لصالح المالك . وتحدد نوعية النظام القائم ومدى تطوره مدى هذه المجانية . ففي النظام العبودي كان العبد نفسه سلعة تباع وتشترى . أما في النظام الاقطاعي فكان القن ملزماً بفلاحة ارض سيده مقابل حصة زهيدة بالكاد تسد رمقه . أما في المجتمع المعاصر ، «المتمدن والحضاري» ، فان العامل مضطر لأن يعمل بضع ساعات ، يومياً ، هي جزء من ساعات عمله اليومي ، مجانا لصالح البرجوازي .

لنتفحص جوهر الاستغلال في النظام الرأسمالي . العامل يبيع قوة عمله للبرجوازي ويقبض بالمقابل أجرة . لكن أجرته لا تغطي سوى جزء معين من عمله اليومي . وهذا ما نسميه بالعمل الضروري ، أي ساعات العمل الضرورية لانتاج بضاعة للرأسمالي تكون قيمتها ، بعد حساب تكاليف الانتاج المختلفة ، معادلة للأجر . وقد تكون مدة العمل الضروري ساعة أو ساعتين أو أكثر ، ولكنها حتى ليست كل ساعات العمل اليومي والإلما ربح البرجوازي أي شيء . وهكذا يعمل العامل ، يومياً ، عملاً مجانياً ولبضع ساعات . انه عمل غير مدفوع الأجرة ويخلق فائض القيمة . أي

ان قوة عمل العامل تنتج قيمة أكثر مما تستهلك - تنتج فائض قيمة يستولي عليه البرجوازي ، بصفته مالكا لوسيلة الانتاج مع انه على السطح قد يبرز انه لا وجود للاستغلال ، اذ انه ممّوه ومحجوب . فالعامل يقبض أجرة ! ولكن هذا التمويه لا يستطيع إخفاء حقيقة التناقض الأساسي الذي يميز المجتمع البرجوازي . ونقصد التناقض بين الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والشكل الاجتماعي للانتاج . التناقض بين وجود أقلية برجوازية تملك ولا تعمل مقابل أغلبية بروليتارية تعمل ولا تملك . ان غالبية المجتمع اذ تنتج بمجمل الخيرات المادية ، بشكل اجتماعي - جماعي ، تبقى محرومة من ملكية وسائل انتاج هذه الخيرات . وهذا الأمر مدعاة لاستداد الصراع الطبقي الحاد . فالشكل الاجتماعي للانتاج يتطلب ملكية جماعية لوسائل الانتاج . وليس بإمكان دفع الأجرة للعامل ، ولا حتى رفعها الى مستويات «عالية» ، ان تخفي حقيقة هذا التناقض وما يستدعيه من صراع .

ان ماركس بكشفه لجوهر الاستغلال الرأسمالي ، وصف المجتمع الرأسمالي بمجتمع «العبودية المأجورة» ، عبودية مدفوعة الاجرة جعلت من قوة عمل العامل سلعة تباع وتشتري ، تماماً كما كان العبد سلعة تباع وتشتري في المجتمع العبودي . لذا أكد ماركس ان المجتمع الطبقي الاستغلالي هو مجتمع «ما قبل التاريخ الانساني» . انه مجتمع حيواني قائم على استغلال الانسان لأخيه الانسان . ولن تستعيد الانسانية إنسانيتها ، التي فقدتها مع زوال مجتمع المشاعية البدائية وظهور الطبقات ، الا عن طريق القضاء على الطبقات وبناء المجتمع الشيوعي . انه طريق عودة الانسانية الى فجرها الانساني ، ولكن على مرحلة أعلى - ليس نزولاً نحو شيوعية الفقر ، في المجتمع المشاعي البدائي - وإنما صعوداً نحو شيوعية الرخاء .

والقوة المحركة للتاريخ ، في هذه العملية الصاعدة من العبودية الى الاقطاع الى الرأسمالية ونحو الثورة الاشتراكية ، هي الصراع الطبقي . انه محرك التطور الاجتماعي ومزيل كل ما هو ساقط وبالي وقديم . وناصر لكل ما هو جديد وتقدمي . وهو صراع سلمي كما تفضله الطبقات الصاعدة وصراع عسكري ، اذا ما استدعت مقاومة الطبقات البائدة هذا الأمر . وهو يبرز في كافة الميادين الاقتصادية والسياسية والايديولوجية . ويصل الى أرقى

درجاته في الثورة الاجتماعية - قاطرات التاريخ ، وفق تعبير ماركس ، التي تنقل المجتمع من مرحلة الى أخرى .

وكل ثورة ، قبل الثورة الاشتراكية ، تحمل في رحمها ثورة ضدها . اذ كانت تقضي على طبقات قديمة وصراع قديم بينها ، لتحل محله طبقات جديدة وصراع جديد سيؤدي حتما الى ثورة اجتماعية جديدة . عدا الثورة الاشتراكية . فوحدها لا تحمل في رحمها ثورة ضدها ، لأن الرأسمالية هي التشكيلة الاقتصادية التناحرية الأخيرة . فالقضاء على الرأسمالية يعني القضاء على الطبقات العدائية وخلق الظروف لزوال الطبقات وصراعها كليا . اذ ان البروليتاريا ، بقضائها على النظام البرجوازي ، تخلق الظروف للقضاء على نفسها ايضا كطبقة ولبناء المجتمع اللاتبقي . ومن هنا فالصراع الطبقي مسألة موضوعية وحتمية . وليس أمرا مؤسفاً وانما هو خميرة كل التقدم الاجتماعي للانسانية . فالغاء استغلال الانسان للانسان قضية انسانية واخلاقية طبعاً . ولكنها ليست اخلاقية فقط ولا يمكن ضمانها عن طريق النصائح والمواعظ . انها مرتبطة عضوياً بالاسباب الموضوعية لهذا الاستغلال . فالظلم الاجتماعي ملازم لنمط معين للنظام الاجتماعي . ولا يمكن إزالة الظلم إلا عن طريق إزالة النظام الذي أفرزه . والمجتمع الطبقي اذ حتم وجود الصراع الطبقي خلق ، بهذا ، الوسيلة للقضاء عليه كلية .

أشكال الصراع الطبقي

الصراع الطبقي هو ضرورة موضوعية بحكم تنافر مصالح الطبقات المتناقضة . هذا ما أكدناه أعلاه . ويرتدي هذا الصراع ثلاثة أشكال رئيسية وهي : الشكل الاقتصادي والشكل الايديولوجي والشكل السياسي .

*** الشكل الاقتصادي :**

ونعني به الصراع من أجل تحسين ظروف الحياة والعمل - مثل رفع الأجرة وتقليص ساعات العمل وتحسين شروطه وتوسيع الضمانات الاجتماعية وإلغاء التمييز في الأجور بين عمل الرجال والنساء والشباب وتقليص سن التقاعد ... الخ . أي كفاح الطبقة العاملة لتحقيق مكاسب

اقتصادية في اطار المحافظة على النظام القائم . وكلما اشتد النضال الاقتصادي كلما اضطر البرجوازيون الى تقديم تنازلات معينة .
والسيوعيون ، بعكس الفوضيين ، لا يقللون من أهمية هذا الصراع ومن أهمية مكاسب مطلوبة للطبقة العاملة ، عدا كونه يوحد جماهير العمال في المعارك الكفاحية . لكن في الوقت نفسه يشيرون الى محدوديته . اذ انه لا يطرح مسألة ضرورة القضاء على النظام الاستغلالي القائم . اذ ان الهدف المركزي للشيوعيين ، بصفتهم معبرين عن مصلحة الطبقة العاملة ، هو ليس النضال من أجل ظروف افضل لبيع قوة عمل العامل وإنما القضاء على النظام الذي يضطر العامل لبيع قوة عمله .

* الشكل الايديولوجي :

انه الصراع ضد الافكار والاوهام البرجوازية وتسربها الى صفوف الطبقة العاملة ، ومن أجل نشر ايديولوجية الاشتراكية العلمية وتبنيها من قبل اوسع الفئات الجماهيرية . انه صراع البروليتاريا الطليعية لكسب جماهير الطبقة والفئات المتوسطة الى جانبها ولتحسينها من امراض وأوهام البرجوازية بخصوص «التنافس الحر» ومجتمع «تكافؤ الفرص» وتقسيم العمال على أساس قومي ونشر النزعة القومية وأوهام الحلول الفردية ... الخ .

باختصار انه المعركة لكسب الجماهير ، فكرياً ، الى جانب الطليعة البروليتارية ومبادئ الاشتراكية العلمية .

* الشكل السياسي :

هذا هو الشكل الأرقى للصراع الطبقي . اذ انه يعني الصراع ضد كل اشكال الغبن السياسي ، ومن أجل الظفر بالسلطة والاطاحة بالنظام البرجوازي لصالح الطبقة العاملة . انه الصراع من أجل تحقيق المكاسب الحقوقية والحريات الديمقراطية ومن أجل السلام والتحرر من الامبريالية وتحقيق الاستقلال الوطني . وكذلك ضد البرجوازية واستغلالها الرأسمالي ، ومن أجل التحرر الاجتماعي .

انه ليس كفاح فئة عمالية منفردة لتحقيق مكسب اقتصادي مغني ، وإنما كفاح مجموع الطبقة وحلفائها لتحقيق مكسب سياسي عام . انه ليس

الاصطدام مع فئة رأسماليين معيّنة وانما الكفاح ضد سياسة الدولة الرأسمالية ككل .



لكن يجب التنبيه الى انه لا يجوز الفصل الميكانيكي بين اشكال الصراع المختلفة . اذ ان ما يميّزها هو وحدتها الدايالكتيكية . فالصراع الاقتصادي ، هو في جوهره نضال سياسي ايضا - كما أكد ماركس . اذ ان كل مطلب اقتصادي تطرحه الطبقة العاملة موجه ضد البرجوازية . كذلك لا يمكن فصل الصراع الايديولوجي عن الصراع السياسي ، اذ انه يخضع لمتطلباته . فلا يمكن تسعير الصراع السياسي الجماهيري دون ضمان نفوذ فكري بين الجماهير . وغني عن البيان أن أي مكسب سياسي ، تحقّقه البروليتاريا ، يشكل دفعة هامة لصراعتها الاقتصادي ولنفوذها الايديولوجي . وهكذا ...

ومن سخریات الأمور ، مثلاً ، ان يقول أحد المرتدّين - في نشرة تُوزَع ببلاش في البلاد - انه لا دخل للصراع الطبقي بالصراع القومي بدليل ان اشكال الصراع الطبقي ثلاثة وهي الاقتصادي والايديولوجي والسياسي (!؟) وهكذا بجرة قلم اخرج الصراع من أجل المساواة القومية وحق تقرير المصير من أي إطار أو قاعدة يرتكز عليه . انه صراع في الهواء لا تخوضه أية فئة وغير موجه ضد أية فئة ! أما اذا كانت هنالك خلفية اقتصادية لهذا الصراع ، أو جانب ايديولوجي له ، فهذا لا يعني هذا المرتد والمتسلق على الماركسية . كذلك لا يكلف نفسه حتى عناء التساؤل هل الصراع من أجل حق تقرير المصير هو صراع سياسي أو لا ؟ واذا كان كذلك - وطبعاً هو كذلك - إذن كيف يمكن فصله عن الصراع الطبقي وعن كونه ينتمي مباشرة الى أحد أشكال هذا الصراع ، ألا وهو الصراع السياسي ؟

لا يمكن ، في المجتمع الطبقي ، فصل أية قضية اجتماعية - سياسية ، ومهما ظهر انها مستقلة وقائمة لوحدها ، عن القاعدة الطبقيّة والصراع الطبقي . فكم بالحري اذا جرى الحديث عن الصراع السياسي من أجل حق تقرير المصير !؟

البنية الطبقية - الاجتماعية للمجتمع البرجوازي

نقصد بالبنية الطبقية لمجتمع ما، الطبقات التي يتألف منها هذا المجتمع . وهي عادة بنية دينامية وليست جامدة . اذ دائماً توجد فئات اجتماعية تصعد في السلم الطبقي وأخرى تنحدر . هذا عدا وجود شرائح غير متجانسة كلية ، في اطار الطبقة الواحدة . ويميز المجتمع البرجوازي ، الذي وُلد في أحشاء المجتمع الاقطاعي . ليس فقط كونه لم يقض على الطبقات المتصارعة ، وإنما انقسامه الى معسكرين متناقضين ، الى طبقتين كبيرتين - هما البرجوازية والبروليتاريا . أما بخصوص الفلاحين فانهم طبقة وسطية تأخذ بالانحلال كلما ثبت وتطور النظام الرأسمالي ، أي كلما احكمت البرجوازية من سيطرتها على عملية الانتاج الاجتماعي ، فارزة البرجوازية الريفية والبروليتاريا الريفية . أما المثقفون والمستخدمون فانهم ليسوا بطبقة ، كما سنبين هذا أدناه .

البرجوازية

«نعني بالبرجوازية طبقة الرأسماليين المعاصرين ، مالكي وسائل الانتاج الاجتماعي الذين يستخدمون العمل المأجور»^(٢) - هذا هو التعريف الذي وضعه انجلس للبرجوازية ، في مقدمته للطبعة الانجليزية لـ «بيان الحزب الشيوعي» ، عام ١٨٨٨ .

إذن يميز البرجوازية أمران : (١) ملكيتها لوسائل الانتاج . (٢) استعمالها للعمل المأجور . وبناء عليه ممنوع الوقوع في الخطأ الشعبي المتعارف عليه وأقصد الربط الخاطيء بين كون الانسان غنياً ميسوراً وبين كونه برجوازيًا بناء عليه . صحيح القول ان كل برجوازي هو غني ، هذا اذا لم يفلس واذا لم يطحنه «أصدقاؤه» البرجوازيون . ولكن ليس كل غني برجوازيًا . فالبرجوازية طبقة اجتماعية يميزها الشرطان المذكوران اعلاه .

وهي غنية لأنها برجوازية ، وليس العكس . أي ليست برجوازية لأنها غنية . فالغنى قد يكون اقطاعياً ايضاً . وقد يكون مقفلاً أو مستخدماً كبيراً

والبرجوازية فئة قليلة العدد ولكنها خارقة التمرکز ، خصوصاً في المجتمعات الرأسمالية العالية التطور . وقد تتراوح نسبتها في مثل هذه المجتمعات بين ١ - ٣ ٪ ، حسب تقدير معجم «الشيوعية العلمية» . ولكن ، وبسبب من قوتها الاقتصادية ، فانها تسيطر على المجتمع الرأسمالي اجتماعياً وسياسياً وفكرياً .

والبرجوازية ، وان كان يوحدُها أمران جوهريان ، إلا انها تشمل شرائح مختلفة . فهناك البرجوازية الصناعية والبرجوازية التجارية والريفية والمصرفية والخدماتية الخ . وعادة ما تتضارب مصالح شرائحها ، رغم ما يوحدُها ورغم سعيها للتنسيق فيما بينها لضمان استغلالها للطبقة العاملة . وقد تتضارب أحياناً ، كما نشهد في الولايات المتحدة الأمريكية ، مثلاً ، مصالح برجوازية احتكارات السلاح مع برجوازية احتكارات البترول أو مع مصالح البرجوازية الزراعية ...

كذلك تمايز البرجوازية على أساس الرأسمال الذي تملكه ، فهناك البرجوازية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة . وما وجود عدة احزاب برجوازية ، في بلد رأسمالي واحد ، إلا تعبير عن تمايز الشرائح والفئات البرجوازية المختلفة .

وكانت البرجوازية طبقة صاعدة منذ القرن السادس عشر ، في اوروبا . ويرجع لها الفضل في القضاء على النظام الاقطاعي وبناء الدول القومية وإحداث الثورة الصناعية - العلمية - التكنيكية وتطوير الانتاج ورفع مستوى العلوم والثقافة والتقارب بين مختلف قارات ودول وشعوب العالم . ولكن في نهاية القرن التاسع عشر ومع دخول البرجوازية مرحلة الامبريالية ومن ثم رأسمالية الدولة الاحتكارية - في نهاية الحرب العالمية الأولى ، تحولت البرجوازية من طبقة ثورية صاعدة الى طبقة رجعية هابطة وساقطة ومنحلة وميتة داخلياً . ان نضالها الثوري ضد الاقطاع كان مضمون عهد عبر . أما ما يميز عصرنا الراهن فهو نضال البروليتاريا ضدها بصفتها عدو الانسانية وعدو التقدم الاجتماعي .

ولكن اذ تقرر البروليتاريا الواعية ان البرجوازية هي عدوها الطبيعي الاول تميز بين مختلف شرائحها ، وبهدف ، حسب وصية لينين ، الاستفادة من كل صدع بين الاعداء مهما كان ضئيلاً وبهدف تعيين العدو المركزي في هذه الحقبة أو تلك ، وتعيين الحلفاء كذلك .

* البرجوازية الكبيرة - هي العدو الأساسي والأخطر . انها برجوازية تستخدم آلاف وعشرات آلاف العمال في مصانعها وورشها . ومنها البرجوازية الاحتكارية ، التي يتعدى استغلالها للعمال الحدود الوطنية . وتبني امبراطوريتها المالية في كل بقعة على الارض ، تسمح لها بذلك وتطوؤها يداها . ان طغمتها المالية ، الصناعية والمصرفية والتجارية ، والمتآلفة مع غلاة العسكريين الرجعيين والمجمع العسكري الصناعي ، تضع السياسة الداخلية والخارجية لعشرات الدول . والعديد من البرجوازيين الصغار ، وحتى المتوسطين ، اصبحوا وكلاء ومقاولين ومتعهدين لدى هذه البرجوازية ، وفقدوا استقلالهم الحقيقي .

* البرجوازية المتوسطة : شريحة طبقية تقع بين البرجوازية الكبيرة والبرجوازية الصغيرة . ويقدر معجم «الشيوعية العلمية» ان هذه الشريحة تشغل بين (٥٠ - ٥٠٠) عامل ، في مؤسساتها ومصانعها ومشاغليها . * البرجوازية الصغيرة : انها اكبر شريحة ، من ناحية التعداد . ولكنها الاصغر من ناحية تشغيل العمال (٥ - ٥٠ عاملاً) . انها صاحبة الشركات والمؤسسات الصغيرة والمعرضة للافلاس دوماً . قد تصعد فئة ضئيلة جداً من هذه البرجوازية ، في ظل ظروف مواتية ، نحو البرجوازية المتوسطة . ولكن السواد الاعظم منها مصيره الانحدار نحو الطبقة العاملة أو المستخدمين ، أو البقاء كبرجوازية صغيرة جداً تعتاش ، في الأساس ، بسبب عملها في متاجر ومشاغل حرفية صغيرة تملكها .

ولا يسع الحزب البروليتاري إلا ان يبين استراتيجيته وتكتيكة آخذاً بعين الاعتبار التناقضات المختلفة بين شرائح البرجوازية . فإن إحدى المهمات الرئيسية الآن في البلدان الرأسمالية المتطورة هو بناء أوسع جبهة ممكنة من البروليتاريا والبرجوازية الصغيرة وحتى المتوسطة ضد البرجوازية الاحتكارية الكبيرة والمجمع العسكري الصناعي . أما التعاون مع البرجوازية الصغيرة ، مثلاً ، فقد يستمر لسنوات ولعقود عديدة ، حتى بعد

انتصار الثورة الاشتراكية ، في هذا البلد او ذاك . وتساهم هذه البرجوازية حتى في عملية البناء الاشتراكي . وتتوصل فئات واسعة منها الى ربط مصيرها بمصير البروليتاريا .

كذلك تميز الماركسية - اللينينية بين البرجوازية الكومبرادورية والبرجوازية الوطنية ، في البلدان المستعمرة وبلدان حركة التحرر الوطني . فالبرجوازية الكومبرادورية برجوازية رجعية حليفة وعميلة للاستعمار ، ربطت مصيرها بمصيره ضد المصلحة الوطنية .

* البرجوازية الوطنية : أما البرجوازية الوطنية فانها تلك الفئة الطبقة المحلية التي لها مصلحة في استقلال بلادها وفي تطورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي - الثقافي . انها ، بعكس البرجوازية الكومبرادورية ، ليست فقط غير مستعدة لأن تكون خادمة ووسيطا وسندا اجتماعيا للاستعمار القديم والحديث ، وإنما مستعدة ايضا للكفاح ضده ولقيادة حركة التحرر الوطني .

وبناء عليه ليست قومية هذه البرجوازية هي التي تحدّد وطنيتها . فالبرجوازية الكومبرادورية هي ايضا برجوازية قومية محلية . ان ما يحدّد وطنية البرجوازية المحلية هو موقفها الطبقي ، الاجتماعي - السياسي من الاستعمار والاحتكارات الامبريالية . وتكمن الخلفية الموضوعية لوطنية هذه البرجوازية في التناقض القائم بين مصالحها الوطنية في تحقيق الاستقلال وتعزيزه ، عن طريق الكفاح ضد الامبريالية والاقطاع وإرثها البغيض ، وبين سعي الاستعمار والاقطاع للحفاظ على مواقعها .

وهذا الكلام يذكّرنا باتجاهي الرأسمالية في المسألة القومية . فالبرجوازية الامبريالية ، في الولايات المتحدة الامريكية وأوروبا الغربية ، قد غنت أغنياتها وولى عهدا . لقد اصبحت تؤيد وتساند وتمثل كل ما هو رجعي وقديم وفاسد . انها برجوازية فاسدة ومتقيحة وبالية . ويستدعي التطور كسها من طريقه . أما البرجوازية الصاعدة ، في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، ونقص البرجوازية الوطنية المعادية للاستعمار ، فانها ما زالت فتية وما زال بإمكانها ان تسير مع الشعب ، وفي قيادته أحيانا ، لتحقيق واستكمال المهام الديمقراطية ، أمام حركة التحرر الوطني .

جنباً الى جنب مع هذا ، يجب الانتباه الى الطبيعة الازدواجية للبرجوازية الوطنية . وتتكشف هذه الطبيعة ، أكثر فأكثر ، بعد تحقيق الاستقلال الوطني . انها تعاني من الاحتكارات وتكافح ضدها ولكنها برجوازية وتستغل «عمالها» محلياً . في كفاحها ضد الاستعمار مضطرة الى الاعتماد على الجماهير ومن ثم ضمان بعض المكاسب الديمقراطية ، تبعاً لذلك ، لكنها تتخوف من تعميق مسار التحولات الديمقراطية وغير مستعدة للسير بها بعيداً ، هذا عدا تخوفها من فعالية الجماهير واطلاق مبادراتها ، ولذلك كثيراً ما تلجأ الى التوفيقية .

من مصلحتها العداء للاحتكارات ، إذ إنها تريد استغلال ثروات البلاد بلا منازع . ولكنها تخاف الحسم وتفضل طريق المساومة مع الاحتكارات وبناء علاقات «أكثر عدالة» معها ، بدلاً من مصادرة رؤوس أموالها وشركاتها . من مصلحتها القضاء على الاقطاع ، عن طريق إجراء اصلاح زراعي جذري . لكنها تخاف أن يكون هذا مقدمة لعدالة الاطاحة بكل ملكية استغلالية خاصة ، بما فيها ملكيتها في المستقبل .

هي تريد تطوير البلاد اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، ولكن في اطار المحافظة على الرأسمالية . ومأساتها انها دخلت التاريخ في مرحلة أفول نجم الرأسمالية وعجزها عن تحقيق التقدم المنشود ، في بلدان التحرر الوطني ، أمام غول الرأسمالية الاحتكارية الامبريالية . ان سعيها لدفع البلاد في اتجاه التطور الرأسمالي يدخل في تناقض مع سعي وتطلعات الجماهير الشعبية المعادية للامبريالية . خصوصاً وان طريق التطور الرأسمالي لا يضمن التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المنشود .

هي توجب المشاعر القومية العادلة في كفاحها ضد الاستعمار والاحتكارات ولكنها سرعان ما تجعل هذه المشاعر القومية ، والتي لعبت دوراً تقديمياً في السابق ، مطية وغطاء لضمان سيطرتها البرجوازية . اذ تبرز وتشتد يوماً بعد يوم ، اثر تحقيق الاستقلال ، التناقضات الطبقة التي تستدعي الحل . ان الكفاح القومي ، والذي هو في أساسه كفاح طبقي ، ضد الاستعمار ، لم يعد القضية رقم واحد على بساط البحث بعد تحقيق الاستقلال الوطني . تكمن المسألة ، الآن ، في تعميق الكفاح الطبقي باتجاه تقدمي لتعزيز الاستقلال الوطني ، لتعزيز الكفاح القومي - الطبقي ضد الاستعمار

القديم والحديث ، وضد الرجعية المحلية . ولكن تعزيز هذا الكفاح يعني استعداد هذه البرجوازية الوطنية لتعميق مسار التحرر الوطني باتجاه التحرر الاجتماعي . يعني استعدادها لقبول مشاركة وقيادة البروليتاريا ، والفئات الديمقراطية والثورية من البرجوازية الوطنية ، لمهام المرحلة الجديدة . وهذا ما تتخوف منه . ويعود السؤال لي طرح نفسه من جديد : «لَمَن القيادة» ؟! فالطبقة الطبقية للقيادة هي التي ستحدد ، في نهاية المطاف ، مسار ومصير الثورة الوطنية .

- لذلك يعرف تاريخ حركة التحرر في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وفي شرقنا العربي ايضا ، طريقين توجا مسيرة البرجوازية الوطنية . طريق انتقال هذه البرجوازية الى قمع شعبيها هي ، وضرب الشيوعيين وقوى اليسار ، والتنكر للاصلاحات الديمقراطية ، وانعاش القوى الرجعية من جديد ، والتطفل حتى على القطاع العام والاغتناء منه ومن التعاون مع الرأسمال الاجنبي ، والعودة للارتباط بالاستعمار ثانية ... الخ .. (مصر السادات مثلا) . وطريق تعميق الاصلاحات الاجتماعية - الديمقراطية ، وتأميم الاحتكارات الاجنبية ، وضرب الرجعية المحلية ، وإجراء الاصلاح الزراعي ، وتوطيد التحالف بين البروليتاريا والبرجوازية المتوسطة والصغيرة ، الوطنية فعلا ، واطلاق مبادرة الجماهير وتعميق العداء للاستعمار ، قديمه وحديثه ، مع تعزيز الصداقة والتعاون مع العالم الاشتراكي - أي طريق تعميق مسار الثورة باتجاه التحرر الاجتماعي (اليمن الديمقراطي مثلا) . وطبعاً هنالك أنظمة متفاوتة في تقدميتها وديمقراطيتها ، بين هذين الطريقين (مثلا الجزائر ، سوريا ، ليبيا) .

ان البرجوازية الوطنية ، التي بإمكانها ان تستأثر بالسلطة وبالقيادة القومية ، في مرحلة الكفاح من أجل الاستقلال الوطني ، عليها عدم الاستفراد بهذه السلطة في المرحلة اللاحقة ، مرحلة الثورة الوطنية - الديمقراطية . ان فصائلها الثورية ، في هذه المرحلة ، مدعوة لأن تكون إحدى فصائل الحركة الوطنية الديمقراطية حقا ، والتي تتكون نواتها من البروليتاريا والمثقفين الديمقراطيين . وهي لا تستنفذ دورها في هذه المرحلة . ومدى التزامها الوطني يقرر مدى دورها في الاتجاه نحو الوجهة الاشتراكية للتطور .

نقصد بالفئات المتوسطة الطبقات والشرائح الاجتماعية التي تشغل وضعاً وسطياً بين قطبين طبقيين - بين البرجوازية والبروليتاريا ، مثلاً . والفئات المتوسطة غير متجانسة لا اقتصادياً ولا سياسياً ولا فكرياً ، وإن كان لها بعض السمات التي توحيدها ، رغم الميوعة التي تميزها .

من الفئات المتوسطة ، مثلاً ، البرجوازية الصغيرة والمتشققون والمستخدمون . وتضم البرجوازية الصغيرة شرائح اجتماعية مختلفة منها : الحرفيون وأصحاب المهن الحرة من الصناع ، وأصحاب المؤسسات الصغيرة وصغار التجار والفلاحون والمزارعون الصغار والمتوسطون الخ .

ويبرز الوضع الوسطي لهذه البرجوازية في كونها ، مثلها مثل الرأسماليين ، تتمتع بالملكية الخاصة ، لكنها مثلها مثل البروليتاريا أيضاً تعاش ، في الأساس ، من عملها الخاص ، وليس من استغلال الآخرين . ويصح تسمية أدنى الشرائح منها بـ «فئة الملاكين الكادحين» . فالعديد من الفلاحين الصغار والحرفيين والتجار الصغار ، لا يستعمل حتى العمل المأجور ، أو يستغل عمالاً يقل عددهم عن عدد أصابع اليد الواحدة . ويتساوى أحياناً دخل شرائح هذه الفئة مع متوسط دخل العمال .

وتمتاز البرجوازية الصغيرة بالميوعة ، إذ تشكل مصباً لقطبين طبقيين متناقضين . فمن جهة يأتيها الرأسماليون المفلسون . ومن جهة أخرى يأتيها بعض العمال والمتقنين والمستخدمين الميسورين . وهي تصب أيضاً في قطبين طبقيين متعادين : قلتها الميسورة ترتفع نحو البرجوازية المتوسطة وغالبيتها تنحدر نحو البروليتاريا . ولذلك بإمكان البرجوازية الصغيرة أن تكون حليفاً لطبقتين متعارضتين ومتعاديتين . فالاكثر يسراً يتجه ، عادة ، يمينا . والاكثر صفراً وبؤساً ، يتجه ، عادة ، يساراً . هذا مع رفض التوجه الميكانيكي الذي يرى «اليميني الرجعي» وراء كل ميسور والذي يرى البرجوازي البشع وراء كل مالك صغير أو مثقف أو مستخدم . إن «يسر» هذه الفئات يبقى يسراً نسبياً ، لا يميزه الاستغلال البرجوازي البشع .

لذلك فإن البرجوازية الصغيرة حليفة طبيعية للبروليتاريا في

الكفاح ضد الاحتكارات وضد الامبريالية والبرجوازية الكبيرة والمتوسطة .
وتبرز ، بشكل خاص ، ضرورة التحالف بين البروليتاريا وجماهير الفلاحين
الصغار - فئة الكادحين غير البروليتارية - في الدول ذات الاقتصاد
الفلاحي .

* المستخدمون والمثقفون : انهم ليسوا بطبقة وليسوا بملاكين .
وانما كادحون وعاملون بالأجرة ، وهذا ما يقرُّ بهم من العمال . لكنهم
يختلفون عن العمال بكونهم لا ينتجون فائض القيمة وانما يساهمون في
انتاجها . وبكونهم يسغلون مكانا فريدا في التقسيم الاجتماعي للعمل ، اذ
يرتبطون بالعمل الفكري والاداري والذي تسعى البرجوازية لتجيره ضد
البروليتاريا . وهم ، في أثناء العمل ، مرتبطون أكثر باصحاب العمل
ومنسلخون ومنعزلون عن العمال .

فالمثقفون والمستخدمون يختلفون عن العمال من حيث التقسيم
الاجتماعي للعمل والتنظيم الاجتماعي للعمل وطابع ومضمون العمل
وكذلك المستوى الثقافي والتكنيكي (تذكر تعريف الطبقات) . ولكن هذا
لا يعني أخذهم كوحدة متجانسة مئة بالمئة . فهناك ، مثلا ، المستخدمون
والمثقفون الكبار المرتبطون بكبار الشركات وأصحاب رؤوس الأموال
والسياسيين البرجوازيين الكبار وهناك المستخدمون من اصحاب الرتب
العليا في أجهزة الدولة ، بما فيها الجيش والمخابرات ، والذين ربطوا مصيرهم
بمصير البرجوازية وقبلوا طوعا ان يكونوا شركاء يخدمها . انهم
مستخدمون ومثقفون رتيبون راضون هادئون قانعون ، وأحيانا حتى
«ملكين أكثر من الملك» ...

وهناك مستخدمون ومثقفون ليبراليون وراديكاليون وديمقراطيون
ربطوا مصيرهم بمصير الطبقة العاملة ، خصوصا أولئك منهم الذين يحتلون
مواقع دنيا في العمل الاداري والفكري .

وبسبب من تزايد عدد المستخدمين والمثقفين ، أمام تصاعد الثورة
العلمية - التكنيكية ، وكذلك على ضوء انتفاخ الجهاز البيروقراطي للدولة
البرجوازية ، يتحدث بعض المنظرين البرجوازيين الصغار عن نشوء «طبقة
وسطى جديدة» ، «طبقة المستخدمين والمثقفين» أو طبقة «الياقات
البيضاء» . اننا اذ نرفض هذا التقييم مؤكدين انهم ليسوا طبقة . بناء على

موقعهم في عملية الانتاج الاجتماعي ، نرفض في الوقت نفسه ان نعتبرهم «الفئة الثورية الجديدة» التي حلت محل الطبقة العاملة . لكن هذا الكلام لا يعني أبدا ، التقليل من أهمية هذه الفئة ومن دورها . أما بخصوص ثورتها فترتبط طردا بدي تحالفها مع الطبقة الثورية الاساسية في المجتمع البرجوازي - ألا وهي الطبقة العاملة .

لنأخذ المثقفين كسالم . فالمثقفون (الانتلجنسيا) فئة اجتماعية تضم محترفي العمل الفكري الذين تلقوا تعليما مختصا (عادة اكاديميا) لهذا العمل . انهم ليسوا بطبقة بحكم غياب علاقة خاصة لهم بوسائل الانتاج . وانما هم فئة اجتماعية يرتبط وجودها بالطبقات القائمة وبالتقسيم الاجتماعي للعمل . بين العمل الجسدي والعمل الفكري . ويسكون مصبا لمختلف الطبقات . فهناك ، مثلا ، المثقفون القادمون من البرجوازية الكبيرة أو المتوسطة والصغيرة . وهناك القادمون من صفوف العمال . وهناك المثقفون أصحاب المهن الحرة (أدباء ، فنانون ، محامون ، مهندسون ، محاسبون ، أطباء ، ... الخ) . ونشهد سنويا نقصا متزايدا في نسبة اصحاب المهن الحرة (فحتى الاطباء والمحامون والمهندسون والمحاسبون والفنانون ينحولون الى موظفين) وازديادا مطردا للموظفين منهم . كذلك نشهد ارتباط فئة معينة منهم بالنظام البرجوازي القائم ، مقابل اتجاه مطرد لسريحة واسعة نحو ربط مصالحهم بمصالح الطبقة العاملة . بل ويسغل العديد منهم مناصب قيادية في حركة الطبقة العاملة وحركة التحرر الوطني ويتعلم طرائق النضال البروليتاري ، حتى

اننا الى جانب معرفتنا للطبيعة الوسطية لنفسية المثقفين ، والتي لها مبررات موضوعية ، بحكم الموقع الذي يحتلونه في عملية الانتاج الاجتماعي والذي يغذي ذاتيتهم ويسعدهم «بعلو شأنهم» عن العمال ، نرفض رفضا قاطعا الاستنتاج الميكانيكي الخاطيء بهذا الخصوص والذي ينكر أهميتهم الثورية وتزايد دورهم وتعاظم فعاليتهم الاجتماعية والسياسية ، أو الذي يرى الذاتية المتكبرة في كل مثقف . وندعو الى المزيد من تلاحم البروليتاريا مع فئة المثقفين الديمقراطيين ، بالذات ، لما فيه مصلحة التقدم الاجتماعي والسياسي . ولكن في الوقت نفسه نرفض تلك الخريسات

البرجوازية تنته والى تصور منفرد كشعلة نار . وفصل منديل «كومة الحطب الهامدة» - الجدهر السعبيه . «النخبة» - منديل «كومة الطين» ان المعادلة الصحيحة لهذه العلاقة لا يمكن وضعها الا بهذا الشكل : للظلم أسس مادية ولا يمكن الاطاحة بالأسس المادية إلا عن طريق قوة مادية . الفكر لوحده . ومنها كان تقدما أو ثوريا ، لا يغير أو يبدل . وانما يبقى سلاحا روحيا فعلا يدعم السلاح المادي لفعل الطبقة العاملة . وكما تجد البروليتاريا في المثقفين حليفا ثوريا وديمقراطيا هاما يتمتع بسلاح الفكر ، كذلك يجد المثقفون الديمقراطيون في البروليتاريا سلاحا ماديا هاما وأساسيا للاطاحة بكل صنوف الظلم الاجتماعي والسياسي . ولا يمكن ان يتعاظم دور وشأن المثقفين في العملية الثورية الا بقدر تعاظم ارتباطهم بالجماهير الشعبية وتعاظم انسلاخهم عن نفسية الفئات المتوسطة التى ينتمون إليها .

✽ السمات المميزة للفئات الوسطى :

ان الفئات المتوسطة ، من برجوازية صغيرة ومنفذين ومستخدمين بحكم الموقع الخاص الذى تسفله فى عملية الانتاج الاجتماعى ، وبحكم تأرجحها بين المالك والبروليتارى وبحكم ظلمها من هو أعلى مندره اقتصاديه ومركزا منها ، وبظلمها لأن تصبح مله ، وبحكم استخدام البرجوازية الصغيرة منها للعمل المأجور أحيانا ، وبحكم استغلال المثقفين بالعمل الفكرى وإنسلاخهم عن العمل الجسدى الانتاجى ، وبحكم انسغالها بمن حرة أو بأعمال ذات طابع خاص ... الخ نجدها تمتاز بصفات وسمات متميزة .

ان ازدواجية طبيعه هذه الفئات نجعلها تمتاز بالتذبذب والتأرجح ، بين النضال ضد المالك الكبير والدفاع عن المالك الصغير ، بالصراع الطبقي ضد أعدائها الكبار ، من جهة ، وبين انكار الصراع الطبقي والدعوة الى التعاون الطبقي من جهة أخرى ، بين الاعتماد على العمال من جهة ورفض المهمة الثورية الطليعية لهم ومغازلة الفلاحين ، من جهة أخرى ... الخ .

وهذا الموقع يفرض عليها سلوكا سياسيا معينا تمتاز بالديماغوغية والوصولية ، بالافراط الورى والانكماش الانتهازى ، بركوب الموجة فى

مرحلة الصعود وبالإسراع في التزول عنها والتمركز لها في مرحلة هبوط
باليسارية المغامرة ، وبالانطوائية والدعرج - أمام أول فصل ، بالنظر
المورجية وبالترفع عن العمل العيني الدؤوب ، بالتوجه البرجوازية من
جهة وحتى بالنهليسيه من جهة أخرى . وباختصار إن التردد وعدم الحسم
بطبعان هذه الفئات المصابة بضيق وقصر النفس المورى . ولن يخرجها من
أزمئها المتناقضة هذه إلا الانحياز الكلى لصالح كفاح الطبقة العاملة . وهذا
ما يحري عمليا ، ويتسارع خاص ، في مختلف بلدان العالم الرأسمالى وبلدان
حركة التحرر الوطنى .

البروليتاريا .. ولماذا هي الطبقة الأكثر ثورية ؟ !

«نعنى بالبروليتاريا طبقة العمال الأجراء المعاصرين الذين لا
يملكون أية وسائل إنتاج فيضطرون بالتالي الى بيع قوة عملهم لكي
يعيشوا»^١ - هكذا عرف انجلس البروليتاريا .

إذن أمران يميزان البروليتاريا ، أيضا ، وهما عدم ملكيتها لوسائل
الإنتاج واضطرابها ، بالتالي ، الى بيع قوة عملها لدى من يملك وسائل
الإنتاج .

والطبقة العاملة هي إحدى الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع البرجوازي
التي يزداد عددها بازدياد تطور وسيطرة الرأسمالية . فالبرجوازية لا تستطيع
الاستغناء عن الطبقة العاملة وهي تخلقها ، يوميا ، فتخلق بذلك حفار
قبرها . ويفقد الباحثون المختصون ان عددها وصل ، في نهاية السبعينات ،
الى (٦٠٠) مليون نسمة . مع انها لم تتجاوز ال (١٠) ملايين في اواسط القرن
التاسع عشر . وبنت الطبقة العاملة تنظيمات جماهيرية قملها وتقود كفاحها .
فثقباتها تضم ما يقارب ال (٣٠٠) مليون عامل ويصل عدد احزابها
الشيوعية الى ما يقارب ال (١٠٠) حزب . هذا عدا تواجد (٦٠) حزبا
استراكيا - ديمقراطيا .

ونستطيع ان نأيز بين صفوف الطبقة العاملة ، وفقا لقطاع العمل -
العامل الصناعى والعامل الزراعى . ووفقا لدرجة التأهيل - عامل عادى

وعامل مهني وعامل متخصص . وهناك عمال مجزؤون ، اي يقومون بجزء
رتيب من عملية الانتاج ، وعمال كاملون - يقومون بكل عملية الانتاج
الخ .

ولكن مهما مايزنا بين العمال يبقى الأمر الأساس كونهم محرومين من
الملكية الخاصة ومضطرين لبيع قوة عملهم وينتجون فائض القيمة لصالح
الرأسمال .

وتتضمن الطبقة العاملة في صفوفها ، اليوم ، ليس فقط العمال
العصليين ، الذين ينتجون فائض القيمة ، وانما ايضا أولئك الذين
يساهمون ، وان كان بشكل غير مباشر ، في انتاج فائض القيمة . ونقصد
العاملين الفكريين من مهندسين ومخططين وموظفين اداريين ومحاسبين الخ
وكذلك عمال النقل والمواصلات الذين يساهمون في عملية الانتاج . اذ ان
التركيبة الاجتماعية للطبقة العاملة تتطور بحكم تطور عملية الانتاج
المعاصر . وهي تستوعب سنوياً الآلاف المؤلفة من الشغيلة المنتجة ، ومن
الأجراء . فامام ازدياد اتقان عملية الانتاج الرأسمالي يصبح العمل
الفكري ، أكثر فاعل ، عنصراً هاماً في عملية الانتاج بل وعنصراً منتجاً
بشكل مباشر . لدرجة انه من المتعذر انتاج سلعة معينة ، في قرننا المعاصر ،
دون المساهمة الجماعية للبروليتاريا وللعاملين الفكريين .

ان هذه الحقيقة لا تنفي استمرار كون البروليتاريا الصناعية ، في
المصانع والمعامل والمناجم والمشاغل ، النواة الرئيسية للطبقة العاملة .
وهذه هي البروليتاريا ، عملياً . ويجوز أيضاً إطلاق اسم البروليتاريا على
ذلك القسم من الطبقة العاملة الذي يعي الاستغلال الرأسمالي ، الذي
يعاني منه ، ويناضل ثورياً للقضاء عليه .

ان الشغيلة المنتجين ، بأجرة ، وان كانوا يقتربون من شروط عمل
البروليتاريا ، إلا انهم يختلفون عنها من ناحية الانحدار الاجتماعي ، ونوعية
العمل المنجز ، ودورهم في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وكذلك كمية وشكل
التعويض الذي يحصلون عليه . وهذا ما كنا قد سرحناه ، في أثناء بحث
موضوع المستخدمين والمتقنين .

كذلك تشهد البنية الطبقة الاجتماعية للنظام البرجوازي عملية ما
يسمى بـ «البرلتر» . أي اقتراب شرائح ، لا تنتمي الى الطبقة العاملة ،

من شروط حياة البروليتاريات . وذلك بسبب الزيادة فقدانها لاستقلاليتها الاقتصادية وازدياد تدنى مقدراتها السرائية وازدياد الضرائب وحده التنافس القاتل من شرائح اجتماعية ، أقوى اقتصادياً ، فالتاجر الصغير أو الفلاح الصغير ، في ظل مثل هذه الظروف ، قد يعادل ربحه الأجره التي يدفع لعامل يبذل الجهد نفسه .

والاستنتاج المركزي المبني على هذه الحقائق هو انه ليس فقط نذب البروليتاريا ، كما يدعى بعض المنظرين البرجوازيين ، وإنما يزداد عددها ويتسع إطار بنيتها الاجتماعية . كذلك لم تختف الطبقة العاملة في «طبقة وسطى جديدة» مزعومة ، وإنما ، أكثر فأكثر ، تنحدر شرائح معينة ، من الفئات المتوسطة ، نحو جيش الطبقة العاملة المتنامي العدد والعتاد . ان حقيقة مقدرة البرجوازية ، حتى الآن ، على منع فئات وسعة من الطبقة العاملة من التسلح بالوعى الطبقي المورى المنسود ، وحتمه إمكانيتها لخلق ما يسمى «الارستقراطية العمالية» و «البيروقراطية العمالية» وتسميه فئات أخرى بالسوفينية وبالقومجية البرجوازية ، لا ينفي حقيقة استمرار كون الطبقة العاملة - الطبقة الأكثر ثورية في النظام البرجوازي المعاصر .

* لماذا الطبقة العاملة هي الطبقة الأكثر ثورية ؟

غريبة عن الماركسية - اللينينية ومنافية لها تلك الادعاءات التي تنسب ثورية الطبقة العاملة الى معاناتها وبناء عليه ما دامت قد انخفضت معاناة الطبقة العاملة ، بالمقارنة مع وضعها في القرن التاسع عشر مثلاً ، فلقد كُفّت عن كونها طبقة ثورية !

ان الامر الجديد والاساسي الذي اورده انجلس في كتابه الشهير «حالة الطبقة العاملة في انجلترا» هو حديثه عن الطبقة العاملة ليس كطبقة تتألم وتعاني فقط ، وإنما كونها طبقة ثورية تستطيع أن تتحرر ، وأن تُحرّر ، كل الانسانية من آلامها .

اننا نجد ، في كل مجتمع طبقي ، مثلاً ، شرائح اجتماعية مختلفة أكثر معاناة من البروليتاريا . ونجد أيضاً «حشالة البروليتاريا» في المدن . ولكن لا ندعي أنها هي الأكثر ثورية . وهكذا ناقش ماركس وانجلس أيضاً دعاة «الاشتراكية الطوباوية - المثالية» الذين رأوا فقط معاناة الطبقة العاملة ولم

يروا صفتها الثورية .

ثم ان المعاناة لم تزل. وما من مكسب حققته الطبقة العاملة - مثلاً تخفيض يوم العمل من (١٤) ساعة الى (٨) ساعات - الا وكان بفضل كفاحها الثوري. عدا ان البرجوازي لم يعدم الوسائل لتعويض «تنازله» عن طول يوم العمل، عن طريق تشديد انتاجية العمل ، في ظل الثورة العلمية التكنيكية . ويبقى الجوهر والأمر الأساس استمرار انتاج البروليتاريا لفائض القيمة، عن طريق بيعها لقوة عملها بسبب عدم ملكيتها لوسائل الانتاج.

ان الطبقة العاملة هي الطبقة الأكثر ثورية لأن الصراع الطبقي في المجتمع البرجوازي هو، في الأساس، صراع بين البرجوازية والبروليتاريا. لا تستطيع البرجوازية ان تعيش دون البروليتاريا ودون استغلالها. ولكن البروليتاريا بإمكانها ومن مصلحتها ان تعيش دون البرجوازية . ان البرجوازية إذ تخلق، سنوياً، المزيد والمزيد من جيش الطبقة العاملة تخلق حفار قبرها، الأكثر عددا وتنظيماً. والمرتبط بالصناعة العصرية والمعني بالتخلص من الاستغلال. ولن يتم هذا الأمر الا عن طريق دفن النظام البرجوازي.

ثم ان الصراع ، في كل المجتمعات الطبقيّة المتعارضة ، هو صراع طبقي . وما من مجتمع طبقيّ عدائي جديد حل مكان مجتمع طبقيّ عدائي قديم الا وجلب معه ظلماً جديداً وعداءاً جديداً، مكان الظلم والعداء القديم . لقد ثبت ان جذر البلايا الاجتماعية يكمن في الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . ووحدها الطبقة العاملة تستطيع بناء مجتمع خال من الطبقات العدائية زعراؤها . اذ انها هي المحرومة من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، المحرومة من اسلوب تملك خاص بها تبني مجتمعاً قائماً على الملكية الجماعية لوسائل الانتاج. انها بثورتها لا تجلب نظاماً استغالياً جديداً، مكان نظام استغلالي قديم، وانما تقضي على كل اشكال الاستغلال بقضائها على النمط الرأسمالي للانتاج . وعن طريق تحرير الطبقة العاملة لنفسها تحرر كل المجتمع وكل الانسانية - من المعاناة والاستغلال .

ثم ان كل الطبقات والشرائح الاجتماعية الأخرى في البنية الطبقيّة - الاجتماعية للنظام البرجوازي إما رجعية (البرجوازية مثلاً) وإما آيلة

الى الزوال (الفلاحون مثلاً) وإما محافظة متذبذبة (البرجوازية الصغيرة والفئات الوسطى). وحدها الطبقة العاملة تبقى طبقة عصرية، جديدة ونامية ومتجددة، لا تعرف المهادنة ولا التذبذب. إذ أن مصلحتها تتطلب إزالة جذر وقاعدة الظلم الاجتماعي. وهي غير مهدة بالزوال وإنما يزداد عددها يوماً بعد يوم. وهي الأكثر عدداً بين الفئات القادرة على العمل، في المجتمعات البرجوازية المتطورة. ولكن حتى عندما تكون قليلة العدد (في المجتمعات الزراعية) فإنها لا تكف عن كونها الطبقة الثورية. إذ أنه ليس العدد هو الذي يحدد دورها الاجتماعي وإنما موقعها من عملية الإنتاج والمواصفات المميزة لها والمترتبة على ذلك.

ومن مواصفاتها، مثلاً، كونها متحررة من الملكية الخاصة. أي ليس لديها ما تخاف عليه من أملاك وأطيان قد تحد من ثورتها. أنها لا تملك سوى قوة عملها. ولهذا لا يمكن لا تطيعها ولا تطويعها ولا تهديدها بالمس بأملاتها! هي تستطيع، ومعنية، أن تسير بالثورة حتى نهايتها الطبيعية - القضاء على الملكية الخاصة. ولن تخسر، في هذه الثورة، أي شيء. بل، على العكس، ستكسب كل شيء. وبكلمات أخرى، وكما كتب ماركس وانجلس في «بيان الحزب الشيوعي»، «لن «تخسر» في الثورة الا قيودها، لتربح من ورائها عالماً بأسره..»

اضف الى ذلك ان الطبقة العاملة هي الطبقة الأكثر تنظيمًا وانضباطاً. وهذا بحكم ارتباطها بالإنتاج الصناعي والمنظم والمتخيم بالآليات والمكننة. هذا عدا ما يخلقه العمل الجماعي المنظم، وتحت السقف الواحد، من شعور القوة والمسؤولية والتكاتف والتضامن والجماعية والتنظيم العالي المستوى. كذلك يتطلب عملها في الصناعة الرفع المتواصل لمستوى عملها وثقافتها. ثم ان طابع العمل في الإنتاج الرأسمالي هو طابع اجتماعي جماعي. وتتعدى الجماعية هنا المسألة الشكلية - أي العمل، مع بعض، وتحت سقف واحد. إذ المقصود هو قضاء البرجوازية على بعثرة عملية الإنتاج وطبعها بالطابع الاجتماعي. لدرجة أنه أصبح من المتعذر ان يقول عامل ما «هذا ما صنعه يداي». فالنجار مثلاً لا يستطيع صنع الباب الا بمشاركة آلاف وعشرات آلاف العمال - عمال الاخشاب وعمال المعادن وصانعي ادوات الإنتاج والكهربائيون وعمال الثقليات... الخ، الذين حضروا الخشب

وانتجوا ادوات العمل. لذلك فان جيش العاملين، بمئات الافه وبلايينه، مرتبط ببعضه البعض ويساهم، بشكل جماعي، في عملية الانتاج. ان اضراب فرع صناعي معين - ولنقل الكهرباء - ولمدة طويلة، قد يؤدي الى تعطيل مجمل العمليات الانتاجية، أضف الى هذا امكانية تضامن فروع أخرى معه. ولا توجد اية طبقة تتمتع بمثل هذه القوة الثورية عدا الطبقة العاملة. أضف الى ذلك ان الطبقة العاملة، بما فيها الشغيلة بأجرة، هي منتجة مجمل الخيرات المادية في المجتمع. وقيام كل المجتمع مرتبط بعملية انتاج الخيرات المادية. ولتبسيط العرض نتساءل: هل يستطيع طبيب حر ما ان يعيش ويمارس مهنته دون أن يأكل ويلبس ويشرب ودون ان يستعمل ادواته، من آلات طبية وأدوية وأوراق، ودون أن يسكن في بيت معين وان يعمل في عيادة معينة - مليئة بأثاث معين ودون ان يسافر في حافلة او سيارة خصوصية، وعلى شارع معين.. الخ. والسؤال من هو صانع كل هذه الاشياء ان لم تكن الطبقة العاملة؟!

وزيادة في تبسيط العرض - حتى وضع اللامعقول - لنتخيل ان الطبقة العاملة كفت، سوية وبمجموعها، عن العمل. هذا يعني ببساطة الانهيار التام للمجتمع. انهيار الحكومة والوزارات والجيش والمصانع والمزارع.. الخ، الخ. فأية طبقة، غير الطبقة العاملة، تتمتع بمثل هذه القوة المادية؟! لهذا جميعه تقرر الماركسية - اللينينية ان الطبقة العاملة هي الطبقة الأكثر ثورية. انها المناضل الطليعي الوحيد الذي يقع على عاتقه، وبإمكانه فقط، نقل التاريخ الانساني من المجتمعات الطبقيّة الى المجتمع اللاتبقي. وهي الأكثر صموداً في النضال ضد الرأسمالية. والمناضل الأكثر والأوفر وعياً وثقافة طبقية بحكم دورها الحاسم في عملية الانتاج الصناعي.

انها الطبقة القادرة على توحيد كل روافد النقمة في المجتمع، بما فيها نقمة وكفاحية الفئات المتوسطة، ضد العدو المركزي. انها القادرة على بناء اوسع الجبهات الكفاحية ضد الفاشية وضد الاحتكارات وضد الامبريالية ومن اجل السلام والدمقراطية والمساواة والتقدم الاجتماعي. انها القادرة على بناء جبهات واسعة لتحقيق الأهداف الآنية، واخرى لتحقيق الأهداف النهائية.

انها الطبقة الطليعية، دوماً والمتنعة بالصلافة الكفاحية في تأدية

المهام التاريخية الموضوعية امام مختلف الشعوب - ابتداءً من التحرر الوطني وانتهاء بالتحرر الاجتماعي واقامة ديكتاتورية البروليتاريا، على طريق بناء الاشتراكية ومن ثم الشيوعية.

وفي كل معاركها الكفاحية غربية عنها محاولات الاستئثار والاستفراد بالكفاح. بل تسعى دائماً، ولأنها حركة جماهيرية، الى اشراك وتسييس أوسع الفئات الجماهيرية ورفع فعاليتها النضالية، في مختلف المعارك القومية والديمقراطية والاجتماعية. ولذلك ليس صدفة ان تنزعِم المعارك الديمقراطية العامة في مختلف البلدان المتطورة وان تطرح، دوماً، البديل الثوري السليم والكفيل بتقديم حلول جذرية لمختلف القضايا.

اما ازدياد عدد المثقفين والمستخدمين وسائر الفئات الوسطى، وشغلة الأجرة، فانه يعني اتساع القاعدة الجماهيرية التي تعتمد عليها البروليتاريا. ولا تستطيع هذه الفئات ان تستغني عن الطبقة العاملة التي تضمن لها ولحركاتها الاستقرار والمثابرة ووضوح الرؤية والجماهيرية، عدا النهج السياسي الواقعي.

وأخيراً وليس آخراً، ان الطبقة العاملة هي بانية النظام الاشتراكي. ولا يمكن ان نخيل انهيار عالم الامبريالية وتصادد حركة التحرر الوطني والاجتماعي وتحجيم جشع الغول الامبريالي والفاشي وخطر الحرب النووية - بم عزل عن منظومة الدول الاشتراكية، وليدة كفاح الطبقة العاملة.

اضف الى ذلك ان الطبقة العاملة بنت حزبها الطليعي الشيوعي، الذي يوحد بين الحركة العمالية وبين النظرية الثورية ويمثل مصالحها ويضع تكتيكها واستراتيجيتها بثورية علمية، خالية من انتهازية يمينية مقبنة او «يسارية» مغامرة. ويتقف الحزب الطليعي الطبقة العاملة وأوسع الجماهير على وعي دورها ومهامها ويدها، بالممارسة، على اقصر الطرق وضمنها لتحقيق النصر العادل الأكيد.

وبعد، وكما بيَّننا هذا اعلاه، ان اقرار الماركسية - اللينينية ان الطبقة العاملة هي الطبقة الأكثر ثورية، لا ينبع من تمنيات او رغبات ثورية. ولا يعني التقليل من دور المثقفين وسائر الشرائح الاجتماعية التقدمية. وانما يعتمد هذا الاقرار على الحقيقة الموضوعية التي يحددها موقع الطبقة العاملة في

عملية الانتاج الراسمالي، هذا الموقع الذي يخولها ببناء علاقات اجتماعية جديدة.

ان هذا الاقرار اذ لا يعني، بأية حال من الأحوال، انكار دور الآخرين - وخصوصاً الفئات والشرائح الوسطى - يؤكد ضرورة تلاحم كفاح هذه الشرائح، الهام والضروري، مع كفاح الطبقة العاملة. فإِ من طريق لضمان حل المسألة القومية والقضايا الاجتماعية المختلفة، حلاً جذرياً، الا هذا الطريق. هذا ما أكدته خبرة الشعوب، على كرتنا الأرضية، منذ انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى !

التحليل الطبقي

تنطلق الماركسية - اللينينية ، في تحليلها الطبقي ، من القاعدة المادية الاقتصادية للمجتمع ، أي من البناء التحتي . وتشكل البنية الاقتصادية للمجتمع من مجموع علاقات الانتاج . فاذا كانت علاقات الانتاج ، في مجتمع ما ، هي علاقات ملكية خاصة رأسمالية ، كانت قاعدته الاقتصادية قاعدة رأسمالية . وكان نظام المجتمع نظاماً رأسمالياً . وعلى أساس البناء التحتي ما يقوم البناء الفوقي - أي شكل الدولة والسياسة والفلسفة والقوانين والاخلاق ... الخ : ان الاتحاد السوفيتي ، مثلاً ، بشكل دولته وقوانينه وسياسته وفلسفته يختلف ، كليةً ، عن الولايات المتحدة الامريكية . وذلك بحكم اختلاف القاعدة الاقتصادية الاشتراكية عن القاعدة الاقتصادية الرأسمالية .

لذلك فان التحليل الطبقي *السليم لأية ظاهرة أو فكرة اجتماعية يستدعي فحص الخلفية الطبقيّة ورؤية مواقف الطبقات المتصارعة منها ومصالحة أية طبقة تخدم . لقد أكد لينين ، كما أشرنا في بحث الموضوع الأول من هذا الكتاب ، ان الناس سيقون ضحايا ساذجة في مجال السياسة ما لم يتعلموا استشفاف مصالح هذه الطبقة أو تلك وراء البيانات السياسية والاجتماعية والاخلاقية ...

ان هذا الكلام لا يعني الوقوع في الجمود العقائدي وعدم رؤية فعالية البناء الفوقي ايضاً . فالافكار المختلفة ليست رد فعل ميكانيكي على القاعدة

الاقتصادية . وهي اذ تتأثر بالبناء التحتي ، وهذا الأساس ، تؤثر فيه ، في الوقت نفسه . كذلك لا يعني هذا الكلام الوصول بالتحليل الطبقي الى حد الكاريكاتورية . ففرى ، مثلاً ، السياسة وقصيدة غزل مفعمان بالصراع الطبقي بالمقدار نفسه . ولقد كان انجلس يقول ان الايديولوجيا السياسية والحقوقية هي الاقرب الى القاعدة الاقتصادية . أما الفلسفة والفن فيعكسان هذه القاعدة بشكل غير مباشر ، وعبر عدة حلقات .

لا نستطيع ، مثلاً ، ان نفصل مواقف الصهيونية عن كونها ايديولوجية البرجوازية اليهودية الكبيرة المرتبطة بالاوساط الامبريالية . ولا نستطيع ايضاً ان نفصل طريق آسادات في مصر وتخليه عن خط عبد الناصر ، عن مصلحة البرجوازية المصرية المتوسطة والكبيرة . وعن مصلحة فلول الاقطاعيين . ولا نستطيع ان نفصل التذبذب وعدم الحسم في سياسة هذه الدولة العربية التقدمية أو تلك عن طبيعة البرجوازية الصغيرة والفئات المتوسطة التي تزعمها وتضع نظامها . وقس على هذا .

أو لنأخذ مفهوم المساواة . ان النظرة العلمية العميقة للأمر تؤكد لنا انه لا يمكن ان توجد «مساواة على العموم» ، بدون الارتباط بالبناء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمجتمع . ان المفهوم البرجوازي للمساواة يعني ان يتساوى الجميع امام القانون . ولكن القانون البرجوازي نفسه غير عادل ومرتبطة بالمصلحة الطبقية لواقع . هذا عدا كون حتى مسألة المساواة الشكلية امام القانون عرضة دائماً للعب بها ولإلغائها ، فعلياً . اما المفهوم الماركسي ، العمالي ، للمساواة فيعني إزالة الطبقات . يعني المساواة الاقتصادية والاجتماعية التي تضمن ، بدورها ، المساواة أمام القانون والمساواة في تكافؤ الفرص ... الخ .

أو لنتساءل ماذا نعني بالدولة ؟ انها باختصار اداة سلطة طبقة ضد أخرى . وما الحكومة إلا هيئة اركان هذه الطبقة الحاكمة . وما هي السياسة ، اذا لم تكن التعبير المكثف عن الاقتصاد وعن العلاقة بين الطبقات ؟ ! ومن هي الاحزاب اذا لم تكن هيئات اركان الطبقات والشرائح الطبقية المختلفة ؟ ! وما هو الصراع بين الاحزاب ، ان لم يكن التعبير الجلي ، عن الصراع الخفي ، بين مصالح الطبقات المختلفة ؟ !
ان الأمل ، مثلاً ، بأن السياسة البرجوازية من الممكن أن تكون

عادلة وإنسانية هو وهم فارغ ، بحكم الطبيعة الطبقة للبرجوازية . ان تصبح البرجوازية عادلة - يعني ان تكف عن كونها برجوازية . هذا ما يؤكد التحليل الطبقي السليم . بناء على فهم الخلفية الاقتصادية للبرجوازية . لذلك من الضروري ليس فقط رؤية الخلفية الطبقة للسياسة ، وانما ايضا الاقتناع انه لا يمكن تحليل السياسة إلا من وجهة نظر الصراع الطبقي .

أما الاخلاق فلا يناقش عاقل ما انها تختلف بين مجتمع وآخر ، وبين طبقة وأخرى ، وفق اختلافات الطبقات ومفاهيمها . فاخلاق المجتمع العبودي ليست اخلاق المجتمع البرجوازي . واخلاق هذا تختلف ، جذريا ، عن اخلاق المجتمع الاشتراكي . واخلاق «معك قرش بتسوى قرش» منافية لاخلاق الطبقة العاملة .

وما هو الحق القانوني ؟ ! انه إرادة طبقة ما مصاغة في قانون . لذلك فليس المجتمع هو الذي يقوم على القانون ، وانما القانون هو الذي يقوم على أساس المجتمع القائم - كما أكد ماركس . أما الديمقراطية فهي إما ديمقراطية برجوازية وإما ديمقراطية بروليتارية . والديمقراطية لطبقة ما لا بد إلا ان تكون ديكتاتورية ضد طبقة نقيضها . وقس على هذا الأساس ...

لذلك تؤكد الماركسية - اللينينية على مسألة التحليل الطبقي . فبدونه لا تستطيع البروليتاريا ان تتسلح بالمعارف السياسية الثورية الصحيحة لفهم المجتمع البرجوازي القائم ولفهم حتمية زواله . أما البرجوازية فانها تخاف التحليل الطبقي كخوفها من البروليتاريا ، كخوف اللص من سيف العدل . لأنها تخاف كشف حقيقتها كطبقة لا تمثل إلا مصلحتها . بينما هي معنية بتصوير نفسها ممثلة «للأمة» ، ككل ، حتى يتسنى لها استمرار مص دماء بروليتاريا الأمة ، ككل .

الأممية البروليتارية

أشرنا ، في أثناء بحث الموضوع الأول من هذا الكتاب ، الى أن الأممية البروليتارية و التعصب القومي شعاران متناقضان ويمثلان سياستين مختلفتين في المسألة القومية .

والآن ، ماذا نعني بالأممية البروليتارية ؟

الأممية البروليتارية هي ايدولوجية الطبقة العاملة للتضامن الأممي بين عمال جميع العالم ، بغض النظر عن الجنس أو القومية أو اللون أو الإتناء الجغرافي أو الدين الخ ، ضد العدو المشترك لها جميعها . ولقد لخص ماركس وانجلس هذه الايدولوجية في وضع الشعار الخالد «يا عمال العالم ، اتحدوا» ! أي دعوة جميع عمال العالم للاتحاد في كفاحهم المشترك ، ضد عدوهم المشترك - برجوازية جميع البلدان ، لتحقيق مصلحتهم المشتركة - بناء الاشتراكية . فالأممية ، إذن ، هي التعبير النظري عن المصالح الجذرية للبروليتاريا .

وتعني الأممية البروليتارية ، عدا وحدة وتطابق مصلحة بروليتاريي العالم ، شعور كل فصيل بروليتاري وطني بمسؤوليته إزاء مجمل قضايا الحركة العمالية العالمية . وهي أهم مبدأ للعلاقات بين الفصائل البروليتارية الوطنية . وتعني التعميم النظري للتجارب العملية للحركة العمالية العالمية ، وفي موقع القلب منها - الحركة الشيوعية العالمية ، وتبادل الخبرة وتنسيق الكفاح بينها .

وتعني «الأممية» ، في المسألة القومية رفض كل مظاهر التعصب القومي والشوفينية والتمييز العنصري والظلم القومي والعنصرية والحديث عن أمم «راقية» ، بطبيعتها وبسبب بيولوجيتها ، وعن أمم «متخلفة» . تعني النضال في سبيل المساواة ، ولا اقل من المساواة الفعلية ، لجميع الأمم والأقوام - كبيرها وصغيرها ، قديمها وحديثها . تعني الكفاح ضد الاستعمار والاصرار على حق الشعوب في تقرير مصيرها وبناء حياتها بشكل حر ومستقل . وكذلك توطيد الصداقة والتعاون المشترك والتعامل المتكافئ والاحترام

المتبادل ، بين مختلف الشعوب .

وتعني الأهمية البروليتارية ايضاً ، تبني وجهة مصلحة كفاح الطبقة العاملة ونضالها التحرري العالمي ، في أية مسألة سياسية - اجتماعية كانت . لأن ضمان هذه المصلحة يعني ضمان المصالح الوطنية الحقّة للشعوب المختلفة . وتعني تقسيم البشرية ، ليس على أساس قومي أو عرقي أو جغرافي أو ديني ، وإنما على أساس طبقي ، واتخاذ موقع الكفاح والدفاع العنيد عن مصالح المستغلين والمستثمرين وكافة المظلومين ، بغض النظر عن إنتهاءاتهم الوطنية ، وتقديم المساعدات لهم لدرء رأس المال العالمي . يقول لينين : «ان الأهمية البروليتارية تتطلب ، أولاً ، إخضاع مصالح النضال البروليتاري ، في بلد من البلدان ، لمصالح هذا النضال في النطاق العالمي . وتتطلب ، ثانياً ، كفاءة واستعداد الأمة المنتصرة على البرجوازية للأقدام على تحمّل التضحيات الوطنية الكبرى من أجل إسقاط رأس المال العالمي»^(٤) .

ان محك أهمية انسان ينتمي للأمة الظالمة هو كفاح هذا الانسان ضد امبريالي أمته بالذات ، ضد شوفينية قادة بلاده ، ضد كل سياسة القمع والغبن والتحقير تجاه الشعب الذي يعاني من ظلم أمته . والدفاع عن حق تقرير مصيره . وتربية أبناء أمته بروح الأخوة والاحترام للشعب المظلوم ، وتحريض الجيش على عدم رفع السلاح ، في حرب عدوانية إلا ضد عدوه الوطني هو ، والموجود في عقر داره ، هو ، ألا وهي برجوازية أمته . أما محك أهمية انسان ينتمي لأمة مظلومة فهو الدفاع ضد كل ظلم قومي تعاني منه أمته وكفاحه من أجل تحقيق مصيرها ، ولكن دون الوقوع ولو بأدنى تطرف قومي - شوفيني ضد الأمة الظالمة كأمة . فالى جانب الكفاح ضد برجوازية الأمة الظالمة وشوفينيتها ، عليه رفع علم الأهمية ، بما فيها أهمية الكفاح المشترك مع بروليتاريا الأمة الظالمة ، ضد العدو المشترك .

ان الاعتراف بحق تقرير المصير للشعوب ، وبحق كل شعب في أن يكون سيد نفسه ، في بيته - وطنه ، مبدأ أممي أساسي لا يقبل الانتقاص . اذ ان تجاهل هذا المبدأ هو بمثابة تجاهل ألف باء الأهمية . يقول لينين : «ان كل اشتراكي في أمة ظالمة لا ينشر في زمن السلم وفي زمن الحرب ، سواء بسواء ، الدعاية لحرية الأمم المظلومة في الانفصال ، ليس باشتراكي ولا

أمي . إنما هو شوفيني ! وكل اشتراكي من أمة ظالمة لا يقوم بهذه الدعاية على الرغم من حظر الحكومة [.....] يظل منافقاً في مناصرته للمساواة بين الأمم في الحقوق»^(٥) .

فالأممية ، إذن ، هي أيضاً وحدة النضال ضد الامبريالية وضد الاقطاع من أجل بناء الدولة القومية المستقلة . وهي كذلك الاستمرار في هذا النضال الموحد ضد البرجوازية ، من أجل اسقاطها ، وتحقيق التحرر الاجتماعي للشعوب - أي تحقيق الاشتراكية .

ولا تتناقض الأممية مع الوطنية إطلاقاً . فالأممي الحقيقي هو الوطني الحقيقي . إذ ان المصلحة القومية الحقة ، لأي شعب ، تتطلب تحرر هذا الشعب من جريمة ظنم الشعوب الأخرى ، لأنه يكون شعباً مظلوماً هو نفسه ، عندها . ان إهدار طاقات الوطن على العسكرية والاحتلال وتقديم شباب الوطن قرباناً على مذبح الشجع البرجوازي ، يعني استغلال الوطن والتفريط بحريته الحقيقية . ولا توجد أية مصلحة وطنية عامة في تأليب شعب ضد آخر . إنما هنالك مصلحة وطنية حقة في تكاثف الجهود الأممية لبروليتاريا وشعوب العالم في سبيل التخلص من الاستعمار ومن الاستغلال ومن الحروب العدوانية . ان ضمان السلام العالمي وضمان التحرر الاجتماعي - وهذا ما تسعى اليه الأممية البروليتارية - يعني ضمان أسمى المصالح الوطنية للشعوب قاطبة . ويبقى معيار أممية البروليتاريا هو مدي وطنيتها . لذلك ليس صدفة ان لا نجد في عصرنا الراهن طبقة أشد إخلاصاً وثباتاً من البروليتاريا ، في الدفاع عن المصالح القومية ، لمختلف الأمم والشعوب . والأممية البروليتارية ، بعكس ادعاء نقادها البرجوازيين ، ليست فقط لا تتنافى مع المشاعر والمصالح القومية الصادقة ، وإنما تأخذها بعين الاعتبار وتعزز محتواها الديمقراطي ، وذلك برفضها ضيق الأفق القومي والشوفينية والتقوقع . وهي تعني المساواة التامة بين مختلف الاحزاب البروليتارية الوطنية واحترام استقلالها ونفي ورفض أية هيمنة لبلد أو لحزب ما ، ورفض تفضيل أية أمة على أخرى .

بل وتتطلب «الأممية» ، دوماً ، أخذ الظروف الوطنية بعين الاعتبار والانتباه للمشاعر القومية . لقد رفض آباء الماركسية - اللينينية اعتبار الايديولوجية الاشتراكية العلمية عقيدة جامدة ودعوا الشعوب ، دوماً ، الى

تطبيقها وفق ظروفهم الخاصة ، وإلى إغنائها بتجارهم الوطنية الأصلية ، دون الانتقاص ، طبعاً ، من قوانينها العامة .

فالاحزاب الشيوعية هي احزاب أممية - وطنية في الوقت ذاته . فالكفاح من أجل انتصار مبادئ الأممية البروليتارية عالمياً ، يعني الكفاح من أجل انتصار هذه المبادئ وطنياً ، محلياً . يعني أن يكون الشيوعيون ، في بلدانهم ، أشد الوطنيين ثباتاً وطيعة كفاحية ضد أي مساس رجعي بالمصالح الوطنية - القومية . فالأممية في التطبيق ، في الاتحاد السوفييتي مثلاً ، ليس فقط لم «تضحى» بالمصلحة القومية لصالح المصلحة الأممية . وإنما ضمنت المصالح القومية ، عن طريق تحقيق مبادئ الأممية البروليتارية . لقد ضمنت حق تقرير المصير للشعوب وضمنت قفزة جبارة للتطور القومي للشعوب ، بفضل التعااضد الأممي . وتطورت الثقافة الأممية لعموم شعوب الاتحاد السوفييتي ، عن طريق تفتح أشكالها الوطنية .

وأوصى لينين الشيوعيين من كل البلدان ، في كتابه «مرض «اليسارية» الطفولي في الشيوعية» ، أن يحاربوا الانتهازية وأن يحاربوا كذلك العقائدية «اليسارية» حتى يبقوا أميين فعلاً . وأكد على ضرورة أخذ الخصائص الملموسة ، التي تميز كل بلد على حدة ، بعين الاعتبار . بما فيها الخصائص الاقتصادية والسياسية والثقافية والقومية والدينية . وأبرز أن وجود مقر قهادي للبروليتاريا العالمية* - الأممية الثالثة - لا يعني «قولبة النضال» ولا «التوحيد الميكانيكي» . لأن الفوارق القومية قائمة بين الشعوب والبلدان وستبقى زمناً طويلاً . لذلك ، يتابع لينين : «فإن وحدة التكتيك العالمي لحركة العمال الشيوعية في جميع البلدان لا تتطلب إزالة التنوع ، ولا استئصال الفوارق القومية [...] بل تتطلب تطبيق المبادئ الأساسية للشيوعية [...] بشكل يعدل بصورة صحيحة هذه المبادئ ، في الجزئيات ويجعلها تتلاءم وتنسجم بصورة صحيحة مع الفوارق القومية والفوارق بين الدول . أن الواجب الرئيسي [...] هو استقصاء ودراسة وتمحيص واستقرار واستيعاب المميزات القومية والخصائص القومية في الأساليب

* حتى هذا المقرر جرى إلغاؤه سنة ١٩٤٣ لتأكيد استقلالية الاحزاب البروليتارية - الوطنية . واستعاضت عنه هذه الاحزاب بعقد مؤتمرات ومشاورات وندوات دولية أو منطقية أو ثنائية

الملموسة التي يتخذها كل بلد لحل المهمة للأمية الواحدة»^(١) . هكذا يتم تطبيق الأمية البروليتارية بأشكال وطنية . فالنضال الوطني العيني ، والمنغرس في تربة الوطن ، للفصائل البروليتارية الوطنية ، لا ينفي الأمية البروليتارية ، وإنما يغنيها .

هذا وتتجلى الأمية البروليتارية اليوم على الصعيد العالمي في تعاضد كفاح القوى الثورية الرئيسية الثلاث لعصرنا - العالم الاشتراكي وحركة الطبقة العاملة في العالم الرأسمالي وحركة التحرر الوطني . وتتجلى كذلك في المساعدات الاشتراكية النزهة التي يقدمها العالم الاشتراكي ، وفي موقع القلب منه الاتحاد السوفييتي ، للشعوب المكافحة من أجل حريتها واستقلالها وتحررها الاجتماعي ، وذلك على الصعيد السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي . ان وحدة أهداف ومهام النضال في عصرنا الراهن - على الصعيد الدولي ، من أجل السلام والديمقراطية والتقدم الاجتماعي ، وضد الامبريالية والاحتكارات - مدعاة لتعزيز الأمية البروليتارية ولتعزيز الصداقة مع العالم الاشتراكي ، من قبل كافة المناضلين الثوريين الوطنيين . ولا شك ان «العداء للسوفييت» والعداء لسائر بلدان العالم الاشتراكي ، يتهى في جوهره ، عداء للشوعية ، عداء للأمية البروليتارية . وهو ، في الوقت نفسه ، تنكر وعداء للمصالح الوطنية الحقيقية .

أما على صعيد العلاقات بين الدول الاشتراكية واحزابها الشيوعية ، فان الأمية البروليتارية هنا صعدت الى مرحلة الأمية الاشتراكية ، والتي تتجلى في التلاحم والتعاون الأممي الوطيد بين هذه البلدان على كافة الأصعدة - اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وعسكرياً وثقافياً وفكرياً . فالأمية الاشتراكية هي مرحلة علاقات جديدة ، أرقى ، بين الدول . وكذلك بين القوميات المختلفة داخل الوطن الاشتراكي الواحد .

لقد عنت الأمية الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ، فيها عنته ، عدم مساواة ضد الشعب الروسي ، في مرحلة معينة ، لتعويض الشعوب المظلومة سابقاً عما لحق بها من ظلم وتغلب ، من جراء ليل الظلم القومي الطويل الذي فرضته القيصرية الروسية . وأكد لينين على عدالة هذا الأمر ، وإلا لكانت «المساواة شكلية» .

وتستدعي الأمية ، حسب وصايا لينين ، أشد الانتباه للمشاعر

القومية لأبناء الأمم المظلومة . لأنه ما من شيء يسهم مثل مسألة المساواة القومية والاخلال بها ، أو السخرية والتعالي على مساعريهم وتقاليدهم القومية . لذلك فإن الزيادة في اتجاه التساهل واللين حيالهم ، تبقى خيراً من النقص .

وضرب لينين ، الروسي ، مثلاً رائعاً ملهماً عن معيار صدق الأمية وذلك بكفاحه العنيد ضد الشوفينية الروسية وبقياء مظاهرها ، حتى بعد انتصار ثورة أكتوبر . وسنراها حرباً ، لا تعرف المساومة ، ضد الاهانات القومية للشعوب الأخرى ، من قبل بعض الروس . كأن يدعون البولوني «بولوني» والترتي «الامير» والاوكرائيني «ابو سوسة» والجورجي وأبناء الشعوب القفقاسية «كابكازي» ... وهكذا . وطالب بدرء سر «درجيموردا الروسي»* . ونادى لينين بحق تقرير المصير ، حتى اقامة الجمهورية المستقلة ، للشعوب غير الروسية وعدم الاكتفاء «بالحكم الذاتي» في اطار «روسيا الشوفينية» . وكتب يقول ان حرية «الخروج من الاتحاد» يجب ان لا تكون مجرد ورقة لا «تدفع عن رعايا روسيا ، من أبناء الاقوام غير الروسية ، غزو ذلك الروسي القح ، ابن الأمة الروسية العظمى ، غزو ذلك الشوفيني ، الذي هو في الجوهر سافل ومعتد ، واعني البيروقراطي الروسي النموذجي . وليس من شك في ان النسبة الضئيلة من العمال الشوفينيين والمصبوغين بالصبغة الشوفينية ستغرق في بحر الاوباش الشوفينيين الروس كالبرغوث في اللبنة»^(٧) . ولذلك حارب لينين هؤلاء «الاوباش» ودعا الى طردهم من الحرب ومعاقبتهم .

اذ ان الأمية ليست شعاراً عاماً . ليست مجرد مسألة اقتناع فكري . وانما هي ، أولاً وقبل كل شيء ، ممارسة عملية . ولا تقوم على أساس اعطاء الدروس للشعوب الأخرى بأن تكون أمية ، وانما تقوم على أساس كون الانسان - أولاً وقبل كل شيء - أمياً في بلده هو ، في وطنه هو ، ضد شوفينية برجوازيته هو ، ضد العدو الوطني في عقر داره هو ، وضد تعصب أمته .

* درجيموردا - اسم رجل البوليس في مسرحية غوغول «المفتش» . والذي اصبح يرمز للعسف والاستبداد والوقاحة والفظاظة .

يقول لينين : «وليس هناك سوى أممية واحدة وحيدة ، هي العمل بتفان على تطوير الحركة الثورية والنضال الثوري يخوضه المرء في بلاده بالذات ، ودعم هذا النضال نفسه (بالدعوة والتجبيذ والعون المادي) ، هذه الخطة نفسها ، ووحدها فقط ، في جميع البلدان بلا استثناء»^(٨) . ويقول أيضاً : «ان الأممي ليس ذاك الذي يحلف الايمان ويستشهد الله على أنه أممي ، بل فقط ذاك الذي يناضل بطريقة أممية حقاً وفعلاً ضد برجوازيته هو ، ضد الاشتراكيين - الشوفينيين في بلده هو ، ضد أمثال كاوتسكي* في بلده هو»^(٩)

فالأممي ، في أية دولة برجوازية كانت ، عليه القول : «ان العدو موجود ، أولاً ، في بلادي» . وكفاحه الوطني ضد هذا العدو هو المعيار لصدق أمميته الكفاحية ضد الاعداء الآخرين . والأممية لا تتحقق بالتحالف مع البرجوازيين المحليين ، أو بقبض الطرف عن جرائمهم ، وإنما بتشديد الكفاح ضدهم . ليس بالسير يدا بيد مع الشوفينيين والرجعيين المحليين ، والكفاح ضد اترابهم العالميين ، نصون الأممية . وإنما نصونها بالسير يدا بيد مع البروليتاريا العالمية ضد الشوفينيين والاعداء الطبقيين ، المحليين والعالميين .

والأممية البروليتارية تعني رفض الكوسموبوليتية والنهلستية . فالكفاح ضد ضيق الأفق القومي يتطلب احترام المطالب القومية العادلة ، وليس التنكر لها . ورفض الشوفينية يتطلب رفض العدمية القومية . اذ ان الأممية البروليتارية هي الكرامة القومية ، في الوقت نفسه . هي الكرامة الطباقية البروليتارية ، حافظة وصانئة الكرامة القومية . هي الاعتزاز بكل ما هو قومي ، شريطة ان يكون تقديماً . اذ ان مصلحة الكرامة القومية لأي شعب تتوافق مع مصلحة بروليتاريا هذا الشعب .

كتب لينين يقول : «ونحن ، البروليتاريين الروس المدركين ، هل نحن براء من شعور الكرامة القومية ؟ كلا بالطبع ! نحن نحب لغتنا ،

* كاوتسكي - أحد زعماء الأممية الثانية . مرتد عن الماركسية ، وايدولوجي الوسطية . اشتراكي - ديمقراطي الماني رفض شعار اعلان «الحرب على الحرب» في أثناء الحرب العالمية الاولى وتلطف بالشوفينية .

ونحب وطننا ، ونحن نبذل قصارى جهودنا لكي نهض بجماهير شغيلته (أي بتسعة أعشار سكانه) الى مستوى الحياة الواعية ، الى مستوى حياة الديمقراطيين والاشتراكيين . ونحن لا نشعر بألم كالألم الذي يحز في قلوبنا عندما نرى ونحس ما يكابده وطننا الجميل على أيدي الجلادين ، خدم القيصر ، والاعيان والرأسماليين ، من ألوان العنف والظلم والخسف . ونحن نعتز ، أيما اعتزاز ، اذ نرى هذا العنف قد لاقى المقاومة من بيتنا ، من بيئة الروس ، اذ نرى هذه البيئة قد ابرزت راديشيف والديسمبرين [...] . نحن مفعمون بالكرامة القومية لأن الأمة الروسية قد انشأت هي ايضاً طبقة ثورية ، قد برهنت هي ايضاً انها تستطيع ان تقدم للبشرية ، عدا المذابح العظمى وصفوف المشانق والسجون والمجاعات الكبرى والخنوع العظيم امام الكهنة والقيصرة والملأكين العقارين والرأسماليين ، آيات رائعة في النضال من أجل الحرية والاشتراكية .

«نحن مفعمون بالكرامة القومية ، ولذلك بالذات نمقت أشد المقت ماضينا العبودي [...] . ونمقت أشد المقت حاضرنا العبودي [...] . ونحن العمال الروس المفعمين بشعور الكرامة القومية ، نريد مهما كلف الأمر ، روسيا عزيزة ، جمهورية ديمقراطية ، مستقلة ، حرة ، تبني علاقاتها مع جيرانها على أساس المبدأ الانساني ، لا على أساس مبدأ الامتيازات المهيمن لأمة عظيمة»^(١٠٠) .

هكذا ايضاً كان موقف غيورغي ديمتروف من شعبه البلغاري . لقد هبَّ مدافعاً عن كرامته القومية ، في أثناء المحاكمة بخصوص حرق الرايخستاغ سنة ١٩٣٣ ، وبالذات عندما وُصف النازيون شعبه بأنه «متوحش» و «هجي» . فواجههم ديمتروف قائلاً : ان الشعب الذي عاش خمسة قرون تحت النير الاجنبي ، ولم يفقد لغته وقوميته ، لا يمكن ان يكون متوحشاً . ان الفاشيين ، فقط ، هم المتوحشون والهمجيون ، في بلغاريا . ولكن في أي بلد هم غير بربريين وغير متوحشين ؟ ! واضاف : «ليس لدي سبب كي أخجل من أن اكون بلغارياً . اني اعتز بكوني ابناً للطبقة العاملة البلغارية» .

وفي تقريره ، فيما بعد ، أما المؤتمر السابع للأمية الشيوعية ، قال

ديميتروف ما يلي ، عن الكرامة القومية للشيوخين: «اننا نحن الشيوعيين ، لخصوم مبدئيون الأداء للقومية البرجوازية بكل اشكالها . غير اننا لسنا انصارا للعدمية القومية . ولا يجوز لنا ان نتصرف هكذا أبدا . ان مهمة تربية العمال وسائر الكادحين بروح الأمية ، هي من المهام الأساسية لكل حزب شيوعي . لكن من يظن ان ذلك يسمح له ، وحتى يلزمه ، بأن يبصق على كل المشاعر القومية للجماهير الكادحة - هو بعيد عن البلشفية الحققة ولم يدرك شيئا من تعاليم لينين وستالين فيما يتعلق بالمسألة القومية»^(١١) .

وبناء على ما تقدم فان الأمية البروليتارية هي نزعة ثورية تهدف الى توحيد جميع الجهود الثورية لبروليتاريا العالم ولكافة شعوبه وقواه المحبة للسلام والمكافحة في سبيل التقدم الاجتماعي ، ضد عدو السلام والتقدم . انها ينبوع قوة الطبقة العاملة ، في كل العالم ، ضد كل رأسمالي العالم . انها ضمير الطبقات المضطهدة وعقلها وشرفها ونقطة ارتكازها في سبيل تحقيق الاشتراكية . فليس هنالك من قوة اعظم من قوة التضامن البروليتاري ، لتحقيق ولصيانة المكاسب . ففي تلاحم القوى الثورية على الصعيد المحلي ، والعالمي ، يكمن عربون النصر في المعارك الطباقية الفاصلة .

لذلك فان أي انحراف عن الأمية البروليتارية يعني الاقتراب من اوساخ القومجية البرجوازية ، يعني إضعاف قوة ونقاوة وفعالية ايدولوجية الاشتراكية العلمية . فالأمية البروليتارية هي المعيار لصحة وفعالية النهج السياسي لهذا الحزب الماركسي - اللينيني أو ذاك ، لهذه الدولة الاشتراكية أو تلك . واثبتت تجربة العالم الاشتراكي وتجارب الحركة الشيوعية العالمية ان بعض الدول الاشتراكية (كالصين مثلا) وبعض الاحزاب الشيوعية (كالحزب الشيوعي الاسباني أو الايطالي مثلا) ، التي انحرفت عن مبادئ الأمية البروليتارية ، جرت الويلات على نفسها وعلى مجمل الحركة الثورية العالمية . لذلك تؤكد الماركسية - اللينينية ان خيانة مبادئ الأمية البروليتارية ، تعني خيانة مبادئ الاشتراكية . اذ انها كانت ، وستبقى ، الركيزة الأساسية لمصالح الطبقة العاملة ولمصالح القوى الثورية العالمية . طبقيا وقوميا !

ويبقى أحد الأمثلة الصارخة عن خيانة الأمية البروليتارية هو وقوع

غالبية قادة الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، في ابان الحرب العالمية الاولى ، في حماة القومية والسوفينية البرجوازية . وذلك عندما دعم قادة هذه الاحزاب برجوازية بلادهم في الحرب الامبريالية للصوصية وبرروا شعار «الدفاع عن الوطن» ، في تلك الحرب . بل ووصل الأمر بالبعض حد دخول وزارات إئتلافية والتصويت تأييداً للميزانيات العسكرية .

لقد كانت هذه الخيانة للأمية البروليتارية خيانة لمبادئ الاشتراكية ، عملياً . وهذا ما عُرف في التاريخ بـ «افلاس الأممية الثانية» ، حسب تعريف لينين . وهذا ما استدعى تأسيس «الأممية الثالثة» ، الاشتراكية فعلاً وقولاً .

وكان الموقف الأممي الصحيح ، في ابان الحرب العالمية الاولى ، والذي طرحه لينين ، وتبناه الحزب البلشفي ، هو التقرير ان الحرب هي حرب امبريالية لاعادة اقتسام العالم ، وليس للبروليتاريا من مصلحة فيها . ولذلك على الاحزاب البروليتارية ، ليس فقط عدم الاشتراك في وزارات ائتلافية ، ولا فقط الوقوف ضد الميزانيات العسكرية ، ولا فقط دعوة الجنود المتحاربين ، على طرفي المتراس ، الى عدم الاحتراب والى التأخي ، وانما ايضا «اعلان الحرب على الحرب» . أي تحويل الحرب الامبريالية ، بين البرجوازيات القومية المختلفة ، الى حرب أهلية ، تخوضها البروليتاريا في كل بلد من بلدانها ، ضد برجوازياتها ، ضد عدوها الوطني الاول . وهذا ما نجح الحزب البلشفي في تحقيقه بانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، ابان الحرب .

* وأخيراً ، على أية خلفية موضوعية تقوم الأممية البروليتارية ؟ !

انها تركز على أرضية وحدة وتطابق المصالح الجذرية للبروليتاريا ، في جميع بلدان العالم . وعلى وجود عدو أساسي واحد للبروليتاريا في كل العالم ، الا وهو البرجوازية . فلا توجد أية مصلحة للبروليتاريا في التناحر وفي التناؤد القومي . وانما مصطلحتها الطبقية تتطلب توحيد جهودها ، على مختلف مشاربها الوطنية ، حتى تستطيع قهر عدوها الذي يحاربها بشكل «أممي» ايضا . اذ ان برجوازي العالم ، ايضا ، يتحدثون ويتعاونون ، على اختلاف قومياتهم ، ضد العمال من أبناء جميع الأمم . ألا تعادى ، مثلاً ، برجوازية الامبريالية الامريكية وبرجوازية اسرائيل

الصهيونية وبرجوازية الرجعية العربية ، وبشكل مشترك - مع تحديد الفروق والمسؤولية الرئيسية - الشعب الأمريكي والشعب الاسرائيلي والشعوب العربية ؟ !

كذلك يتعاون الرأسماليون الاحتكاريون ، من مختلف الأمم والقوميات ، ويتشاركون في الشركات الاحتكارية ، في ظلم واحتلال واستغلال بروليتارية أمهم وقومياتهم . فالإيديولوجية البرجوازية ليست إيديولوجية قومية . وإنما إيديولوجية «أممية» عالمية لطبقة غاربة ، تاريخياً ، ومعادية لكل ما هو تقدمي وإنساني . وليس صدفة ان تتوحد هذه البرجوازية ، العالمية ، في عدائها للقوى الثورية الثلاث في عصرنا . كذلك الاشتراكية العلمية ليست إيديولوجية قومية . وإنما هي إيديولوجية أممية بروليتارية . ولقد كانت وما زالت ، تعبيراً فكرياً ، حياً ومتجدداً ، عن واقع موضوعي تعيشه البروليتاريا العالمية .

يقول انجلس ، موضحاً الأرضية الموضوعية للأممية : «البروليتاريون في سائر البلدان لهم مصالح مشتركة واحدة ، وعدو مشترك واحد ، وأمامهم نضال مشترك واحد . وقد تحرر معظم البروليتاريين ، بحكم طبيعتهم ، من الخرافات القومية . وكل تطورهم الروحي وحركتهم ، هو في الواقع انساني ومعادٍ للقومية الضيقة . ان البروليتاريين يستطيعون وحدهم إزالة العزلة القومية . والبروليتاريا المستيقظة ، فقط ، تستطيع إقامة التآخي بين مختلف الأمم»^(١٢) .

وبعد ، لبروليتاريا العالم اجمع يوجد ايضاً عيد مشترك انه الأول من أيار ، والذي تحتفل به منذ سنة ١٨٩٠ تكريماً لشهداء الطبقة العاملة الذين سقطوا ، في شيكاغو ، سنة ١٨٨٦ ، دفاعاً عن مطلب يوم عمل من ثمان ساعات . انه يوم التضامن الأممي ويوم للنضال ضد كل صنوف الاضطهاد والغبن الطبقي والقومي ، من قبل الانسان لأخيه الانسان . انه يوم كفاح عالم العمل ضد عالم الرأسمال . ويوم عيد للاحتفال بمكاسب الحركة العمالية العالمية .

وللعمال ، ايضاً ، نشيد أممي واحد . انه نشيد «الأممية» والذي كتبه الشاعر الفرنسي ، شاعر الطبقة العاملة ، «أوجين بواتيه» ، في حزيران من سنة ١٨٧١ ، معبراً فيه عن افكار ابطال «كومونة باريس» .. وتعتبر

كلمات هذا النشيد نصباً فكرياً رائعاً للأمية البروليتارية . وليس صدفة كونه
أكثر الأنشيد شهرة وعالمية ، على كرتنا الارضية . ان ملايين الملايين من
البشر تغني «أمميتها» مع بواتيه :
هَبُوا ضحايا الاضطهاد
ضحايا جوع الاضطراب
بركان الفكر في اتقاد
وهذا آخر انفجار
هَبُوا نمحو كل ما مرَّ
هَبُوا حطموا القيود
وابنوا الكون جيلاً حرّاً
وكونوا أنتم الوجود
بجموع قويّة ، هَبُوا لاح الظفر
غدّ الأمية ، سيشمل البشر .

النزعة القومية

النزعة القومية* تُميّز عقيدة وسياسة ونفسية البرجوازية . انها
ايدولوجية تفضيل أمم على أخرى ، وإثارة النعرات القومية ، وتعظيم
المرء لأُمته وتحقيره للأمم الأخرى ، وتغذية الكره العرقي والعداوات
القومية .

ان العنصرية والشوفينية والفاشية والابرتهايد الخ ، انواع شتى ،
أو مظاهر مختلفة ، للنزعة القومية . وكل هذه المظاهر بنات شرعية
للبرجوازية . اذ ان مصدر نشوء النزعة القومية هو الملكية الخاصة لوسائل

* عُد الى الفصل الثاني من الموضوع الاول في هذا الكتاب ، وهو بعنوان «الأمية البروليتارية
والتعصب القومي - سياستان متناقضتان في المسألة القومية» . انظر بالذات موضوع
«البرجوازية والمسألة القومية» .

الانتاج ، وما يترتب عليها من استغلال الانسان للانسان .
البرجوازية مغنية باخفاء وجهها الطبقي القبيح والمبني على أساس
الاستغلال والنهب . لذلك نراها تؤكد على الجانب القومي وتصور نفسها
وكانها ايدولوجية قومية ، لا هم لها سوى «سعادة» الوطن وأبنائه .
يكتب لينين ، كاشفا حقيقة قومية البرجوازية : «ما اكثر ما
يتكلمون اليوم وما يتباهون ويصيحون بصدد القومية والوطن ! الوزراء
الليبراليون والراديكاليون في انجلترا ، وجمهرة من الكتاب الفرنسيين
«المتقدمين» (الذين ظهروا على وفاق مع كتاب الرجعية) وكثرة من
الكتبة الرسميين والكاديت والتقدميين* (وحتى بعض من الشعبين
و «الماركسيين») في روسيا ، يتغنون بألف لحن ولحن بحرية «الوطن»
واستقلاله وبعظمة مبدأ الاستقلال الوطني ، حتى غدا من العسير على
المرء ان يميز ، في هذه الجوقة ، الحد الفاصل بين المأجور الذي يكيل آيات
الثناء للجلاد نيقولاي رومانوف أو لمعذبي الزوج وسكان الهند ، وبين
الآخرق والضيق الأفق الذي يسبح مع «التيار» لبلاسته أو لخور في
نفسه . وليس ما يدعو للتمييز بين هذا أو ذاك . فأمامنا تيار فكري
واسع جدا وعميق جدا ، جذوره على صلة وثقى بمصالح السادة الملاكين
العقاريين والرأسماليين في الأمم المسيطرة في الدولة الكبيرة»^(١٣) .

فالنزعة القومية هي مِطْيَة البرجوازية لحكم وظلم شعبها ، ولاحتلال
وظلم شعوب أخرى . واذ تبرز البرجوازية «المصالح القومية» ، أولا ،
وتنفي أية صلة لها مع مصلحتها الطبقية ، تسعى لضمان سيطرتها على أمتها
بصفتها «الممثل القومي» لأمانيتها . ولم يشهد التاريخ برجوازية اعترفت
بطبقيتها ، بمعنى انها اعترفت بتمثيل مصلحة ١ - ٥ ٪ ، فقط ، من أبناء
الوطن ، وليس مصلحة كل أبناء الوطن . وما من حزب برجوازي إلا
وتحدث ، ويتحدث ، عن «لا طبقية» بنائه وأهدافه . وما من حزب لصوصية
استعمارية ، خاضتها البرجوازية ، إلا وصورتها حرباً قومية للدفاع عن
«الوطن» ومصلحة «الأمة» وأمن «الشعب» .

* الكاديت - حزب البرجوازية الليبرالية الملكية في روسيا القيصريّة . أما «التقدميون» ..
فهم كلمة برجوازية ملكية .

ان عالم البرجوازية ، ونزعتها القومية ، هو عالم الظلم القومي والحروب والمشاحنات والعزلة القومية . وما حديث البرجوازية عن المساواة القومية إلا ذر للرماد في العيون ووعد لا تتعدى حدود الكلام . كذلك حديثها عن أخوة الشعوب . اذ لا يمكن ان تقوم مساواة فعلية ، أو أخوة حقيقية ، على قاعدة استغلال الانسان لأخيه الانسان ، واستغلال أمة لأخرى .

فالنزعة القومية ، - وأفضل القول «القومية» - لتبيان سلبية المعنى المقصود ، سلاح حاد بيد البرجوازية ضد العدالة الاجتماعية والمساواة القومية ، وضد حركة التحرر الوطني . ويصل هذا السلاح إحدى ذرواته في الشوفينية ، شوفينية المحتل أو «الدولة العظمى» أو «الجنس الراقي» . وتساعد النزعة القومية الرأسماليين في تغذية روح العزلة الانحصارية ، وسلخ أبناء شعبهم عن الحركة الثورية العالمية . وتساعدهم الشوفينية على تبرير عدوانيتهم وحروبهم للصوصية ودوسهم للمساواة القومية .

وسبق وأشرنا انه ما من شيء يضر بالتضامن الأممي وبوحدة القوى الثورية ، مثل العداوات القومية . فعن طريق الشوفينية تسعى البرجوازية لطمس الوعي الطبقي للعمال حتى يسهل عليها سوقهم بكراباجها . وحتى تضمن المبررات لسياسة الاضطهاد القومي . أضف الى هذا انها بسياستها ، هذه ، تخلق شوفينية معاكسة ايضاً ، مما يضر بمسألة التلاحم الثوري الأممي ؛ لذلك مهما تلون التعصب القومي ، ومهما تعطر وتبرج ، يبقى خادماً أميناً للبرجوازية . اذ في زرع الشقاق بين البروليتاريا يكمن ، الى حد بعيد ، سر بقاء بأس البرجوازية . فعن طريق استغلال الفروق في القومية والجنس واللون والمنشأ الجغرافي واللغة والدين الخ ، تنجح البرجوازية - ولو مؤقتاً - في جرّ البروليتاريا لعربة سياستها . تنجح في لجم الصراع الطبقي ضدها ، ولو مؤقتاً .

وتشدّ النزعة القومية على التركيب القومي للناس وتعتبره العامل الوحيد في حياتهم . وذلك بهدف طمس التناقضات الطبقيّة داخل الأمة . ويكثر البرجوازية من الحديث عن «وحدة الأمة» - هذه الوحدة التي تنتهك وتفتصب ، مع فجر كل يوم ، في كل مصنع وفي كل ورشة وفي كل مزرعة رأسمالية ، وفي كل جلسة وزارية أو حكومية . ويصل الأمر بالبرجوازية ،

في رعتها القومية . حد تصوير التركيب البيولوجي للناس كمدعاة للعداء القومي . وحتى حد تصوير هذا العداء القومي كمسألة فطرية . وذلك بهدف إخفاء جذر العداء القومي ، ألا وهو انقسام المجتمع الى طبقات . ويستدعي هذا الانقسام الصراع الطبقي ، الذي تخافه البرجوازية كخوف المجرم من العدة . ولذلك تدعى انه «بدعة شيوعية» أو تصدير «لؤامرة استراكية» تهدف الى تأليب الناس على بعضهم البعض والاجهاز على «وحدتهم» القومية افراً : تأليب البروليتاريا على البرجوازية والقضاء على الاستغلال الطبقي .

يقول لينين : «يليق بالبرجوازية تخاشي الاحاديث حول النضال الطبقي ، وتحليله ، ودراسته ، وتعليل السياسية من وجهة نظر هذا النضال . ويليق بالبرجوازية ان تنحي جانباً هذه المواضيع «غير المستطابة» ، «غير اللائقة» ، كما يقال في الصالونات ، وان تمدح «الوحدة» بين «جميع أصدقاء الحرية» . ويليق بالحزب البروليتاري أن لا ينسى النضال الطبقي .
لكل ما له»^(١٤)

* هل يعادي الماركسيون - اللينييون النزعة القومية ، دائماً وعلى طول الخط ، وبغض النظر عن المظهر الذي تظهر به ؟ !
كلا طبعاً . تعادي الماركسية - اللينية ، بنزعتها الأمية البروليتارية ، النزعة القومية البرجوازية ، بمدى كون هذه النزعة تبريراً للتعصب القومي وللشوفينية وللكرهية القومية ولشن حروب الفتح ولسل النضال البروليتاري .

وليست هذه هي الصفات التي تميز النزعة القومية ، دوماً . فالنزعة القومية ، في كفاح حركة التحرر الوطني مثلاً ، تبرز كأيديولوجية وسياسة للنضال ضد الاستعمار ، من أجل الاستقلال الوطني ، السياسي والاقتصادي . ومن أجل سيادة الأمة في بيتها ، وتطويرها الحر . وبناء عليه فالنزعة القومية ، لأمة مظلومة ، تعني النهضة القومية . ولا يتأفف الشيوعيون من دعم النزعة القومية للبرجوازية ، ما دامت هذه البرجوازية تمثل ، في مرحلة معينة ، الأماني الوطنية - القومية ، الديمقراطية ، للأمة . وترفض الماركسية - اللينية النزعة القومية بوجهها البشع . نزعة

برجوازية الأمة الظالمة . او نزعة البرجوازية عندما يكون الوطن قد «غنى أغنيته» وأصبحت القضية ، الموضوع على بساط الحب ، ليس المحافظة على «الوحدة القومية» ، في مقارعة الاستعمار ، وانما تصعيد «الوحدة الطبقية» والنضال الطبقي للبروليتاريا وحلفائها - من فلاحين وبرجوازية صغيرة وفئات متوسطة ، من مثقفين ومستخدمين ... الخ - ضد العدو الطبقي ، على ارض الوطن . وذلك لضمان استقلال وتطور الوطن . ولضمان المصلحة القومية - الطبقية ، لأكثر من تسعة اعشار أبناء الوطن . ان دعم النزعة القومية البرجوازية عندما تكون هذه البرجوازية قد استنفذت دورها التقدمي ، وأصبحت تضحي بالمصلحة الوطنية على مذبح مصلحتها الطبقية في استقلال أبناء الوطن . يعنى دعم الرجعية ومعاداة الديمقراطية والتقدم الاجتماعي . يعنى العداء للمصلحة الوطنية - القومية ، الحقيقية ، للشعب .

يقول لينين ، عن البلدان التي استقلت وسارت في مسار التطور البرجوازي ، انه في هذه البلدان : «حلت المسألة القومية من زمان . والوحدة القومية حلت من زمان . ولا وجود موضوعيا «للمهام القومية العامة» . ولهذا يمكن الآن في هذه البلدان فقط «تفجير» الوحدة القومية ، وإقامة الوحدة الطبقية» . أما في البلدان غير المتطورة ، في المستعمرات وأسباه المستعمرات ، يتابع لينين : «هنا لا تزال توجد ، بموجب القاعدة العامة ، أمم مظلومة وغير متطورة من الاحية الرأسمالية . وفي مثل هذه الأمم لا تزال توجد موضوعيا مهام قومية ، ونعني بها المهام الديمقراطية ، مهام الاطاحة بالنير الأجنبي»^(١٤) .

وهكذا على الثوريين الحقيقيين أن يميزوا بين نزعة قومية رجعية ، وأخرى ذات محتوى تقدمي . بين نزعة قومية معادية للاستعمار ، القديم والحديث ، وأخرى معادية للعمال وخادمة للرأسمال . بين نزعة قومية في مرحلة كون إقامة الدولة كمهمة للحاضر والمستقبل ، ومرحلة كون إقامتها أمرا يخص الماضي .

مرّة أخرى ، عن «الطبقي» و «القومي»

يقودنا الكلام اعلاه ، ثانية ، الى مسألة أولوية المصلحة الطبقية وثانوية المصلحة القومية . تصوّر البرجوازية ، في نزعتها القومية الرجعية ، هذه المعادلة بشكل ميكانيكي بحث . وكأن الشيوعيين يدعون الى هدر المصلحة القومية على مذهب طبقيتهم !

يليق بالبرجوازية هذا التشويه الخسيس . ويحق للبروليتاريا أن تجيب عليه «رمتني بدانها وانسلت» . اذ انه ما من مصلحة طبقية للبروليتاريا تتعارض مع المصلحة القومية الحققة ، والديمقراطية فعلا . وهذا ما كنا قد بيناه سابقا* . ونضيف الآن انه ما من مطلب قومي عادل ، بدءا بالاطاحة بالاقطاع وإقامة الدولة الرأسمالية ومرورا بمقارعة الاستعمار ، القديم والحديث ، والكفاح ضد العنصرية وكل اشكال الاضطهاد والتمييز القومي ، مهما رق ونعم ، الا وكان الشيوعيون ، ممثلو البروليتاريا ، طليعة كفاحية في طرحه ، ووقودا ثوريا لتحقيقه .

ويفهم الشيوعيون «ثانوية» المصلحة القومية بمعنى النظر اليها ، دوماً ، من وجهة مصلحة كفاح البروليتاريا ، لا تقديسها والسجود أمامها ، خصوصا عندما تكون ستارا لضمان المصلحة الطبقية للبرجوازية . لقد «ضحى» لينين ، مثلا ، في فترة معينة «بمصلحة قومية» . وذلك عندما وقع معاهدة صلح ليتوفسك - بريست مع الالمان ، في الحرب العالمية الأولى . هذا الصلح الذي أدى الى «التنازل» عن مقاطعات قومية للالمان . ووصف لينين هذا الصلح بأنه «بائس» و «لصوصي» . لكنه وقعه . لماذا ؟ ! لأن البديل كان أسوأ . ولأن الثورة الاشتراكية كانت لا تزال في المهّد ، بعد . ولأن الخراب الاقتصادي كان عاما والمجاعة منتشرة . ولأنه لم يكن متوفرا ، بعد ، الجيش النظامي للثورة . ولأن الرجعية الداخلية -

* انظر «البروليتاريا والمسألة القومية» في الفصل الثاني من الموضوع الأول ، في هذا الكتاب .

البرجوازية والقيصرية ، وكذلك الامبريالية العالمية ، كانت تصعد من اعماها لخلق الثورة الوليدة . ولأن الثورة كانت بحاجة للحظة تنفس حتى تقف على رجلها ... وبسبب ألف «لأن» أخرى .

لقد كانت القضية الأساسية الحفاظ على الثورة الاشتراكية الوليدة . هذا الحفاظ الذي سيضمن كل المصالح القومية ، بما فيها مصلحة إعادة أجزاء الوطن السليب [وهذا ما تحقق فيما بعد] . أما الاستمرار في الحرب يومها - والتي انتصرت الثورة الاشتراكية في أثنائها - وفي ظل الأوضاع التي سرحنها أعلاه ، فكان يعني بديلا أسوأ . كان يعني القضاء على الثورة الاشتراكية وبلع كل ارض الوطن من المحتلين والبرجوازيين . ولنتصور ، للحظة ، ماذا كان مصير الانسانية بعدها . وأية سنوات إضافية من المعاناة والمآسي ، كانت ستحل بها .

لذلك فحتى هذا المثال الصارخ ، في حدته وقسوته ، لم يكن يعني ، على المدى البعيد ، الا الحفاظ على المصلحة القومية ، عن طريق الحفاظ على المصلحة الطبقية للبروليتاريا .

ان «أولوية» المصلحة الطبقية ، بالمفهوم الماركسي ، مبنية على أساس ان إزالة الظلم القومي ، جذريا ، مرتبط بالنضال الطبقي ضد الإقطاع وضد الاستعمار ، ومن أجل بناء الاشتراكية ، في مرحلة أكثر تقدما . ان هذه «الأولوية» مرتبطة بحرص الشيوعيين على عدم تقرب العمال من برجوازياتهم ، حتى لا يتسنى لها عصرهم عرقا ودما ، بينما هي تردد السعارات الكاذبة عن «الوحدة القومية» .

وتقوم هذه «الأولوية» ايضا على أساس ان ازالة الاضطهاد الطبقي ، هي الكفيل بازالة كل صنوف الاضطهاد والاحتراب القومي . وعلى ان المسألة القومية لا يمكن ان تحل حلا جذريا إلا في ظل الاشتراكية . ان مثال الاتحاد السوفييتي ، بهذا الخصوص ، لم يبق مثالا وحيدا - لحسن حظ المصالح القومية ، ايضا ، للأمم جمعا .

فالماركسية - اللينينية ، بناء عليه ، بعيدة عن تجاهل المصلحة القومية وعدالة الحركات والمطالب القومية الديمقراطية ، بعد الساء عن الارض . على العكس ، فانها تدل على اقصر الطرق وأضمنها لتحقيق ولضمان المصالح القومية . ولذلك ، ومن منطلق الحرص على المصلحة

القومية ، تعادي النزعة القومية البرجوازية الرجعية .
وكنّا قد أسرنا سابقاً ، في فصل «حق تقرير المصير» ، الى ان لينين
أكد على ضرورة الوحدة الأممية للعمال في الرد على التعصب القومي
البرجوازي ، لدى أية قومية من القوميات . واذ بين واجب البروليتاريا
بتأييد حق تقرير المصير ، نبه الى أنه عليها ألا تؤيد جميع المطالبات القومية
التي تطرحها برجوازية الأمم المظلومة ، بغض النظر عن تقدميتها
ورجعيتها . ان رفض حق تقرير المصير ، وكذلك تأييد كل مطلب قومي
برجوازي ، أيّاً كان ، يعني التخلي عن السياسة البروليتارية وإخضاع
العمال للسياسة البرجوازية . يعني التخلي عن الأممية البروليتارية وتبني
النزعة القومية البرجوازية .

ان المصلحة الطبقية للبروليتاريا تتطلب النضال ضد أسلحة المصلحة
الطبقية للبرجوازية . وأحد هذه الاسلحة هو النزعة القومية البرجوازية
الرجعية وتسيدها على «أولوية» المصلحة القومية . والتي تعني ، عملياً ،
التسديد على التعصب القومي ، بهدف ضمان المصلحة الطبقية
للبرجوازية ، والتي هي المصلحة الاولى والأخيرة لديها .

ان الماركسية - اللينينية ، اذ تبرز «أولوية» المصلحة الطبقية ، ترفض
إضفاء السرعة الوطنية على التعصب القومي . ترفض إكساب شعار
البرجوازية بعداً وطنياً عاماً - مدعى وغير موجود أصلاً - عن طريق نفي
طبيعته .

ان «أولوية» المصلحة الطبقية ، من وجهة نظر البروليتاريا ، تعني
الكفاح ضد البرجوازية ، ما دامت البرجوازية تقوم بدور رجعي . لذلك أكد
لينين على ضرورة تأييد جميع المطالبات الديمقراطية التي تطرحها النزعة
القومية للبرجوازية ، محدراً ، في الوقت نفسه ، من الذهاب «أبعد من
ذلك» . لان «أبعد من ذلك» يعني بدء نشاط البرجوازية وتقويتها للتعصب
القومي المرتبط ، ايضاً ، بتسيدها لاستغلال «قوميتها» .

وأضاف لينين بقول : «ينبغي على البروليتاريا ان تخلع كل نير
اقطاعي وان تقضي على كل اضطهاد قومي ، وعلى كل الامتيازات التي
تتمتع بها أمة من الأمم أو لغة من اللغات ، فذلك هو الواجب الملحق
عليها بوصفها قوة ديمقراطية . وذلك ما تقتضيه مصلحة النضال الطبقي

البروليتاري المطلق ، هذا النضال الذي تحجبه وتؤخره الخصومات والنزاعات القومية . ولكن مساعدة النزعة القومية البرجوازية ابد من هذه الحدود ، المحددة بدقة والواردة في اطار تاريخي واضح المعالم ، انما تعني خيانة البروليتاريا والوقوف الى جانب البرجوازية . فهناك خط فاصل غالباً ما يكون دقيقاً جداً»^(١٦) .

وأخيراً ان التناقض الظاهري ، الذي قد يبدو لأول وهلة ، بين «الطبقي» و «الأممي» وبين «القومي» ، سرعان ما يختفي مع تعميق إدراك جوهر ومحتوى المصلحة الطبقية للبروليتاريا ، بصفتها مصلحة الجماهير الشعبية بأسرها .

وعلى الحزب الشيوعي ، كطليعة ثورية للبروليتاريا ، ان يجسّد في برنامجه وكفاحه وبنائه ايضاً ، هذه العلاقة الدايالكتيكية بين «الطبقي» و «الأممي» و «القومي» . ان رفع المطالب «الطبقية» والتنكر للمطالب «القومية» ، أو إبراز المطالب «الأممية» وتجاهل المطالب «القومية» الديمقراطية ، ليس فقط غريباً عن السياسة الشيوعية وإنما منافياً لها ، ايضاً . فالكفاح من أجل تحقيق المطالب القومية العادلة جزء لا يتجزأ من الكفاح من أجل القضاء على الرأسمالية وبناء الاشتراكية . وجزء لا يتجزأ من ضمان الوحدة الأممية ، لأبناء مختلف القوميات . أما انتصار الاشتراكية فانه الضمان الأكيد لتعزيز الوحدة الأممية ولتحقيق كل الأمانى القومية . هذه هي رؤية الماركسية - اللينينية للعلاقة بين «الطبقي» و «الأممي» و «القومي» . وكل رؤية أخرى تصوّر ان التناقض بين هذه المسائل ، لدى البروليتاريا ، هو تناقض عدائي ، منافية للماركسية . فالتناقض العدائي قائم ، فعلاً ، بين المصلحة الطبقية للبرجوازية وبين المصالح القومية والطبقية للجماهير الشعبية . هذا ما تعرفه البرجوازية جيداً : ولذلك تكثّر من متاجرتها «بالقومجيات»

وطنية البروليتاريا وحلفائها وقومية البرجوازية الخيانية

* موضوعية وعلمية التقسيم الطبقي
□ الثورة التي أحدثها كارل ماركس

* حقيقة قومية البرجوازية .

* وطنية العمال وحلفائهم .

□ عن الوطن وعن

الدفاع عن الوطن .

موضوعية وعلمية التقسيم الطبقي

بناءً على كل ما سبق تنضح سخافة محاولات خلق التناقضات العدائية المصطنعة بين المصالح الطبقية والأمية للبروليتاريا ، وبين المصالح القومية للشعوب .

لذلك ليس فقط لا يخفي الشيوعيون وحلفاؤهم توجههم الطبقي والأمني ، وإنما يجاهرون ويعتزون به . فهذه ليست تهمة بحقهم وإنما شهادة شرف لهم تضعهم الى جانب العلم ، نابذين كل الشعوذات الرجعية المعادية للحقائق العلمية ، المعادية للوقائع الموضوعية ، المعادية للمصالح الوطنية . لتفحص ، مثلاً ، كيف يمكن تقسيم البشرية على أساس علمي . سنجد ، عندها ، انه مهما قدحنا زناد فكرنا لن نجد من تقسيم علمي إلا التقسيم الطبقي . ان تحالف القوى الثورية العالمية الثلاث في عصرنا الراهن ، العالم الاشتراكي وحركة الطبقة العاملة في العالم الرأسمالي وحركة التحرر الوطني ، ضد القوى الامبريالية والرجعية ، على الصعيدين العالمي والمحلي ، هو دليل إضافي على ان التقسيم الطبقي تقسيم صادق ليس على الصعيد الوطني ، فحسب ، وإنما على الصعيد العالمي أيضاً .

فما من سياسة لدولة ما ، أو لحركة سياسية ما ، إلا وهي سياسة طبقة ما . ان العالم الاشتراكي يختلف عن العالم الرأسمالي ، بسياسته ومواقفه ، ليس قومياً وإنما طبقياً . وتعادي الامبريالية حركة التحرر الوطني ليس بناء على تركيبها القومي ، وإنما طبقياً . والذين يقفون في المعسكر الامبريالي - الرجعي ، من شتى القوميات ، هم الأعداء الألداء ، طبقياً ، لشعوبهم ولقومياتهم - أولاً وقبل كل شيء !

لقد حاولت الفلسفة الرجعية ، على مر العصور ، تقسيم البشرية على أسس منافية للعلم . وورثت البرجوازية رجعية هذه الفلسفة على مر العصور . فقسّمتها ، وتقسمها مثلاً ، على أساس الجنس : «الجنس الآري» ، «الجنس السلافي» ، «الجنس السامي» ... الخ ، أو على الأساس القومي : «الأمريكيون» ، «الفرنسيون» ، «الروس» ، «العرب» ، «اليهود» الخ ، أو على أساس المنشأ والموقع الجغرافي : «الاوروبيون» ، «الآسيويون» ، «الافريقيون» ، الخ ، أو على أساس اللون : «السود» ، «البيض» ، «الصفّر» ... الخ ، أو على الأساس الديني : «المسيحيون» ، «المسلمون» الخ ، وإلى ما شابهها من تقسيمات أخرى . ومن المفيد ان نذكر ان غلاة الرجعيين ، من مالكي العبيد واقطاعيين ورأسماليين وامبرياليين ، وفاشين وصهيونيين وسائر الرجعيين ... الخ ، هم ، هم ، الذين تبنوا هذه التقسيمات الرجعية ورفضوا ، وأنكروا ، التقسيم الطبقي . ان قياصرة وملوك وحكام العالم القديم ، في الشرق والغرب ، من آل رومانوف الى حكومة جلالتها في بريطانيا ، من آل سعود الى آل هاشم الى المشيخات الى السادات ، من ريغن الى بيغن الى سائر حكام امريكا واسرائيل ، من سوموزا الى شاه ايران المخلوع ومنه الى هيلاسلاسي ، من النازيين الالمان ، الى الفاشيين الايطاليين الى العسكريين اليابانيين ... الخ ، الخ . جميعهم ، جميعهم تغنى بالقومية وأنكر الطبقة ! لذلك فان خدّمهم الصغار من برجوازيين ، أو مرتزقة يدعون تمثيل البرجوازية الصغيرة - مثلاً ، الحركة «التقدمية» في اسرائيل - لم يأتوا بأي جديد عندما انكروا ، وينكرون ، التقسيم الطبقي . ان «الحديد» الوحيد الذي أثبتوه هو أنهم يقفون الى جانب الرجعية ، قديمها وحديثها . وما من سلاح بيد هذه الرجعية ، ويبد هذه المرتزقة ، لمحاولة إخفاء وجهها الرجعي البشع ، افضل من سلاح المتاجرة القومية .

انها امبريالية نتنة وصهيونية بشعة ورجعية - «ساداتية» مقيتة ، وليست بوطنية حديثة ، هذه المتاجرات القومية . لقد بدأ الارهابي الامريكي ، القابع في البيت الابيض ، بتسكير الشوفينية الامريكية سوية مع تسكير العدوانية الامبريالية . وطرح بن غوريون شعار «من الطبقة الى الشعب» ، سوية مع بدء تعميق الطريق الخياني للمصالح الوطنية للشعب ،

سوية مع تعميق ربط البلاد ، اكثر فاكثر ، بمخططات الامبريالية
الامريكية . وبدأ السادات بالتشديد على «مصرية» مصر و «عروبة مصر»
و «اخلاق القرية» و «أبنائي أولاد العائلة الواحدة» سوية مع بدء طريقه
الخياني لمصر ولعروبة مصر ، ولقرى وعائلات وأبناء مصر ، سوية مع اعادة
الاعتبار لفلول الاقطاعيين ولكبار البرجوازيين المصريين .

ثم ان التقسيمات الرجعية كانت ، دائما ، غطاءً للعنصرية وللشوفينية
ولتبرير الاطماع الامبريالية ، أو لتبرير الارتباط بها ، ولتشديد الاستغلال
الطبقي ايضا . فمثلا : «الجنس الالماني الراقي» ، «المانيا فوق الجميع» ،
«شعب الله المختار» ، «اوروبا المتحضرة مقابل آسيا المتوحشة» ، «كل
العرب إخوة» ، «كل اليهود إخوة» ، «كل المسيحيين إخوة» ، «كل المسلمين
إخوة» ، «لا للاحقاد الطبقيّة» الخ .

وبعد ، لقد عجزت جميع النظريات المنافية والمنكرة للتقسيم الطبقي
عن الثبوت علمياً . وتكشف ، ويتكشف ، جوهرها وهدفها الرجعي ،
خصوصاً أمام التناقضات والاحترابات والخلافات داخل التقسيم الواحد
نفسه . مثلاً داخل الاوروبيين أو الآسيويين ، المسيحيين أو المسلمين ،
الفرنسيين أو العرب ، السود أو البيض الخ . وتؤكد الصراعات
الداخلية والاحترابات والانتفاضات والحروب الأهلية ، والحروب العدوانية
وهوية مشعلها ، وطبيعة التحالفات الوطنية وعلى الصعيد العالمي ، وغابة
الاحزاب المتناقضة على الصعيد الوطني الواحد في المجتمع الطبقي ، ...
الخ ، ما بيّنه ماركس وانجلس في «بيان الحزب الشيوعي» من أن تاريخ
المجتمع ، ما عدا تاريخ المساعية البدائية ، هو تاريخ صراع بين الطبقات .

والأ كيف يستطيع ، مثلاً ، دعاة هذه التقسيمات المنافية للحقائق
العلمية الموضوعية ، ان يفسروا الانتفاضات والثورات الوطنية ضد العبودية
أو الاقطاع أو البرجوازية ؟ ! أو كيف يفسرون لنا ، مثلاً ، هذا الاستغلال
والظلم البشع ، في النظام الرأسمالي ، لأبناء القومية والجنس والطائفة
الواحدة ؟! أو كيف يفسرون لنا ان الطبقة الحاكمة الفرنسية الكاثوليكية
علقت المشانق لثوار باريس الفرنسيين الكاثوليك ، ونالت تضامن وتأيد
الطبقة الحاكمة البريطانية البروتستانتية ، والروسية القيصرية

الاورودكسية الخ . بينما كان عمال وفلاحو بريطانيا وروسيا يتضامنون مع ابطال كومونة باريس ؟!

نم لماذا نتعد بعيداً ، وأمام أعيننا نرى كيف تلتقي الرجعية العربية ، من ملكية وبرجوازية خيانية ، أسوية وأفريقية ، اسلامية ومسيحية ، مع المخططات الاستعمارية الامريكية والاوروبية ومع الصهيونية الاسرائيلية اليهودية ، ضد الحقوق الوطنية للشعوب العربية - (وكذلك ضد المصالح الحقيقية لشعب امريكا وللشعوب الاوروبية وللشعب في اسرائيل) - وعلى رأسها حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره . فما من مأساة مرّت ، وتمر ، على هذا الشعب (العربي الفلسطيني) إلا وكان سببها هذا الثالوث الدنس : الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ، بما فيها الرجعية الفلسطينية !

ولهذا فان الوطن ، في المجتمع الطبقي الاستغلالي ، ليس مليناً بالوطنيين فقط . وإنما بأعداء الوطن ايضاً . ان اسقاط الاعداء «الوطنيين» الداخليين ، والذين يتسترون بالقومجيات ، هو أحد أهم المهمات الوطنية - الاجتماعية لتعزيز استقلال الوطن ولضمان المصالح القومية لأبناء الوطن .

وترفض الماركسية - اللينينية ، هنا ، تلك التفسيرات الميكانيكية ، القومية السطحية والمثالية ، التي تحاول الصاق تهمة «عميل» بكل رجعي محلي ، وذلك استمراراً في رفض نهج التقسيم الطبقي . لا أحد ينكر وجود العملاء المأجورين الذين تشتريهم الامبريالية واحتكاراتها . ولكن ، مثلاً ، بن غوريون وأنور السادات ، في الأمس ، وشمعون بيرس وحسني مبارك اليوم ، ليسوا بالضرورة موظفين عملاء ، بالأجرة ، لدى ريغن ومن سبقه من رؤساء . وإنما هم يمثلون مصالح طبقات وشرائح طبقية رجعية تتحكم في بلادهم وتلتقي ، طبقياً ، مع مصالح الامبريالية الامريكية والرجعية العالمية . وإلا لنسأل هذا السؤال : عميل من يكون الرئيس ريغن ، عندها ، بناء على هذه التفسيرات السطحية ؟! ان ريغن ، يبقى هو الآخر ، ممثل الطبقة البرجوازية الاحتكارية والتي تسيطر على الولايات المتحدة الامريكية . وهي العدو الوطني الرئيسي للشعب الامريكي نفسه .

الثورة التي أحدثها كارل ماركس

وحده العملاق كارل ماركس ، استطاع ، وبالاتماد على التطور الاجتماعي والفكري لعصره ، ولعصور خلت ، أن يجد التفسير العلمي للتاريخ بناء على وجود الطبقات والصراع الطبقي وتقسيم البشرية على هذا الأساس العلمي . فحل بهذا معضلة عجز عنها كل سابقه وان كانوا مسوها ، أو كادوا يقتربون منها . وشكل ماركس ، بهذا الاكتشاف ، ثورة في علوم التاريخ والاقتصاد والاجتماع ندر مثلها على مر التاريخ . لقد انطلق ماركس من أن الانتاج المادي هو الظاهرة الأساسية للحياة الاجتماعية والتي تتوقف عليها اية ظاهرة أخرى . وبناء عليه يجب تقسيم الناس ، ليس حسب لون البشرة أو القومية أو الدين ... وإنما حسب الموقع الذي يشغلونه في نظام الانتاج المادي ، أي حسب موقعهم من وسائل الانتاج . هل يملكونها ويستغلون الغير أم لا يملكونها ويستغلون من قبل الغير ؟ !

وبين ماركس ان تاريخ المجتمعات البشرية الطبقيه هو تاريخ صراع بين الطبقات ، بين المستغلين والمستغلين . وان الطبقة التي تسيطر اقتصاديا هي التي تسيطر سياسيا وتبني نظاما ودولة ودستورا واخلاقا ومفاهيم وفقا لمصلحتها الطبقيه ، ويهدف ضمان سيطرتها الطبقيه . وتدعي في الوقت نفسه ، ان مصلحتها الطبقيه هي مصلحة الأمة - هي المصلحة العليا لأبناء القومية الواحدة ككل .

لقد وجد مفكرون ، قبل ماركس ، لاحظوا وجود الطبقات المتصارعة في المجتمع . أما الجديد والثوري الذي أحدثه ماركس ، مُشكلا بهذا ثورة عملاقة في هذا المجال ، فقد عبر عنه في رسالة الى يوسف فيديماير ، بتاريخ ٥ آذار ١٨٥٣ ، إذ كتب يقول :

«... فيما يخصني ليس لي فضل اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع المعاصر . ولا فضل اكتشاف النضال فيها بينها . فقد سبقني بوقت طويل مؤرخون برجوازيون بسطوا التطور التاريخي لهذا النضال بين الطبقات ،

واقتصاديون برجوازيون بسطوا تركيب الطبقات الاقتصادي . وان الجديد الذي اعطيته يتلخص في اقامة البرهان على ما يأتي : ١ - ان وجود الطبقات لا يقترن إلا بمراحل تاريخية معينة من تطور الانتاج . ٢ - ان النضال الطبقي يفرض بالضرورة الى ديكتاتورية البروليتاريا . ٣ - ان هذه الديكتاتورية نفسها لا تعني غير الانتقال الى القضاء على كل الطبقات والى المجتمع الخالي من الطبقات ...

وهكذا فان اكتشاف وجود الطبقات وصراعها الطبقي ليس أمراً يخص الماركسية . والماركسية ، إذ أقرت هذه الحقيقة الموضوعية والعلمية ، اتبعتها بثلاثة اكتشافات علمية جديدة وهي :

* أولاً ان الطبقات ليست أزلية . أي انها لم تنشأ منذ الأزل . ولقد عرف المجتمع الانساني عصراً خالياً من الطبقات وصراعها ، ألا وهو عصر المشاعية البدائية . فالطبقات ظاهرة اجتماعية تاريخية نشأت في مرحلة معينة من التاريخ الانساني ، على أساس نمو انتاجية العمل وظهور النتاج الاضافي لحاجة الانسان . حيث اصبح من الممكن ومن المفيد استثمار الانسان للانسان . فظهور الطبقات ارتبط بتطور الانتاج وبالحاجة لتقسيم العمل . وعصر ولادة المجتمع العبودي هو عصر ولادة المجتمع الطبقي وفناء المجتمع اللاطبقي - مجتمع المشاعية البدائية .

* ثانياً : ان وجود الطبقات المتناقضة وصراعها ، سيؤدي ، في نهاية المطاف ، الى ديكتاتورية البروليتاريا ، الى حكم الطبقة العاملة .

* ثالثاً : ان حكم الطبقة العاملة يؤدي الى القضاء على جميع الطبقات - بما فيها الطبقة العاملة ! - والى بناء المجتمع اللاطبقي ، المجتمع الشيوعي .

بناء على ما تقدم تبدو سخافة اتهام الشيوعيين بأنهم يقسمون القومية الواحدة الى طبقات متحاربة ويشيرون داخلها الحزابات والصراعات والاحترايات ، بدلاً من أن يوحدها على أساس قومي واحد . ● أولاً ، ليس الشيوعيون هم الذين أوجدوا الطبقات وصراعها . كما ان غاليليو ليس هو الذي ألزم الارض بالدوران . ان عبقرية ماركس ، كعبقرية غاليليو ، تكمن في اكتشاف ما هو موجود . ان مطالبة الشيوعيين بتجاهل ما هو حقيقة واقعة ، أفرزها التطور التاريخي للمجتمعات البشرية ،

لا يقل سخافة عن مطالبة طالب الرياضيات بالاعتقاد ان خمسة ضرب خمسة يساوي منه ، مثلاً ! أو عن سخافة اتهام غاليليو «بحريرة» دوران الارض !
● ثانياً : لا يُقدّس ولا يُخلد الشيوعيون وجود الطبقات وصراعها . ان الذي يُقدّس هذا الأمر ويسعى الى الابقاء عليه ويفسّخ القومية الواحدة ويجعل الصراعات تتآكلها ، هم ، هم ، مدّعو الوحدة «القومية» ومعاداة الطبقة ، من أبناء الطبقات المستغلة الحاكمة . أما الشيوعيون فيسعون ، بكل ما يميزهم من تصميم ومثابرة ، وهذا هو قدس اقداس أهدافهم ، الى تسريع عملية التطور التاريخي ، الحتمي ، للقضاء على الطبقات ولبناء المجتمع الخالي من الطبقات . وبهذا يقدمون أسمى خدمة لأبناء قوميتهم ولكل القوميات !

وتبرز ، على هذه الخلفية ، حقيقة تصرف كارل ماركس وفريدريك انجلز حال انضمامهما الى «عصبة العادلين» سنة ١٨٤٧ . لقد أصراً على تغيير إسمها الى «عصبة الشيوعيين» والى تغيير شعارها المركزي من «كل بني البشر إخوة» الى شعار «يا عمال العالم اتحدوا !» .

لقد قاما بهذا ليس لأنها لا يؤمنان بأخوة بني البشر ، كما يحلو للمفكرين البرجوازيين ان يتشددوا . وانما على العكس تماماً . اذ انها يؤمنان ، حتى النخاع ، بأخوة بني البشر . ويسعيان الى استعادة هذه الأخوة ، التي سلبت في ظل المجتمع الطبقي . ان ماركس وانجلز ينفيان وجود هذه الأخوة على أساس استغلالي . ينفيان أخوة الفارس والفرس ، المستغل والمستغل ، المستعمر والمستعمر .

ان ماركس وانجلز بطرحهما ، جانباً ، ذلك الشعار المثالي عن أخوة كل بني البشر ، ابرزوا الشعار الثوري الحقيقي - يا عمال العالم اتحدوا - هذا الشعار الكفيل بتحقيقه ان تتحقق أخوة بني البشر . انه شعار الأخوة الحقيقية لكل بني البشر . الأخوة الثورية (الأممية) لجميع القوميات . الا وهي أخوة جميع الشغيلة المستغلين في نضالهم للقضاء على الاستغلال ولبناء المجتمع الخالي من كل صنوف الاستغلال ، المجتمع الشيوعي - مجتمع أخوة جميع بني البشر .

هكذا ، وهكذا فقط تتحرر جميع القوميات كلية من الاستغلال والتمييز الطبقي والقومي الخ .

كانت هذه الآراء ، في سنة ١٨٤٧ ، حُلماً ثورياً . لكنها اليوم أصبحت حقيقة بارزة في عالمنا هذا - عالم الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . ان «الشبح» الذي «يجول في اوروبا» ، والذي تحدث عنه ماركس وانجلس في مستهل «بيان الحزب الشيوعي» ، أصبح قوة دولية جبارة ليس في اوروبا فقط ، وانما في كل قارات كرتنا الارضية . وتكفي المراقب الموضوعي ، اليوم ، ولو مقارنة عابرة بين ما قدمته ، وتقدمه ، الثورات الاشتراكية لقومياتها ، وبين ما آلت اليه الثورات القومية البرجوازية ، بما فيها الثورات الفرنسية والبريطانية والامريكية ، ثورات «العدل والأخوة والمساواة» (!؟) ، حتى يقتنع انه ما من طريق آمن وأضمن لصيانة الحقوق القومية من طريق الطبقة العاملة .

ان «طبقية» و «أممية» البروليتاريا ليس فقط لا تتعارضان مع المصالح «القومية» وانما عن طريق النضال الطبقي وربط مصيرها بمصير الحركة الثورية العالمية ، يمكن تحقيق أسمى المصالح القومية . وتعرف البرجوازية هذه الحقيقة . ولذلك تسعى لاختفاء وجهها الطبقي وللتأكيد على قوميتها وعلى تمثيلها لمصالح القومية ككل مع انها تمثل مصلحة الطبقة الاقلية ضد مصالح غالبية أبناء قوميتها .

وعلى العكس منها ، تقف البروليتاريا مؤكدة ومبرزة وجهها الطبقي . لأنه ليس عندها ما تخجل منه لتخفيه . اذ ليس لها من مصلحة خاصة الا مصلحة أبناء قوميتها ، انها لا تملك وسيلة الانتاج التي تسمح لها بمص دماء شعبها . وانما هي ، المحرومة من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، تسعى لإقامة مجتمع خالٍ كلياً من هذه الملكية التي هي أساس كل البلايا والشرور الاجتماعية . لذلك بتحررها من حكم البرجوازية ، تحرر كل أبناء قوميتها من هذا الحكم وما يترتب عليه من مأس وشرور . فهل هنالك من مصلحة قومية أسمى وأنبى من مصلحة تحرر هذه القومية من مستغليها - من برجوازياتها ؟ !

وهل هنالك مصلحة قومية أسمى من مصلحة منع تقديم أبناء القوميات المختلفة ، قرايين على مذبح الحروب الاستعمارية والعدوانية ، لصالح المصلحة الطبقيّة للبرجوازية ؟ !

حقيقة قومية البرجوازية

لنتفحص ، على ارض الواقع ، هذه الشنشة والطنطنة البرجوازية بخصوص إخلاصها القومي - الوطني مقابل «كوسموبوليتية» الشيوعيين ، كما تدعي .

لم يعرف التاريخ الانساني من خونة وأعداء للمصالح القومية الحقيقية أكثر من البرجوازية ، في مرحلة غروها وتعفنها ، والتي تشدق بحرصها على هذه المصالح . انها تعادي ، أول ما تعادي ، أبناء قوميتها . إذ انها تستغلهم وتبني ثرواتها الفاحشة على حساب حياتهم ولقمة أطفالهم . فالفقر والاستغلال والجوع والبطالة والتضخم المالي وسباق التسلح والحروب العدوانية والاستعمار والجريمة والضياح الخ ، هي بنات شرعيات لحكم البرجوازية . هذا عدا العنصرية والتمييز والاضطهاد القومي والطائفي . ويكفي البرجوازية خزيًا وعارًا ان الفاشية والنازية والديكتاتوريات العسكرية والصهيونية ، هي الأخرى بنات شرعية لها . انها من نتاجها ومن بعض وسائلها التي تلجأ لها ، عند الحاجة ، لضمان استمرارية سلطتها كطبقة .

ان تاريخ الرأسمال ما هو إلا تاريخ الدماء والعنف والنهب وفرض التخلف . وما من مصلحة «قومية» ، أو «وطنية» ، لدى كبار اصحاب الرأسمال ، أهم من مصلحة الربح والمزيد من الربح ، حتى لو أدى هذا الأمر الى فرض التخلف والمجاعة على أغلبية أبناء الوطن القومي أو أبناء الاوطان المستعبدة . لقد أحبَّ ماركس ان يردد ، جملة ت. ج. دبونينغ ، البريطاني ، والتي جاء فيها : «ان الرأسمال يخاف من انعدام الربح ، أو من ربح مفرط في القلة ، كما تخاف الطبيعة الفراغ . ولكن ما ان يظهر ربح كاف حتى يزداد الرأسمال جراً . فاذا تأمن ربح بنسبة ١٠٪ ، اشتغل الرأسمال في أي مجال كان . ٢٠٪ ، تنشط . ٥٠٪ تملكه الاستعداد لتكسير الرؤوس . ١٠٠٪ ، داس بالاقدام جميع القوانين البشرية . ٣٠٠٪ ، ليس ثمة جريمة لا يجازف بارتكابها حتى لو قادته الى جبل المشنقة» .

واضاف ماركس ، ايضا ، : «اذا كانت النقود ، على حد قول اوجيه ، «ترى النور بلمطخة دم على الخد» ، فان الرأسمال المولود حديثا ينزف دما واقدارا من جميع مسامه ، من الرأس حتى اخمص القدمين»^(١٨) .

ولم ، ولا تتورع البرجوازية ، هذه الحريضة على «المصالح القومية» ، حتى عن تقديم اجساد ودماء أبناء قوميتها طعاما لمدافع جشعها الطبقي . فكم من حرب اشعلتها ، ولا تزال تشعلها ، هذه البرجوازية ، منذ فجر صعودها ؟ مئات الحروب الرهيبة بملايين الضحايا ، عدا الخراب الاقتصادي والاجتماعي الذي احدثته هذه الحروب . وتكفي الاشارة هنا الى مسؤوليتها عن الحربين العالميتين الاولى والثانية والى الخطر الحالي من قبلها باشعال حرب نووية تحرق الاخضر واليابس وتحيل الانسانية وحضارتها الى رماد رهيب .

والبرجوازية عاجزة عن حل أية مشكلة قومية حلاً جذرياً ، حتى بما فيها مشاكل الاقليات القومية . خصوصاً وأنها أصبحت عاجزة ، في عصرنا الراهن ، عن اللجوء الى أسلوب «الحل» على الطريقة الامريكية - أسلوب إبادة الهنود الحمر . ان الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وفرنسا والمانيا الاتحادية واسرائيل وتركيا والعراق ... الخ ، اعجز حتى عن حل مشاكل التمييز القومي بخصوص اقليات وشعوب ، كالزنوج أو الايرلنديين أو الارمن أو العرب أو الاكراد وغيرهم ، ممن يعيشون في تلك البلدان . ولعله من المفيد التذكير بممارسات هؤلاء البرجوازيين «القوميين» و «الوطنيين» ، خصوصاً في وقت الملمات ، وعندما يتهدد الخطر مصلحتهم الطبقيّة . لقد تعاقدت البرجوازية الفرنسية مع المحتل الالماني وفتحت أمامه أبواب باريس للقضاء على الكومونة . وواصلت هذه البرجوازية ، هذا الطريق القومي «المشرف» ، حتى في الحرب العالمية الثانية ، عندما انهارت باريس في بضعة ساعات أمام هتلر ووضعت هذه البرجوازية مفخرة فرنسا القومية - الفرساي - تحت اقدمه والبست جنودها بزته العسكرية ولسان حالها يقول : «هتلر ولا الجبهة الشعبية» ! وبالمقابل كان الشيوعيون وحلفاؤهم قد بدأوا حرب الانصار !

ثم لتفحص ممارسات البرجوازية ، حتى فيها يسمى «العالم الثالث» .

انها ليست على الاستعداد ، فقط ، لمص خيرات بلادها وقوميتها وإنما على الاستعداد ، حتى ، للتفريط بالاستقلال القومي ، ولربط اقتصادها بعجلة الاقتصاد الرأسمالي الغربي . انها على استعداد ، ايضا ، للتفريط بلغات شعوبها وثقافتها القومية وتقاليدها التراثية أمام العفن البرجوازي الغربي - الرأسمالي ، والثقافة الغربية ، ثقافة «السيكس» الرخيصة ، و «الكاوبوي» والحشيش والعنف الامريكي .

ومهما تشدقت برجوازية «العالم الثالث» بالقوميات ، تبقى القضية الاساس ما هو موقفها الطبقي من هذه القضية الوطنية أو تلك ؟ ان حرص بعض هذه البرجوازيات ، في العالم الثالث ، على ضرب الشيوعيين ، الطبقيين والأمن ، - «مفسخي الوحدة القومية» ، كما تدعي - يتناسب طرديا مع استعداد هذه البرجوازيات للتفريط بالمصالح الوطنية - القومية ولعقد المصالحات والمساومات الخيانية مع الاستعمار ، قديمه وحديثه . ان تغليب المصالح الطبقية ، لهذه البرجوازيات ، عن المصالح الوطنية العامة ، هي التي تستدعي ضرب الحركة الثورية للطبقة العاملة . لأن هذه الحركة هي العقبة الكأداء أمام التفريط بالاستقلال القومي وبالمصالح القومية ، على مذبح الجشع البرجوازي .

لقد عرى الكاتب السوري التقدمي ، حنا ميناء ، في روايته «الشمس في يوم غائم» ، العهر القومي للبرجوازية . اذ سخر ، بعنف ، على لسان أحد ابطاله من تشدق البرجوازية بحرصها على قوميتها وارض وطنها ، فقال ما معناه : لو كان بإمكان البرجوازية اقتلاع ارض الوطن ، وترحيلها بالسفن أو الطائرات ، لبلاد أخرى تضمن فيها ربحا أفضل ، لما توانت عن هذا . ولكن مشكلتها ان ارض الوطن لا تنقل . فهذا هو الرابط الوحيد بين البرجوازية ووطنها - رابط استغلال ارض الوطن وأبنائه .

وكنا قد أشرنا سابقاً ، في أثناء بحث مثال ايرلندا ، وعلى لسان أحد البرجوازيين الايرلنديين ، الى ان البرجوازية تكون على استعداد لبيع وطنها ، اذا احتاج الأمر ذلك . وتكون سعيدة لأن لديها ما يُباع ! ألم تبع القيصريّة الروسية ، للبرجوازية الامريكية ، ولاية ألاسكا ؟! ألم يبيع بعض رجال الاقطاع وبعض البرجوازيين الفلسطينيين أجزاء من فلسطين ، قبل ال ٤٨ ، وبعد ال ٦٧ ، للحركة الصهيونية ؟ !

وطنية العمال وحلفائهم

إننا الى جانب تأكيدنا لهذه الحقائق ، ابعد من أن نفع في التطرف «اليساري» . فنحن لا ننكر ان للبرجوازية بالذات مآثر قومية ذات توجه ديمقراطي ، قَدَرناها عالياً ووقفنا الى جانبها ، نحن الشيوعيين . ونقصد الدور التقدمي ، بل الثوري ، الذي قامت به البرجوازية عن طريق الاطاحة بنظام الاقطاع وبناء الدولة القومية البرجوازية . وكذلك قيام البرجوازية ، في عدة دول وخصوصاً في العالم الثالث ، بقيادة حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار وبحقيق استقلال البلاد .

لقد مثلت البرجوازية ، في هاتين المهمتين ، فعلاً ، مصلحة القومية ككل . لأن المصلحة الطبقية للبرجوازية توافقت مع المصلحة القومية للاطاحة بنظام الاقطاع أو بالاستعمار . لقد ساهم الشيوعيون ، دائماً ، في هذه المعارك الطبقيّة والقومية العادلة وكان العمال والفلاحون هم الوقود الأساسي لهذه المعارك ، رغم ان القيادة فيها كانت للبرجوازية . فالشيوعيون على استعداد ، مع طبقتهم ومع حلفائهم ، لأن يكونوا وقود معارك تأتي للحكم بطبقة أخرى ستعاديهم على المدى التاريخي ، اذا كانت هذه المعارك تدخل في اطار المصلحة القومية . ولا يتنافون أبداً من المشاركة في معركة عادلة ليسوا هم قادتها .

فهل توجد طبقة غير طبقة العمال والفلاحين وحلفائهم من المثقفين الديمقراطيين على استعداد لمثل هذا العمل ؟ وهل يوجد حزب سياسي غير حزب الشيوعيين على استعداد للتصرف مثل هذا التصرف المتفاني في خدمة القضية القومية ؟ !

لقد كان الشيوعيون الصينيون يخوضون حرباً طبقيّة مظفرة ، ضد برجوازية بلادهم ، عندما تعرضت البلاد للغزو الياباني . فما كان من الشيوعيين إلا أن اسرعوا للتحالف مع برجوازية بلادهم لطرد المستعمر . بينها برجوازية فرنسا تحالفت مع المستعمر لقمع انتفاضة الكومونة . ان مطاردة الشيوعيين ، أو تجاهل دورهم ، ابان أوائل حكم عبد الناصر وحتى

ابان تفجّر ثورة الجزائر ، واليوم من قبل هذا الفصل أو ذاك في حركات التحرر الوطني العربية ، بما فيها الفلسطينية ، لم ولن يمنعهم من أن يكونوا في طليعة المقاتلين والمكافحين شجاعة وتفانيا ووحدة صف ، ضد العدو الرئيسي وفي سبيل حل التناقض الرئيسي .

هكذا يتصرف الشيوعيون رغم معرفتهم بمحدودية ثورية بعض حركات التحرر القومي البرجوازية . لقد قدم شرقنا العربي اكثر من مثال عن محدودية هذه الثورية ، التي سرعان ما كانت تنتهي حال اعلان الاستقلال القومي واختيار لون العلم القومي وكلمات وألحان النشيد القومي . وكثيرا ما تنتهي هذه الثورية ايضا الى أنظمة تقدمية لكنها وسطية ومتذبذبة في مواقفها بما فيها المواقف القومية ، تبعا لتذبذب طبيعة البرجوازية المتوسطة والصغيرة .

واليوم ، رغم تقديرنا العالي لعمق وصدق وطنية عبد الناصر ، هل يمكن أن نتجاهل أي نظام أفرزته الطبقة المعشعشة في الحكم حتى أيام عبد الناصر ، بعد وفاته ؟ ! ثم لقد وصل الناصري الى الحكم بفضل دعم الشيوعيين . ولكن حالما أحس بالخخطر على مصلحة طبقته من تعمق مسار الثورة تكشف وجهه الآخر جزارا لشعبه وقومه وبائعا لمصالح وطنه على مذبح الامبريالية . كذلك في ممارسات «البعث» القومي والوحدوي والاشتراكي ، في العراق أو سوريا ، دون تجاهل الفوارق الواضحة ، نجد العبرة لكل من يريد أن يعتبر .

ومن مفارقات الأمور الدالة في هذا الاطار ان البعث العراقي نما وترعرع واقام تنظيمه واستطاع طباعة حتى جرائده ومناشيريه ، قبل وصوله الى الحكم ، بفضل دعم الشيوعيين العراقيين ذوي المؤسسات الثورية السرية الرائعة التنظيم . وها هو بعث العراق ، اليوم ، يعلق اعواد المشانق للشيوعيين . لهؤلاء الذين قبلوه ورعوه لكي يكون حليفا قوميا لهم في نضالهم العادل . وبالمقابل يبرز مثال اليمن الديمقراطي ، حيث تعمق مسار الثورة ، طبقيا ، وهكذا ضمنت قيادة اليمن استمرارية الثورة واستمرارية ضمان المصلحة القومية .

ان العمال وحلفاءهم ليس فقط لا يرتبون ، كالبرجوازية ، أمام اتساع وتعمق مسار ثورة التحرر الوطني ، وإنما هم المعنيون بهذا . وهم

متحررون من أية أوهامٍ طبقيّة مريضة بخصوص خطط ومؤامرات وأهداف الاستعمار ، ولذلك لا يضيّعون القضية القومية على موائده . ولا يوقفون الثورة (تذكر ثورة ١٩٣٦ في فلسطين) لأن حكومة جلالتها - البريطانية - وعدت الشعب النائر بدولة !

ولا يساوم العمال وحلفاؤهم على -مبدأ حق تقرير المصير مع برجوازية الأمة الظالمة . وإنما يدعمون برجوازية بلادهم الوطنية في طرح هذا المطلب . ويتخطونها عندما تخونه . ويصونونه عندما يحققونه ، عن طريق تعميق انثورة ، في اتجاه التحرر الاجتماعي - الضمان الأكيد للاستقلال الوطني الأكيد .

وبحقق العمال وحلفاؤهم ، بفضل أمميتهم وثورتيتهم ، الصادقة ، اوسع الدعم الأممي للمطالب الوطنية لشعوبهم من قبل الحلفاء الطبيعيين لها وأبرزهم العالم الاشتراكي . وغريبة عن أممية العمال المصالحة مع أدنى عنصرية أو أقل تمييز قومي .

وتبرز ، في هذا الاطار ، عظمة الحلول التي يقدمها عالم العمال - عالم الاشتراكية ، للمسألة القومية . لقد بنت الدول الاشتراكية مجتمعات العدل الاجتماعي والرخاء للجميع ، بغض النظر عن الجنس أو القومية أو اللون أو الدين . وصانت الاستقلال الوطني وطوّرت الثقافة القومية - الوطنية ، ووحدت حتى بين مائة قومية وشعب ، في اطار وطن اشتراكي واحد . ولم يشعل عالم الاشتراكية حروباً «قومية» عدوانية ، بل لجم اشعال حروب وأطفا أخرى اشتعلت . وقدم اسخى المساعدات الاقتصادية والعسكرية والسياسية والثقافية لكافة الشعوب والقوميات المكافحة من أجل التحرر الوطني والسلام والتقدم الاجتماعي .

ولا يسعنا إلا ان نشير الى ان بعض الدول الاشتراكية ، التي حدثت فيها بعض السلبات المنافية لطبيعة المجتمع الاشتراكي ، كانت بالذات تلك الدول التي انحرفت عن البوصلة الطبقيّة - الأممية في رؤية الحلول لمشاكل العصر ، وغدت بالمقابل التوجه القومي البغيض .

وبآتي ، بعد كل هذه التجارب الغنية ، عالمياً وشرقاً وأوسطياً وغرباً ، من يجزؤ على الطعن بقومية الشيوعيين وعلى التغني بقومية البرجوازية مقابل وضد أممية الشيوعيين ! لا . لا يمكن محو التجربة التاريخية بوضع شعارات

منفوخة . ولا يمكن لأحد أن يبرئ البرجوازية العربية ، مثلاً ، في هذا الشرق العربي ، من الهزيمة تلو الهزيمة التي جرّتها على شعوبنا العربية . فكم من جريمة ارتكبتها الفئات الرجعية من البرجوازية العربية بحق حل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً ، منذ الانتداب البريطاني وحتى اليوم ؟ ! ان هذه الرجعية ، التي تتشدد يوماً بالخطابات «القومية» ، كانت على استعداد ، دائماً ، لتقبل اسرائيل محتلة وللتأمر معها شريطة حفظ مصلحتها . لقد أشيعتنا هذه الرجعية خطابات عن «قومية» المعركة حتى لعق السادات غبار أحذية الاحتلال في القدس العربية المحتلة . وعجزت هذه البرجوازية النتنه حتى عن اعلان التضامن الفعلي ايان الحرب العدوانية الاسرائيلية على لبنان - حزيران ١٩٨٢ . وكان جل همها قمع تحرك جماهيرها .

هكذا تصرّفت ايضاً في أثناء الرد على الحروب العدوانية الاسرائيلية المتكررة ضد الدول والشعوب العربية المختلفة . وهكذا تصرفت في أثناء الغارة الاسرائيلية الهمجية على مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية وعلى الأحياء السكنية في تونس ، وفي أثناء العدوان الارهابي الامريكي على ليبيا . والقائمة اطول من أن نهي تعدادها .

وكلما كانت الولايات المتحدة الامريكية تصفع الشعوب العربية ، وبصفاقة ، «بالقيتو» تل «القيتو» في مجلس الأمن ، وتبصق في وجه حلفائها من البرجوازيين «القومجيين» العرب - أعداء الشيوعيين ، الأيمن والطبقيين «المثحررين» من الكرامة القومية (؟ !!) - كلما كان هؤلاء الحلفاء القومجيون يمسحون «الندى» و «العطر» الامريكي ويتحدثون عن الخطر السوفييتي . أما اذا كان «القيتو» الامريكي بخصوص إدانة الجرائم الاسرائيلية في المسجد الاقصى فان الرد «القومي» للرجعية العربية عندها ، يكون : تصعيد اقراءات وكالات الأنباء الغربية ، والامريكية منها خاصة ، في الصحف والاذاعات العربية «القومية» ، عن «المس الخطير» بحرمة المساجد في افغانستان !

وفي المقابل تبرز وطنية العمال العرب واحزابهم الطليعية وحلفائهم ، الذين يكافحون من أجل تعميق الديمقراطية في دولهم ومن أجل ضمان أوسع وحدة وطنية ممكنة ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية ، لتحقيق

الاستقلال الوطني الحقيقي ولتعميق مساره ولضمان كافة المطالب القومية -
الوطنية الديمقراطية .

لذلك لم يتجنَّ أميل حبيبي على الشعوب العربية ، ولم يتخلَّ عن
كرامته الوطنية عندما سخر من الرجعية العربية ، في «لكع بن لكع» قائلا ،
على لسان «بدور» : «دم دا دم واحد ، ذات رسالة خالدة» ، «جهل
جهل واحد ، ذات رسالة خالدة» ، «بلع بلع واحد ، ذات رسالة
خالدة» ، «خرس خرس واحد ، ذات رسالة خالدة» ، «حبس حبس
واحد ، ذات رسالة خالدة» ، «شقق شقق واحد ، ذات رسالة خالدة» .
انها كلمات مفعمة بحب الوطن !

وقبله كان الديمقراطي الروسي تشيرنيشيفسكي ، والذي عاش في
زمن القيصرية ، قد قال عن أمته : «أمة وضيفة ، أمة عبيد ، الجميع عبيد من
اعلى الى اسفل» . ورغم حدة هذه الكلمات وقسوتها ، فلقد رأى فيها
لينين ، «كلمات حب صادق للوطن» .

وأمام الهزيمة تلو الهزيمة ، والتي جرّتها الرجعية العربية على شعوبها ، لم
يكن بإمكان الشاعر سالم جبران إلا أن يرى في الطبقة العاملة العربية المنقذ
الوطني . فخطب عمال الشعوب العربية قائلا :

«علاق هذا العصر

هَبْ اطلع النصر

فكل السابقين اطلعوا الهزيمة»

أما اتحاد الشباب الديمقراطي اليمني ، فيُشد : «ما بحميها ، ما
بحميها ، إلا عمالها وفلاحها» .

ولكن ، رغم هذا ، لم نقل في يوم من الايام ان القيادات البرجوازية
الوطنية في العالم العربي قد استفذت كل دورها . وان المعركة الأساسية الآن
ليست ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية وإنما ضد هذه القيادات
بل نحن نريد لهذه القيادات ان تواصل معركتها ، وستلقى منا كل الدعم ،
في عدائها للاستعمار وللصهيونية وللرجعية .

ولكن ، في الوقت نفسه ، لا يحملنا أحد جريرة ممارسات هذه
القيادات . ولا يطالبنا أحد ، تحت غطاء الوحدة القومية الكاذبة ، ان نتخلّى

عن بوصلتنا الطبقية وعن اعتقادنا الراسخ بان قياداتنا ، القيادات العمالية البديلة ، لو كانت في الحكم ، لكانت استطاعت تجنب شعوبنا الكثير من المآسي وتحقيق أكبر المنجزات في أقل ما يمكن من الوقت وأقل ما يمكن من الضحايا .

ومن دواعي اعتزازنا ان قادة قوميين حقيقيين ومن المتفانين في خدمة شعوبهم وقومياتهم وصلوا ، خلال المعارك ، الى هذه الحقيقة ، رغم انهم انتموا في البدء الى الطبقة البرجوازية منشأ وفكرا . لقد تبني فيدل كاسترو الماركسية - اللينينية خلال النضال . وتعمق لديه هذا التبني حين أحس ، بحسه القومي الشريف ، ومن خلال التجربة ، ان هذه الطريق افضل الطرق واقررها لكوبا ولشعبها . وهكذا كانت ايضا طريق قادة الثورة في اليمن الديمقراطي . وهذه هي طريق آلاف المثقفين ، على بقعنا الارضية ، والذين لم يتركوا ضربا ايدولوجيا الا وجربوه . ولكنهم وجدوا ضالتهم ، أخيرا ، في الفكر الطبقي ، الأممي - الشيوعي . ويسعدنا أن فصائل معينة لمنظمة التحرير الفلسطينية تتحسس هي ايضا هذه الطريق .

ويبرز على هذه الخلفية مثال القائد الفيتنامي الفذ هوشي مين ، كتب يقول : «في البداية كانت وطنيتي ، وليست شيوعيتي ، هي التي قادتني الى لينين ... وفيما بعد ، حين درست الماركسية - اللينينية ، بتمعن ، وصلت الى النتيجة ان الاشتراكية والشيوعية ، وحدهما ، تستطيعان تحرير الأمم المغلوبة على أمرها وكل الشغيلة» .

عن الوطن وعن «الدفاع عن الوطن»

كثيراً ما يلجأ مفكرو البرجوازية وسائر خدمها ، في محاولة يائسة منهم لإثبات «تنكر» الشيوعيين للمصالح الوطنية والقومية ، الى أمثلة ومواقف ماركسية - لينينية كلاسيكية ، لا يفقهون منها شيئا ، أو الاصح : يزورونها عمداً . ومثال ذلك قول ماركس وانجلس ، في «بيات الحزب الشيوعي» ، «ليس للعمال وطن» . أو رفض لينين شعار «الدفاع عن الوطن» ، في أثناء الحرب العالمية الأولى .

ومن المفيد التذكير ان هذا ليس اختراعاً برجوازيّاً حديثاً . اذ ان ارداء القياصرة والملوك وغلاة الرجعيين ، من اقطاعيين وبرجوازيين ، «لاكوا» هذه الفرية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واستنفذوها ، تكراراً ونسخاً سخيفاً ، في العقد الثاني من القرن العشرين .

نعم ، لقد قال ماركس وانجلز «ليس للعمال وطن» . ولكن ماذا قصدوا بهذا ؟ !

«الوطن» - هو البيئة السياسية والاجتماعية التي يعيش ويعمل الشعب ، في ظلها . انه ظاهرة اجتماعية - تاريخية ، هي محصلة مجمل جوانب حياة المجتمع ونشاطه ، من علاقات اجتماعية ومنظومة سياسية وقيم روحية . ومن مواصفات الوطن ايضاً الارض واللغة .

ومجري تحديد الطبيعة الاجتماعية - السياسية للوطن بناء على العلاقات الاجتماعية السائدة فيه ، والتي تقررّها الطبقة السائدة . لذلك نستطيع الحديث عن وطن عبودي ، أو اقطاعي ، رأسمالي ، أو اشتراكي - مثلاً .

بناءً على ضوء هذا التفسير العلمي ، أعلاه ، لم يقصد ماركس وانجلز ان العمال لا يهتمهم الوطن ولا يتميزون بالكرامة الوطنية ولا بحب الوطن ، ولا يعينهم مصيره - كما تتشدد البرجوازية المستعدة ، لبيع أو شراء الاوطان ! وإنما قصدوا ابراز حرمان العمال من اوطانهم ، سلبهم اوطانهم - من قبل البرجوازية .

«ليس للعمال وطن» ، بالمفهوم الماركسي - اللينيني ، تعني : ان العمال بناء الوطن ومنتجو مجمل الخيرات المادية ، محرومون من الوطن وخيراته . ويعيشون في اغتراب ، في اوطانهم . فالبرجوازية ، في الوطن الرأسمالي ، هي التي تملك الوطن وتحرم بناته من خيراته ، وتستغلهم ابشع استغلالاً ، وتستعملهم طعاماً لمدافع حروبها التوسعية - بحجة الوطن ومصلحة الوطن .

و «ليس للعمال وطن» - تعني ، ايضاً ، ان العمال سيسعون الى امتزاج الشعوب وتوحيد اوطانهم . لقد اورد ماركس وانجلز هذه الجملة ، في اطار الرد على بعض الاتهامات بحق الشيوعيين بخصوص مواقفهم ، وتفسير المعنى الحقيقي لهذه المواقف . ومن جملة هذه الاتهامات الرغبة في

الغاء الوطن والقومية . وفَسَّرَ ماركس وانجلس ، هذا الأمر ، بقولها ان البرجوازية تقيم حرية التجارة والسوق العالمية وتخلق التشابه بين شروط المعيشة في مختلف البلدان . وتزِيل ، بهذا ، يوماً بعد يوم ، الفواصل الوطنية . أما البروليتاريا ، فعندما تستولي على الحكم ، ستسرع من هذه العملية . وبازالتها للاستثمار داخل الأمة الواحدة ، ستزيل استثمار أمة لأخرى . وبازالتها للتناحر الطبقي في قلب كل أمة ، تزيل العداء والحقد بين الأمم . وبهذا تخلق القاعدة لامتزاج قوميات واطنان الشعوب ، في مرحلة انتصار الشيوعية ، عالمياً .

إذن لم يقصد ماركس وانجلس ، أبداً ، ان مصير الوطن لا يهم الشيوعيين . ولم يدعوا الشيوعيين لخيانته ، كما تفترى البرجوازية - أكبر خائن للوطن في التاريخ المعاصر . وإنما قصدا ان الطريق الوطني للعمال هو طريق الاطاحة ببرجوازية بلادهم وتحرير الوطن منها ، حتى يصبح الوطن ملك أبنائه - بنياته ، لا ملك مستثمريه ومستغلي أبنائه . وكتب ماركس وانجلس ، رأساً بعد قولها انه «ليس للعمال وطن» ، ان «البروليتارية ... وطنية ، ولكن ليس بالمعنى البرجوازي لهذه الكلمة» . ان وطنيتها تعني استيلاءها على السلطة السياسية ، وتحريرها للوطن من البرجوازية ، وارتفاعها الى «وضع الطبقة التي تمثل الأمة ، وان تصبح هي الأمة» . «ليس للعمال وطن» ، اذن ، لا تعني انه غريب عن الطبقة العاملة وطلبتها الثورية - الشيوعيين - شعور المسؤولية تجاه الوطن ، ومشاعر الكرامة الوطنية . وإنما تعني وطنية رفيعة وسامية ، وطنية بروليتارية تؤكد على ضرورة التضامن الأنمي - الطبقي للاطاحة بمستغلي وخونة وبائعي الوطن ، وبناء الوطن الحر والعزیز ، بالنسبة لأبنائه . وطن لا يلتهم أبنائه ولا يُلقي بهم في متاحات الاغتراب . وإنما وطن ، يملكه أبنائه ويعتزون بالانتماء اليه !

ولم تخجل الأنظمة الاقطاعية والبرجوازية ، في حينه ، من اختراع هذه الفرية الساقطة ، رغم الجهد العملاق الذي بذله ماركس وانجلس وسائر قادة واعضاء «الأهمية الاولى» ، دفاعاً عن حرية وتقدم اوطانهم . لقد ساهم انجلس ، مثلاً ، حتى في حرب فدائية . وحمل السلاح ليس لتحقيق الاشتراكية ، وإنما لتحقيق دستور برجوازي - ديمقراطي لبلاده ، بدلاً من

الدستور الرجعي ، الاقطاعي - البرجوازي . وكيف يمكن أن يُتهم بعدم حب واحترام اوطان الشعوب - أولئك الذين منحوا كل حياتهم لتحقيق عزة وكرامة اوطان الشعوب ، ونصروا أبعد واصغر الشعوب الآسيوية والافريقية ، في كفاحها الوطني العادل ، من أجل تحرير اوطانها من الاستعمار ؟!

أما ان تردّد البرجوازية ومرترقتها ، هذه ، الفرية ، اليوم - في نهاية القرن العشرين ، وبعد التجارب الغنية للشعوب ، والكفاح الوطني لأبنائها الشيوعيين ، فيثبت ليس فقط سخافة وضحالة الافتراءات البرجوازية ، وانما ايضا تمادي هذه البرجوازية في افتراءاتها كلما تمادت في خيانتها الوطنية .

ان البطولات الوطنية التي اجترحها الشيوعيون السوفييت ، في معارك الحرب العالمية الثانية - ومعركة ستالينغراد والصمود الاسطوري ، في حصار لينينغراد ، لمدة ثلاث سنوات - ومعارك ابراهيم الانصار ، في كل بقعة من العالم وطأتها الاقدام النازية ، ومعارك مواصي طريقهم في كوبا واليمن الديمقراطي ، في الفيتنام وانغولا ، في موزامبيق ونيكاراغوا ، ... الخ ، الخ . ، بينت ليس فقد الحرقه الوطنية للشيوعيين ، وانما ايضا مدى سعادة وضمان أمن ومصلحة الوطن ، اذا ما تأتى لهم ولحلفائهم قيادة المعارك الوطنية .

وهذا ما يثبته الشيوعيون وحلفاؤهم ، يومياً ، في كفاحهم الوطني - الاجتماعي العنيد والمثابر ، في كل بقعة في العالم الرأسمالي ، وما يسمى «بالعالم الثالث» . اذ لا يجري في عروق العمال إلا حب الوطن والسعي لسعادته ولتحرره من كل مغتصبه ، الاجانب و«الوطنيين» المحليين . ولا يجري في عروق الرأسماليين الاحتكاريين والبرجوازيين الكبار والفئات الخيانية من البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، إلا حب استغلال الوطن ، والفحش في هذا الاستغلال .

* «الدفاع عن الوطن» :

أما بخصوص رفض لينين لشعار «الدفاع عن الوطن» ، في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فلقد كان المنطلق ، ايضا ، حب الوطن وضمان

مصالحه الحقيقية . لقد رفض «الدفاع عن الوطن» - من منطلق الدفاع عن الوطن !

اذ ان الحديث يجري عن الحرب العالمية الأولى ، وعن الموقف الذي على البروليتاريا ان تتبناه ، في هذه الحرب . ولا يمكن تحديد هذا الموقف الا اذا جرى تحديد جوهر الحرب المقصودة .

تؤكد الماركسية - اللينينية انه لا يمكن فصل السياسة الخارجية عن السياسة الداخلية . فتلك استمرار لهذه وان الحرب هي استمرار للسياسة ، بوسائل أخرى . فالحرب هي انعكاس للسياسة الداخلية ، وترتبط بالنظام السياسي الذي تنبع عنه . وبناء عليه ان ما يحدد مضمون وجوهر الحرب ليس البيانات الرسمية ، ولا حتى من بدأ الحرب ، وأين تقف الجيوش المتصارعة ، وانما لأي غرض تخاض ؟ ومن هي الطبقة التي تخوضها ؟ وما هي سياسة هذه الطبقة ، التي تعتبر الحرب استمراراً لها ؟ واجملاً ما هي السياسة التي أدت الى اشتعال الحرب ؟

هكذا يتم تحديد المحتوى الاجتماعي - السياسي ، لأية حرب كانت . وبناء عليه حدد لينين مضمون الحرب العالمية الاولى كحرب امبريالية لصوصية ، برجوازية ، لتقسيم المستعمرات ولتعيين من من الضواري الامبريالية سيظل وسيستغل أما أكثر ، وسينهب اسواقاً وبلدانا أكثر ، وسيستعبد شعوباً أكثر . انها حرب «شقاوة رأسمالية» و «استمرار لسياسة الفتوحات» . انها حرب «مالكي عبيد يتشاجرون من أجل دوابهم» - وفق تعبير لينين .

وشبه لينين هذه الحرب ، ايضاً ، بحرب فريقين من قطاع الطرق لاقتسام الغنيمة ورأى فيها استعداداً للعبيد الأجراء من أمة ما ، على العبيد من أمة أخرى ، لصالح البرجوازية وسعيها للربح . كذلك رأى ان أحد أهداف هذه الحرب هو قمع الحركة الثورية والديمقراطية ، للبروليتاريا ولجماهير الشعب ، هذه الحركة المتنامية في عقر دار الدول الامبريالية . ولذا رفض لينين شعار «الدفاع عن الوطن» في هذه الحرب ، مبيناً انه ليس للبروليتاريا وللجماهير الشعبية من مصلحة فيها . ليس لها من مصلحة في ان تتقاتل ، على طرفي المتراس ، لصالح جشع البرجوازية ونهمها الاستعماري .

ان شعار «الدفاع عن الوطن» ، والذي رُوِّجَ له البرجوازية والقيصرية ، في حينه ، قصد منه التستير على جوهر الحرب وتصوير الحرب الامبريالية للصوصية كحرب دفاعية عادلة . وقصد منه ، كذلك ، تسعير الشوفينية والقومية لاستعداد الشعوب على بعضها البعض ، حتى يسهل استمرار ظلمها واستغلالها ، وحتى لا تفتح أعينها على العدو «الوطني» - القابع في عقر دارها ، ألا وهو الأنظمة الامبريالية التي اشعلت هذه الحرب .

ثم ان تلك الحرب ، لم تكن دفاعاً عن وطن ما ، أو قومية ما . وانما كانت دفاعاً عن حق البرجوازية في ظلم أكثر من قومية وأكثر من وطن . لذلك فان «الدفاع عن الوطن» في هذه الحرب ، ما هو الا شعار خادع ورجعي يهدف الى توطيد سيادة البرجوازية .

ولذلك فان غالبية قادة «الأمية الثانية» ، الذين أيدوا «الدفاع عن الوطن» ، بل وتحدثوا حتى عن «النزعة الدفاعية للثورة» للجماهير ، قد خانوا مبادئ الاشتراكية والأمية ، في زمن الحرب . وهذا حكموا على «الأمية الثانية» بالافلاس . ان الحديث «عن نزعة دفاعية ثورية» للجماهير ، ما هو إلا تزيين لمسألة خداع الجماهير من قبل البرجوازية ، في تلك الحرب . فليست بعض فئات الجماهير المخدوعة هي التي تحدد طبيعة الحرب ، وانما العلاقات والاهداف الطبقية - السياسية ، التي أدت اليها . ولكن ، مع هذا ، رفض لينين المساواة بين «النزعة الدفاعية» الساذجة ، لدى بعض الفئات الجماهيرية ، وبين الاهداف الامبريالية الرجعية التي توختها البرجوازية ، من وراء تسعيرها لشوفينية «الدفاع عن الوطن» . وتحدث لينين عن «دفاعية نزهة» ، سببها عدم اطلاع فئات من الجماهير الشعبية على اسرار السياسة . وعدم معرفتها ان تلك الحرب تخوضها الحكومات ، وان الحكومات ما هي إلا هيئات اركان لمصالح الطبقات ، وانه ما من مصلحة لأحد في هذه الحرب ، عدا الرأسماليين اللصوص .

وطالب لينين ، في تلك الحرب ، بدفاع من نوع آخر . بدفاع حقيقي عن الوطن . اذ كتب يقول : «لا يمكن «الدفاع عن الوطن» الا عن طريق النضال بجميع الوسائل الثورية ضد الملكية والملاكين العقاريين

والرأسماليين ، في وطننا ، اي ضد ألد أعداء وطننا . لا يمكن للروس ان «يدافعوا عن الوطن» ، عن غير طريق الرغبة في هزيمة القيصرية في كل حرب ، باعتبار ذلك أهون الشرين لتسعة اعشار سكان روسيا . لأن القيصرية لا تظلم تسعة اعشار السكان ، هذه ، اقتصاديا وسياسيا ، وحسب . بل هي تفسدهم وتحقرهم وتفقدهم عزتهم وكرامتهم ايضا ، اذ تعودهم على ظلم الشعوب الأخرى ، وتغطية عارهم بعبارات نفاق ، يزعم ان منشأها الغيرة على الوطن»^(٢٠) .

وبناءً عليه ، ومقابل الشعار الرجعي «الدفاع عن الوطن» ، تبنت البروليتاريا الثورية شعار لينين : «اعلان الحرب على الحرب» . وكان هذا الشعار يعني ، ليس فقط رفض المشاركة في الحرب اللصوصية ، بحجة «الدفاع عن الوطن» ، وانما توجيه السلاح ضد الحكومات الرجعية الامبريالية واسقاطها . أي توجيه سلاح البروليتاريا ، ليس ضد فصيل بروليتاري آخر يقف على الطرف الآخر من المتراس ، في هذه الحرب الامبريالية ، وانما ضد العدو «الوطني» ، على ارض الوطن - قيصرية وملكية وبرجوازية الوطن ، أي تحويل الحرب الامبريالية الى حرب وطنية - أهلية ، ضد البرجوازية . وفعلا نجح الحزب البلشفي في قيادة وتحقيق حرب وطنية - طبقية ، كهذه ، وذلك بتحقيق انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى ، ابان الحرب .

هذا هو الدفاع عن الوطن ومصالحه ، في نظر طبعة البروليتاريا ، وليس عسكرة اقتصاد الوطن وحرق ثرواته وأبنائه وبناته في حرب لصوصية . ولتوضيح المسألة أكثر ، نتساءل : هل نقبل ونبرر مشاركة الجماهير اليهودية في الحروب العدوانية لحكام اسرائيل ضد الشعب العربي الفلسطيني والدول العربية ؟ ، وبحجة «الدفاع عن الوطن» وعن «أمن» الوطن ؟ ! هل نقبل حجة حكام اسرائيل ، بان حروبهم العدوانية هي حروب دفاعية عن الوطن ؟ ! طبعا لا . وبناء عليه فان المهمة الوطنية للقوى الثورية والديمقراطية ، في اسرائيل ، هي محاربة سياسة وعدوانية حكام اسرائيل بصفتهم أعداء للوطن ايضا ، اضافة الى كونهم أعداء للشعب العربي الفلسطيني والحركة التحرر الوطني العربية ، وخدما للاستعمار ومخططاته .

ولذلك فان رفض «الدفاع عن الوطن» ، في حرب امبريالية عدوانية ، هو شعار وطني من وجهة نظر شعوب الأمم الظالمة ومصلحتها ، وهو شعار ثوري - أممي بالنسبة لشعوب الأمم المظلومة . اذ ان هذه الشعوب احوج ما تكون للتضامن الأممي من قبل أبناء الأمم الظالمة . وهذا ما جسده الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، في شعاره : «مع الشعوب العربية ضد الاستعمار ، وليس مع الاستعمار ضد الشعوب العربية» . انه شعار أممي - وطني ، في الوقت نفسه . وهكذا كان ، ايضا ، شعار لينين بخصوص «اعلان الحرب على الحرب» ، ورفض المشاركة في حرب عدوانية .

ولم يتخل العمال الروس عن كرامتهم الوطنية عندما اعلنوا «الحرب على الحرب» ، وانما صانوها وعززوها . اذ «ان مصلحة كرامة الروس القومية تتفق ، [ان لم تفهم كما يفهمها العبيد] ، ومصالح البروليتاريين الروس ، [والبروليتاريين من غير الروس] الاشتراكية»^(٢١)

* هل يعني هذا الكلام ان البروليتاريا تقف ضد «الدفاع عن الوطن» ، في كل الاحوال ؟ !

لا ، طبعا . اذ يجب التفريق بين الحروب العادلة والحروب الرجعية . ان كل حرب عادلة دفاعا عن الوطن ، وفي سبيل حريته وحق تقرير مصيره وتقدمه الاجتماعي ، هي حرب وطنية من وجهة نظر البروليتاريا . والبروليتاريا مدعوة ليس فقط للمشاركة فيها ، وانما مستعدة ايضا لتجنيد اوسع الفئات لها ، ومستعدة كذلك لأن تكون وقودها . اذ غريب عن الماركسية - اللينينية تلك الدعوات الاخلاقية العامة ، التولستوية (نسبة الى تولستوي) أو «المسيحية» الليبرالية ، والتي تدعو الى المسالمة العامة وعدم المشاركة في الحروب ، مهما كان طابعها . تتعنى البروليتاريا ، طبعا ، ان لا تقع أية حرب . وان لا يُسفك أي دم . وهي تريد القضاء على البرجوازية ، لا القضاء الجسدي على البرجوازيين . بل ومستعدة لأن تقبر البرجوازية على نغم السيمفونيات وان تضع فوق قبرها - كسلطة اقتصادية - باقة ورد حتى ، كما قال أنجلوس . ولكن ليس بالتعني يجري حل المسائل الاجتماعية - السياسية . والأمر ليس منوطا بالبروليتاريا ، وانما بالبرجوازية التي تشعل الحرب العدوانية ، تلو الحرب العدوانية ، والتي ترفض ، غالبا ، التنازل عن السلطة إلا بقوة السلاح .

فتنظر بهذا البروليتاريا لاشهار السلاح ، ولخوض معارك الدفاع عن الوطن .

ان رفض «الدفاع عن الوطن» ، في الحرب العالمية الاولى ، كان رفضاً للدفاع عن مصالح امبريالية . ولم يكن ، أبداً ، يعني رفض الدفاع عنه في أية حرب كانت ، بما فيها الحروب في عهد الامبريالية - مثلاً حروب حق تقرير المصير .

لقد رفض لينين ، في حينه ، تلك الآراء «اليسارية» والتمسحة «بالماركسية» ، والتي قللت من أهمية الحروب القومية - الوطنية ضد الامبريالية ، لتحقيق الاستقلال الوطني ، بحجة انه لا يجوز «الدفاع عن الوطن البرجوازي» . ووصل بعض حاملي هذه الآراء الى حد رؤية التناقض بين رفض لينين لشعار «الدفاع عن الوطن» ودعوته «لحق تقرير المصير» . اذ ان كل حق تقرير مصير - هو دفاع عن الوطن .

وتصدى لينين لهذه الآراء الرجعية ، واصفاً أصحابها بأنهم «خون للاشتراكية» و «شوفينيون من أدنى صنف» . وبين ان طليعة البروليتاريا ليست ، على العموم ، ضد الدفاع عن الوطن . وليست ببراء من شعور الكرامة القومية . وانما هي مفعمة بهذا الشعور ولذلك هي ضد «الدفاع عن الوطن» في حرب امبريالية ، ومع «الدفاع عن الوطن» في حرب عادلة . وبناء عليه فان طرح مسألة «الدفاع» ، يجب أن يكون طرحاً تاريخياً عينياً وملموساً . عن اي حرب يجري الحديث ؟ ! اننا ضد حروب الاضطهاد القومي ، ولكننا مع حروب التحرر القومي . ضد الحروب العدوانية للصوصية ، ومع الحروب الدفاعية النزيهة لدحر اللصوص . يقول لينين : «ان الحرب هي استمرار للسياسة . ولهذا ما دام النضال يقوم من أجل الديمقراطية ، فمن الممكن ان تقوم الحرب من أجل الديمقراطية . ان حق الأمم في تقرير مصيرها ليس غير مطلب من المطالب الديمقراطية ، لا يختلف مبدئياً ، في شيء ، عن المطالب الأخرى . ان «السيادة العالمية» هي ، اذا تكلمنا بايجاز ، فحوى السياسة الامبريالية ، التي الحرب الامبريالية استمرار لها . ان انكار «الدفاع عن الوطن» ، أي الاشتراك في الحرب الديمقراطية ، هو سخافة لا تمت بأية صلة الى الماركسية . ان تزيين وجه الحرب الامبريالية بتطبيق مفهوم

«الدفاع عن الوطن» عليها ، أي بتصويرها حرباً دفاعية ، يعني خداع العمال ، والانتقال الى جانب البرجوازية الرجعية»^(٢٢)

ان البرجوازية هي التي لا تدافع عن الوطن . اذ ان شرائح منها مستعدة ، حتى قبل استقلاله ، لأن تضييعه على مائدة المفاوضات مع برجوازية الأمة الظالمة . وهي غير مستعدة لفقدان املاكها وثرواتها ، على مذبح الاستقلال ، اذا استدعى الأمر ذلك . وهي مستعدة ، بعد استقلاله حتى ، لأن تبيعه ... ولأن تلحقه بالاحتكارات الاجنبية . وهي تخاف من تعميق الديمقراطية الداخلية ومن تسليح الجماهير ، أحياناً ، في حرب دفاعية عادلة ، لأنها تخاف من مبادرة الجماهير ومن خطر اعتيادها على التحدي والمقاومة . وبعضها يخاف ثمن الصمود والمواجهة ، ويفضل الاستكانة والمؤامرة ، شريطة ان يحفظ عرشه واطيانه ومصانعه .

ولا حاجة بنا للتذكير وللمقارنة بين حرب حزيران ١٩٦٧ وبين حرب المقاومة الشعبية ، ابان العدوان الاسرائيلي على لبنان ، في حزيران ١٩٨٢ . فاطفال (الآر. بي. جي.) ولاجنو المخيمات ومعذبو الارض ومسحوقو المدن والارياف ، كانوا أشد بسالة واسطع وطنية واشجع مقاومة من كل جنرالات وضباط برجوازية ال ١٩٦٧ ، من خريجي الكليات العسكرية ومن مالكي الطائرات والدبابات الراقية وكافة الاسلحة الحديثة !

ولا حاجة للتذكير بقصة محمد علي طه ، «عائد المعاري يبيع المناقش في تل الزعتر» ، والتي جاء فيها ، على لسان الطفل الفلسطيني : «ثيتامي ، ثيتامي - انت وراك هانوي ، وانا وراي حرامي» ! فهناك البروليتاريا وحلفاؤها من الجماهير الشعبية ، والتي تستبسل دفاعاً عن الوطن . وهناك فئات برجوازية تسرق وتتاجر بالوطن ، وتتهم الشيوعيين «باللاوطنية» ! ما دام الوطن قائماً ، وما دام الخطر يترصص به وما دامت توجد قضايا وطنية على بساط البحث ، قد لا تحلها الا الحروب والمشاركة فيها ، فان البروليتاريا ستكون ، دائماً ، في طليعة المدافعين عن الوطن .

يقول لينين : «غير ان المفاهيم العامة والمجردة ، كمفهوم «اللاوطنية» هي مفاهيم لا قيمة لها البتة من وجهة نظر الماركسية . ان الوطن والأمة هما طوران تاريخيان . واذا كانت القضية ، في زمن الحرب ، قضية الدفاع عن الديمقراطية ، أو قضية النضال ضد نير يظلم

الأمة ، فأنا موافق على هذه الحرب كل الموافقة . وأنا لا أخشى كلمات «الدفاع عن الوطن» ، عندما تنسب الى حرب أو انتفاضة من هذا النوع . يقف الاشتراكيون ، على الدوام ، الى جانب المظلومين فلا يمكنهم ، إذن ، ان يكونوا خصوم الحروب ، متى كان هدفها النضال الديمقراطي أو الاشتراكي ضد الظلم»^(٢٣) .

وأخيراً ، لقد حاول بعض «اليساريين» وبعض «الانتهازيين» نسخ موقف لينين من «الدفاع عن الوطن» ، في الحرب العالمية الأولى ، ابان الحرب العالمية الثانية . ووقفت «الأممية الثالثة» ، بزعامة ديمتروف ، لمثل هؤلاء ، بالمرصاد . وبين غيورغي ديمتروف ان هذا نسخ لنصية الماركسية وحرفيتها ، وبعيد عن فهم روحها الثورية ، ونكران لضرورة التوجه التاريخي ، العيني - الملموس . انه تبني للميتافيزياء ، للميكانيكية ، بدلا من تبني الدايالكتيك .

اذ ان رفض شعار «الدفاع عن الوطن» في الحرب العالمية الاولى ، كان تصرفا وطنيا وشيوعيا صادقا ، بحكم طبيعة تلك الحرب : أما رفض هذا الشعار ، في الحرب العالمية الثانية ، فانه تصرف لا وطني ومعادٍ للشيوعية . اذ ان هذه الحرب ليست حرباً بين معسكرين برجوازيين ، يرغبان في اعادة اقتسام العالم . وانما هي حرب بين دكتاتورية البرجوازية ، في اعنف صورها - الفاشية ، وبين شعوب وأنظمة العالم ، بما فيها أنظمة البرجوازية الديمقراطية والاتحاد السوفييتي . وواجب الشيوعيين ، في هذه الحرب ، أن يشددوا من الكفاح ، دفاعا عن الوطن ، الى جانب برجوازية بلادهم لدحر الفاشية وللدفاع عن الديمقراطية والسلام . وهكذا كان !

- ١ . لينين ، «المبادرة الكبرى» . المختارات في عشرة مجلدات . المجلد التاسع . ص : ٤٠ .
- ٢ . ماركس وانجلس ، «بيان الحزب الشيوعي» . ص : ٤٠ .
- ٣ . ماركس وانجلس ، المصدر السابق . ص : ٤٠ .
- ٤ . لينين ، «الموضوعات الى المؤتمر الثاني للأمية الشيوعية» . المختارات . المجلد العاشر . ص : ٢١ .
- ٥ . لينين ، «البروليتاريا الثورية وحق الأمم في تقرير مصيرها» . مجموعة «حركة شعوب الشرق التحررية الوثنية» . ص : ١٤٨ .
- ٦ . لينين ، «مرض «اليسارية» الطفولي في الشيوعية» . المختارات . المجلد التاسع . ص : ٥٢٠ - ٥٢١ .
- ٧ . لينين ، «حول مسألة القوميات أو «الحكم الذاتي»» . المختارات . المجلد العاشر . ص : ٥٣٦ .
- ٨ . لينين ، «مهمات البروليتاريا في ثورتنا» . المختارات . المجلد السادس . ص : ٣٨٨ .
- ٩ . لينين ، «مسودة مشروع موضوعات الى اللجنة الاشتراكية العالمية والى جميع الاحزاب الاشتراكية» . مجموعة «في الأمية البروليتارية» . ص : ١٠٨ .
- ١٠ . لينين ، «بصدد كرامة الروس القومية» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٢٧٥ - ٢٧٨ .
- ١١ . غيورغى ديمتروف ، «دراسات في الجبهة والعمل الجبهوي» . إصدار دار ٣٠ اذار للنشر ، الناصرة . ص : ١١٦ .
- ١٢ . انجلس . ماركس وانجلس ، المؤلفات الكاملة بالروسية . المجلد الثاني . ص : ٥٩٠ .
- ١٣ . لينين ، «بصدد كرامة الروس القومية» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٢٧٤ .
- ١٤ . لينين ، «أ.غ. تسيريتلي والنضال الطبقي» . المختارات . المجلد السادس . ص : ٤٥٩ .
- ١٥ . لينين ، «بصدد الكاريكاتور عن الماركسية» . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٩٥ .
- ١٦ . لينين ، «ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٧٧ .
- ١٧ . ماركس ، «رسالة» الى يوسف فيديماير . مختارات ماركس وانجلس في اربعة أجزاء . الجزء الرابع . ص : ١٣٤ .
- ١٨ . ماركس ، «منشأ الرأسمال الصناعي» . الفصل الرابع والعشرين للمجلد الأول من

- «راس المال» . انظر مجموعة ماركس وانجلس «في الاستعمار» . ص : ١٥٨ - ١٥٩ .
١٩. ماركس وانجلس ، «بيان الحزب الشيوعي» . ص : ٦٤ .
٢٠. لينين ، «بصدد كرامة الروس القومية» . المختارات . المجلد الخامس . ص : ٢٧٧ .
٢١. لينين ، المصدر السابق . ص : ٢٧٩ .
٢٢. لينين ، «بصدد الكاريكاتور عن الماركسية» . المختارات . المجلد السادس . ص : ١٦٣ .
٢٣. لينين ، «من كتاب مفتوح الى بوريس سوفارين» . مجموعة «حركة شعوب الشرق التحررية الوطنية» . ص : ٢٣٨ .

«الطبقي» و «الأممي» و «القومي»
في كفاح الجماهير العربية في إسرائيل

* البنية الاقتصادية - الاجتماعية
للجماهير العربية في اسرائيل
□ التغير «الكمي» و «الكيفي»

* قومية «التقدمية للسلام»
رجعية استسلام ...

* طبقية الصراع القومي

□ حقيقة الموقف الطبقي للحزب الشيوعي

الاسرائيلي ، من المسألة القومية .

□ الموقف الطبقي السليم ،

هو الموقف الوطني السليم

* الظلم القومي وخلفيته الطبقية
السحق الطبقي ومعالمه الشوفينية

□ الانتماء القومي

□ مشكلة الهوية

«الأسرلة» و «الفلسطنة»

□ عن الحزب العربي

وعن التنظيم القومي

□ وطنية النضال الأممي

العربي - اليهودي المشترك

* الحزب الشيوعي الاسرائيلي القائد الوطني
التاريخي للجماهير العربية في اسرائيل

البنية الاقتصادية - الاجتماعية للجماهير العربية في اسرائيل

عندما تبين للشيوخ الفلسطينيين ، في النصف الثاني من سنة ١٩٤٧ ، ان مطلبهم باقامة «دولة ديمقراطية» في فلسطين ، لم يكن قابلاً للتحقيق - لعدة أسباب موضوعية وذاتية ، تطرقنا لها سابقاً - أعلنوا الموافقة على قرار التقسيم . ولم يكن هذا رغبة منهم في تقسيم البلاد ، ولا اعتقاداً ان هذا هو الحل الأمثل اطلاقاً ، وإنما لكونه الحل الافضل في ذلك الظرف . وثار جنون القيادة «القومية» ، الاقطاعية والبرجوازية ، فشنت حملة شعواء ضد الشيوخ ، «أعداء الأمة» الذين يريدون «بيع فلسطين» على مذبح طبقتهم وأميتهم ...

ولم يكن بالامكان ، يومها ، أن تقتنع غالبية الشعب بالحل الذي وافق عليه الشيوخ ، أو التحذيرات التي اطلقوها بخصوص كون البديل أشد هولاً ومأساوية . ولكن ، وبعد فترة وجيزة ، وأمام اتساع خطوط المؤامرة الامبريالية - الصهيونية - العربية الرجعية ، وأمام فساد جيش الانقاذ ووقوع النكبة ، تبين للعديد ان تلك القيادات القومية المزودة تأمرت على فلسطين ، تحت ستار القومجيات ! وباعت فلسطين بالاتفاق مع حكومة جلالته ، في بريطانيا ، وبالاتصالات السرية مع القيادة الصهيونية . ومنع الشعب العربي الفلسطيني من حق تقرير مصيره ولو على الرقعة التي حددت له . وتنازلت المآسي تلو المآسي على هذا الشعب .

واليوم لا يتناقش عاقلان إثنان ، اذا ما كانا وطنيين ، حول صحة موقف الشيوخ ، يومها ، وصدق وأمانة تمثيلهم للمصالح القومية الحقيقية لشعبهم . فكيف من الممكن ، بعد هذه التجربة المأساوية - والغنية

يدروسها ، وبعد العديد من التجارب اللاحقة مع القيادات العربية التقليدية ، أن يجرؤ أحد ما ، أو حركة سياسية ما ، خصوصاً بين صفوف الشعب العربي الفلسطيني ، على تكرار الدعارة الايديولوجية البرجوازية السافلة عن التناقض بين «الطبقي» و «الأثمي» و «القومي» ، وعن عدم امكانية أو صدق ، تمثيل الشيوعيين للأماي القومية لشعبهم ، بسبب من «طبقيتهم» ؟ !

ألا تكفي المآسي التي قد مرّت ؟ ! انعود على التجربة ذاتها ؟ أنكر التجربة - لا بل التجارب - الغنية للجماهير العربية الفلسطينية ، التي بقيت في وطنها ، داخل اسرائيل ؟ ! هل من الممكن ان تنسى هذه الجماهير ان القيادات القوبجية التقليدية المزودة ، بأحزابها وحركاتها ، قد طعنتها وتركتها ، بينا الشيوعيون - «الحثون» للمصالح القومية ، كما تشدّت تلك القيادات - ألقوا باجسادهم أمام سيارات الترحيل وأخذوا يللمون الشمل وينفثون الحماس والكرامة القومية وضرورة الصمود والتحدي والمواجهة ، في احلك الأيام ؟ !

ان زغاريد النساء «كيف ممكن ننسى فضلكم يا شيوعية» ؟ واهازيج الاعراس : «صبايا البلد ردّوا عليّ / والله ينصركو يا شيوعية» و «حنا نقارة* جاب الهوية / غصبن عن رّقة بن غوريونا / وحنا نقارة* يا محامينا / والزرقا والحمرا** على صرامينا» و «نزلوا ثلاثة عتل اييب / وهني اللي قالوا للشمس غيبي / فلنر وطوبي واميل حبيبي / بوسط الكنيسيت يهزوا الكون» - الخ ، الخ ، أصبحت أغاني قومية لشعب بأسره ، عبر فيها عن تقديره وثقته لقادته الشيوعيين الذين لم ينكسوا علم الكفاح القومي الديمقراطي ، في احلك الظروف ، في ليل انهيار القيادات التقليدية وانفضاح العواصم العربية .

وبعد قيام دولة اسرائيل ، على رقعة أكبر من التي حُدّدت لها ، وبعد النكبة التي حلت بالشعب العربي الفلسطيني عن طريق سلبه حق تقرير مصيره وتشريد أبنائه من قبل القيادة الصهيونية ، لم يبق في البلاد إلا ١٦٠

* محامي الارض ، الشيوعي ، حنا نقارة .

** الهويات المؤقتة ، التي اصدرها الحكم العسكري الاسرائيلي ، تمهيداً لترحيل العرب

ألف عربي فلسطيني . وتكفي الإشارة الى انه جرى هدم ٤٧٨ قرية عربية ، من أصل ٥٨٥ قرية ، وتشريد سكانها .

وواجهت الجماهير العربية الفلسطينية ، منذ اليوم الأول لقيام دولة اسرائيل ، ليس مجرد سياسة تمييز قومي عادية - كذلك ، مثلاً ، التي تعاني منها الاقليات القومية في العالم الرأسمالي ، أو الزوج في الولايات المتحدة الامريكية ، مثلاً . وإنما واجهت سياسة القمع الكولونيالي ، بأشنع صورها . فوضع الجماهير العربية انقلب ، بين ليلة وضحاها ، من كونها اكثرية تعيش في وطنها وتملكه ، الى أقلية مهددة بالترحيل ، حتي يومنا هذا ! ولقد تم كشف النقاب ، أكثر من مرة ، عن التوجه الاقتلاعي الكولونيالي للقيادة الصهيونية تجاه الجماهير العربية . ويجري الحديث ، في وثائق سرية ، كشف عنها الجنرال اهرن يريف ، رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية في حينه ، عن تهجير ٧٠٠ - ٨٠٠ ألف فلسطيني في ظروف موالية (ظروف حرب ، مثلاً) . أما الصحفي تيدي بروس فكشف النقاب عن حلم بعض الاوساط - وقد تسمي نفسها أوساطا «ليبرالية» ! - عن إجراء «تبادل» سكاني ، في المستقبل . وذلك في مقالة «شفاعمر و مقابل عوفرا» [دافار ١٩٨٠/٤/٩] . والمقصود اقتلاع وتشريد أبناء المدن والقرى العربية القائمة قبل قيام دولة اسرائيل ، بمئات السنين ، مقابل ارجاع بضع سائبة من المستوطنين الكولونيين من المناطق المحتلة ، بعد حزيران ١٩٦٧ ، الى داخل اسرائيل !

ومن لم «يقنع» بضرورة ترك البلاد ، بعد مجزرة «دير ياسين» وأخواتها ، حاولت السلطات الاسرائيلية «إقناعه» بذلك ، عن طريق مجزرة كفر قاسم (١٩٥٦/١٠/٢٩) . اذ ان هذه السلطات لم تنتظر ولم تتوقع بقاء عرب في البلاد ، كما صرح رابين بركات ، في الخمسينات . وفرضت السلطات الاسرائيلية الحكم العسكري ، على الجماهير العربية الفلسطينية منذ ١٢ كانون الاول ١٩٤٨ (الغى عام ١٩٦٦) . وخلقت حتى مشكلة «اللاجئين داخل وطنهم» - مثلاً ، أبناء اقرب وكفر برعم وأخواتها . وقامت السلطات الاسرائيلية ، بالاضافة الى هذه الجرائم ، بوضع سياسة تمييز واضطهاد قوميين ، مدروسة وشاملة لمختلف مجالات الحياة . وكل هذا بهدف الاقتلاع والتشريد ، والتدجين الصهيوني . اذا لم

بنأت الاقتلاع والتشريد .

وتبرز هذه السياسة ، أكثر ما تبرز ، في سلب الارض العربية . فالارض - هوية . والارض - وطن . والارض - قاعدة مادية للتطور الاقتصادي . وهكذا ، وبالاكتفاء على قوانين الانتداب البريطاني ، الكولونيالية العنصرية ، وكذلك على القوانين الاسرائيلية الجديدة ، العنصرية ، هي الأخرى - قامت حكومات اسرائيل بالاستيلاء على أملاك الغائبين وأملاك اللاجئين في وطنهم والأملاك التي كانت مسجلة على اسم المندوب السامي البريطاني ، بسبب غياب السلطات المحلية في حينه . وتبعتها بمخططات التهويد الشهيرة وبناء المدن والمستوطنات والمناظر اليهودية ، في قلب المناطق العربية . لدرجة انه فقط من الجماهير العربية داخل اسرائيل ، جرى سلب مليون ونصف المليون دونم . ولم يبق لهذه الجماهير ، من ارض سوى نصف مليون دونم ، أي أقل بكثير من الدونم الواحد للفرد . علما بأن هذه الاراضي تحوي مسطحات البناء والمرافق العامة ، داخل المدن والقرى العربية ، والاراضي الزراعية والاراضي البور . ولا يجد العديد من الأهليين العرب ، اليوم ، ليس فقط قطعة ارض لزراعتها ، وإنما حتى للبناء عليها أو لدفن موتاهم فيها ...

وأدت سياسة احتلال الارض ، فيما أدت اليه ، الى ضرب وتخريب الزراعة العربية . ولازم هذه العملية ، طبعاً ، احتكار مصادر المياه وتضييق الخناق على تصريف المنتجات الزراعية العربية وعدم تقديم المساعدات للفلاحين العرب .

ولم يواكب عملية القرصنة والاقتلاع الكولونيالي ، هذه ، عملية تصنيع المدن والقرى العربية . وإنما حدث العكس تماماً ، أي جرى ضرب الصناعة العربية وتضييق الخناق على ما هو قائم منها ودفعها الى الافلاس . فلا وجود في المدن والقرى العربية لا لمصانع حكومية ، ولا لمصانع فردية لمتولين يهود ، ولا لمصانع ومرافق صناعية هستدروية . والهدف واضح ، فبالإضافة الى هدف الاقتلاع والتشريد ، تسعى الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة ، والمستدروت المتواطئة معها ، الى الإبقاء على الاقتصاد العربي كاقصاد استهلاكي .

فالمدن والقرى العربية اليوم هي سوق للاحتكارات الرأسمالية

اليهودية ، وسوق للأيدي العاملة الرخيصة ، ايضاً ، لهذه الاحتكارات . وهي عبارة عن «فنادق» متخلفة يأوي اليها العاملون العرب ، بعد العودة من اشغالهم في المدن والمستوطنات اليهودية ، القرية والبعيدة .

ويواجه العاملون العرب كشعبهم ، يومياً ، الاضطهاد القومي - الطبقي المزدوج ، بصفتهم عرباً وبصفتهم عمالاً . وهم آخر من يقبل للعمل وأول من يفصل منه . ولم تقبل بهم الهيستدروت ، اعضاء فيها ، إلا سنة ١٩٥٩ . وكذلك كفئة من الدرجة الثانية ، حتى في مجال الحقوق النقابية . ويشهد على هذا حرمان الغالبية الساحقة ، للبلدات والقرى العربية ، من انتخاب مجالس عمالية . هذا عدا عدم فتح مرافق عمل هيستدروتية فيها .

ويعمل العمال العرب في مجالات ما يُسمى «بالعمل الاسود والمتدني» ، في الأساس . اذ واكب عملية احتلال الارض ، «احتلال العمل» ايضاً ، عن طريق جعله «عملاً عبرياً» . وهناك فروع صناعية بأكملها ، ومرافق وشركات مختلفة ، مُحَرَّم على العمال العرب دخولها . قد لا ينص القانون على هذا التحريم ، ولكن هذا هو الواقع القائم ، خصوصاً على ضوء المطالبة أحياناً بشهادة إنهاء الخدمة العسكرية ، غير المفروضة على العرب (ما عدا العرب الإدروز) ، كمدخل للقبول للعمل .

ويبين كتاب الاحصاء السنوي لعام ١٩٨٥ ، في اسرائيل ، ان ٩٪ من مجموع العاملين العرب ، فقط ، يعملون في الزراعة (والعديد منهم يعمل في الزراعة اليهودية) . أما نسبة العاملين في الصناعة فهي ٢١,٥٪ (أغلبها مصانع وورش يهودية ، أولية وبدائية - كالنسيج والحِداة وما شابه) . أما في البناء ، هذا العمل الاصعب والاقسى والادنى أجراً ، فتصل نسبة العاملين العرب فيه الى ٢٠,٩٪ من مجموع العاملين العرب . ولا تزيد نسبة العاملين في الخدمات المالية عن ٣,٤٪ ، وفي الفروع العلمية والاكاديمية عن ٢,٤٪ ، أما المدراء ورؤساء الادارات فلا تزيد نسبتهم عن ١,٧٪ (وغني عن البيان انهم ليسوا مدراء في الوسط اليهودي ولمصانع وورش ومشاكل يهودية) . بينما أكثر من ٣٠٪ من العاملين العرب يعملون في الخدمات (مطاعم ، فنادق ، صيانة ، محطات وقود ، وغيرها ...) .

ولهذا ، وبحكم سياسة التمييز القومي ، والفروع التي يعمل فيها

يعاملون العرب ، فانهم يقبضون متوسط الأجور الاكثر انخفاضا . وحسب كتاب الاحصاء السنوي فان نسبة دخل العاملين العرب تصل الى ٦١٪ من متوسط دخل العاملين اليهود . اذ كلما كان العمل «اسود» ، وذو أجر منخفض كانت نسبة العرب فيه اكثر . والعكس صحيح ، كلما كان العمل «ارقي» ويتطلب مهارة مهنية ، كان حكرًا على اليهود . ولذلك ، وبهذا المعنى ، ان العرب في اسرائيل هم زنوج المجتمع الاسرائيلي . أضف الى هذا اتباع حكام اسرائيل لسياسة التجهيل القومي ، والتي عبر عنها لوبراني ، مستشار رئيس الحكومة لشؤون «الاقليات» في الخمسينات ، بقوله ان الهدف تنشئة العرب خطابين وسقاة ماء . لقد جرت محاولات رسمية ، في السنوات الاولى لقيام الدولة ، حتى لالغاء التعليم باللغة العربية . وما زالت تتبع ، حتى يومنا هذا ، سياسة التمييز في مجال القبول للمعاهد العليا ، أو في مجال الخدمات العلمية في المدارس الثانوية والابتدائية . أما برنامج الدراسة فهو برنامج عدمية قومية يقصد منه القول للطلاب العربي - ان البلاد كانت ، على مر العصور ، البلاد الموعودة للشعب اليهودي !

ويتعلم الطلاب العرب عن تاريخ اليهود وتاريخ الصهيونية وعن الادب العبري ، وبشكل مشوه ، اكثر مما يتعلمون عن تاريخ وتراث شعبهم . أما تاريخ الشعب العربي الفلسطيني ، الحديث والمعاصر ، وكذلك الآداب والتراث العربي التقدمي ، فلا أثر لها في المنهاج الرسمي . والى جانب المحاولات والبرامج المثابرة لسلخ الجماهير العربية في اسرائيل ، عن اهتمامها العربي الفلسطيني ، تواجه هذه الجماهير ، يومياً ، المحاولات السلطوية لتفسيخها على أسس عائلية وطائفية . ويبرز هنا مثال المحاولة الرسمية لسلخ «الدروز» عن العرب وتصويرهم قومية منفصلة وقائمة بحد ذاتها ، وكذلك «البدو» .

أما على صعيد السلطات المحلية العربية فان التمييز قائم في شتى مجالات الخدمات البلدية . بدءاً بنظافة الشارع وحتى بناء المدرسة ، أو فتح أي مشروع تطويري كان . ولا تصل نسبة ميزانية عادية لأية سلطة محلية عربية إلا لـ ٢٥٪ ، من ميزانية سلطة محلية يهودية توازيها في عدد السكان . أما من ناحية ميزانيات التطوير فالأصح عدم المقارنة ، وإنما القول انها شبه

معدومة عمليا . فكل ميزانية التطوير لأم الفحم ، مثلا ، قد لا تكفي لشق شارع ، أو لد ثلاثة كيلومترات ، من خطوط المجاري !
وتقوم سياسة حكومات اسرائيل المتعاقبة ، واحزابها الصهيونية ، على أساس التعامل العنصري مع الجماهير العربية ، في كافة مجالات الحياة . ولم تكن بالامكان ان تنمو عنصرية وفاشية العصابة الكهانية ، وما شابهها ، إلا على خلفية السياسة الصهيونية - العنصرية الرسمية ، وفي دقيقتها - بل على مزيلتها . ان سياسة القمع العنصري وخنق الحريات الديمقراطية وتصيد التعامل البلطجي مع العرب ، هي سياسة رسمية . كذلك هي العنصرية .
وقبل ان تظهر حشرة الكهانية وتتسع ، أصدرت حكومات اسرائيل المتعاقبة العديد من القوانين العنصرية . كذلك قام العديد من زعمائها بوصف شعب بأكمله بأنه «مخرب» و «صراير مسمة» و «سرطان في جسم الدولة» و «خطر دمغرافي» ... الخ . واستعد البعض لدفع أجرة التاكسي ، لتسفير العرب الفلسطينيين - من أهل هذه البلاد ، الى الدول العربية .

التغيرُ «الكمي» و «الكيفي»

وبعد ، بناء على ما تقدم ، وعلى التطور الذي جرى للجماهير العربية الفلسطينية داخل اسرائيل ، منذ سنة ١٩٤٨ ، نستطيع ان نحدد المعالم البارزة التالية في حياتها وبنيتها الاجتماعية وتطورها :

* أولا ، وصل تعداد ال (١٦٠) ألف فلسطيني ، الذين بقوا في وطنهم ، الى (٦٥٠) ألف نسمة . ونسبة التكاثر ، بينهم ، من أعلى النسب في العالم . وتكاد تصل ضعفي نسبة التكاثر في الوسط اليهودي . وتقدر بعض الدراسات الرسمية الاسرائيلية ان عددهم سيصل الى مليون نسمة (٢٠٪ من سكان البلاد في حينه) عام ٢٠٠٠ .

أي انهم لم يبقوا فرعا مقطوعا من شجرة ، ضائعا ومنسياً ، قد يذوب أو يتلاشى أو يرحل ! وهم مجموعة سكانية شابة وفتية صاعدة . اذ ان ٤٦.٧٪ منهم تحت سن ال (١٤) عاما و ٥٨.٥٪ تحت سن ال (١٩) و ٧٥٪ تحت سن ال (٣٠) . ولا تصل نسبة من هم فوق ال (٦٥) عاما الا الى ٢.٨٪ [حسب كتاب الاحصائيات الرسمي لسنة ١٩٨٤] .

* ثانياً ، الجماهير العربية الفلسطينية ، في البلاد ، هي جماهير عمالية ، في الأساس ، وذلك بحكم سياسة سلب الارض والتهويد ، وبحكم التطور الرأسمالي العام وغزو الرأسمالية الاسرائيلية للسوق العربية .

لقد جرى التطور من جماهير فلاحية الى جماهير عمالية ، بشكل قسري ، في الأساس . ولكنه جرى . وأصبح الفلسطينيون ، في البلاد ، شعباً من العمال والموظفين والمستخدمين - العاملين بأجرة . في سنة ١٩٤٨ كان ٨٠٪ من الميعلين العرب ، يعتاشون على الزراعة . أما اليوم فان ٧٧٪ من مجموع القوى العاملة العربية ، عاملون بالأجرة . ولذلك فان الطبقة العاملة العربية - هي القوة الاقتصادية ، الاجتماعية ، الأساسية ، بين الجماهير العربية .

* ثالثاً ، اغلاق الآفاق امام نمو البرجوازية العربية . فما كان منها اما جرى ترحيله ، أو رحل (كذلك الاقطاع) . أما من بقي منها فجرى خنق امكانيات تطوره ، لأن هذه هي السياسة الرسمية للحكومة الممثلة لمصالح البرجوازية اليهودية . كذلك منعت البرجوازية اليهودية خلق برجوازية عربية منافسة لها . ويذكر الاهلون العرب ، في البلاد ، السياسة الرسمية المرسومة ، بلاحقاتها وخنقها المالي وبالمنافسة غير المتكافئة ، والتي أدت الى إغلاق المصانع والمشاغل العربية . مثلاً مصانع شركات السجائر والمعلبات ، في الناصرة أو غيرها .

أضف الى هذا عدم تشجيع الممولين العرب ، اذا وُجدوا ، على فتح مصانع ومشاغل . واذا حدث هذا فيتم بمشاركة رأس مال يهودي . أو يلاحق بهدف ضربه ، مثل الفنادق وشركة الباصات العربية ، في الناصرة . ولا نستطيع الحديث الا عن برجوازية عربية صغيرة من فلاحين ومقاولين واصحاب مهن وورش صغيرة وتجار صغار . وتعيش غالبية هؤلاء تحت «رحمة» ووطاة رأس المال اليهودي . ونشهد ، يومياً ، عملية «بلترة» [نسبة الى بروليتاريا] هذه البرجوازية الصغيرة . فالفلاحون والتجار العرب الصغار والمهنيون والحرفيون ، لا يصمدون امام التنافس الحاد . فشركات النسيج تقضي على الخياطة العربية . وشركة «تنوفا» تقضي على الفلاحة

والزراعة العربية و تربيه المواشي عند العرب (اصلا هل بقيت ارض دافيه للزراعة وللفلاحة ولتربية المواشي ؟) . وتجري هذه العملية نفسها على صعيد شركات البناء . ويصبح المقاولون العرب ، في الأساس ، مقاولين ثانويين تابعين لهذه الشركات . أما الحوانيت العربية ، والتي تبيع البضائع المصنوعة بغالبيتها الساحقة ، في السوق الرأسمالية اليهودية ، فانها هي الأخرى وأمام ازدياد الضرائب والتنافس الحاد وانخفاض المقدرة الشرائية ، تصل بغالبيتها الى حافة الافلاس . ولا يتعدى دخل العديد من التجار دخل العاملين المهنيين ، أو الموظفين . وهذا ما يحدث للعديد من اصحاب الورش . لا أحد ينكر وجود بعض الشرائح ، القليلة العدد نسبيا ، والغنية بالنسبة لوسطها العربي . ولكنها تبقى قلة قليلة . ويبقى الأمر الغالب عملية «بلترة» البرجوازية الصغيرة . أما المثقفون ، من أطباء ومهندسين ومعلمين وسائر المستخدمين ، فانهم بين الجماهير العربية الفلسطينية في البلاد - عاملون بالأجرة ، بغالبيتهم الساحقة . بل ولا يجد العديد منهم مجالا للعمل . ولا ترتفع معاشات ، من يعمل منهم ، بشكل حاد ، عن مستوى معاشات العمال المهنيين ، مثلا .

لذلك ، عدا عدم وجود فئة الاقطاع أو البرجوازية المتوسطة والكبيرة ، فان البرجوازية للعربية الصغيرة ، هي الأخرى ، تعاني من الاضطهاد القومي - الطبقي المزدوج . وتمتاز مصالحها ، أكثر فاكثراً ، بمصلحة كفاح الطبقة العاملة ، التي هي طليعة الكفاح ضد التمييز والاضطهاد القومي - الطبقي .

* رابعاً ، نمو فئة المثقفين والموظفين . وذلك رغم أنف السياسة الرسمية . ان نسبة الطلاب العرب في الابتدائيات تصل الى ٢٢٪ الى ١٠٪ في الثانويات والى ٥٪ في الجامعات . ويصل عدد الخريجين الجامعيين العرب الى ما يقارب ٨٠٠٠ خريج ، بينما لم يتخرج حتى بدء الستينات الا بضع عشرات قليلة . ومن المتوقع ان يصل عدد الاكاديميين العرب حتى سنة ٢٠٠٠ الى (٢٥.٠٠٠) أكاديمي .

وتجدر الاشارة الى ان عدداً ، لا بأس به ، من هؤلاء الخريجين ، تعلم خارج البلاد وعاد للعمل في وطنه . وتبرز هنا الخدمة الوطنية الفائقة

الأهمية ، التي قدّمها ويقدمها الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، عن طريق إعداد مئات الكوادر العلمية الاكاديمية ، في كافة المجالات ، في الدول الاشتراكية .

ان العديد من الكوادر الاكاديمية المثقفة هم من أبناء العمال أو سائر الفئات المسحوقة ، أو من فئات البرجوازية الصغيرة ، الشبيهة حياتها بحياة العمال ، الى حد ما . كذلك ، وكما أشرنا سابقاً ، فان الغالبية الساحقة ، اطلاقاً ، من هذه الكوادر العمالية هي شغيلة بالأجرة . وهذا يخلق بدوره ، وأمام واقع سياسة الاضطهاد القومي ، القاعدة لمزج كفاح هذه الفئات بكفاح الطبقة العاملة . والأمر نفسه ينطبق على فئات الموظفين ، النامية في الدوائر والمشاغل والمكاتب الحكومية الرسمية ، أو البنوك والشركات المالية أو الخاصة .

* وأخيراً ، لقد أدت هذه التغيرات في البنية الطبقية - الاجتماعية للجماهير العربية ، الى تحولات فكرية أساسية ، لديها ايضاً . وخصوصاً على ضوء التحدي القومي والمواجهة ، اليومية ، مع سياسة التنكر للحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني وسياسة الاضطهاد والتمييز القوميين . فالجماهير العربية الفلسطينية ، في اسرائيل ، تذيب ، يوماً بعد يوم ، انتماياتها الطائفية - العائلية ، وتنمي انتمايتها كأقلية قومية ، الى الشعب العربي الفلسطيني ، الذي هي جزء لا يتجزأ منه . كذلك تشهد هذه الجماهير ، عملية افول العادات والتقاليد الرجعية ونمو التوجه الديمقراطي - الاجتماعي ، لديها . وهي ، اليوم ، قوة ديمقراطية لا يُستهان بها ، على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، وعلى صعيد الكفاح الديمقراطي العام ، داخل اسرائيل ، ضد السياسة الرسمية لحكامها .

ولا نقول هذا الكلام - قليلاً لأهمية دور العامل الذاتي ، والذي يقوم على أساس قيادة الحزب الشيوعي الاسرائيلي لكفاح هذه الجماهير ، منذ اليوم الاول لقيام دولة اسرائيل . وانما نقوله للتأكيد ان الدور المتنامي لقيادة الحزب الشيوعي لكفاح هذه الجماهير ، لا ينفصل عن التحولات الطبقية - الاجتماعية ، التي مرّت وتمرّ عليها .

* * *

وبعد ، لم نقصد ، في هذه العجالة ، إجراء دراسة شاملة لوضع الجماهير العربية ولسياسة الاقتلاع والتمييز القومي ضدها . وليس هذا هو هدفنا في هذا الكتاب . وإنما قصدنا وضع خطوط عريضة لمؤشرات تطور هذه الجماهير ، كمقدمة لبحث المواضيع التالية .

قوجية «التقدمية للسلام» رجعية استسلام ...

كانت الجماهير العربية الفلسطينية في اسرائيل ، ومن خلال تجاربها الفنية ، الحياتية ، قد عبرت مرحلة النقاش حول التناقض العدائي المزعوم بين المصالح الطبقية والامة للشيوخين ، وبين المصلحة القومية لسعيهم . خصوصاً انه على مدى سنوات عديدة متتالية لم يبقَ من معير للشيوخين بأنهم ليسوا قوميين وبأنهم يمثلون مصلحة دولة أجنبية ... الا «المعراخ» وعكاكيزه العربية ، والقوائم العربية السلطوية - «عربية الجذور والنداء والتطلعات» !- ، في كل انتخابات ، للكنيست أو للهستدروت أو للسلطات المحلية .

وكانت المرحومتان ، التي لا تجوز الرحمة عليهما ، صحيفة «اليوم» السلطوية ، وبعدها «الأنباء» ، وكذلك «المرصدا» المبامية ، قد «لاكت» هذه الفرية حتى الامتصاص التام . وتذكر هذه الجماهير ، التي كانت تسترق السمع ، سرا ، لخطابات عبد الناصر الوطنية ، كيف قام اعوان السلطة ، وبتوجيه من السلطة ، بفتح اذاعة القاهرة ، على اعلى موجة ممكنة ، في المقاهي وعلى شرفات البيوت ، لإسماع الناس خطابات «الرئيس» ، عندما كبا وعادى الشيوعية ، لفترة قصيرة .

وأحست الجماهير ، يومها ، بسليقتها ، ان هنالك خطأ ما . اذ كيف اصبح عملاء «المعراخ» وعكاكيز الحكم العسكري «ناصرين» ؟ ! وفهمت الطليعة الديمقراطية والثورية للجماهير ، انهم لم يتغيروا وإنما الذي تغير ،

وكانت هذه كبوة همام ، هو عبد الناصر . ومن لم يسرع بالانتباه لهذه الحقيقة افهمته إياها «المرصاد» - المباشرة ، باللغة العربية ، حين نشرت كاريكاتورا يصور الصهيونية والقيادة العربية وهما يتراقصان ، بينما يركلان بأرجلها طابة كتب عليها «الشيوعية» !

هكذا اذن . تجوز القومية العربية في اسرائيل ، شريطة ان تكون قومية عداء للشيوعية . بل واكثر من هذا ، فان قيادة اسرائيل على استعداد لنشر هذه القومية وللصرف عليها ، حتى . وان نسي ، لا يمكن أن ينسى كاتب هذه السطور ، مثلاً ، انه حتى في الستينات قام اعوان السلطة في قريته ، بتوزيع «سري» لخطابات عبد الناصر «القومية» ، القديمة ، والمعادية للشيوعية ، وهي مطبوعة على ورق صقيل ، وذلك عشية كل انتخابات كانت تهدد مركز هؤلاء الاعوان !

قلنا انه كان يظهر ان الجماهير العربية قطعت هذه المرحلة ، والى غير رجعة . فاذ بنا نستفيق على الوثيقة العنصرية ، التي تحمل اسم حاكم لواء الشمال - وثيقة كينغ . واذ ببند خاص ، في هذه الوثيقة ، ينصح بإقامة حزب عربي ظاهره قومي ، وبباطنه سلطوي ، ومرتبطة بحزب العمل سرا . ومهمة هذا الحزب وقف الامتداد الشيوعي ، الخطر الاكبر ، بين الجماهير الفلسطينية . أما الوسائل التي يجب اتباعها ، في هذا الاطار ، فيقف في مركزها نشر الافتراءات على الشيوعيين وتشويه سمعة قادتهم . ومرت سنوات واذ «بالحركة التقدمية» تتشكل ، أولاً في الناصرة سنة ١٩٨١ ، ومن ثم قطرياً . واذ بها تأتلف مع أيتام «شلي» القديمة ، حركة «الترنتيفا» ، بقيادة اوري افيري المعروف بعدائه الاعمى للشيوعية وباندلاقه ، اللامحدود ، وراء مشاريع «التسويات» الامريكية .

واذ بالناطقة بلسان «التقدمية» ، والتي توزع ببلاش (!؟) ، أولاً نشرة «التضامن» ومن ثم «الوطن» [بعد ان وقعت الخناقة على من يستولي على «التضامن» وينعم بتحريرها] ، تعود لتلوك الافتراءات القديمة إياها ، عن طبقية وأمية الشيوعيين المتناقضة مع وطنية وقومية الشعب !

لنقرأ بعض الحجج والدرر «القومية» : «القضية الفلسطينية كانت وبقيت ، الى اليوم ، قضية قومية» ، «لا علاقة بين الصراع القومي والصراع الطبقي» ، «انه صراع قومي ، صراع وجود ، صراع بقاء ، صراع كن أولاً

تكون» ، «الصراع قومي وليس طبقياً» ، «الصراع العربي - الاسرائيلي ، صراع قومي ولا مجال للتسوية» ... الخ .

وما هي الاثباتات ؟ ! لنقرأ : «ارض ووطن سلبا من شعب فلسطين وأعطيا لشعب آخر ، فهي قضية قومية مئة بالمئة» ، «مصير الطبقات الفلسطينية كان واحداً ، ان كانت طبقة عاملة ، أو طبقة برجوازية» ، «اسرائيل ضد دولة فلسطينية حتى لو كانت بقيادة البرجوازية» ، «اليهودي ، والصهيوني خاصة ، لا يهمه ، ان كنت ابن عامل ، غنياً أو فقيراً ، يهمه انك عربي ومحاربك كعربي فلسطيني» . كذلك الأمر «عندما يصطدم العامل اليهودي بالعامل العربي» ، ومن «يصور ان الصراع الفلسطيني - الصهيوني ، صراع طبقي ، وليس قومياً ، يخدم في الدرجة الأولى سياسة اسرائيل» ... الخ .

وماذا فعلت «التقدمية» ، ولماذا قامت ؟ ! لنقرأ : «لإعادة الجماهير الفلسطينية التي تعيش داخل الخط الأخضر الى جذورها الفلسطينية» و «لتعيد الى ذهن ووعي جماهيرنا الابعاد القومية الحقيقية لمعركتها المصيرية» و «فلسطينة جماهيرنا ، عملية لم تتوفر إلا حين قامت الحركة التقدمية» و «الحركة» منعت «تدويب القضية القومية ، واستبدالها ، بقضايا طبقية» و «الحركة» - «فلسطينية العمل والغايات والقرارات» وهي «فلسطينية النداء والجذور والتطلعات» وهي «رؤيا في القلب ، شعلة الفكر الفلسطيني والانتفاء الفلسطيني ... جمره كانت مغطاة بالرماد» (الله ، الله !) و «الحركة» ، «تنبع من جذورنا وتعبر عن أمانينا ، وترفض أي انتفاء إلا لفلسطين» . و «شعورها من شعورنا ، وقراراتها من قراراتنا» ... الخ .

وبماذا تختلف «التقدمية» مع الحزب الشيوعي ، على الصعيد القومي ؟ لنقرأ : «الحزب يعمل على أسرلة الجماهير الفلسطينية ويطمس الهوية القومية» ، والحزب يقول «ان حل الصراع لا يتم الا بالتسويات الطبقيّة» (!؟) وان «الصراع بين الصهيونية والفلسطينية هو صراع طبقي بين طبقة الفقراء والعمال من جهة وبين الاغنياء والاقطاع من جهة أخرى» (!!!؟) والحزب «يخلق فيما بيننا نحن الفلسطينيين صراعاً

طبقيا» .. الخ . (من اي مستنقع يستقون هذه التباير والاستشهادات عن مواقف الحزب ، وخصوصا انها لم ترد ، اطلاقا ، في أية وثيقة من وثائقه ؟) .

ووصل الأمر بمحمد معاري الى القول انه «نَضَج» ولذلك ترك التعاون مع الحزب السيوعي و «الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة» . وأضاف : «ان الحل الذي يطالب به الحزب السيوعي هو حل عام ، وبشكل غير قومي (!؟) بينها حلي هو قومي فقط» و «مواقفنا مستقلة . وهي متحررة من أية اعتبارات أجنبية . مواقف محلية تماما» . (مقابلة مع «هآرتس» ، بتاريخ ٨٤/٦/٦) . وعندما أكد معاري ان قائمته «جاءت بلا قيمين عليها» ، سأله الصحفي غدعون ليفي : «أتعني الاتحاد السوفيتي» ؟ فأجاب ، بأسرافة قومية ! : «لم أقل هذا . انت بإمكانك ان تقوله . ولكن هذا واضح» .

وبعد ، تكفيينا هذه «الدرر» ، والتي ان كلف القارئ المحترم نفسه عبء مراجعتها ، نانية ، سيكتشف انها لم تقل أي شيء ، عمليا . كلام في كلام . حكى يتبعه حكى . دون تحديد أو توضيح أي شيء عيني . وانما اطلاق شعار تلو شعار ، بهدف إخفاء مضمون رجعي ، كما سنثبت هذا ، لاحقا . وهذه لعمري ، سفسطة تميز بها الفكر البرجوازي ، منذ بدأ عهد سرده ، نزولا ، نحو حتفه .

ومع ان «الحركة التقدمية» ليست موضوع هذا الكتاب ، إلا ان موضوع البحث يقتضي منا التذكير والتنويه ، انها قامت وتسكلت في الناصرة ، بالذات ، في اصعب مرحلة مرت عليها بلدية الناصرة في مواجهة سياسة الاضطهاد والتمييز القومي والحقق المالي . انها مرحلة الاضراب الذي دام ٣٥ يوما ، سنة ١٩٨١ ، ومرحلة المواجهة مع كينغ ، الذي كان يبدع بعنجهيته العنصرية المعهودة ، بحل بلدية الناصرة . يومها تأسست هذه الحركة «القومية» وخرجت بكيل من الاتهامات

* غالبية اعداد «التضامن» ، سابقا ، و «الوطن» ، حاليا ، ملينة بكل الاستشهادات الموضوعية بين اقواس ، في هذا البحث . وللتأكد ، راجع مثلا «التضامن» ، بتاريخ ٨٤/٨/٢ و «الوط» ، بتاريخ ١٩٨٦/٢/٢٤ و ١٩٨٦/٢/٢٨ و ١٩٨٦/٣/٢١ .

لبلدية التي «لا تخطط» و «لا تيرمج» ولا تعرف «كيف تتكثك» و «تتدخل بالسياسة» (؟ !!) وساوت بين مسؤولية السلطة ومسؤولية البلدية . وان كانت ابرزت وأكدت الحديث عن مسؤولية البلدية ...

لقد وُلدت هذه الحركة ، ليست كحركة قومية - وطنية ، وإنما كحركة معادية للشيوعية ، ارتدادية - ساداتية . نمت على خلفية «كامب ديفيد» وعلى خلفية استشراس السلطة في عهد حكم «ليكود» بيغن وصعوبة وطول مشوار المواجهة معها . وكذلك على خلفية الخلافات المؤسفة ، داخل (م. ت. ف.) ، فيما بعد .

وكان التعبير عن هذا الاتجاه «الجديد» . الرجعي - السعار الذي اطلقت أحد قادة هذه الحركة ، وهو كامل ظاهر ، عن ضرورة «قطف الرأس» - أي الاستكانة امام الهجمة السلطوية والتعبير عن «قطف الرأس» هذا ، حسب رأيه ، كان يجب ان يكون باستبدال رئيس بلدية الناصرة الشيوعي ، توفيق زياد ، «باكاديمي» يحسن «قطف رأسه» .

وعلى مدى اشهر طويلة واصلت «التضامن» (المستقى اسمها من «سوليداريتيت» ليخ فاليسا ، في حينه) في نشر مثل هذه الدعوات الرسمية للاستسلام والتي وصلت الى حد الهجوم على البلدية ، مع انها محاصرة من قبل السلطة التي تقاطعها ، لأنها تحاصر وتقاطع كينغ ووزراء الحكومة بحجة كونهم عنصريين وأيديهم ملطخة بدماء شعبنا ... وهتفت «التضامن» ، في وجه الشيوعيين والجهويين «مقاطعة ، مقاطعة ... فأين المبادرة ؟ !!» .

كذلك ، ورغم بعض المزايدات القوبجية هنا وهناك ، لم تبرز «التضامن» ، في الاشهر الاولى «فلسطينيتها» . فعندما كانت وحدة (م. ت. ف.) قائمة ووطيدة ، وعلى أساس تقدمي ديمقراطي معاد للاستعمار وللانظمة الرجعية العربية ، وعندما كانت «فلسطين الثورة» تكتب ان «راكاح هو القائد التاريخي للجماهير العربية الفلسطينية في البلاد» ، وان «راكاح الأممي ، هو المناطق ، افضل من كل ما عداه ، على الصعيد القومي» ، وعندما كان قادة «فتح» يرسلون التحية ، تلو التحية «لراكاح» و «لقادته المناضلين» و «للاخوة المناضلين في الجبهة» ... كانت «التقدمية» تسخر من هذا الكلام ومن صحيفة «الاتحاد» التي تقوم بنقل «تفاصيل وردود فعل وتعليقات المنظمات وكافة الأبوات ...» . وكان قادتها ، في خطاباتهم

يقولون ، «من هو ابو فلان وابو علسان ، ومادا يعنيه بامورنا الداخلية» ؛ ومن هو «ابو نضال ... عندنا ألف ابو نضال» . و «من هو الدرويس هذا ...» (المقصود محمود درويس) وهكذا ...

ثم ان «التقدمية» ليس فقط قامت ببناء كل معركتها «القومية» على أساس العداء للشيوعية وللجبهة ، وتخصيص ما يقارب ٨٠٪ من مساحة نسراتها المجانية لهذا الموضوع ، وانما تقوَّجت وتقوَّجت حتى الارتقاء في حضن «الترنتيقا» اثنيري . على اعتبار ان التحالف ، مثلاً مع فلتر وحزبه هو طبقية بغیضة ، وما من تحالف قومي إلا مع الحليف القومي اثنيري . واثنيري هو الوحيد الذي يفتخر ، في اسرائيل ، بأنه يحمل شهادة من المحكمة تعترف بصهيونيته . ويشتهر بصراخه القومي الهستيري : «على دمشق» ، وذلك ابان حرب حزيران ١٩٦٧ .

واثنيري هو قائد «شلي» القديمة ، والتي قال عنها ميعاري ، قبل ان «ينضج» ، ان جميع الاصابع والعقائير ليس بامكانها ان تجمل وجهها الصهيوني . واضاف يومها فيعاري ، انه يمثل «التيار القومي» . وانه لا خلاف بين هذا التيار وبين مواقف الجبهة من القضية الفلسطينية ومن مسألة المساواة القومية ، «ولا مجال لاثارة أي خلاف جانبي من شأنه أن يؤثر على وحدة الجماهير العربية وتأييدها للجبهة» * .

فأين الفكر القومي لميعاري اليوم من ذلك الفكر ؟ ! انها قومية رجعية ساداتية ، وليست نزعة قومية ديمقراطية ، تلك التي تميز فكر الحركة التقدمية اليوم . وربما اتضح هذا ، أكثر مما اتضح ، في لقاء قادة التقدمية المشهور مع وزير الحربية ، في حينه ، آرنس . وذلك عشية انتخابات الكنيست ، سنة ١٩٨٤ .

ففي هذا اللقاء اوضح قادة «التقدمية» انهم ضد الشيوعيين ، أولاً وقبل كل شيء وجاءوا كبديل لهم . وانهم ضد «ارهاب» (م. ت. ف.) و «ضد الكفاح المسلح» الذي تلجأ إليه . وان لقاءاتهم مع قادتها ، لقاءات فمجان فهو في الكافثيريا ، وانهم اعتادوا تقديم تقارير للجهات الحكومية المسؤولة

* نشرة الجبهة ، عشية انتخابات ١٩٧٧ . وكان مقال محمد ميعاري فيها بعنوان «مع الجبهة» .

عن هذه اللقاءات ولجهاز المخابرات . وساووا بين المعتدي والضحية حيث تحدثوا عن «الاعتراف المتبادل» . وتنكر زعيمهم ، محمد ميعاري ، لعصويته القديمة في حركة «الأرض» القومية المحظورة . وأعلن ان حكومة اسرائيل هي التي تمثله رسميا ، والكنيست سياسيا .

وبعد ، تبرز «الحركة التقدمية» ، دوما ، ان فكرها قومي ، «ينبع من الصميم» (!؟) وانها لا تمثل أية طبقية رجعية . والدليل لديها ، انه يوجد من بين قادتها مَنْ هو مِنْ أصل عمالي (!) وان هنالك عمالا وفلاحين صوتوا لها ... وتبرز كذلك ان قادتها هم من قادة الجبهة ، سابقا .

سنرد ، في أثناء البحث التالي ، على هذا الفكر «القومجي» الارتدادي - الرجعي . وسنبين حقيقة المواقف القومية للحزب الشيوعي الاسرائيلي . أما الآن فنكتفي بالقول : لا يميز «التقدمية» انها تضم عناصر قومية شريفة كانت في الجبهة ، وانما يميزها تجميع كل مَنْ قرر «قطف الرأس» ولم يحتمل صعوبة مشوار المواجهة الوطنية مع السلطة الرجعية الصهيونية ، ولفظته الجبهة ، بناء عليه . ويميزها كذلك محاولة تجميع كل من غضب على الجبهة ، من منطلق ذاتي ، لعدم تبوئه مركزا ما .

ولكن الأمر الأساسي الذي يميزها هو كونها بؤرة ، ليس للساقطين والمفلوظين من الجبهة والمرتدين عن الحزب الشيوعي ، فحسب ، وانما لكافة العريقين في التعاون مع السلطة والمرشحين السابقين في القوائم السلطوية المكشوفة أو في القوائم العائلية والطائفية ، المرتبطة بالسلطة . ولم يجد العديد من هؤلاء أية صعوبة ، في الانتقال من تركيز المعركة الانتخابية للمعراخ ، أو لميام ، أو لحزب المتدينين أو للقوائم العربية السلطوية المرتبطة بالمعراخ ، رأسا الى تركيز المعركة الانتخابية للتقدمية . أن أي استعراض إسمي لقادة التقدمية في أية مدينة أو قرية كانت ، تثبت هذه الحقائق . بل وكثيرا ما نجد الشخص نفسه مركزا لمعركة الانتخابات البلدية ، «للتقدمية» ، ومركزا لمعركة الانتخابات الهستدروتية ، «للمعراخ» ! فالفكر والتزواج القومجي - في ركل طابة الشيوعية ! - قائم حتى على صعيد الشخص الواحد ، أحيانا ، بين صفوف قوجيجي «التقدمية» ! ثم ان إحدى المساخر القوججية هي ليس فقط ان تطبع «التقدمية» نشرتها ، أحيانا عديدة ، بألوان العلم الفلسطيني الاربعة ، وأمام أعين

السُّلْطَة التي لا تحرك ساكنا ، بل ان نجد شعارا او علما بالالوان الاربعة معلقا على واجهة بيت أو حانوت لعمل معراخي عريق ، في هذه البلدة أو تلك ! وتحت بصر السلطة ، وبتأييد منها . عميل قرر ان يدعم ، في معركة انتحائية ما ، «التقدمية» ضد الجبهة ، وبتوجيه من أسياده !

هذا ، علما ، بأن السلطة الاسرائيلية الهمجية في عدائها للعرب ولل فلسطينيين ، لم تتورع عن زج العشرات في غياهب السجون ، لأنهم احترموا العلم الفلسطيني وصانوه . ولم تتورع عن محاكمة اعضاء من الشبيبة الشيوعية لأنهم ارتدوا قمصانا كتب عليها : «لن ننسى صبرا وشاتيلا» . ولم تتورع عن شن غارة ، على مهرجان للأطفال ، في الناصرة ، من تنظيم الشبيبة الشيوعية ، مستغلة «الحجة القانونية» ان اوراق الزينة والبالونات المعلقة ، في سقف ساحة الاحتفال ، تحوي بين ألوانها التي فاقت العشرة ألوان ، ايضا الاخضر والاحمر والاسود والابيض !

لذلك فالمسألة ليست مسألة «فلسطينية الجذور والنداء والتطلعات» وإنما مسألة «رجعية الجذور ومعراخية النداء وامريكية التطلعات» . أما المزايدات القومجية ، فهذه لعبة قديمة . ولقد اتقنها المبام ، كما أشرنا ، منذ الخمسينات . ثم ما من رجعية أرادت الاستسلام ، لدى قومية ما في العصر الحديث ، إلا وتمسحت وتمسحت بالقومجيات . ولذلك فحتى على هذا الصعيد ، لم تجدد «التقدمية» أي شيء يذكر .

وأخيرا ان الذي يدعو الى قطف الرأس ، ويولد بعد تنسيق مع عراقي السلطة الاسرائيلية ومستعرييها ، ويتعلق بأوهام الحلول الامريكية ، ويزين مساريع الاستسلام العربية ، ويحظى بدعم وعطف رجالات السلطة والمتعاونين مع كافة الاحزاب الصهيونية ، وتبدليع وسائل الاعلام الصهيونية ، والذي يرتد نحو تقاليد «المِرْصاد» المباشية في أسوأ أيامها ، ولا يجد من معركة «قومية» له في اسرائيل الا السَّعْرُ المهستير في العداء للحزب الشيوعي وللجبهة ولبلدية الناصرة ولصحيفة «الاتحاد» ، ولا يتورع عن نفث الاكاذيب السامة الرخيصة ، المستقاة من جعبة الصهيونية ، على قادة الحزب والجبهة ، والذي لا يجد له من أعداء «قوميين» في اسرائيل إلا الشيوعيين والجهويين ولجنة الدفاع عن الاراضي ، ولجنة رؤساء السلطات المحلية العربية واتحادات لجان الطلبة الجامعيين والثانويين ، ... الخ ، الخ ولا يجد

له من حليف «قومي» إلا «الترتيقا» إفتيري - الأحرى به أن يسارع إلى
الاغتسال ، هذا إذا ما زال يكفي صابون الأرض لازالة هذا الوسخ
المتراكم ، لا أن يتشدد بالعروبة وبفلسطنة الكفاح !
اذ أن الأمانة القومية تتناسب ، عكسياً ، مع المزايدة القومية !
أما الخيانة القومية فتتناسب ، طردياً ، مع المتاجرة القومية !
أما العداء للشيعوية ، في عصرنا الراهن ، فيبقى اقصر الطرق
للخيانة القومية !

طبقة الصراع القومي

هل الصراع الاسرائيلي - الفلسطيني صراع طبقي ، أم صراع
قومي* ؟ !

لا يجوز طرح المسألة على هذا النحو الميكانيكي الفج . وكل من
يطرحها ، بهذا الشكل ، بقصد الاثبات انه صراع قومي ولا دخل للطبقية
به ، يهدف - اذا استثنينا ذوي النوايا الحسنة - إخفاء موقفه الطبقي
الرجعي ، من المسألة القومية .

ويعتقد الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، مثله مثل أي حزب شيوعي
آخر ، أو أي تنظيم ديمقراطي ، ثوري ، انه من غير الممكن فصل المسألة
القومية - بما فيها مسألة المساواة القومية ، أو مسألة حق تقرير المصير - عن
خلفيتها الطبقية وعن القوى الطبقية المتصارعة على الساحة . وذلك
لأسباب الأساسية التالية :

* أولاً ، لقد نشأت المسألة القومية ، أصلاً ، مع انقسام المجتمع
إلى طبقات متصارعة . ولا يمكن فصل النظام الاستعماري ، مثلاً ، عن
النظام الرأسمالي ووصول البرجوازية إلى أعلى مراحلها - الامبريالية .
كذلك من غير الممكن فصل قضايا الاضطهاد والتمييز القوميين عن سياسة

* انظر موضوع «الخلفية الطبقية» ، في هذا الكتاب .

الطبقة البرجوازية الحاكمة والتي تلجا الى الشوفينية ، كإحدى الوسائل لضمان سيطرتها الطبقة ولتشديد استغلالها ولزرع الفرقة والتناؤ ، بين أبناء مختلف القوميات ، مما يسهل عليها اضطهاد واستغلال أبناء كل القوميات . * ثانياً ، ان تاريخ المجتمعات ، ما عدا تاريخ المشاعية البدائية وتاريخ الشيوعية ، هو تاريخ صراع بين الطبقات . ولا يمكن فصل أية قضية في المجتمع الطبقي المتصارع ، عن الطبقات ومصالحها المتناقضة . فالصراع الطبقي قانون موضوعي وشامل . وكل البناء التحتي للمجتمع الطبقي ، متخم بالصراع الطبقي . كذلك هو البناء الفوقي . وإذا كنا لا نستطيع فصل حتى مسألة الاخلاق عن الطبقات وصراعاها ، كيف يمكن فصل المسألة القومية عنها ؟ !

* ثالثاً ، القومية البرجوازية والأمية البروليتارية - شعاران يعبران عن سياستين مختلفتين لمعسكرين طبقيين متناقضين ، تجاه المسألة القومية . ومهما تاجر القومي بالقومجيات ، ومهما زاود ، تبقى المسألة : ما هو موقفه الطبقي من المسألة القومية العينية المطروحة ؟ صحيح انه قد تلتقي أحياناً ، بل وغالباً ، مصلحة البرجوازية ، لدى الأمم المظلومة ، مع مصلحة البروليتاريا والجماهير الشعبية ، حول هذه القضية القومية أو تلك . مثلاً حول مسألة حق تقرير المصير . لكن هذا لا ينفي طبقية المسألة القومية ، وإنما يؤكد - وهذا ما كنا قد أشرنا اليه سابقاً - انه بإمكان البرجوازية ان تمثل مصالح قومية عامة ، في مراحل معينة ، عندما لا تتعارض مع مصالحها الطبقة - بل وتخدمها .

ولكن حتى عندها ، فقط الاعمى - عن طبقية رجعية مقبنة - لا يرى انه رغم نقاط الالتقاء ، والتي يجب ابرازها وتقويتها لحل المسألة الديمقراطية العامة ، فان سلوك وطرح وتوجه البرجوازية نحو حل المسألة القومية يبقى مغايراً ، في عدة تفاصيل ، عن سلوك البروليتاريا . ومن ابرز معالم هذا السلوك البرجوازي محاولات الاستئثار والتذبذب والمساومات البغيضة ... الخ .

في نشرة «الوطن» ، بتاريخ ١٩٨٦/٢/٢٤ ، وصل الأمر بأحد المرتدين عن الشيوعية حدّ التقرير القاطع انه «لا علاقة بين الصراع القومي والصراع الطبقي» . ومن يُقر بهذه العلاقة ، حسب رأيه ، هو «بعيد

كل البعد عن التفسيرات اللينينية للمسألة القومية». ولماذا - لا فض فوه ؟ ! هكذا ! اذ رغم اعترافه بأن الصراع من أجل حق تقرير المصير هو صراع سياسي ، لم يستطع - بسبب من «عبقرية» قومية ، تخفي طبقية مريضة - ان يرى الرابط بين هذا الصراع وبين اشكال الصراع الطبقي الثلاثة ، والتي يحفظها ميكانيكيا ، وهي : الاقتصادي والايديولوجي والسياسي . وكان الإجدر به ان يفهم ، بناء عليه ، ان الصراع القومي ، بصفته صراعا سياسيا ، هو جزء لا يتجزأ من الصراع الطبقي واشكاله . وعندما ذكرت صحيفة «الاتحاد» ، بتاريخ ٨٦/٢/٢٥ ، هذا المرتد بقول لينين ان الناس سيظلون ضحايا ساذجة ما لم يستشفوا مصالح الطبقات وراء التعابير والبيانات السياسية ... الخ ، ثارت ثائرتة ، وكذلك قريحته القومية . فاتهمنا ، [«الوطن» ٨٦/٢/٢٨] ، بعدم «فهم المقروء» و «بأقصى درجات الغباء» و «بالعهر السياسي» و «بالتفسيرات الجوفاء» وبالتشبع «بالدماغوية الفارغة» (؟) ! .

لا يستطيع الحزب الشيوعي ، طبعاً ، ان يجاري هذا المستوى «الاكاديمي» من العلمية «القومية» . لذلك نكتفي برد لينين ، على كل أولئك المنكرين للخلفية الطبكية للمواقف السياسية ، بما فيها الموقف من المسألة القومية . لقد وضعهم لينين في المكان الذي يستحقونه . اذ كتب يقول : «ان من يتحدث ، بعد تجربة أوزوبا وآسيا ، عن سياسة لا طبقية وعن اشتراكية لا طبقية ، انما يستحق وضعه في قفص وعرضه الى جانب كنغر أسترالي» * .

* لينين ، مقالة «مصادر مذهب كارل ماركس التاريخية» . المختارات في عشرة مجلدات . المجلد الخامس . ص : ٢٩ .

حقيقة الموقف الطبقي للحزب الشيوعي الاسرائيلي ، من المسألة القومية

كثرت الافتراءات الخسيسة ، في هذا المجال ، تشويهاً للمواقف الحقيقية للحزب ، وكثيراً ما كان يلتقي اليمين الرجعي مع «اليسار» المغامر ، في اطلاق الاتهامات والافتراءات . أما قوبجيو «التقدمية» فبزوا الجميع ، افتراءً وتشويهاً لدرجة اطلاق الافتراء ثم نقاشه على أساس ان هذا هو موقف الحزب .

في البدء ، يجب التأكيد على ما يلي :

* أولاً ، الموقف الطبقي هو مسألة موضوعية بحكم انقسام المجتمع الى طبقات . ان انكار هذه الحقيقة لا يعني تبني وجهة نظر المصلحة القومية ، وانما يعني التفريط بالمصلحة القومية عن طريق عزلها عن المصلحة الطبقية للبروليتاريا - أي عزلها عن أضمن صائن لها . هذا ما يؤكد الحزب .

* ثانياً ، تتحدد الطبقات الاجتماعية ، بناء على الموقع من عملية الإنتاج . ولكن الموقع الطبقي ، ورغم أثره الكبير والأساسي ، لا يؤثر ميكانيكياً وأتوماتيكياً على النظرة الاجتماعية للانسان . فقد يكون الانسان عاملاً ، أباً عن جد ، ولكنه رجعي في مواقفه السياسية . بل وقد يصبح صهيونياً وفاشياً ! والعكس صحيح . فكم من ابن للبرجوازية ، الصغيرة منها خصوصاً ، تبني موقف البروليتاريا ، وكان تقدماً ودمقراطياً ! لم يكن انجلس مثلاً فريداً . لذلك اكاذيب ، في اكاذيب ، تلك التي تتهم الحزب بأنه يستثني البرجوازيين والتعاون معهم ، في حل المسألة القومية مثلاً ، بسبب من نظرتة الطبقية .

* ثالثاً ، يرى الحزب الشيوعي الاسرائيلي [مثله مثل سائر الاحزاب الشيوعية] ان النضال من أجل حل المسألة القومية هو جزء من النضال العام من أجل الاشتراكية . وهو يدعو للتحالف ، في هذا النضال ، مع

أوسع فئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ، ومع أي برجوازي كبير يقبل بذلك ، في سبيل حل المسألة القومية .

لنتفحص ، مثلاً ، الموقف من القضية الفلسطينية* . كيف يمكن عدم رؤية المضمون الطبقي لهذه المسألة ؟ ! ان «الانتداب» البريطاني على فلسطين ، كان تعبيراً عن التوسع الكولونيالي للرأسمالية الأوروبية . كذلك الأمر بالنسبة لمخططات الحركة الصهيونية ، بصفتها ربيبة وحليفة للاستعمار . هذا دون انكار الخصوصيات التي رافقت عملية الاستيطان اليهودي في البلاد ، والتي تحدثنا عنها سابقاً ... ونحن نعتقد انه لا يمكن فصل الصهيونية عن كونها تمثل مصلحة البرجوازية اليهودية الموالية للاستعمار . كذلك لا نستطيع غسل أيدي الرجعية العربية ، بما فيها الفلسطينية ، من قسطها في المسؤولية عن المأساة التي حلت بالشعب العربي الفلسطيني .

ولأولئك الذين ينكرون أي رابط بين «الطبقي» و «القومي» ، نقول : إذن كيف يمكن تفسير الحلف الثلاثي الدنس بين الامبريالية ، الامريكية خاصة ، والصهيونية والرجعية العربية لمنع حل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً ؟ ! لا نتوقع ان يجيبنا أحد ، اذا لم يكن نزيل مستشفى مجاذيب ، ان هذا حلف بين الامريكيين واليهود والعرب على أساس قومي ! ولا نتوقع كذلك ان يصل الشطط بأحد ما حدّ القول ، مثلاً ، ان خيانة الرجعية العربية ، بما فيها الرجعية الفلسطينية ، ومنذ ثورة ١٩٣٦ وقبلها وحتى اليوم ، كانت على أساس قومي وليس على أساس طبقي . أي عادي العرب العرب على أساس قومي ! وتأمّر الفلسطينيون على الفلسطينيين ، على أساس العداء القومي بين الفلسطينيين والفلسطينيين ! .

ان إضاعة البوصلة الطبقية ، كما ترون ، لا توصل الانسان ، وأخيراً «الى التعبير القومي عن ذاته» ، وإنما توصله الى متاهات جهنم والى الضياع الذاتي والشامل ، هذا اذا كانت نيّته حسنة ! أما اذا كانت

* انظر موضوع «مثال الحزب الشيوعي الاسرائيلي والموقف من المسألة القومية» ، في هذا الكتاب .

هذه «الاضاعة» كاذبة وستارا لطبقية رجعية بغيضة ، فانها تحدد موقع صاحبها : حرض الاستعمار أو الصهيونية أو الرجعية العربية . «تحتى وتنقى» - كما جاء في المثل !

ولا ينكر ، بل يؤكد ، الحزب الشيوعي الاسرائيلي وجود مسألة قومية بالنسبة للشعب العربي الفلسطيني . وهي لا شك قضية قومية ، بمعنى كونها قضية صراع من أجل حق تقرير المصير . ولكنه يؤكد انه لا يمكن حل هذه القضية بمعزل عن الصراع الطبقي ، باشكاله الثلاثة الغنية ، والدائر محليا وشرق اوسطيا وعالميا .

ويعتقد الحزب ان برنامج الحل العادل ، الآن ، يجب ان يقوم على أساس حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني في الضفة والقطاع ، الى جانب اسرائيل ، وحق اللاجئين بالعودة أو التعويض . وهذا هو الحل العادل الوحيد والممكن الآن . وهذا الحل مرتبط عضويا بتطور الصراع الطبقي ، محليا وشرق اوسطيا ودوليا . ان مسألة إقامة دولة ديمقراطية واحدة غير واردة وغير ممكنة الآن . وهذا ما يقربه كل انسان لا يريد العيش بالاوهام ، أو لا يريد المتاجرة بالقومجيات لاختفاء عجز وتأمر رجعي .

ويؤكد الحزب ان حق تقرير المصير ، لا يمكن ان يتحقق إلا على أساس التلاحم الوطني الوطيد للشعب العربي الفلسطيني ولقيادته السريعة ، (م. ت. ف.) ، على مختلف فصائلها . وكذلك على أساس توطيد التحالف مع القوى والبلدان العربية التقدمية ، ومن منطلق العداء للاستعمار وللرجعية . هذا بالإضافة الى توطيد التحالف مع المعسكر الاشتراكي وكل القوى الثورية والديمقراطية ، على الصعيد العالمي ، جنبا الى جنب مع تشديد الكفاح ضد الاحتلال وضد الاستعمار .

ولكن هنالك قوى تدعى تنكرها للطبقية وتعلن انها تكافح من أجل حق تقرير المصير ، لكنها تحلم بتحقيق هذا الحق عن طريق مغازلة الاستعمار والرجعية العربية ، بما فيها الملك الهاشمي وعربا «كامب ديفيد» الخ .

وهكذا ، الا يعكس هذان النهجان المتناقضان ، اختلافاً جذرياً في النظرة الطبقة الى حل المسألة القومية ؟ ! ان طريق أيتام «كامب

ديفيد» ، والمتاملين بهم ، هو طريق طبقي سيقود حتما الى المزيد من ضياع المصالح الوطنية ومن تأجيل حل المسألة القومية . اما الطريق الديمقراطي - الثوري ، فسؤدي حتما الى الحل العادل ، وبفترة زمنية اقصر وبضحايا وخسائر أقل ، مهما ظهر انه طريق شاق وطويل .

اضف الى هذا ان الحزب الشيوعي الاسرائيلي لم يقل ، في أي يوم من الايام ، «ان الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين هو صراع طبقي بين طبقة فقراء وعمال من جهة وبين أغنياء واقطاع من جهة أخرى» ، كما تشدق «الوطن» ، بتاريخ ١٩/٧/١٩٨٥ . فهذا الطرح الميكانيكي الفج أشد سذاجة حتى من القول ان ألوان العلم الفلسطيني هي الاحمر والابيض والاسود والاخضر - اذن فالبطيخ فلسطيني ! وهذه ، لعمرى ، سذاجة تليق بمن ينسب هذا القول ، كذبا ، للحزب الشيوعي حتى يجد ما يشتمه بسببه وحتى تتألق قوجيته «المتحررة» من طبقة العداء المسعور للشيوعية !

فالمسألة القومية ليست مسألة صراع طبقي فاصل بين البروليتاريا والبرجوازية . وكذلك أية مسألة ديمقراطية أخرى . اذ يفرق الشيوعيون ، وبجدّة ووضوح ما بعدها. حدة ووضوح ، بين برجوازية الأمم الظالمة وبرجوازية الأمم المظلومة . فهناك برجوازية مستعمرة وهناك برجوازية مستعمرة . وهناك برجوازية امبريالية تنته وهناك برجوازية وطنية صاعدة . وهناك ايضا شرائح برجوازية ، من بين برجوازية الأمة الظالمة ، ليس في مصلحتها استمرار الاستعمار ، وقد تقف الى جانب حق تقرير المصير للأمم المظلومة .

كذلك لم يقل الشيوعيون ان «حل الصراع لا يتم الا بالتسويات الطبقيّة» ولا يختلقون «فيما بيننا نحن الفلسطينيين ، صراعا طبقيًا ..» [«الوطن» ٨٦/٢/٢٤] . فالصراع الطبقي لا يخلق ، وانما هو واقع موضوعي موجود بحكم وجود الطبقات ، وأحد دلالاته هو هذا الحقد الطبقي الدفين والمتوارث ضد الشيوعيين ، كما يظهر في هذه الاتهامات والاكاذيب .

ثم ان أحد احقر الاكاذيب - الجرائم ! - بحق الشيوعيين هو القول على لسانهم انه لا يمكن حل الصراع القومي ، من اجل حق تقرير

المصير ، الا عن طريق الصراع الطبقي للقضاء على البرجوازية !
فالشبيوعيون وحلفاؤهم جادوا بأرواحهم ، وبصمود قل مثله ، تحت قيادة
البرجوازية ، لتحقيق الاستقلال الوطني لهذا الشعب أو ذاك . أما دولهم
الاشتراكية فوضعت مقدراتها العسكرية والاقتصادية والسياسية لدعم
البرجوازية الوطنية في تحقيق هذا الاستقلال وفي صيانه . ليس
الشبيوعيون هم الذين يستثنون البرجوازية الفلسطينية ، مثلاً ، في الكفاح
من أجل إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة . انما يحدث العكس أحياناً . إذ
يتم حرمان الشيوعيين من التمثيل العادل في العديد من المؤسسات
القيادية - التمثيلية لحركة التحرر الوطني الفلسطينية .

والحزب الشيوعي الاسرائيلي ليس فقط لا يربط إحقاق حق تقرير
المصير بالانتصار الطبقي على البرجوازية الاسرائيلية (مع ان هذا كان
ممكناً ، وحدث ، في بعض البلدان) وإنما يؤكد العكس تماماً . أي يؤكد ان
التحرر القومي للشعب العربي الفلسطيني هو المقدمة للتحرر الطبقي
للشعب في اسرائيل .

ان توجيه الضربة القاصمة للبرجوازية الاسرائيلية يبدأ بتوجيه
الصفعة لها في الضفة والقطاع المحتلين ، عن طريق تحريرها . ان تحرير
الطبقة العاملة الاسرائيلية - تماماً كما قال ماركس عن تحرير الطبقة العاملة
البريطانية - يرتبط بتحرير فلسطين (إيرلندا) . وتحرير فلسطين ليس شرطاً
من شروط العدالة العامة ، وهذا ما يجب ان تعرفه الطبقة العاملة
الاسرائيلية ، وإنما هو المقدمة الضرورية للتحرر الاجتماعي لهذه الطبقة .
وهنا نصل الى مسألة تصوير ان الصراع الفلسطيني - الاسرائيلي ، هو
صراع «قومي» ، ليس إلا» بدليل ان اسرائيل لا توافق على دولة فلسطينية
بقيادة البرجوازية ، ايضاً . وبدليل ان اليهودي يحارب الفلسطيني كفلسطيني
وبغض النظر اذا كان هذا غنياً أم فقيراً !

الله ! الله على هذه الاشراقات القومية ! ان اسرائيل لا توافق على
دولة فلسطينية حتى لو تزعمها متآمرون . اذ هذا ما تتطلبه مصلحة
البرجوازية اليهودية ، الصهيونية والمرتبطة بمصلحة الامبريالية الامريكية .
والامبريالية الامريكية غير مستعدة «لتدليع» الرجعيات العربية ، من المحيط
الى الخليج ، على حساب ربيبتها اسرائيل . اذ انها تعرف مسار التطور

التاريخي القريب واين الورقة الرابعة . ولكن ما دخل هذا الامر في تأكيد الحزب الشيوعي على وجود خلفية طبقية للمسألة القومية ولحلها ؟ ! ان البرجوازيات القومجية المختلفة مستعدة لأن تأكل بعضها البعض ، وخصوصاً في مرحلة الامبريالية ، ولأن تشعل حروباً عالمية للتحقيق من سينهب شعوباً ودولاً أكثر . فكيف نتوقع إذن معاملة البرجوازية المستعمرة لبرجوازية أمة مستعمرة . غير معاملة محاولة هضمها وجعلها تابعا ذليلاً ووكيلاً لها . في مستعمراتها ؟ !

وهذه الحقيقة بدلا من ان تنفي طبقية المسألة القومية ، تؤكدها . وتؤكد صدق وعلمية دعوة الشيوعيين لبرجوازية الأمة المظلومة لأن تلتحم أكثر بالأماي الوطنية لشعبها ، لا ان تتعلق بأوهام وسراب الحلول الامبريالية ، وبمساومات برجوازية الأمة الظالمة .

أما القول ان اليهودي يحارب الفلسطيني كالفلسطيني ، فهذا بدوره يثبت مدى نجاح البرجوازية في تشويه حقيقة الصراع وفي غرس بذرة الشوفينية السامة ، حتى درجة اقتناع فصائل من الأمة المظلومة ان «العداء قومي ليس إلا» ! وكأن استعمار بريطانيا للهند كان عداء «قومياً ليس إلا» بين البريطانيين والهنود . أو كأن استعمار فرنسا للجزائر ، كان هو الآخر «عداء قومياً ، ليس إلا» . فأية خدمة ممكن ان تتمناها البرجوازية اليهودية الصهيونية ، أسمى من هذه الخدمة ؟ إنى أراها تفرك يديها طرباً : أتوني أتوني بالمزيد من هؤلاء القومجيين العرب ! «لفوهم» بالاعلام ، حتى لو كانت بالألوان الاربعة !

ان الحزب الشيوعي الاسرائيلي إذ يؤكد على وجهة النظر الطبقية ، «لا يخدم في الدرجة الاولى سياسة اسرائيل» ، وإنما يفضحها ويعريها ويعادياها ، أشد العداء . ان الصهيونية هي التي تدعي ان الخلاف «قومي ، ليس إلا» . وبناء عليه تدعي انها حركة تحرر قومي لشعب . وانه يوجد شعبان مختلفان و «الصراع هو صراع بقاء ، صراع كن أو لا تكون» . لذلك تبقى تلك الطروحات «القومجية» ليست مغرقة في ثورتها وفي «فلسطينيتها» ، وإنما مغرقة في رجعتها الى حد تبني منطق الصهيونية وخدمتها ، ولو موضوعياً . أما «التقدمية» فقررت ان تكون الخدمة اختياراً ذاتياً عندما لم تجد من عدو قومي لها في هذه البلاد الا «طبقية الشيوعيين»

وحلفائهم الجبهويين ، والا سوريا والاتحاد السوفيتي وافغانستان وايويا
واليمن الديمقراطي ... الخ .. الخ . وعندما لم تأتلف إلا مع حركة افنيري
التي تؤكد ، دون أية موارد ، ان الصهيونية حركة تحرر قومي !
والشيوعيون ، كذلك ، اذ يلتقون مع الاتحاد السوفيتي ، في
توجههم الطبقي للمسألة القومية ، لا يبيعون المصالح القومية لسعوبهم .
وانما يلتقون مع الحليف المضمون لضمان تحقيق هذه المصالح . فكلمات «لا
مبادئ الا فلسطين» و «لا شرقية ولا غربية» ، لا تعني عدم وجود مبادئ
إطلاقا ولا تعني اختراع مبدأ فلسفي جديد اسمه «فلسطين» ، وانما تعني
محاولة التستر بورقة توت لاختفاء العورة الخيانية للمصالح الوطنية .
اذ كيف يمكن تحقيق تحرير الاراضي الفلسطينية ان لم يكن هذا عن
طريق تصعيد الكفاح ضد الامبريالية وتعزيز التلاحم مع الاتحاد السوفيتي
وسائر المنظومة الاشتراكية ، لا التشكيك بها . لقد دلت خبرة الشعوب ،
وعلى رأسها خبرة شعوبنا العربية ، انه ما من مكسب وطني تم تحقيقه ،
في التاريخ المعاصر ، إلا وكان بفضل الصداقة مع الاتحاد السوفيتي .
وما من هزيمة وطنية وقعت إلا وكانت في ظل غياب توطيد هذه
الصداقة . اذ ان طريق الخيانة القومية يبدأ بخطوة أولى إسمها : العداء
للسوفييت . عندما احتاج عبد الناصر تأمين القناة وبناء السد العالي وبناء
الصناعة الوطنية والقوات المسلحة وإجراء الاصلاح الزراعي - بنى وعمق
الصداقة مع الاتحاد السوفيتي . وعندما قرّر السادات التوجه نحو «كامب
ديفيد» وإرجاع فلول الاقطاعيين وكهار البرجوازيين للحكم ، وتنفيذ سياسة
الانفتاح الاقتصادي والسياسي ، على الامبريالية ، فصمّ الصداقة مع الاتحاد
السوفيتي .

لذلك لا توجد نزعة قومية وطنية اشرف واشد وطنية من تلك التي
تتبنى وجهة المصلحة الطبقية للفئات الجماهيرية . وكل زعيق قومي آخر ،
ومهما تشنج وأزبد و «تفلسطن» ، يبقى ستارا هشا لموقف طبقي رجعي .
ويبقى أشبه بالزعيق القومي للرجعيات العربية ، قبل ال ١٩٤٨ وبعدها ،
والتي لم تعدم الوسائل السرية للتعاون مع الصهيونية لتهجير آلاف الآلاف
من اليهود الشرقيين الى البلاد . وهذه الرجعية ، بما فيها الرجعية العربية
السودانية ، أخذت تثير الشكوك والعداوات نحو أثيوبيا ، في مطلع سنة

١٩٨٦ بحجة تهجير «الفلاسا» الى اسرائيل . حتى تم الانقلاب في السودان وتكسفت حقيقة مسؤولية حاكم السودان السابق ، العربي القومجي - النميري ، في تنفيذ هذه العملية .

لذلك لا يمكن أن ينسى الشعب الفلسطيني العنتريات القومجية للرجعية العربية ، وما جرّته عليه من مآسي . ويبقى السؤال قائماً : كيف تآق اسرائيل ان تنتهك وتواصل انتهاك حقوق الشعب العربي الفلسطيني ، في هذا المحيط العربي الضخم ، وما دام الصراع قومياً «ليس إلا» ؟ . ان الرجعية القومجية العربية ، اذ ترطن صباح مساء عن الصراع القومي «ليس إلا» - نراها تستقبل «العزیز» الامريكي تلو «العزیز» وتبيعه البترول ، القومي العربي ! ، حلالاً وشرعاً ، وتغمر بنوكه بالأموال ، القومية العربية ! ، حلالاً زلالاً ، لاستمرار عمل ماكينته الاقتصادية - نابالم وقاكوم - حلالاً زلالاً ، على بيروت العربية وصبرا وشاتيلا وأخواتها .

لقد عرّى الحس الشعبي للجماهير الشعبية هذه الرجعية عندما ابتدع النكتة - الجدّية ! - التالية : سُئِلَت الرجعية العربية عن اسم دولة عربية مغتصبة . من ستة احرف ، وتبدأ بحرف ال «ف» ، فأجابت : افغانستان ! ابعاد مسلسل التجارب المريرة ، والمستمر ، مع الرجعية العربية ينشأ بين العرب ، والفلسطينيين منهم بالذات ، مَنْ يتناول على الكرامة القومية للشيوعيين ويتحدّث عن التناقض المزعوم بين طبقيتهم والمصلحة الوطنية لسعهم ؟ !

لقد رفض الشيوعيون العرب ، في اسرائيل ، تنكيس علم الكفاح الوطني ، أو التقاعس في رفعه أو اليأس منه ، حتى في احلك اللحظات . وحتى عندما كان يجري اتهامهم ، من طُرْفِ المتراس ، بالخيانة الوطنية . وهكذا تصرّف الشيوعيون اليهود ، دفاعاً ايضاً عن الحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني ، بينما كانت العديد من العواصم العربية تخون هذه الحقوق .

ورفض الحزب الشيوعي الاسرائيلي المواقف الطبقيّة الفجة والخاطئة لبعض فلكات «متسبين» ، «اليسارية» المغامرة في الأمس ، ولميلاتها في العالم العربي ، عندما رفعت بحجة الطبقيّة شعار : «من أجل فلسطين اشتراكية» . أو شعار ان تحرير فلسطين أمر أجل ، أما الأمر العاجل فهو تحرير العواصم

العربية من برجوازيته - كمدخل لتحرير فلسطين !
وعرّى الحزب ضحالة مثل هذا الفهم «الطبقي» . وكشف عداؤه
لجوهر الماركسية - اللينينية ولمواقفها من المسألة القومية . وأكد ان مثل هذه
الشعارات تخدم ، أولاً وقبل كل شيء ، حكام اسرائيل ودوام احتلالهم .
كذلك انتقد الحزب كل نزعة «يسارية» بالغت في انتقاد بعض اخطاء القيادة
الشرعية لحركة التحرر الوطني الفلسطينية ووصلت الى حد المطالبة ، بحجة
هذه الاخطاء ، بفصم التحالف الوطني معها . فكيف يمكن ، إذن ، اتهام
الشيوعيين بتغليبهم لمصلحتهم الطبقية المناقضة للمصالح الوطنية ؟
لقد أكد الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، ويؤكد دوماً ، ان الموقف
الطبقي السليم هو الموقف الوطني السليم . لذلك لا يمكن ان يأتي اتهام
الشيوعيين في اسرائيل بتغليبهم للمصالح الطبقية والأمية على المصالح
الوطنية ، إلا من قبل صهيوني نذل - وبحق شيوعي يهودي ، أو من
قبل قومي عربي رجعي - بحق شيوعي عربي . ويكون السبب ، اذا
استثنينا حسن النية ، قرار الاثنين انه ما من «قومية» و «وطنية» الا
قومية ووطنية الركوع أمام «البيت الابيض» . وعلى هذه الخلفية جرى
تشكيل «الحركة التقدمية» ، القومية ، عربياً ويهودياً !

الموقف الطبقي السليم ، هو الموقف الوطني السليم

ويؤكد الحزب الشيوعي الاسرائيلي انه لا يمكن النظر الى مسألة
الصراع الاسرائيلي - الفلسطيني على أساس «نحن العرب وهم اليهود»
وعلى أساس انه صراع «كن أو لا تكون» ولا «يوجد فيه أي مجال
للتسوية» . ان مثل هذا الطرح لا يوصل الانسان «وأخيراً ، الى التعبير
القومي عن ذاته» ، وانما يوصله الى برائن الحركة الصهيونية وأخطائها
وخدمة مخططاتها . اذ هذا هو منطلق الصهيونية . لقد قالها اسحق رابين ،
عندما كان رئيساً لحكومة اسرائيل ، بصراحة : «لا لقاء مع الفلسطينيين إلا

في ساحة الوغى» مشيراً الى أن هذه «الساحة» هي التي ستقرر مَنْ سيبقى ومن سيُباد . وقالها رفائيل ايتان ايضاً ، عندما كان رئيساً للاركان ، حين اعتبر ان حرب اليهود مع الفلسطينيين حرب وجود ولن تنتهي إلا بأن تقضي قومية على الأخرى .

ان مثل هذه المنطلقات ، عدا عدم صحتها ، تلحق أشد الضرر بالقضية الفلسطينية ، اذا أتت على لسان الضحية . ولم يغب ، بعد ، عن ذهن الشعب العربي الفلسطيني الاضرار الفادحة التي جلبتها مثل هذه المواقف في الاربعينات ، وخصوصاً في أثناء عرض القضية في الأمم المتحدة . ولم تغب كذلك سلبيات العنتريات القومية ، كما ظهرت في اذاعة مصر على لسان احمد سعيد ، قبل حرب حزيران ١٩٦٧ . لقد كانت هذه المواقف ، ولا تزال ، تقدّم اكبر الخدمات لحكام اسرائيل ، الذين لجأوا حتى الى ترجمتها لللغات الأجنبية وتوزيعها في اوروبا . وذلك بهدف تصوير الضحية كمعتدي وكمتموحش .

ان المعتدي المتوحش هم حكام اسرائيل الصهيونيين الذين يسعون لإبادة الشعب العربي الفلسطيني ويتباكون على «خطر» إبادتهم من قبل الضحية . يلقون بالشعب العربي الفلسطيني في متاهات صحارى الغربه ويتباكون على خطر «رميهم» في البحر ، من قبل الضحية . يطلقون الرصاص على الضحية ويتحدثون عن خطرها على السلام الخ . وبناءً عليه ان «التعبير القومي عن الذات» لا يكون تعبيراً سليماً ومفيداً إلا اذا كان ديمقراطياً . وما من مكسبٍ حققته القضية الفلسطينية ، عالمياً وشرقاً وأوسطياً ، إلا وكان ملازماً للطرح الديمقراطي للمسألة وللتخلي عن العنتريات القومية الضارة . اذ ان هنالك «مجال للتسوية» والمسألة ليست مسألة «كن أو لا تكون» . فجميع القوميات ستكون وستتم التسوية ، ديمقراطياً ، بابرار حقيقة التحالف الطبقي الدنس للاستعمار وللصهيونية وللرجعية العربية ، وبتشديد الكفاح ضده . هذا مع التأكيد ان العدو الرئيسي هو الامبريالية وربيته الصهيونية ، كما تتجلى في السياسة العدوانية لحكام اسرائيل ..

ان الرسالة التي يحملها الشعب العربي الفلسطيني هي رسالة وطنية ديمقراطية عادلة . فلا نلطخها بالقومجيات الفارغة ! وعلى هذه الرسالة أن

تخاطب عقل وقلب كل مواطن في اسرائيل بان عدوه يقبع في عقر داره . ان الشعب الفلسطيني ليس فقط لا يعتبر نفسه عدوا قوميا لليهود كيهود ، وإنما سيجلب السلام والأمان والتقدم الاجتماعي لليهود ، عندما يضمن حق تقرير مصيره وتحرير وطنه المحتل . فليس من عدو «قومي» لشعب اسرائيل اخطر وأشد شراسة من عدوهم «الطبقي» - حكام اسرائيل وسياستهم الصهيونية .

والا ماذا تكون رسالة الشعب الفلسطيني للشعب اليهودي في اسرائيل ، غير القول له : ان حكومة بلاده واحزابه الصهيونية هي الأعداء الطبقيون الوطنيون له . أليست هي التي تسرق عرق جبينه وتهدر دماءه على مذبح مصلحتها الطبقية ، ومصلحة سيدها الطبقية ايضا ؟ أم ان كل هذه الدماء والدموع والاستغلال والفقر والجوع والتضخم والبطالة والعسكرة والغلاء ، مصالح قومية للشعب اليهودي ؟ ألتخدم الصهيونية بهذا الأمان القومي لليهود ؟ هل على العرب أن يتبنوا موقف الصهيونية من أن الصراع «قومي فقط» حتى يصح اعتبارهم وطنيين ؟

صحيح ، انه على سطح الواقع لا تبرز مسألة الصراع الطبقي بكل وضوح . ويظهر ان القوميات هي التي تتصارع . ولكن هذا لا ينفي الحقيقة الموضوعية^١ . فكم من مظهر شكلي يخفي حقيقة موضوعية ، حتى في الطبيعة ، فكم بالحري في المجتمع . هل سكون سطح البحر يعني سكون باطنه ؟ وهل المظهر الخارجي للقمر ، كما يظهر لنا بالعين المجردة ، ينفي وجود صخوره ووديانه وأخاديه ؟ !

ان بروز الصراع كمسألة «يهود - عرب» يثبت مدى نجاح الصهيونية والرجعية في تشويه حقيقة هذا الصراع . أما تبني القسم الغالب من الشعب اليهودي لهذا الموقف فيعكس خطورة تغلغل الصهيونية ، لا حقيقة طبيعة الصراع . ثم اجمالا الحقائق الموضوعية لا يتم تقريرها ، بناء على عدد المعترفين بها . فكم من حقيقة موضوعية نفتها غالبية البشرية ، في عصور خلت وعاقبت مكتشفها بالحرق وبالصلب وبالسجن ، فهل عنى هذا نفي وجودها الموضوعي ؟ !

هكذا هي ، ايضا ، مسألة الطبقية . يطرحون مواقف قوجمية ضارة ، تخفي طبقية رجعية ، ويقولون «مواقفنا قومية وتنبع من صميمنا» ، و «لسنا

بطبقين». لقد أشرنا ، سابقاً ، الى انه ما من طبقة رجعية إلا ونفت طبقيتها وصوّرت نفسها ممثلة لمصالح الأمة . اما ان يحاول البعض إثبات «لا طبقيته» عن طريق القول انه يؤيده عمال وفلاحون ، بل ويصوّتون له ويدخلون في اطار تنظيمه ، فهذه قمة السخافة الطبقية ! غالبية أبناء الفئات المسحوقة ، في اسرائيل ، تتبنى مواقف «الليكود» - التكتل ، فهل ينفي هذا طبقية الليكود ؟ أم انه يشكل تأكيداً إضافياً على مقدرة البرجوازية في تسميم عقول الجماهير المسحوقة ؟ وخصوصاً في ظل وجود مسألة قومية وعدة أسباب موضوعية أخرى حالت ، حتى الآن ، في وصول الحقيقة الى أوسع فئات الجماهير .

لقد أيدَ الشعب الالماني النازية - الفاشية ، بغالبية ، في فترة الاربعينات . لكن هذه الحقيقة لم تنفِ طبقية الفاشية . وانما فقط الفاشيون نفوها وأدّعوا ان ايديولوجيتهم ايديولوجية قومية «تنبع من صميم الشعب الالماني والجنس الآري» . كذلك لم يدّع أي عاقل ان الحرب العالمية الثانية كانت حرب قوميات مختلفة ، قامت على أساس عداء قومي . وانما عرف كل العاقلين الديمقراطيين ان تسعير الشوفينية والعداء القومي هو حصان الرهان الذي تلجأ اليه الفاشية لاختفاء ناتئة جوهرها الطبقي البشع .. كايديولوجية رأس المال المالي ، الاحتكاري ، الاكثر امبريالية ، والاكثر عداءً للطبقة العاملة ولكافة الشغيلة .

واجمالاً يجري الحكم على الناس ، فكم بالحرري على الحركات السياسية ، ليس وفق النياشين التي يعلقونها على صدورهم ، وليس وفق ادعاءاتهم عن أنفسهم ، وانما بناء على افعالهم ومن هم حلفاؤهم ومن تخدم نظرياتهم ومن يصادقون ومن يعادون ... الخ .

ان الحزب الشيوعي الاسرائيلي اذ ينتقد ، أحياناً ، هذا الموقف أو ذاك من مواقف القيادة الشرعية للشعب العربي الفلسطيني واذ يفضح حقيقة العبادة القومجية المهلهلة والمهترئة التي تلبسها «التقدمية» وأمثالها ، دون أن يتخلّى عن المعركة الأساسية والمركزية : فضح سياسة حكام اسرائيل وتعريتهم والكفاح ضدهم ، لا يتخلّى عن «القومية» على مذبح «طبقية ضيقة» أو «مصلحة حزبية تفرّق الصفوف» ، وانما يقوم بذلك ، بالذات ، دفاعاً عن اوسع وحدة صف وطنية وأمية ، ومن منطلق

الحرص على الأماني الوطنية العادلة للشعب العربي الفلسطيني وللشعب الاسرائيلي ايضاً . اذ ان الموقف الطبقي السليم ، هو الموقف الوطني السليم .

أما المواقف اليمينية الرجعية ، أو القومجية الفارغة ، فهي التي تضر بالشعب العربي الفلسطيني وبوحدة صفه الوطنية . فلا تناقض بين طبقة الموقف الشيوعي وبين المصلحة الوطنية للشعب . على العكس تماماً ، فان ضمان المصالح الوطنية هو الذي سيسرع عملية ضمان المصالح الطبقية ، في العالم العربي ايضاً - مع ان هذا ليس مجال بحثنا . اذ كم من رجعية عربية تتاجر بالقضية القومية وبعلم المسألة الفلسطينية لقهر الصراع الطبقي الداخلي ضدها .

ان «الطبقي» و «الأممي» - في موقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي من المسألة الفلسطينية ، متداخل دايلكتيكيا بحيث ان حل المسألة القومية حلاً عادلاً سيضمن المصالح القومية لشعوب المنطقة وكذلك مصالحها الطبقية ، اذ سيفتح الباب على مصراعيه لتعميق مسار الكفاح الاجتماعي للتخلص من الاعداء «الوطنيين» للوطن ، من صهيونية عدوانية أو رجعية عربية .

أما الذين يريدون سلب الحزب الشيوعي حق مثل هذه الانتقادات للمواقف الضارة ، بحجة ان المعركة معركة وطنية عامة وبحجة ان البرجوازية هي التي تقود حركة التحرر الوطني ويجب السكوت والانطواء تحت لوائها ، فانهم لا يخدمون المصلحة الوطنية . وكذلك لا يفقهون «ألف باء» الماركسية ، اذا كان منطلق بعضهم «ماركسيا» . اذ ان :

* أولاً ، السكوت على مواقف ضارة ، يعني السماح بخطر التفريط بالمصالح الوطنية . يعني خدمة الصهيونية والامبريالية والرجعية العربية ، لا الحرص على الوحدة الوطنية . فما من وحدة وطنية مفيدة الا اذا كانت وحدة وطنية ديمقراطية .

* ثانياً ، تأييد المطالب الوطنية العادلة التي تطرحها البرجوازية لا يعني ، بأية حال من الاحوال ، عدم ابراز البروليتاريا لطريقها ، أو عدم احتفاظ البروليتاريا بحقوقها في نقد ونقض الاوهام والاطغايا المعرضة القيادة البرجوازية للوقوع فيها . ومن يريد ان ينتقدنا على هذا ، ومن منطلق

ماركسي ، نحيله على اول برنامج ماركسي مكتوب ، «بيان الحزب الشيوعي» ، وبالذات على الفصل الأخير فيه . وذلك حتى يتأكد انه توجد أمور لا تفقه فيها البرجوازية ، فعلا ، «الفرق بين المئذنة والعصا» ، هذا اذا كانت نيتها حسنة ، أو تشوهها عمداً ، لاختفاء طبقة رجعية .

* ثالثاً ، لا يحتاج الشيوعيون الى مَنْ يعلمهم انه من حق - وبإمكان - البرجوازية ان تقود حركة تحرر وطني . لقد كان الشيوعيون ، دوماً ، طليعة كفاحية مثابرة في كل معركة وطنية عادلة قادتها البرجوازية في التاريخ المعاصر . ولكن شتان ما بين هذا الأمر وبين السكوت على أخطاء البرجوازية ، بحجة هذا الحق . أو الاستمرار بقبول الموافقة على قيادتها للحركة الوطنية ، حتى عندما تبدأ مسيرة خيانتها للحركة الوطنية .

* رابعاً ، لم يقل لينين أبداً - ولا ماركس وأنجلس من قبله - ان قيادة حركة التحرر الوطني من المحتم ، دوماً ، ان تكون بزعامة البرجوازية . بل أكد ثلاثتهم ، ايضاً ، إمكانية قيادة البروليتاريا لها ، في اوروبا مثلاً . أو إمكانية تحقيق مهماتها عن طريق ثورة اشتراكية في دولة مستعمرة ، يتبعها حق تقرير المصير للشعوب المستعمرة . وأكدت قرارات الأمية المتعاقبة ان البروليتاريا ستدعم البرجوازية ، في قيادتها لحركة التحرر الوطنية ، فقط في حالة كون البرجوازية وطنية وثورية ، حقاً ، في طرحها للمسألة الوطنية .

لذلك يبقى الاختباء وراء جمل مبتورة من سياقها ، قالها لينين عن حركة شعوب الشرق [انظر «الوطن» ٨٦/٢/٢٦] في مطلع هذا القرن ، ويهدف الادعاء ان البرجوازية فقط تقود المسألة الوطنية ، هو اسخف من القول - بما ان لينين وافق على «صلح بريست» التعيس ، في مطلع هذا القرن وفي ظل ظروف معينة ، اذن كان السادات على حق في مساوماته الخيانية مع الامبريالية والاحتلال الاسرائيلي وتوقيعه اتفاقيات «كامب ديفيد» . فالتوجه يجب ان يكون دوماً توجهاً عينياً ، تاريخياً وملموساً وإلا كان حرفية سخيفة ونصيّة ميكانيكية جامدة .

عندما تحدث لينين عن قيادة البرجوازية للحركة الوطنية لشعوب الشرق لم تكن قد تبلورت أصلاً ، بعد ، طبقات عمالية في دول الشرق ولا طليعتها الثورية ، من احزاب بروليتارية . وحتى يومها لم يقصر لينين في نقد

أوهام البرجوازية الوطنية ، المتكونة من عناصر فلاحية في الأساس .
ثم بين مطلع هذا القرن والإشراف على نهايته ، تغير العالم بأسره .
لقد انهار عالم الاستعمار . وظهر وتقوى العالم الاشتراكي ، وصلب عود
الحركة الشيوعية العالمية وانتظمت صفوف الطبقة العاملة وطلعتها الثورية .
وقامت الجبهات الوطنية الديمقراطية واتسعت دائرة حلفاء الطبقة العاملة ،
وانتشرت أفكار الاشتراكية العلمية باتساع لم يسبق له مثيل واجتذبت فئات
متزايدة من البرجوازية الصغيرة ... الخ .

بم أن السمة الأساسية لحركة التحرر الوطني ، في عصرنا الراهن ،
وتحت تأثير وجود مثال العالم الاشتراكي وتحت تأثير خطر الاستعمار الحديث
وفسל الطريق الرأسمالي للتطور ، هي معاداة الامبريالية كـرأسمالية أيضاً
والتجاوز التدريجي للبرجوازية في اتجاه تعميق مسار حركة التحرر الوطني
نحو التحرر الاجتماعي . وذلك بسبب المقدمات الموضوعية الآتية الذكر .

إن امكانية تحول ثورة التحرر الوطني إلى ثورة وطنية ديمقراطية ،
وحتى اشتراكية ، تعدت كونها افتراضاً نظرياً . فهذا هو واقع العديد من
دول وحركات التحرر في العديد من دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .
ولم تعد كوبا والفيتنام مالين فريدين . إن الرأسمالية ، إذ تعيش مرحلة
تعبئها واندبارها ، لم تعد قوة جذب ولم يعد بإمكانها تأمين لا الاستقلال
الاقتصادي ، ولا النهوض الاجتماعي والثقافي للجماهير السعب . فالعداء
للرأسمالية ، اليوم ، يطبع العديد من حركات التحرر ، حتى في مرحلتها
الأولى ، وحتى في ظل غياب طبقة عمالية واسعة وراقية التنظيم .

وحتى في مطلع هذا القرن لم يتم ضمان حق تقرير المصير لعشرات
القوميات في روسيا القيصرية ، إلا بفضل الثورة الاشتراكية . ولم يقد عملية
التحرر الوطني لشعوب أوروبا الشرقية من الاحتلال الفاشي ، في اواسط
هذا القرن ، إلا الشيوعيون وحلفاؤهم .

لذلك ليس فقط تجوز قيادة الطبقة العاملة لحركة التحرر الوطني وإنما
هذه القيادة تضمن انتصارها السريع ، بتجنبها عشرات مطبات الطريق
وبتحررها من أوهام البرجوازية ومساوماتها البغيضة . لكن هذه الحقيقة
العصرية ، الاوسع والاوضح من الأفق ، لم تجعل الحزب الشيوعي
الاسرائيلي يشترط قيادة الطبقة العاملة لحركة التحرر الوطنية الفلسطينية

حتى يؤيدها . ولم يشترط هذا الأمر الحزب السيوحي الفلسطيني . كل ما هنالك ان هذين الحزبين يؤكدان على ضرورة التوجه الوطني الديمقراطي الثوري للبرجوازية الفلسطينية ، حتى تسرع عملية ضمان حق تقرير المصير .

فأين «الطبقة البغيضة» و «المصلحة الحزبية الضيقة» و «تفسيخ الشعب الواحد» ، في مثل هذه المواقف ، الصادقة والعميقة في وطنيتها ؟ ! لا «طبقة بغيضة» ولا «حزبية ضيقة» ، الا طبقية وحزبية انكار الموقف الطبقي والمصلحة الحزبية لشرائح خيانية من البرجوازية الفلسطينية ولقوى يمينية فلسطينية . تتاجر بالقضية الفلسطينية على عتبة «البيت الابيض» و «المعراج» - التجمع - الإسرائيلي وقصور ملوك ومشايخ ورؤساء الرجعية العربية . والاعمى - حقدًا طبقيا وخيانة قومية - هو الذي لا يريد أن يرى نموة برجوازية فلسطينية ، ولا نقول كل البرجوازية الفلسطينية ، تربط مصلحتها بمصلحة الرجعية العربية . بل هنالك قلة قليلة منها ، في المناطق المحتلة ، ربطت مصلحتها بمصلحة دوام الاحتلال ، أو إدارته المدنية . وهنالك شريحة اوسع تفهم التحرر الوطني على أساس العودة الى كنف حكم المليك الهاشمي .

ان رسالة الشيوعيين الفلسطينيين ، الى شعبهم العربي الفلسطيني ، في وطنه وفي منافيه القسرية وتحت الاحتلال ، هي : ليس الدعوة لحرب طبقية فلسطينية - فلسطينية ، وانما المزيد من تعميق الوعي الطبقي للجماهير بهدف الحرص على اوسع وحدة وطنية حقيقية لدحر الاحتلال ولاقامة الدولة الفلسطينية المستقلة في المناطق المحتلة ولضمان حق اللاجئين بالعودة ، أو التعويض . ولا يوجد موقف اكثر وطنية ، واكثر حرصاً على المصالح الوطنية ، من هذا الموقف الطبقي السليم .

الظلم القومي وخلفيته الطبقية السحق الطبقي ومعالمه الشوفينية

من مفارقات الأمور ، ذات الدلالة ، تعرّض الحزب السيوعى الاسرائيلي لهجوم مزدوج - يظهر وكأنه على طرفي نقيض - من الصهيونيين ومن «القوميين» العرب ، وبخصوص الموضوع ذاته : «الطبقي و «القومي» وعلاقتها .

فمن جهة يتهّم الصهيونيون الحزب السيوعى الاسرائيلي بأنه حزب يُضخّي بالقضية الاجتماعية - الطبقية ، على حساب المسألة القومية . وبأنه ليس حزب طبقة ، وإنما هو حزب قومي للعرب . والدليل الالتفاف الواسع للجماهير العربية حوله وإبرازه للمسألة القومية . ويصل بعض هؤلاء المتهمين الى حد الاستعلاء الشوفيني على العرب عندما يتساءلون : هل سمع العرب ، في البلاد ، بماركس وانجلس ؟ ! هل قرأوا لينين ؟ ان الصهيونية اذ تحقّد حقدا طبقيًا ، لا يعرف الحدود ، على السيوعية وحقداً مائلاً على العرب ، ترعجها قيادة الحزب السيوعى ، اليهودي - العربي ، لمعركة الجماهير العربية ضد الاضطهاد والتمييز القوميين ومن أجل السلام العادل ، القائم على أساس إحقاق الحقوق السريعة للسعب العربي الفلسطيني . كذلك تقصد منع تأييد أوساط يهودية متزايدة لسياسة الحزب عن طريق تخويفها «بفراغة» ان الحزب السيوعى حزب قومي متطرف ، للعرب .

وتصل بعض الاوساط الصهيونية ، وخاصة أوساط ما يُسمى «باليسار» الصهيوني ، الى «نصيحة» الحزب بترك المعركة القومية الى أصحابها «القوميين» والتفرغ للقضية الاجتماعية . وكان اوري اقنيري - الحليف «القومي» للحركة «التقدمية» ، اليوم ، ! - على رأس حملة هذا الرأي . اذ سود العديد من الصفحات متها السيوعيين بأنهم يغلبون الاهتمام بالقضية القومية على الاهتمام بالقضايا الاجتماعية (؟) (!) .

أما من الجهة الثانية فيقف «النقاد» من القوميين العرب ، من الاتجاه اليميني الانتهازي للبرجوازية الصغيرة وحتى من بقايا مخلفات الاقطاع و «الاسياد» ، متهمين الحزب بأنه يغلب المصلحة الطبقية على المصالح القومية . ويضيفون ، بما ان الشيوعيين يعالجون القضايا من منظور الصراع الطبقي ، اذن لا يمكن إبتنائهم على المصالح القومية العامة . اذ ان القضية القومية - على حد زعمهم - لا دخل لها بالقضية الطبقية . ولا يمكن ان تؤمن عليها إلا قيادة قومية تتركز في مسألة «الكفاح القومي» ولا يهمها القضايا الاجتماعية العامة لا في البلاد ، ولا في العالم .

ويتابع هؤلاء : ان «أمية» الشيوعيين ونظرهم الشمولية الطبقية لمجمل الأمور ، تمنعهم من أن يكونوا المعبر القومي عن أمانى الشعب الذي يريد حركة «قومية» تنبع من «صميمه وجذوره ...» . خصوصاً وان المطروح على بساط البحث هو حل المسألة القومية وليس الثورة الاشتراكية ... الخ .
ما هو ردنا ؟

ان هؤلاء القومجيين العرب ، مثلهم مثل «اتراهم» الصهيونيين - رغم الفوارق - يحقدون هم الآخرون على الدور الريادي القيادي للحزب الشيوعي الاسرائيلي للجماهير العربية - الفلسطينية ، في اسرائيل . ومهما ظهر وكان هذه الاتهامات تقف على طرفي متراس - من اليمين ومن «اليسار» - فانها تتحد في عدائها للشيوعية ، وليس على أساس قومي طبعاً [مثلاً اتحاد الترنيفا افيري و «الحركة التقدمية»] . وتتماز بالتشويه المتعمد للعلاقة الجدلية بين «الطبقي» و «الأممي» و «القومي» . أو ، في أحسن الاحوال ، ولدي اصحاب النوايا الحسنة ، فانها تمتاز بالفهم السطحي الميكانيكي لهذه العلاقة .

لقد شرّحنا ، سابقاً ، العلاقة الدايلكتيكية - الجدلية ، بين هاتين المسألتين . وبينما انه بإمكان الحزب الشيوعي ان يكون ليس فقط قائداً طبقياً للجماهير المسحوقة ، وانما قائداً قومياً لها ، في الوقت نفسه ! بل القائد الافضل والاشد ثبوتاً وصموداً والاكثر مقدرة على تجميع الحلفاء الوطنيين وعلى تحقيق المكاسب الوطنية . خصوصاً وأنه ما من معركة قومية يمكن ان يكتب لها النصر ، في عصرنا الراهن ، بمعزل عن العالم الاشتراكي والحركة الشيوعية العالمية ، فكم بالحري اذا كانت ضدها . وخصوصاً ، بين

الجماهير العربية في اسرائيل ...

* لماذا ، «خصوصاً» الثانية هذه ؟ !

لم تتأت قيادة الحزب الشيوعي الاسرائيلي للجماهير العربية - الفلسطينية ، في اسرائيل ، من باب الصدفة . فعدا عن تمثيل اليسوعيين الامين ، ومنذ اليوم الاول للنكبة ، للأمانى القومية لهذه الجماهير ، فان حياتها ومعاناتها اليومية - في عقر دار الصهيونية - جعل من غير الامكان ولو الفصل الشكلي بين الطبقي و «الأممي» و «القومي» في معاناتها ، وفي كفاحها .

لقد تزواج الظلم القومي ، لهذه الجماهير ، مع ظلمها الطبقي . والعكس صحيح . اذ ان ممارسات الصهيونية تجاه هذه الجماهير كانت ، وما زالت ، ممارسات كولونيالية اقتلاعية . لقد هدفت الصهيونية الى احتلال الارض والعمل والسوق ، تهويد الارض والعمل والسوق . وهذا اقتلاع قومي يهدف الى الاطاحة بالقاعدة المادية للبقاء وللصمود . ولكنه ، في الوقت نفسه ، ظلم طبقي يهدف الى سيطرة البرجوازية اليهودية وخنق أي منافس لها وتحويل الجماهير العربية الى زنوج يعملون لديها ، في أدنى الاعمال واصعبها وابخسها ، من ناحية الأجرة .

ان احتلال الارض ، مثلاً ، يعني تهويد البلاد . ويعني خنق الزراعة العربية . يعني القضاء على المنافس العربي ويعني سحب إحدى المقومات المادية لبقائه ، ولا اقول المقوم الوحيد . يعني سيطرة البرجوازية اليهودية ، ويعني المزيد والمزيد من الايدي العاملة العربية الرخيصة وغير المهنية . يعني اتساع سوق البرجوازية اليهودية ، لتصريف منتوجاتها ، ويعني منع نمو برجوازية عربية ... الخ .

أو لنأخذ ، مثلاً ، سياسة التجهيل القومي . انها سياسة نشر العدمية القومية ومنع تطور الوعي القومي العربي لصالح شوفينية الصهيونية العنصرية . ولكنها ، في الوقت نفسه ، «مصنع» لانتاج المزيد من «الحطابين وسُقاة الماء» للسوق الرأسمالية الإسرائيلية - اليهودية . وقس على هذا ! وفقط الاعمى ، حقداً طبقياً - سياسياً ، ليس بمقدوره أن يرى تزواج الاضطهاد القومي مع السحق الطبقي للجماهير العربية في اسرائيل . فلقد حوّلت سياسة الاقتلاع الصهيوني ، الجماهير العربية الى «غرباء» في

الوطن - وطنهم ، وإلى زواج لسوق العمل .
ولم تختلف الصهيونية ، في هذا ، عن غيرها من تيارات السياسات
الكولونيالية ، إلا في مدى وحشيتها وشراستها وفي خصوصيات الوضع
الناسي في فلسطين ، والتي أشرنا إليها سابقاً .
إن الجماهير العربية الفلسطينية في إسرائيل ، مثلها مثل أية أقلية
قومية تعاني من سياسة الاقتلاع والظلم الكولونيالي ، تحس على جلدتها ،
يومياً ، ليس فقط تمازج «الطبقي» و «القومي» وإنما أيضاً أن لظلمها القومي
خلفية طبقية ، وأن لسحقها الطبقي معالم شوفينية .
ولقد كان أحد أبرز معالم هذه السياسة ، كما فصلنا في شرح هذا
سابقاً ، هو خنق الزراعة العربية وتحويل الفلاحين إلى عمال ، وخنق
امكانيات نمو برجوازية عربية والقضاء على مَنْ كان موجوداً منها ، وتحويل
شعب بأكمله - وإلى حد بعيد ، إلى شعب - طبقة ، شعب من العمال وشغيلة
الأجرة . عمال وشغيلة يواجهون ، يومياً ، وفي كل مصنع وورشة ومكتب ،
اختلاط الظلم القومي بالظلم الطبقي ، والطبقي بالقومي ، بسبب من
شوفينية الصهيونية وسحقها الرأسمالي .

وهكذا هي حياة كل الجماهير العربية في إسرائيل . بما فيها حياة
البرجوازية الصغيرة العربية ، والتي لا تريد البرجوازية اليهودية أن تترك
من خانة لها إلا خانة التابع الذليل والمعرض للأفلاس ، يومياً . لدرجة
نستطيع أن نشبه فيها المجتمع العربي في هذه البلاد بخيمة ، ليس فقط
عمودها المركزي - الفقري ، وإنما أوتادها أيضاً : هي الطبقة العاملة وشغيلة
الأجرة .

ولا نستطيع ، بناء عليه ، أن نفصل الاتهامات التي أوردناها في مطلع
هذا الموضوع بحق الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، عن كونها اتهامات لعقلية
طبقية ، مريضة ورجعية . هذا وإن رطنت بألسنة قومية مختلفة . وإن كنا نجد
المبررات لحقد البرجوازية اليهودية على الحزب الشيوعي بصفته حزباً قومياً
عربياً ، كما تقول ، [بسبب من دفاعه العنيد عن الحقوق القومية] لا نستطيع
أن نجد أي مبرر لاتهام هذا الحزب نفسه ، ومن قبل المتمسحين بالقومية
العربية ، بأنه حزب «طبقي» يفرط بالمصلحة القومية !
اللهم إلا إذا استثنينا مسألة أن الحقد الطبقي ذو عرق دسّاس . وأنه

يدوم لسنوات ، حتى بعد زوال قاعدته المادية او شبه زوالها . وانه قد «توارث» أباً عن جد وان صاحبه لا يكف عن الحلم بعودة مجده الطبقي . ولا عن الوهم بأنه اذا سَعَرَ عداءه للشيوعية قد يجد بقايا عظمة نتنة تحت مائدة الصهيونية . وانه ما من مصيبة اشد هولاً عليه ، من «مصيبة» التسليم بقيادة الطبقة العاملة وطليعتها للنضال ... حتى لو كانت مصيبة الاطاحة بكل الأمانى القومية ، والتفريط بها نتيجة العداء للشيوعية .

الانتهاء القومي

ومن اسخف الاتهامات بحق الشيوعيين ، في هذا الاطار ، هو الادعاء بأنهم «غرباء» ، ولا ينبعون من «صميم وتراث وتقاليد الشعب» ، ولا تهمهم «الأمانى القومية» .

أما إحدى اسخف حجج القومجيين فهي القول انهم لا ينتمون إلا الى قوميتهم وان لا مبادئ لهم إلا «مبدأ فلسطين» ، ولا فلسفة تظللهم إلا «فلسفة فلسطين» ، وانهم «فلسطينيو الجذور والتطلعات والقرار» ... الخ . في البدء يجب التأكيد ان الانتهاء القومي لا يقرر ، بعد ، شيئاً . وهو ليس مبدأ . ولا حتى اختياراً ذاتياً . فالانسان يولد ، في أيامنا ، عربياً أو يهودياً أو روسياً أو امريكياً ... الخ . وان وُلد عربياً فهو إما أردني أو سوري ، إما مصري أو فلسطيني ... الخ . ان القول ان نظرتك ليست «طبقية» لأنك «فلسطيني» فقط ، هو اسخف من القول انك صهيوني لأنك تحمل هوية اسرائيلية ، حتى لو كنت عربياً ، أو يهودياً معادياً للصهيونية ! أما القول ان لا مبدأ لك إلا فلسطين ولا تنتمي إلا الى فلسطين ، فهو اشبه بالقول انه لا مبادئ لك . ولكن ، في الواقع ، يوجد مبادئ لاصحاب هذا الاتجاه . ولكنهم هم احوج ما يكونون لهذه الجمعية القومية في محاولة يائسة منهم لاختفاء الجوهر الطبقي الرجعي لمبادئهم .

اذ ان الرجعية العربية - هي رجعية عربية . والرجعية الفلسطينية - هي رجعية فلسطينية . ومليك الاردن - ملك عربي هاسمي . وهكذا هي «روابط القرى» ، من خدم الاحتلال - انها عربية فلسطينية . وهكذا هم

المرتبون بالاحزاب الصهيونية ويقوامها الانتخابية - عرب فلسطينيون .
والمذيع ، باللغة العربية ، الذي يتشدد من إذاعة اسرائيل بأن «طائراتنا
ضربت أوكام المخربين وعادت سالمة» هو الآخر عربي فلسطيني .
إني لا أفسر الماء ، بعد الجهد ، بالماء . وإنما أبرز مدى سخافة جعل
الانتماء القومي - الذي يُولد معنا - هو الانتباه السياسي . وكذلك سخافة
التبجح بأنك فلسطيني الجذور ، وبناء عليه فانك تقدمي أو ثوري ، ومتحرر
من النظرة الطبقية .

اذ تبقى القضية ما هو موقفك الطبقي من المسألة القومية ؟ ! ما هو
برنامجك السياسي لحل هذه المسألة ؟ ! ما هي الوسائل والطرق التي
تتبعها ؟ مع من تسير يدا بيد ، وضد من تحارب وتكافح ؟ !
ان محاولة سلب الشيوعيين العرب الفلسطينيين انتماءهم القومي
وتصويرهم بأنهم «غرباء» ، يدينون بالولاء لمصالح أجنبية ... ، بسبب من
عدم اخفائهم لنظرتهم الطبقية ، تكاد تصل في هولها حد محاولة الصهيونية
سلب الفلسطينيين حق انتمائهم لهذه البلاد . اذ من هم هؤلاء
الشيوعيون ؟ ! أليسوا من أبناء هذه البلاد وأصحابها ؟ ألا ينتمون الى
طبقات وعائلات وطوائف ومدن وقرى هذا الشعب ؟ أليسوا أبناء
«جليل» و «مثلث» و «ساحل» و «كرمل» و «نقب» هذا الوطن ؟ هل هم
دخلاء عليه ؟ !

يا هول الفرية ، خصوصاً عندما تأتي من بعض أبناء الأمة المظلومة !
والتي يخوض الشيوعيون - بلا كلل أو يأس - ، وليل نهار ، معركة بقائها
وتجذرها وتأكيد انتمائها والدفاع عن أسمى تطلعاتها القومية - بدءاً بالغاء
كل مظاهر التمييز القومي ، وانتهاءً بتحقيق تقرير المصير .

ويا لفرح الصهيونية ! اذ انه وبعد فشل رهانها على العدمية القومية
والاحترابات العائلية والطائفية والقيادات الرجعية التقليدية - وبفضل كفاح
الشيوعيين وحلفائهم ، يأتيها بعض أبناء القومية المظلومة بحصان رهان
جديد : قومية العداء للشيوعية . حصان ، والحق يقال ، «جديد» وقد
يحمل شهادة أكاديمية ويلبس بدلة وربطة عنق . ولكنه ليس بجديد حقيقي ،
ولا بحصان حتى . لقد ركبت الرجعية هذا «الجحش» حتى اشبعته ركوباً .
فلماذا يكون ركوب الصهيونية له «انعش» و «أكثر عصرية» و «أكثر

ان العداء للشيوعية ، وخصوصاً في اسرائيل ، وخصوصاً بين الجماهير العربية الفلسطينية في البلاد ، لا يوصل صاحبه و «أخيراً الى التعبير القومي عن الذات» ، وانما يبقى اقصر الطرق للخيانة القومية . ومهما عادى الانسان الشيوعية ، في اسرائيل ، ومهما اتهم السيوعيين بأنهم براء من قوميتهم ، فلن يصل في عدائه واتهاماته ، حدّ عداء الصهيونية وحكام اسرائيل لها . لذلك ايضا تبقى معاداة الشيوعية ، خصوصاً في اسرائيل ، ليس وصولاً «للتعبير القومي عن الذات» وانما وصولاً للجلوس في حضن الصهيونية . فهنينا لاصحاب هذا التيار على «دفتهم» القومي !

اما الحديث عن الالتزام «بالجذور» و «بالتراث» و «بالتقاليد القومية» و «بالتقافة القومية» فيبقى هو الآخر حديثاً سخيلاً ما لم يوضح صاحبه أية جذور وأية تقاليد وأية ثقافة وأي تراث ، يقصد ! اذ انه في ثقافة كل أمة ، توجد ثقافتان . ثقافة تقدمية وأخرى رجعية . ثقافة ظالمين وثقافة مظلومين - هذا ما تؤكد الماركسية - اللينينية .

والشيوعيون ليسوا غير «غرباء» عن ثقافة و تراث وتقاليد وجذور شعوبهم ، فحسب ، وانما هم ورثة كما ما هو تقدمي وديمقراطي وانساني ، في هذا التراث وهذه الجذور ! وهم يعتزّون ، أيا اعتزازٍ ، بهذا التراث . بل ويعتمدون عليه وينشرونه إرثاً تقدماً من الماضي ، زادا ديمقراطياً للحاضر ، وعلماً نحو افضل مستقبل . ولا يرفض الشيوعيون إلا الجانب الرجعي في التراث .

اما هؤلاء المتقوجين ، من معادي الشيوعية ، اذ يتحدثون عن التراث وعن الجذور ، لا يقصدون إلا ذلك التراث الرجعي . وفعلاً هم ورثته . اذ ان نظرهم للتراث ، ايضاً ، نظرة طبقية ، مهما انكروا هذا . ولا يسعنا الا ان نذكر ان انور السادات أخذ يتحدث عن «اخلاق القرية» و «احترام التراث العربي» ، وأصدر «قانون العيب» ، وحارب «الافكار المستوردة» ، بالذات عندما «استورد» كل ما هو رجعي من جعبة الامبريالية والبرجوازية العالمية ، بما فيه تراث بيع الوطن والتفريط

ان الشيوعية ليست فكراً مستورداً . وهي ليست ايدولوجية قومية . وانما هي وريث شرعي لمجمل التراث التقدمي لشعوب الانسانية جمعاء ، وعلى مر العصور . والشيوعيون العرب ، مثلاً ، هم وريثة وحملة شعار «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً» و «عجبت لمن لا يجد القوت في بيته ، كيف لا يخرج الى الناس ساهراً سيفه» الخ . هم وريثة «القرامطة» و «الزنج» والشعراء «الصعاليك» وأبو العلاء وابن خلدون الى آخر القائمة ، من حركات سياسية وفلاسيفة وعلماء وشعراء وأدباء ، أورثوا العرب ، والانسانية جمعاء ، تراثاً رائعاً في غناه وفي تقدميته .

أما الرجعية العربية ، مهما تقوَّجحت ، فانها لا تأخذ من هذا التراث إلا تراث التساقط على اعتاب الملوك ، وتراث دأسي السم لأبي العلاء المعري

ان اتهام الشيوعيين العرب ، ومن قبل قومجيين عرب ، وخصوصاً في اسرائيل ، بأنهم غرباء عن تراث وتقاليده الشعب ، هو صفاقة تضاهي صفاقة الصهيونية في اتهامها لهم بأنهم عرب متعصبون ويعادون اليهود كيهود . اذ لم يكن من حافظ أو ناشر لهذا التراث التقدمي الانساني ، في عقر دار الصهيونية ، الا الشيوعيون العرب ومجلاتهم وصحفهم .

فالشيوعيون العرب ، - وكم معيب أن نؤكد هذا في نهاية القرن العشرين - ، ليس فقط لم يهملوا الانتفاء القومي للعرب في البلاد ، وانما صانوه وعزَّزوه بكرامة قومية تطاول السماء . وهذا هو أحد الأسباب ، ولا اقول السبب الوحيد ، الذي جعل حكام اسرائيل ، واحزابهم الصهيونية ، يرون في الحزب الشيوعي الاسرائيلي : «الحزب الاخطر» و «العدو رقم واحد» ، بين الجماهير العربية . وراوا الطريق لمقاومته تشكيل «حزب عربي - قومي» !

ان أعداء الشيوعية ، من متقوَّجحين عرب على غرار «التقدمية» ، ليس فقط لم يعزَّزوا الانتفاء القومي ، وانما يحاولون تسميمه بصهيونية افئري وتقاليد الرجعية العربية والعرب المتأمركين . ان الشنشنة والطنطنة الفارغة بأنك «عربي فقط» أو «فلسطيني فقط» - خصوصاً اذا أنت من متلبس

بالقومية - ، قد تعني انك رجعي فقط ! اذ قد تكون عروبتك عندها اسبه بعروبة ملوك آل سعود وآل هاشم . أما فلسطينيتك فهي أنسبه بفلسطينية روابط القرى ، التي لم تجد هي الأخرى من عدو تحاربه تحت الاحتلال - إلا طبقية الشيوعيين «الغرباء» عن الوطن وعن قومية أبناء الوطن !

مشكلة الهوية «الأسرلة» و «الفلسطينية»

ندّعي بعض التيارات الصهيونية ، خصوصاً «اليسارية» الليبرالية منها ، ان الجماهير العربية في البلاد تعاني من «أزمة الهوية» - مشكلة الانفصام بين «إسرائيليتها» والاخلاص لاسرائيل ، و «فلسطينيتها» والاخلاص لفلسطين وللعالم العربي .

وتلقت «التقدمية» هذا الطعم الصهيوني ، خصوصاً في السنوات الأخيرة وبعد إتلافها مع «الترتيقا» اقبيري ، الذي يتفاخر بوطنيته الصهيونية . وبدأت «التقدمية» تكيل الاتهامات للشيوعيين بأنهم «يوسرلون» (من اسرائيل) الجماهير العربية في البلاد ، بينما هي تسعى «لفلسطينها» (من فلسطين) . وكان جميع هذه المتاجرات القومية يزداد ، طردياً ، مع ازدياد ارتباط «التقدمية» بمخططات الامبريالية الامريكية والمؤسسة الصهيونية الحاكمة والرجعية العربية . ووصل الأمر «بالتقدمية» حد الادعاء انها اعادت للجماهير العربية فلسطينيتها ونكهتها الفلسطينية . هذا علماً بأن «التقدمية» تشكلت في الثمانينات .

لقد رفضت الجماهير العربية الفلسطينية ما يُسمّى «بأزمة الهوية» منذ الخمسينات . ويرجع الفضل في هذا للحزب الشيوعي وقيادته لهذه الجماهير . لقد أدّت التطورات التاريخية في فلسطين الى تجزئة البلاد ومن ثم الى تجزئة الشعب العربي الفلسطيني . وحاولت السلطات الصهيونية ، في البدء ، حرمان العديد من أبناء الشعب العربي الفلسطيني حتى حق الحصول على هوية اسرائيلية وذلك تمهيداً لاقتلاعه وترحيله . وخاض الحزب الشيوعي معركة وطنية باسلة ومظفرة ضد ما سُمي ، في حينه ، بالهويات الحمراء المؤقتة ...

وقرر الحزب في مؤتمراته ، ان الأقلية القومية العربية في اسرائيل هي جزء لا يتجزأ من الشعب العربي الفلسطيني ، ومواطنون في اسرائيل - في الوقت نفسه ، يكافحون من أجل حق تقرير المصير لسعهم ومن أجل المساواة القومية والمدنية لهم .

ورفض الحزب الشيوعي الاسرائيلي* [رغم اكاذيب «التقدمية» واقتراءاتها بهذا الخصوص] اعتبار اسرائيل دولة يهودية «خالصة» . انها دولة يهودية بمعنى كونها تعبيراً عن حق تقرير المصير لليهود ، ولكنها ليست يهودية فقط . بل هي ذات اغلبية يهودية وأقلية قومية عربية لها الحق بالمساواة القومية والمدنية ، ولا اقل منها .

ولا يوجد أي تناقض بين كفاح هذه الأقلية القومية من أجل حق تقرير مصير شعبها ، ومن أجل المساواة القومية والمدنية ، ومن أجل التحولات الديمقراطية العامة في البلاد . ان أي مكسب تحققه على أي صعيد ، من هذه الأصعدة الثلاثة ، هو مكسب للأصعدة الثلاثة .

هذا الوطن وطنها وستشبت به ، ولن ترحل عنه حتى مع قيام الدولة الفلسطينية العتيدة ، في الضفة الغربية وقطاع غزة . فهذا «الرحيل» - هو الحلم الذي لا يفارق الصهيونية ، حتى في عز الظهيرة . كذلك بما ان هذا الوطن وطنها فهي تريده وطناً ديمقراطياً ، وطن سلام حقيقي وأخوة حقّة وعدل اجتماعي . ولن تتنازل عن كونها قوة ديمقراطية طليعية في الكفاح لتحقيق هذه الأمور .

ولا توجد أية «أزمة هوية» هنا . ان هويتها القومية الفلسطينية ومواطنتها الاسرائيلية ، تجعلانها تكافح على الصعيدين لما فيه مصلحة شعبي البلاد .

ويعود ليمتزج هنا «الطبقي» «بالقومي» ، والعكس ، على اوضح ما يكون . فالكفاح من أجل حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني ، يعني في الوقت نفسه الكفاح من أجل تغيير ديمقراطي في البلاد . اذ ما من عقبة اليوم ، أمام هذا التغيير ، أكبر من عقبة الاحتلال وعدم حل المسألة

* انظر مثلاً مقررات المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي الاسرائيلي .
أو موضوع «الموقف من المساواة القومية للجماهير العربية ...» ، في هذا الكتاب .

القومية . لقد استطاعت الصهيونية إحكام السيطرة على الشعب الاسرائيلي ، حتى اليوم ، لعدة أسباب . ولكن يبقى أهم هذه الأسباب هو «فزاعة» الخطر العربي ، وعجل «الأمن» المقدس وضرورة «الاجماع القومي» - كوزنيسوس لثومي ! - أمام «العدو» على الحدود !

كذلك ان إجراء أي تغيير ديمقراطي ، وان تحقيق أي مكسب طبقي ضد البرجوازية الصهيونية الحاكمة ، يخدم هو الآخر حل المسألة القومية للشعب العربي الفلسطيني . وكذلك الأمر بالنسبة لمسألة المساواة القومية والمدنية للجماهير العربية في هذه البلاد ، هذه المسألة التي لا يمكن بحثها بمعزل عن حق تقرير المصير وبمعزل عن إجراء التحولات الديمقراطية ، في نظام الحكم في البلاد .

أو لئلا ، مسألة الكفاح العربي - اليهودي المشترك ضد سياسة حكام اسرائيل . ان أكبر عائق يقف في وجه تصعيد هذا الكفاح هو المسألة القومية بتسقيها - حق تقرير المصير والمساواة القومية والمدنية . ان حل هذه المسألة سيؤدي الى تصعيد النضال الطبقي ، العربي - اليهودي المشترك ، ضد البرجوازية اليهودية الصهيونية . ان تحرير الشعب العربي الفلسطيني من الاحتلال الاسرائيلي ، سيعني تحرير الشعب الاسرائيلي ايضا من أعباء هذا الاحتلال ودمايته وضرائبه وما يجره من خراب اقتصادي - اجتماعي . وسيعني بدء تحرر الجماهير اليهودية من وبأ شوفينية الصهيونية ومن كذبة «كل اليهود إخوة» ، مما سيسهل عملية تحرر هذا الشعب من عدوه الوطني - الطبقي الحقيقي . أي من حكام بلاده وبرجوازيها . فليس واقع الجماهير العربية الفلسطينية في اسرائيل ، فحسب ، هو واقع اضطهاد وسحق «قومي - طبقي» ، وانما كفاحها ايضا - بناء عليه ، هو كفاح قومي - طبقي . وتبقى «الأسرلة» التي تقصدها اسرائيل ، هي «أسرلة» العدمية القومية وسلخ الاقلية القومية العربية عن انتمائها لشعبها وتذجينها ، صهيونيا ، وفصل كفاحها القومي عن كفاحها الطبقي . والعقبة الكأداء التي تقف امام هذا الفصل - هو الحزب الشيوعي وقيادته لكفاح الجماهير الفلسطينية وللوقى الديمقراطية - اليهودية ، الثورية ، الطليعية . ولذلك يتهم الحزب من قبل الصهيونية بأنه «حزب قومي» . ولذلك تؤكد الوثائق الصهيونية ، العلنية والسرية ، بما فيها وثيقة «كينغ» ،

ان الحزب الشيوعي هو «العقبة الكأداء» أمام مخططات اسرائيل بخصوص الجماهير العربية .

أما ان يأتي اتهام «الأسرلة» لهذا الحزب من قبل شلة من أبناء القومية المظلومة وتحت ستار القومية ، فهذه دعاية سياسية - فكرية تضاهي ، مثلاً ، دعاية ادعاء حكام السعودية أنهم هم الممثلون الحقيقيون للأماي القومية العربية ضد الشيوعيين «أعداء الأمة» !

إن الذي برز الجميع ، مثلاً ، في إلقاء هذه الفرية في وجه الشيوعيين ، كان مركز الحملة الاعلامية «للتقدمية» في انتخابات الكنيست الأخيرة . وهذا المركز الاعلامي «القومي» كان في الانتخابات التي سبقتها مركزاً لاعلام قائمة عربية - طائفية مرتبطة «بالمعراخ» ، يتزعمها ضابط عربي . أما في الانتخابات التي سبقت التي سبقتها ، فكان داعية «المعراخ» وأحد كتبة صحيفة «المراصد» المباشية .

أما متابع طريقه ، رئيس تحرير «الوطن» اليوم ، فمشهور بعمله مذبذباً في التلفزيون الاسرائيلي ، لسنوات طويلة . وكذلك في الكتابة بصحف السلطة . وربما يذكر اصطلاح الاسرلة منذ يومها . كذلك هم غالبية الآخرين . اذ نجد بينهم المرشحين السابقين في القوائم الانتخابية للمعراخ وعكاكيزه العربية ، ولحزب المتدينين ، وخدم الحكم العسكري . وكذلك نجد بينهم كتبة قصائد التغني «بعيد الاستقلال» الاسرائيلي أو قصائد الرثاء لغولدا مئير

والمسألة ابعد من أن تكون مسألة ماضٍ شخصي ، كان الشعب على استعداد لأن يتناساه اذا ما تناساه صاحبه وانحاز الى جانب التيار الوطني الحقيقي . أما ان يزاد اصحابه على الشيوعيين متهمينهم «بأسرلة العرب» ، فيكون استمراراً في الطريق القديم إياه - طريق خدمة السلطة الصهيونية . يستطيع هؤلاء المتقوجون ، اليوم ، التغني بفلسطين ويستطيعون تلبس العلم الفلسطيني والادعاء برفض «الأسرلة» . اذ لا تكلفهم قوميته شيئاً . على العكس انهم يحظون برضي السلطة وبعطفها ، وبالأجر السخي ايضاً ، أجراً قومياً كان أم صهيونياً ! انه يُدفع «بالأخضر» في الحالتين .

ولكن هل يمكن أن ينسى الشعب ان الشيوعيين العرب لم يتنازلوا عن لفظة فلسطين وعن التغني بفلسطين وبكفاح شعبها ، عندما كان هذا التغني لا

يكلف لقمة العيس فقط وانما الصلب على سبائك الزنازين والالقاء في
غياهب المعتقلات ؟ !

اعيدوا قراءة أدب المقاومة الفلسطينية ، اعيدوا قراءة أدب ومقالات
ومؤلفات وخطابات توفيق طوبي واميل حبيبي واميل توما وتوفيق زياد
ومحمود درويش وسميح القاسم وسالم جبران ومحمد نفاع الخ .
اعيدوا سماع الاهازيج الوطنية للسعب في الليل والمثلث . اعيدوا قراءة
مجلدات «الاتحاد» و «الجديد» و «الغد» ، منذ ١٩٤٨ . ستجدون تاريخاً
ناصعاً من الكرامة القومية ، خط بأحرف من نار ونور ، على يد الطليعة
السيوعية وحلفائها !

أرادوا لهذا السعب الرحيل فألقى الشيوعيون ، وحلفاؤهم ،
بأجسادهم أمام سيارات الترحيل وأنشدوا وما زالوا ينشدون : «يا بيغن وبا
سارون هذا وطننا وإحنا هون» !

أرادوا لهذا السعب العدمية القومية فقدّس هذا السعب الحرف سلاحاً
وطنياً ، بفضل الشيوعيين وحلفائهم . وكانت «الاتحاد» و «الجديد» - وما
زالتا - الصف الثالث عشر الذي صحّح وأغنى الصفوف الدراسية الاثني
عشر . كانتا وما زالتا وزارة المعارف اللارسمية ، والجامعة الوطنية التي تخرج
منها سعب بأسره !

أرادوا لهذا السعب ان يمرّغ نفسه على عتبات البيوت الصهيونية وان
يعيش بفزع من «الجبروت» الصهيوني . فمرّغ هذا السعب العنجهية
الصهيونية في عقر دارها ، وبفضل أبنائه الشيوعيين وحلفائهم . الذين
أكّدوا ، عن طريق ضرب المثل الشخصي ودفع الثمن الغالي ، ان العين ليس
بامكانها ان تلاطم المخرز فقط ، بل وبامكانها ان تطعجه .

هل قومية «التقدمية» «المخضرنة» هي التي أهدت شعبنا أهازيج :
«الناصره ركن الجليل / فيك البوليس مدحدل» . هل هي التي جلبت
هناقات «السعب العربي شعب حي / دمه ما يبصير ممي» و «من الناصرة
لبيروت / شعب حي ما بيموت» و «يا شهيد ارتاح ارتاح / وإحنا منواصل
الكفاح» و «يا اطفال الآر. بي. جي / يوم النصر راح يبجي» و «الوطن
العربي لاصحابه ، مش لبيغن وكلايه» و «يا ديّان اطلع بره ، الارض العربية
حره» و «الارهابي مين مين / يا سفاح دير ياسين» و «بالطول ، بالعرض /

الوحدة تهز الارض» و «موقفنا هو / وحدتنا أكبر قوة» و «ان هدمتم بيت بنيني خمس بيوت / هون بلادنا وبيوتنا، والحر ما يموت» و «بس الحق بمشي وبصير / دولة وتقرير المصير» و «ما بتنفع مفاوضات / إلا مع ياسر عرفات» و «حسين قومي ما سأل الله / قبله سيده عبد الله» الخ .. الخ . ويهتم مثل هذا الحزب ، صانع هذه الالهازيج القومية ، بأنه «متأسرل» وخائن للأمانى الفلسطينية ؟ ومن قبل من ، من قبل «تقدمية» افئيري ؟ . ان التقاليد القومية التي جلبتها «التقدمية» معها هي تقاليد التبويل القدر على تاريخ شعب وكرامة شعب . تقاليد الانهيار على طاولة ارنس . تقاليد الموافقة ، بل والمطالبة «بالتجنيد الوطنى الازمى» - تجنيد «الخدمة الوطنية» ، الالزامية المجانية ، في مصانع ومؤسسات الحركة الصهيونية . تقاليد الارتداد الى ليل الجعجعة القومية الفارغة ، علنا ، وبيع فلسطين وأمانى شعبها ، سرا . تقاليد الطعن بوحدة الصف الوطنية والتخريب عليها .

أصلاً لم يكن بالامكان ان يُصدر قومييو اليوم صحفاً ، وان كانت توزع مجاناً ، ولا حتى ان يمارسوا لعبتهم القومية في حدود الديمقراطية الاسرائيلية الاضيق من خرم الابرّة ، لولا المقاومة العنيدة المتواصلة لهذا الشعب بقيادة الشيوعيين وحلفائهم . وعندما أصبح بالامكان ان ينطقوا قومياً ، بعد ان غطسوا حتى آذانهم في وسخ خدمة الاحزاب الصهيونية وتلفزيونها وإذاعتها وصحفها ، نطقوا كفرا ! ولم يجدوا لهم من عدو قومي - في عقر دار الصهيونية ، إلا الشيوعيين !

لذلك ليس مدى انتفاخ الكلمات المتقومة ، ولا مدى لمعان الالوان الاربعة في صحيفة توزع ببلاش ، في الثمانينات ، هو الذي يقرر مدى فلسطينية الانسان وتحرره من «الأسرلة» ، وانما في خدمة من قيلت هذه الكلمات المتقومة وضد من قيلت .

ان الانتماء لفلسطين لا يكون وطنياً حقاً ، الا اذا كان انتماءً ديمقراطياً . لقد انحمت فلسطين بالجراح من طول عهد المتاجرة القومية بها . أما الاقلية القومية العربية في اسرائيل ، بقيادتها الشيوعية - الجبهوية ، فصانت فلسطين في عقر دار الصهيونية ولم تسمح بخدشها . إن «فلسطين» هذه الاقلية القومية ، في بلادها ، لم تقم بين ليلة

وضحاها . ولم تتحقق عن طريق خريشات صحفية في اواسط الثمانينات . وانما كانت عملية نضالية شاقة وباهظة الثمن ورائعة المكاسب . معركة تحدّ ومواجهة . معركة صمود وتصدي لهذه الجماهير ، بقيادة حزبها الشيوعي . هكذا استطاعت أن تبقى وأن تتطور وأن تبني وأن تعمر . وأن تقبر ليل الحكم العسكري والعدمية القومية . وأن تتعلم وأن تصون لغتها وأدائها وترانها .

وكذلك . وبفضل الحزب الشيوعي وقيادته للمعارك الوطنية . استطاعت هذه الجماهير ان تقبر مخطط السلطة بتقسيمها على أساس طوائف وعائلات . وان تنمي وتعرّز انتباهها الواحد لسعيها العربي الفلسطيني . وحذب كل هذا وغيره عندما كانت فكرة «الحزب العربي القومي» ما زالت مخططا جنينيا في رحم الصهيونية . حدث كل هذا قبل تشكيل الحركة «التقدمية» . فبأي كفر وبأي تطاول وبأي نوع من البصق في الصحن يمكن تشبيه هؤلاء المدّعين ، في اواسط الثمانينات ، بأنهم أعادوا للجماهير الفلسطينية - فلسطينيتها ؟ ! لا . لا يمكن شطب التاريخ ومسحه بجرة قلم . كذلك لا يمكن ، وبعد اقصى تجربة ، بيع هذه الجماهير بالذات السّم في «دسم» الحزب العربي المتقوج - صهيئة ورجعية عربية !

عن الحزب العربي وعن التنظيم القومي

وتبقى إحدى انعس الحجج التي يتبنّاها أصحاب هذا التيار ، هي القول ان الجماهير العربية الفلسطينية في اسرائيل محرومة من التعبير القومي . ولا ينقصها إلا قيام حزب عربي يمثلها .

ان الجماهير الفلسطينية في اسرائيل ، كما بيّنا هذا سابقا وسنفصل الشرح لاحقا ، ليست محرومة من التعبير القومي . والحزب الشيوعي الاسرائيلي ، كان ومنذ اليوم الاول لقيام اسرائيل ، لسان حال هذه الجماهير والمعبر عن أمانيتها القومية - الوطنية . أما «الاتحاد» . وبصفتها

لسان حال الحزب السيوغى الاسرائيلى باللغة العربية ، فهى صحيفة سعب بأسره . وليس صدفة ان قراءة «الاتحاد» ، وفى أيام مضت الى غير رجعة ، كانت أنسبه بعملية نضالية سرية تكلف صاحبها التضحيات والتحديات . ثم ليس الانتماء القومى للحزب هو الذى يحدد هويته السياسية الوطنية والتقدمية . وانما فلسفته وفكره وبرنامجه وممارساته . اذ ان الحزب هو تنظيم سياسي - طبقي . ومرة ثانية ، اننا لا نفسر الماء بعد الجهد بالماء ، حين نقول ان الاحزاب التى ساهمت فى بيع فلسطين وخيانة فلسطين كانت هى الأخرى عربية . وان الرجعية العربية هى رجعية - عربية . وان القوائم الانتخابية القديمة والحديثة ، فى الوسط العربى ، فى انتخابات الكنيست أو المجالس المحلية ، والمرتبطة بالسلطة أو بأحد الاحزاب الصهيونية ، هى الأخرى قوائم عربية .

اما ان يصل اصحاب هذا التيار الفكرى حُد التسييه بين وضع العرب فى اسرائيل واليهود فى امريكا ، والتقرير ، بناء عليه ، انه لا ينقص العرب سوى حزب عربى يكون أثره كأثر «اللوى اليهودى - الصهيونى» فى الولايات المتحدة الامريكية ، فهذا قمة الدجل السياسى ، أو الغباء السياسى - اذا كانت النية حسنة !

اذ لا يجوز اطلاقاً تشبيه حياة الجماهير الفلسطينية فى البلاد بحياة اليهود فى امريكا . ان العرب فى هذه البلاد هم بقية شعب بقى فى وطنه ويعانى شتى صنوف الاضطهاد القومى ومحاولات الاقتلاع الكولونىالى . وهم شعب مسحوق طبقياً لا تترك له الصهيونية إلا أحد خيارين - إما الرحيل وإما العمل الاسود فى أسفل السلم الاجتماعى .

أما الحركة الصهيونية فى امريكا - وليس اليهود فى امريكا - فانها جزء لا يتجزأ من المؤسسة الامبريالية الاحتكارية الحاكمة . وتمتزج أهداف الحركة الصهيونية امتزاجاً شبه متكامل ، حتى بالتفاصيل أحياناً ، مع أهداف الامبريالية الامريكية - اقتصادياً وسياسياً وايدىولوجياً . كذلك تتمازج الأهداف الاستراتيجية لحكام اسرائيل مع أهداف حكام الولايات المتحدة الامريكية .

فليست وحدة اليهود المزعومة فى حزب واحد ، غير موجود أصلاً ، هى التى تكسب الحركة الصهيونية قوتها فى امريكا . ثم الأخرى بنا ألا نبالغ

بهذه القوة حتى لا نضيع اطراف المعادلة . فليست الصهيونية هي التي تسير الامبريالية الامريكية . وانما الامبريالية الامريكية هي التي تجد في الصهيونية حليفا وخادما لها ، وبامكانها ان تسيرها .

لذلك تبقى المقارنة بين العرب في اسرائيل واليهود في امريكا اسخف من المقارنة بين وضع الضارب بالسيف والمضروب به ، وعتاب المضروب بأن الفرص متاحة أمامه تماماً كالضارب . أما القول ان العرب في البلاد يسكنون ١٥٪ من السكان بينما لا يسكن اليهود في امريكا سوى ٣٪ من السكان ، ومع هذا أنهم أكبر ، ولذلك لا ينقص العرب سوى حزب قومي يوحدهم ، فانه اسخف من القول ان الفرص متكافئة ومتساوية في المجتمع الرأسمالي بين العاطل عن العمل وبين المليونير ، وان الذنب ذنب العاطل عن العمل اذ لا يأكل أفخر الطعام ، ولا يرتاد ارقى الفنادق والمسارح ، ولا يملك افخم الدور والسيارات !

ولا نستطيع إلا ان نرى ، وراء هذه الفلسفة المسبوهة التي اطلقتها صحيفة «التقدمية» ، سعى قادة هذا التيار المتمسح بالقومية الى الامتزاج بالمؤسسة الصهيونية الحاكمة . والى المساركة «باللغة البرلمانية» ، كما عبروا عن هذا بوضوح . وكذلك الرغبة في ان يستوعبوا اسرائيليا وان يحظوا ، ولو بفئات المائدة الصهيونية البرجوازية .

من غير الممكن ان يكون العرب في اسرائيل ، في ظل الاوضاع السائدة اليوم ، جزءا من المؤسسة الحاكمة . لا سياسيا ولا اقتصاديا ولا فكريا . ان مهمتهم في هذه البلاد تتناقض ، كليا ، مع مهمة الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الامريكية . وما من مهمة وطنية لهم هنا إلا مهمة الكفاح الوطني ، بأوسع وحدة صف ، ضد المؤسسة الحاكمة - لا الامتزاج بها . هذا ما يقوله ويؤكداه الحزب الشيوعي الاسرائيلي المنهم على لسان هؤلاء المتفوجين ، المبهورين بقوة اللوي والمنهافين عن موائد الصهيونية ، بأنه حزب طبقي يضحى بالأمان القومي !

واذا كان لا بد من المقارنة ، تجوز المقارنة عندها بين العرب في اسرائيل والهنود الحمر في امريكا . وعندها سيسأل السؤال : ولماذا لم يكن مصير العرب في اسرائيل كمصير الهنود في امريكا ؟ [الابادة التامة تقريبا] : أو على الأقل لماذا لم تنجح مؤامرات الصهيونية ، فيها بعد ، بتشريد البقية

الباقية من السعْب العربي الفلسطيني ؟ ! وسنجد أكثر من إجابة مقنعة .
ولكن سنبقى إحدى هذه الاجابات : انه منذ اليوم الاول وجد العرب في
اسرائيل حزبا يسوعيا وحَد كفاحهم وقاد معاركهم وخلصهم من أخطر
المطبات والمؤامرات الصهيونية . وجند الى جانبه مختلف القوى الوطنية
السريفة .

بـ صحيح ان العرب في اسرائيل هم احوج ما يكونون الى الوحدة .
ولكن أية وحدة ؟ وعلى أي أساس ؟ ! ففي سنوات مضت الى غير رجعة
تحلت «وحدة» العرب في البلاد على أساس منح ٨٠ - ٨٥٪ من أصواتهم
للحزب الصهيونية .

فالوحدة يجب ان تكون وحدة وطنية - ديمقراطية لمقارعة السياسة
العنصرية الرجعية . ولذلك بادر الحزب الى إقامة «الجبهة الديمقراطية
للسلام والمساواة» والى إقامة عسرات الجبهات المحلية في المدن والبلدات
والقرى العربية . ويؤكد الحزب انه بالامكان ، موضوعيا ، ان تكون يحمل
الجماهير العربية - جبهة . وذلك بناء على سياسة السحق القومي والطبقي
الذي تعاني منه .

فما هو البرنامج الوطني الذي بإمكانه ان يوحد الجماهير أكثر من
برنامج الجبهة ذي النقاط الست ؟ خصوصا وانه على رأس برنامج الجبهة ،
وفي موقع القلب منه ، يقف مطلب السلام العادل القائم على أساس حق
تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني . وكذلك مطلب المساواة القومية
والمدينة للجماهير العربية في اسرائيل . هذا عدا عن مطالب الدفاع عن
حقوق العاملين والنضال ضد خطر الفاسية وضد العنصرية ومن أجل
الديمقراطية ومساواة المرأة ، وضد الاكراه على أساس ديني .

ثم ما هي إلا أكاذيب في أكاذيب تلك الادعاءات بأن الحزب
اليسوعي ، وبسبب من طبقيته وأهميته ، يقف دوماً ضد حق التنظيم
على أساس قومي .

لم يقف الحزب اليسوعي ، أبداً ، ضد هذا الحق الديمقراطي . وكان
توجهه ، دوماً ، توجهاً عينياً مسؤولاً . ولم يحارب فصائل تسككت على
أساس قومي . وانما دافع الحزب ، ويدافع ، عن حق التنظيم على أساس
قومي لحركات لا يوافقها على سياستها ولا على تكتيكها أو استراتيجيتها .

ان الذي يقف ضد الحق التنظيمي لهذه الحركات او الاحزاب هي نسفته الاسرائيلية ، هذا اذا كانت هذه الحركات أو الاحزاب وطنيه حث ولكن هذه السلطة الاسرائيلية نفسها ، ورغم صهيونيتها وعدتها السوفيتي للعرب ، تؤيد وتسجع التنظيم على أساس قومي اذا كان التنظيم المنوي تسكيهه رجعيا . واذا كان يضع على رأس أهدافه العدا للسلطنة . ووصل الأمر حتى الى حد النصيحة بإقامة حزب عربي ظاهره قومي وباطنه سلطوي ، كما جاء في وثيقة كينغ العنصرية . وقال «كينغ» في مقابله بلفزيونه [بتاريخ ٢٠/٤/٨٦] ان الحزب العربي ، الذي تكلم عنه في وثيقته ، قد قام . وكان يسير الى قيام «الحركة التقدمية» ، رغم ان جهات معينة ارباب بتر المقابلة هنا ، ولدوافع «أمنية» طبعا !

كذلك يجب التفريق بين الحق الديمقراطي للبعض باقامة حزب عربي وبين ضرورة هذا الحزب أو فائدته . لقد قال الحزب السيوحي الاسرائيلي لقادة «الحركة التقدمية» ، ومنذ اللحظات الاولى لبدء نسكلها في الناصرة في سنة ١٩٨١ ، ورغم انه كان يظهر منذ تلك الايام بعدهم عن التوجه القومي الديمقراطي ، : حسنا ، أقيموا حركتكم القومية أو حزبكم . ولكن لماذا عليكم ان تخرجوا من الجبهة ؟ ولماذا عليكم ان تناصبوا السيوحيين والجهويين العدا ؟ ولم تجب «التقدمية» على هذا السؤال ، لا يومها ولا بعد مرور السنين . وبهذا كسفت اكر ، فأكر ، حقيقة «المصلحة القومية» التي تدعى تبنيها وحقيقة وطنية تنظيمها القومي . قومية ووطنية دس السم في الدسم ، تماما كما أوصى كينغ .

لقد وقف الحزب الشيوحي الاسرائيلي ، ويقف ، ضد تشكيل حركات واحزاب تضع على رأس أهدافها مسألة العدا للشيوعية وإضعاف «الجبهة» . ليس هذا من حقه ؟ أمنوع عليه الحرص على صيانة ارقى مكتسبات الاقلية القومية في اسرائيل - اوسع وحدة - ف بين السيوحيين وسائر الوطنيين ، ضد السياسة الرسمية الحاكمة ؟ ! هل هذه «طبقية» ضارة ؟ !

أم ان هذه «مصلحة حزبية ضيقة» وتتعارض مع «المصلحة الوطنية العامة» ، كما يتشدد بعض المتقبحين ؟ ! اذن فليفضل هؤلاء ولو بالاتيان بمثال واحد عن مصلحة حزبية للشيوعيين في اسرائيل ، تتعارض مع

المصلحة الوطنية للعرب في اسرائيل . او بالعكس . اي فليقدم هؤلاء ولو مثال عن مصلحة وطنيه للسبب تتعارض مع مصلحة السيوغيين .
لن يكون بإمكانهم ذلك ، مهما فدحوا زناد فكرهم . اذ انه ما من مصلحة للسيوغيين تتعارض مع المصلحة الوطنية للجماهير العربية في اسرائيل . ولا يحدث الآن ، اطلاقا ، عن قضية بناء الاستراكية ، التي هي الأخرى لا تتعارض مع المصلحة الوطنية للفئات السعبيه ، وانما تصونها . ولكنني اقصد المطالب الوطنية الديمقراطية التي تكافح هذه الجماهير في سبلها . الآن ، وعلى رأسها حق تقرير المصير لسعبيها والمساواة القومية والمدنية لها .

ثم ان «الجهة» لم تفرض أي التزام ايديولوجي - طبقي على اعضائها . ولم يطالب السيوغيون حلفاءهم بالتخلي عن منطلقاتهم القومية لإببات وطنيهم . وانما عززوا شعور الكرامة القومية لدى حلفائهم . اذ ان كل نزعة قومية ديمقراطية مقبولة على الشيوعيين ، بل ويدعمونها .

أما لأولئك الذين يدعون انه ليس بإمكان الحزب السيوغي الاسرائيلي أن يصل الى اوسع الفئات اليهودية ، ولذلك يجب تشكيل حزب قومي عربي ، فنقول : وهل ستكون المهمة أسهل اذا كان هذا الحزب قوميا حقا ؟ ! وهل بإمكان الاتجاه القومي المتطرف ان يكسب تأييدا اوسع ، بين اليهود ؟ عدا عن الاجابة الواضحة «بلا» ، فان مثل هذا الاتجاه قد يحير الناس ، أولا وقبل كل شيء ، على كفاح الجماهير العربية .

أما اذا كان المقصود تشكيل حزب قومي على غرار تفصيلة «وبيقة كينغ» ووفق وصيتها ، فعندها سيصل هذا الحزب طبعا «دور دوغري» الى حصن الصهيونية . ولكن أي فاسم مشترك يبقى عندها بين ادعاء مثل هذا الحزب بالوطنية والقومية الصادقة ، ضد «عدم وطنية» السيوغيين المزعومة ؟!

لقد أثبتت تجربة «الحركة التقدمية» انها ليس فقط لم تخترق الوسط اليهودي ، وانما حدث العكس . فالصهيونية هي التي اخترقت هؤلاء القومجيين ان كان على مائدة ارنس ، أو على مائدة الائتلاف مع الترنتيفا - اثيري ، الحالم الوهان بمشاريع الاستسلام الامريكية

أما ادعاء البعض بأن مل هذا الحزب القومي أقدر على تحقيق المكاسب القومية ، فهو ادعاء باطل اطاح ونطج به التجربة بعينه . يوميا . وهو شرك تنصبه الصهيونية للعرب في البلاد . نعرهم عن أبنائهم الشيوعيين وسائر الجبهويين . حتى يسهل البطس بهم . إذ أن الحزب الشيوعي الاسرائيلي لم ينقاس . ولو للحظة . في الكفاح لتحقيق مكاسب القومية . واستطاع . فعلا . تحقيق العديد منها وعلى رأسها مكسب البناء وإفسال سياسة العدمية القومية . وبناء وحده الصف الوطني والتزاع العديد من الحقوق القومية والمدنية . بفضل هذه الوحدة وبفضل النضال العربي - اليهودي المشترك .

لقد أثبتت تجربة الجماهير العربية مع السلطة الاسرائيلية الحاكمة ، أن هذه السلطة لا تعادي العرب لكونهم يؤيدون الشيوعيين وإنما لكونها سلطة صهيونية عنصرية . وهي تعادي الشيوعيين بالذات ، أكثر من غيرهم . لأنهم يشكلون خطرا أساسيا وعقبة كاداء أمام مخططاتها وسياساتها العنصرية ضد العرب . إذ أنهم بطرحهم للبرنامج السياسي السليم . الثوري والعقلائي . وبمايرتهم الكفاحية . وبتوحيدهم لأوسع فئات الشعب وبصمودهم ... الخ . يشكلون قيادة من نوع جديد . لا يمكن لا تطبيعها ولا تطويعها ولا قطف رأسها .

ثم أثبتت ، أيضا ، هذه التجربة أنه ليس بمسيرة الظالم . ولا بالاندماج في قومية العدا للشيوعية . يمكن تحقيق المكاسب . وإنما يمكن تحقيقها . فقط . بالكفاح العنيد المابر . سوية مع أبناء الشعب - الشيوعيين . لدرجة أنه من المتعذر الاتيان ولو بمثال عن مكسب قومي واحد . لم يكن بفضل هذا الكفاح . وبفضل قيادة الشيوعيين وحلفائهم الجبهويين له . وكلما كانت الجماهير تصعد من تأييدها للشيوعيين وكفاحها معهم . كلما كانت تفرض احترامها وتستل المكاسب .

وتبقى المقارنة بين مكاسب السلطات المحلية الجبهوية والسلطات المحلية السلطوية . خير دليل على هذا . كذلك يمكن المقارنة بين وضع الجماهير عندما كانت «تمنح» الغالبية الساحقة من أصواتها للأحزاب الصهيونية وعكاكيزها العربية . وبين وضعها عندما صعدت من وحدتها الوطنية والتفافها حول أبنائها الشيوعيين والجبهويين . أن شعار «كرامة

وخدمات». والذي أطلقه السيوينيون ، عنى ويعنى ضرورة تـ «الكرامة القومية» لتحقيق المكاسب المدنية . ويؤكد السيوينيون المتهمون ، زورا وبهتانا ، بالحرر من الكرامة القومية . ان من يسعى الى الخدمات ، على حساب الكرامة القومية ، سيفقد الاثنين معا !

وهكذا هو الكفاح بدون السيوينيين ، أو بعزل عن السيوينيين ، أو تشكيل حزب قومي يستنى السيوينيين بسبب طبقتهم . انه تفريط بالكرامة القومية ويجرد للسبب من أحد أمضى أسلحته في مقارعة السلطات العنصرية ، لتحقيق المكاسب الوطنية .

وبناء على كل ما سبق ، انتقد وينتقد الحزب السيويني الاسرائيلي فكره تشكيل حزب عربي للجماهير العربية في اسرائيل ، ومن منطلق رفضه لكون «قومية الحزب» هي المقررة بخصوص تقدميته أو رجعيته ، ومن منطلق الحرص على الحقوق الوطنية لهذه الجماهير . اذ لا بد ان نلاحظ - عدا ما أوردناه أعلاه - من ان دعاة تشكيل مثل هذا الحزب كانوا دوما ينكرون سرعية عمل الحزب السيويني الاسرائيلي بين الجماهير العربية ، بصفته حزبا طبقيا أميا ! وكان التاريخ البصري قدّم ، أو بإمكانه ان يُقدّم ، ولو مالا واحدا عن حزب «لا طبقى» !

ولكن رغم هذا فالحزب السيويني الاسرائيلي ليس فقط لم يعارض تشكيل تنظيمات على أسس قومية ، اذا كانت وطنية حقا ، وانما كان المبادر والداعية لاقامة مثل هذه التنظيمات والاطر القومية ، في الكثير من الحالات . ويعود له - لهذا الحزب «الطبقى» الذي «لا يمثل الأمانى القومية»، كما يتسذى القومجيون الرجعيون ، وكذلك لحلفائه الجبهويين ، الفضل الاساسى في تشكيل وبقاء «لجان الطلاب الجامعيين» واتحادهم القطري وكذلك «اللجنة القطرية للطلاب الثانويين العرب» و «اللجنة القطرية لرؤساء السلطات المحلية العربية» و «اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضى» . وكذلك يعود له القسط الكبير في عقد المؤتمرات على اساس قومي ، مثل مؤتمرات الدفاع عن الارض ومؤتمرات التعليم والصحة والدفاع عن الاوقاف ، ومئات المهرجانات الوطنية الخ .

كذلك يرفض الحزب السيويني الاسرائيلي تقسيم الاقلية القومية العربية على اساس حزبيين ولا حزبيين . ويقف ، دائما ، الى جانب تشكيل

هينات وطنية ، بغض النظر عن عدد الشيوعيين فيها . وليس فقط غريبه عنه محاولات الاستفراد بالنضال أو الاحتواء . وإنما قدس هدفه هو توسع حلبة الكفاح لتضم أكبر ما يمكن من الوطنيين . ولقد كان هذا الأمر أحد الأسباب التي وقفت وراء مبادرته لتسكيل «الجهة الديمقراطية للسلا والمساواة» . ان قبول الشيوعيين ، في غالبية القرى العربية ، عدة نفسه المقاعد الانتخابية حسب قوتهم الانتخابية ، ولصالح الحلفاء . هو دليل إضافي على مدى حرصهم على الوحدة الوطنية . وانه ما من مصلحة لهم الا مصلحة هذه الوحدة .

لقد قاد الشيوعيون المعارك الوطنية للجماهير العربية في البلاد ، حال قيام الدولة ولعدة سنوات تلت ، لوحدهم تقريبا . ولم يسعد الشيوعيون بهذا الواقع . بل اطلقوا النداء دوماً استنفاراً للقوى . ومهدوا الطريق لبروز القوى القومية - الوطنية ، بفضل صمودهم ومبايرتهم . واتخذوا من هذه القوى الوطنية حليفاً لهم .

وعندما قيل للشيوعيين في الناصرة ، سنة ١٩٧٥ ، ان البلدية السلطوية أشبه بشمرة ناسفة تكفيها هزة صغيرة لاسقاطها ، ولا حاجة لإقامة الجهة ، رفضوا هذا التوجه الضيق الأفق . ولن تجد سيوغيا في الناصرة ، اليوم ، يفضل مجلساً بلدياً ذات أغلبية أحد عشر عضواً سيوغيا عن مجلس بلدي ذي أغلبية أحد عشر عضواً سيوغيا - وجهويا . وذلك من منطلق الحرص على اوسع وحدة صف وطنية ، وعلى مشاركة اوسع الفئات السعبيه ، غير الشيوعية ، في المعركة الوطنية .

ولكن ، في الوقت نفسه ، لا تجد وطنياً حقيقياً في الناصرة ، أو غيرها ، يقبل بعدم مشاركة الشيوعيين أو إضعافهم بحجة «المصلحة القومية» . اذ ان قوة الشيوعيين هي قوة وطنية صافية للشعب ، ولأمانيه القومية .

ان كون الحزب الشيوعي براء من تقسيم الناس الى حزبين ولا حزبين ، لا يعني سكوته على محاولات بعض القومجيين العرب اللجوء الى هذا التقسيم وتصوير الحزبيين [الشيوعيين] كأناس غير وطنيين ، بسبب من طبقيتهم . فهذا التوجه الرجعي هو توجه انتحاري ومعادٍ للأمانى القومية ، بقدر ما هو معاد للشيوعية .

ويرفض السيوغيون الفرية التي يقال على لسانهم : «كل من ليس معنا فهو ضدنا» . ويؤكدون ان كل من هو ليس مع السلطة ومع مخططات الاحزاب الصهيونية ، وغير ملوث بالعداء اليهيمى للسووعية «هو معنا ونحن معه» . وفي الوقت نفسه ، يقاوم السيوغيون ، بكل ما اوتوا من قوة وتصميم ، التوجه القومى الرجعى والقائل «كل من ليس سيوغيا ولا يؤيد السيوغيين يكون وطنيا وقوميا» . وذلك من منطلق الحرص على المصلحة الوطنية لسعيهم . والى ليس هنالك اسهل من التفريط بها في ظل العداء للسووعية . ويقاوم السيوغيون ، فعلا وبحق ، محاولات تشكيل اطر وهيئات تستثنى الشيوعيين وتعاديهم . وذلك ليس «رغبة منهم بالاستفراد في النضال» ولا بسبب «عدائهم لحق التنظيم على اساس قومي» ، وانما تصميميا وطنيا منهم على مقاومة كل حركة سياسية تسعى لخيانة شعبهم ، قرميا وطبقيا ، تحت علم المتاجرة القومية و «استقلالية التنظيم القومى» عن الشيوعيين .

واخيرا ، من نافل القول التاكيد ان الجماهير العربية في اسرائيل ، وبصفتها اقلية قومية تواجه السياسة الصهيونية العنصرية في عقر دارها ، عليها اكر من اية فئة اخرى الاصرار على عدم الوقوع بحماة التعصب القومى . وذلك حرصا منها على تحقيق ايمانها القومية وعلى كسب الحليف الديمقراطى اليهودى ، الى جانب معركتها العادلة . ويقودنا هذا الى موضوع النضال العربى - اليهودى المشترك .

وطنية النضال الأُمى ، العربى - اليهودى المشترك

يؤكد الحزب الشيوعى الاسرائيلى على ضرورة النضال الأُمى ، العربى - اليهودى المشترك . وكان قد أكد هذا الأمر ونادى به ، ايضا ، السيوغيون الفلسطينيون قبل قيام دولة اسرائيل . ويحلو لبعض القوميين ان يطعنوا بقومية الشيوعيين ، بوظنيتهم ،

بسبب من أميتهم . ومن مفارقات الأمور ذات الدلالة ان يبنى حركة الصهيونية مع القوميين العرب ، في اطلاق هذه التسمية بحق التسويعيين في اسرائيل . فالصهيونية تتهم الشيوعيين اليهود بأنهم «خون» للمصالح الوطنية لليهود وعملاء للحركة القومية العربية . ويتهم القوميون العرب الشيوعيين العرب بأنهم «خون» للمصالح القومية للعرب وعملاء للحركة الصهيونية .

لا توجد عنصرية ، في اسرائيل ، ابعد من العنصرية الصهيونية . ولا توجد قومية أسوأ من قومية الصهيونية . ولا يمكن لأي كفاح ان ينتصر على العدو اذا تبني مواقف ووسائل العدو . فالكفاح ضد عنصرية وشوفينية السياسة الرسمية لحكام اسرائيل ، يجب ان يكون كفاحا ديمقراطيا عادلا ، اذا أراد تحقيق المكاسب الوطنية .

ان أمية الشيوعيين العرب | اذا اتنا نبحث «الطبقى» و «الأممي» و «القومي» في كفاح الجماهير العربية | ، تعني اتباع ضمن الوسائل لضمان تحقيق الأمان القومي للعرب . فالسلطة الاسرائيلية هي المعنية بتسعير العداء الشوفيني بين العرب واليهود ، وذلك لمنع أي كفاح مشترك بين العرب واليهود ضدها - بصفتها عدوا للعرب ولليهود ايضا . وحتى يسهل عليها سحق العرب قوميا وطبقيا ، واستغلال اليهود طبقيا .

ولا تتعارض أمية الكفاح المشترك مع أي مطلب وطني عادل للعرب (ولليهود طبعا) . ان معيار أمية هذا الكفاح ، في اسرائيل ، هو مدى محاربه لسياسة الاحتلال والقمع والاقتلاع والتشريد والتهويد والتمييز ... الخ . وليس من مصلحة وطنية للعرب أسمى من مصلحة الكفاح ضد هذه المظاهر . ومن مصلحة الجماهير العربية كذلك الكفاح ضد القهر الطبقي . وكذلك الكفاح المشترك من أجل تحقيق مكاسب ديمقراطية عامة ، عدا مصلحة الكفاح المشترك ضد العنصرية وخطر الفاشية . وهذا يتطلب تصعيد الكفاح الأممي ضد السياسة السائدة .

ان التقوقع القومي الشوفيني ، وعزل الجماهير العربية عن الكفاح الديمقراطي العام في البلاد ، وعن القوى الديمقراطية اليهودية ، يعني الاقرار بحبسها في «غيتوات» وحرمانها من الحليف الديمقراطي لكفاحها

الوطني العادل . وهذا ما تريده الصهيونية . ويعني عزل هذه الجماهير كذلك . حرمان الجماهير اليهودية المسحوقة من اكبر حليف ديمقراطي لها ، لتحقيق التغييرات الديمقراطية المنشودة .

اذ ان الجماهير العربية في البلاد ، بمجموعها وبصفتها تعاني من الظلم القومي وبصفتها جماهير عمالية تعاني من القسر الطبقي ، تشكل قوة ديمقراطية يحسب حسابها ولها وزنها وأثرها ، خصوصاً اذا ما وُحِّدَت كلمتها واذا ما ربطت كفاحها بكفاح القوى الديمقراطية اليهودية .

صحيح ان أبناء القومية المظلومة يشعرون بأنفسهم ، أولاً وقبل كل شيء كأبناء قومية مضطهدة وليس كـ«شغيلة» . وهذا أمر طبيعي ومفهوم لدى الشيوعيين ومن قبلهم . ولكن شتان ما بين تفهم هذا الأمر وبين السماح للبرجوازية اليهودية الشوفينية باستغلاله ، عن طريق تسخير الشوفينية . فالشوفينية هي دوماً بوميرانج ، شوفينية ظالم كانت أم مظلوم !

ولا يطالب الشيوعيون أبناء القومية المظلومة بالتححرر من شعورهم القومي وبالتضحية بالمصلحة القومية لحساب «الطبقي» و «الأممي» ، بل على العكس تماماً . فالشيوعيون يعززون من شعور الكرامة القومية لدى أبناء القومية المظلومة ويقودون كفاحهم ضد كل مظاهر الغبن القومي . ولكنهم يؤكدون انه لا نجاح لكفاح أية أقلية قومية اذا كان بمعزل عن الكفاح الديمقراطي العام ، سوية مع أبناء القومية الظالمة .

ان تكسب الجماهير العربية في اسرائيل حليفاً أميناً لها ، من الوسط اليهودي ، من أجل حق تقرير المصير لشعبها ومن أجل المساواة القومية والمدنية وضد التمييز والتشريد والعدمية القومية وسلب الارض والعنصرية وكل مظاهر التمييز ، يعني ان تسحب البساط من تحت اقدام الصهيونية ، التي تسعى لعزلها تمهيداً للبطش بها . ولا ننسى ان سياسة الاستعمار البريطاني في فلسطين ، وفي كل المستعمرات ، كانت سياسة «فرق تسد» . ولقد حفظت الصهيونية درس هذه السياسة عن ظهر قلب !

ان المواقف القومية الانعزالية ، المعرض العرب في البلاد للوقوع فيها ، ورغم كل محاولات تفهمها كرد فعل ، ورغم عدم وضعها أبداً على

قد المساواة مع سوفينية القومية الظالمة . تضر أولا وقبل كل شيء ليس
بالسياسة الصهيونية لحكام اسرائيل ، وانما بكفاح الجماهير العربية .
وان ينحرف العرب في حقدهم المسروع على الصهيونية وعلى
البرجوازية اليهودية الى حد الحقد على كل يهودي ، بصفته يهوديا ، يعنى ان
يقع العرب في أحد امراض الصهيونية - وهو العنصرية . أما ان يحجب العربي
كل العرب ، بناء على كونه عربا ، بما فيهم الرجعية العربية ، فيعنى
الوقوع في حماة السوفينية .

كذلك من الطبيعي أن يحس أبناء القومية المظلومة بالسك والريبة حتى
تجاه بروليتاريا القومية الظالمة . فالعربي في البلاد يسعر ان المزارع اليهودي
والعامل اليهودي والمالك اليهودي قد حل محله . به هنالك ارب بغض
ومتوارت من الكراهية والحقد والبغضاء المتبادلة . وهذا ليس بسبب التركيب
البيولوجي - القومى للعرب وللهود ، الذين عاشوا على مدى عشرات
السنين من التاريخ بتفاهم ، وانما بسبب من ممارسات الحركة الصهيونية .

وبناءً عليه فان النضال ضد الظلم القومى - الطبقي المزدوج ، بحق
العرب ، يجب ان يكون نضالا أمميا ضد الممارسات الصهيونية . اذ ان
الانعزالية القومية ، والقومية المتعصبة ، لا تحقق المكاسب وانما تزيد من
حدة الماسى . فليس من أقلية قومية ، في التاريخ الانساني ، عزلت
نفسها عن القوى الديمقراطية لدى قومية الاغلبية ، استطاعت ان تسلم
بجلدها من الجينوسايد [مذابح شعب] أو من تشديد سياسة الاضطهاد
القومى .

صحيح انه من الصعب ايجاد العديد العديد من الحلفاء اليهود الأيمن ،
لكل المعارك الوطنية للجماهير العربية . وقد يزداد أو يقل عدد الحلفاء
حسب طبيعة الموضوع المطروح . ولكن هذا يجب الا يخلق ردا متعصبا
معاكسا . وانما يجب ان يثير الحرص - كما الحرص على بؤبؤ العين - على هذا
العدد الطليعى الشجاع من الأيمن الديمقراطيين اليهود ، وعلى الكفاح
المستمر معه في سبيل تحقيق المصالح الوطنية الخاصة ، والديمقراطية العامة .
فليس هنالك اصعب من ان يكون الانسان امميا في زمن الحرب .
وخصوصا اذا كانت الصهيونية قد غذته بالسوفينية وغسلت دماغه على مدى

اجال متوارة . ثم ان فئات المائدة ، من جراء الاحتلال والاضطهاد القومي ، تسمح للبرجوازية اليهودية برشوة فئات واسعة من «شعبها» وتخريب ائمة الطبقة العاملة . هذا عدا ان ممارسات الرجعية العربية لم تساهم في فتح أعين الجماهير اليهودية على حقيقة حكامهم ، وذلك عندما كانت تتشج بعنترياتها القومية ، او عندما كانت تخون قوميا . ان لعق السادات لاقدام المحتلين وتوقيعه لاتفاقيات «كامب ديفيد» الخيانية ، اخرج الشعب في اسرائيل الى الشوارع هاتفا «بيغن ، بيغن ، ملك اسرائيل الحي القيوم» ، مع انه كان يهتف قبل توقيع هذه الاتفاقيات باسمه «بيغن عدو الى البيت» .

ولا يتنافس عاقلان في ان الصمود الفلسطيني الاسطوري ، ابان العدوان الاسرائيلي على لبنان ، سنة ١٩٨٢ ، وابان حصار بيروت قد قدم خدمة رائعة لعملية تفتح أعين الشعب في اسرائيل على حقيقة حكامه وكونهم أعداء لمصلحته .

ثم مهما يكن العدد قليلاً ، فليس العدد هو الاساس . وانما المهم الافكار التي يحملها هذا العدد والتي لها المستقبل . ان التركيبة الائمة للحزب الشيوعي الاسرائيلي ، ونضاله الأممي ، ورغم قلة تأييده بين الاوساط اليهودية ، في الوقت الراهن ، يجعله طليعة كفاحية تشير الى مستقبل العلاقات التي ستسود في المستقبل بين الشعبين ، عندما يتم التحرر من الاحتلال ومن الشوفينية والعنصرية الصهيونية والتمييز القومي ، ومن الرجعية العربية ...

ومن الأمور المضحكة - المبكية ان يزايد بعض المتمسحين بالقومية العربية ، بالحركة «التقدمية» مثلاً ، على ائمة الشيوعيين «الذين يتلقون الأوامر من تل ابيب» ، كما تتشدد نشرة «الوطن» ، وقبلها «التضامن» بينها يتحالف هؤلاء مع سقط الحركة الصهيونية .

ان «أئمة» الحزب الشيوعي ليست اشارة ضعف لكفاحه الوطني ، وانما هي مصدر قوة فائق الأهمية لكل الكفاح القومي للجماهير العربية في اسرائيل . اذ يجند الحزب لصالح هذا الكفاح اخلص الديمقراطيين اليهود ، وأشداهم ثورية . وكذلك اوسع القوى على الصعيد العالمي .

ان «الوطني» و «الأممي» ، وكما قال القائد الفيتنامي هوشي مين ، هما جناحا طائر يرفعانه الى أعالي السماوات . وكسر أحد هذين الجناحين يؤدي الى السقوط والموت المحتم .

وبناء عليه نستطيع القول ، عن طريق ربطنا بين هذا الموضوع والموضوع الذي سبقه ، ان الدعوة لتسكيل حزب عربي هي دعوة ضارة لكل الاسباب التي ذكرناها سابقا ، ولكنها ضارة ايضا لأنها تفسخ الصفوف وتعزل الاقلية القومية العربية في البلاد عن حلفائها اليهود وعن المشاركة في الكفاح الديمقراطي العام ، العربي - اليهودي المشترك . انها ضارة من وجهة نظر المصلحة القومية ايضا . اذ ان «أممية» الكفاح هي الضمان الأكيد لهذه المصلحة القومية !

ولهؤلاء الذين يرتعبون ويحقدون بسبب كون الحزب الشيوعي - الأممي ، هو القائد للكفاح الوطني - القومي ، للجماهير العربية في البلاد ، نقول ان قيادة الطبقة العاملة لهذا الكفاح هي إحدى الحقائق البارزة لهذا القرن . فكم بالحري اذا كانت كل الاقلية القومية العربية في البلاد - سفيلة بالأجرة ؟!

ثم انه ليس فقط غير غريب عن أممية الشيوعيين الكفاح ضد كل مظاهر الغبن القومي ، وانما لا تجوز اميتهم الا اذا كانت كذلك . ولذلك ليس غريبا ، ايضا ، ان تجد العديد من الاقليات القومية ، في العالم ، في الحزب الشيوعي الأممي - ممثلا شرعيا لكفاحها القومي العادل .

الحزب الشيوعي الاسرائيلي القائد الوطني التاريخي للجماهير العربية في اسرائيل

لا تعيش البسرية ، في نهاية القرن العشرين ، عهد تفتح
البرجوازية ، وإنما تعيش عهد انهيارها وانفصاح طريقها ، عالميا وسرق
أوسطيا . وانتهى ، الى غير رجعة ، زمن احتكار البرجوازية للمسألة
القومية . ونبت ، عالميا وسرق أوسطيا ايضا ، انه كلما تعقدت المسألة
القومية أكثر ، وكلما تكالبت القوى الرجعية لمنع حلها حلاً ديمقراطياً ،
أكثر ، كلما برز طريق الطبقة العاملة وحلفائها - بديلا نوريا قادرا على
المواجهة بحزم ، وعلى تحقيق النصر وضمانه .

كذلك ثبت انه ما من طريق أمام البرجوازية الوطنية ، اذا أرادت
الحفاظ على دورها الوطني ، إلا طريق تعميق التحالف مع الطبقة العاملة
وطليعتها الثورية ، محليا ، ومع العالم الاستراكي والقوى الثورية -
الديمقراطية ، عالميا . هكذا ، فقط ، تستطيع تسريع حل المهمات الوطنية
الموضوعة على بساط البحث . وكل حديث آخر عن استثناء السيوعيين ،
بسبب من طبقتهم واميتهم ، وكل حديث عن نضال «بدون السيوعيين» ،
بحجة ان المهام الموضوعة على بساط البحث هي مهام وطنية ، يعنى استثناء
أضمن حليف لتحقيق هذه المهام . ويعنى بدء طريق خيانة المهام الوطنية ،
من قبل البرجوازية .

اذ انه ليس فقط غير غريب عن الأحزاب الشيوعية الانشغال
بالمهام الوطنية ، وإنما لا يمكن ان يكون الحزب الشيوعي حزبا شيوعيا ،
اميا حقا ، إلا اذا كان حزبا وطنيا . ان الدفاع عن كل ما هو وطني
وديمقراطي ، وتبني كل ما هو تقدمي في النزعة القومية ، ليس فقط غير
غريب عن طبقية واممية الطبقة العاملة ، ولا يتناقض معها ، وإنما هو

ألف وباء هذه «الطبقية» وهذه «الأممية» ويائها . بل انه ايضا أحد مفاتيح الانضمام لحزب شيوعي ، ماركسي - لينيني .

وتبقى الحقيقة التاريخية ساطعة : ان أعدى أعداء السيوغية في عصرنا الراهن ، هم أعداء سعبهم ، في الوقت نفسه - انهم الامبرياليون ، والامريكيون على رأسهم ، والفاسيون والعنصريون والصهيونيون والرجعيون ، مهما اختلفت بلدانهم وقومياتهم . ويتربع على عرش - أو خازوق ! - العداء للسيوغية ، في شرقنا الاوسط ، حكام اسرائيل وحكام السعودية والاردن والمملكات والامارات والمشيخات . هؤلاء هم حلفاء وأصدقاء كل متاجر بالقضية الوطنية ، جعل من قضية العداء للسيوغية ، مسألته «الوطنية» .

فكم بالحري اذا جرى الحديث عن الجماهير العربية الفلسطينية في اسرائيل وعن محاولات البعض نشر فيروس العداء للسيوغية بينها ، تحت يافطة «القومية» ، رغم خصوصيات الوضع الذي تعيشه ؟ !
لا يمكن فصل العداء للسيوغية ، بين الجماهير العربية في اسرائيل ، ومهما «تقوُّمُج» منظروها ، عن الحقائق المثبتة التالية :

* أولاً ، وثيقة كينغ العنصرية : ان هذه الوثيقة ، والتي كان من المفروض ان تبقى سرية ، جسدت السياسة العنصرية الصهيونية الرسمية تجاه الجماهير العربية ، ووضعت تفاصيل برنامجها المستقبلي . ولكن الأمر البارز ، في هذه الوثيقة وبرنامجها ، هو ضرورة العمل على ضرب الدور القيادي للحزب الشيوعي بين الجماهير العربية ، حتى يسهل ويتسنى تنفيذ الوثيقة وبرنامجها . وأحد الأساليب لتحقيق هذا الأمر - حسب رأي السلطة الصهيونية وغلاة عنصرييها - إقامة حزب عربي «قومي» !

ولقد كان بنيامين غور أرييه ، مستشار رئيس الحكومة لتسوّون الجماهير العربية - في حينه ، قد عبر بصراحة عن هذه السياسة ، حين صرّح سنة ١٩٨٢ : «الحزب الشيوعي الاسرائيلي هو الحزب الاخطر على المؤسسة الحاكمة ، لأنه يملك البرنامج والتنظيم الصلب . وهو يسير وفق مبدأ حد اقصى من المكاسب ، مع حد أدنى من التضحيات» .

* ثانياً ، في نهاية السبعينات جرى عقد لقاء قمة عربي مصغر في المملكة العربية السعودية ، لبحث مواجهة «الخطر» الشيوعي على

السعوب العربية . ورأى المجتمعون ، كما سرت الصحف ، ان هذا «الخطر»
كامن ايضا بين الجماهير الفلسطينية داخل اسرائيل وفي المناطق العربية
الفلسطينية التي تحتلها . أي ان الرجعية العربية لم تر لها من مهمة «وطنية»
لمواجهة اسرائيل واحتلالها ، إلا مهمة مشاركتها القلق على «خطر» انتشار
الشيوعية ، ومساعدتها في الحد منه .

* ثالثا ، عندما اقترح الطلاب الايرانيون السفارة الامريكية في
طهران ، في نهاية السبعينات ، كشفوا وثائقها السرية على الملأ . وكانت بينها
وناق تتحدث عن الاهتمام والتنسيق المتبادلين . بين الولايات المتحدة
الامريكية واسرائيل ، لضرب نفوذ الحزب الشيوعي بين الجماهير العربية .
وهكذا ، وللمرة المليون ، تتكشف حقيقة التعاون والتنسيق السريين
بين الامبريالية الامريكية والصهيونية الاسرائيلية والرجعية العربية حول
الهدف نفسه . ولا نعتقد ان هنالك عاقلا ما ينسب هذا التنسيق وهذا التعاون
للوحدة «القومية» المنزهة عن أية «طبقة» .

كذلك لا نعتقد انه من الممكن فصل حقيقة تشكيل «الحركة
التقدمية» ، وائتلافها مع «الترتيقا» اقيري ، في «القائمة التقدمية
للسلام» ، عن هذا التعاون للثالوث الدنس . خصوصا وان هذه القائمة
تشكل من «سلطة» أساء ، يميزها ارتباط بعضها الوثيق بالمؤسسة الحاكمة في
اسرائيل ، وارتباط البعض الآخر بمخططات الامبريالية الامريكية ،
وارتباط قسم ثالث باليمين العربي الفلسطيني . وتظل هذه الاوساط ،
مجتمعة ، مظلة العداء للشيوعية والحقد المسعور على الدور القيادي - الريادي
للحزب الشيوعي الاسرائيلي ، بين الجماهير العربية في اسرائيل .

اننا ابعد ما نكون عن الاعتقاد بان الحركة «التقدمية» ، ما هي إلا
فقاعة عابرة . وقد تكون حكاية «غرامنا» مع هذه الحركة ، كما عبر النائب
توفيق زياد ، رئيس بلدية الناصرة ، في إحدى خطاباته ، «حكاية طويلة» .
اذ انه فكرها «القوچجي» النتن يتغذى في مستنقع ليل الظلم القومي الطويل
وصعوبة المعركة وشراستها ، مما قد يفتح الطريق لدعوات الاستكانة
«وقطف الرأس» . كذلك تنفس هذه «الحركة» من رنة ما يسمى «بالزمن
العربي الرديء» ، ومن اليمين الفلسطيني .

ولكن ، في الوقت نفسه ، ومهما راهنت السلطة عليها ، فانها ليست

«بحصان رهن» اصيل ... اذ ان قاعدتها الاجتماعية ، محليا ، مهزوزة وضعيفة . انها اعجز حتى عن إصدار صحيفة . بمن ما . وما من طريق أمامها «لبيع» فكرها «القويجي» . إلا بحجة النسرات الصغراء . ولولا وجود العوامل السياسية المواتية ، مؤقتا ، محليا وسرق اوسط فلسطينيا ، ولولا الدعم المادي ، لعجزت حتى عن هذا .

هي تقول انها «العنوان» . فعلا هي العنوان . ولكن لكل من هو رجعي وساقط ومتعاون ومعاد للسوعية . ان شعاراتها القويجية أعجز من ان تسر حقيقة فكرها الطبقي الرجعي . كتيار يمثل سلة مسلوقة . قلة قليلة . من بين البرجوازية الصغيرة . ذات الخلفية الاقطاعية السحيقة . ولكن إيانا والخطأ ! فالحركة «التقدمية» أبعد وأعجز عن أن تمثل مصلحة البرجوازية العربية الصغيرة . في اسرائيل . لقد لفظت البرجوازية الصغيرة هذه «الحركة» واستعداءاتها الموجهة ضد «طبقة» السيوغيين . لفظ النواة . ان كل محاولات «التقدمية» لجذب هذه الفئة . وخصوصا في الناصرة حيث تتجمع غالبيتها . قوبلت بما تستحقه من انكار واستنكار .

ان التسنجات القويجية والمزايدات الفارغة . بعيدة عن نفسية البرجوازية العربية الصغيرة . في اسرائيل . وهذا بحكم وضعها . الذي أسرن إليه سابقا . وسنؤكد أدناه ايضا . ان أية محاولة لدق أي أسفين عذاني بين هذه السريحة الطبقية . وبين السيوغيين . وبحجة «فراغة» طبقية وامي السيوغيين . هي محاولة سخيفة طبقيا ولا تعتمد على أرضية موضوعية . وتستخف . أولا وقبل كل شيء . بوغي البرجوازية الصغيرة وبحسها الوطني والطبقي .

وتؤكد البرجوازية العربية الصغيرة . يوميا . ومن خلال تجاربها الحياتية . انه ما من طريق أمامها لصيانة وتحقيق أمانها الوطنية - الطبقية . الا طريق التحالف مع الشيوعيين . وهذا ساهمت البرجوازية الصغيرة . ايضا . بهتك ستار «قويجي» التقدمية وتبيانها على حقيقتها . كحركة اعجز حتى من ان تمثل سريحة طبقية تدعى تمثيلها . انها حركة مرتزقة . في الأساس . تتاجر بالقويجيات لإخفاء طبقية مريضة . طبقية قد تكون اقرب الى مخلفات الماضي الاقطاعي و «الاساد» . منها الى

البرجوازية الصغيرة . طبقية مذهولة ومصعوقة امام تعاطف قيادة الحزب السيوعى وحلفائه للمعركة الوطنية - القومية . طبقية قد تحب اللون الاخضر ، ولكن ليس «للفلسطينية» ، بل لأنه لون الدولار ولون السافل الاسرائيلى ايضا !

لذلك تبقى كل المحاولات لضرب تأير وقيادة الحزب السيوعى وحلفائه الجبهويين بين الجماهير العربية ، في اسرائيل ، محاولات رجعية ومحكوم عليها بالفشل . أما كل الاوساخ الفكرية التى تهدف لخلق التناقض العدائى المصطنع بين «الطبقى» و «الأمى» و «القومى» ، فى فكر وممارسة السيوعيين ، فانها لا تجد لا القاعدة الموضوعية ، ولا الذاتية حتى . ان الكفاح القومى للجماهير العربية فى اسرائيل يتفق ، منة بالمنة ، مع الكفاح الطبقي - الاجتماعى ، ضد السياسة الرسمية ويهدف بتغيير نظام الحكم . كذلك يتفق هذا الكفاح مع الحاجة لأوسع وحدة أممية ، عربية - يهودية ، ضد سياسة حكام اسرائيل .

ولا يوجد برنامج يعكس الوحدة الكفاحية الضرورية على هذه الاصعدة الثلاثة الطبقي والامى والقومى افضل من برنامج السيوعيين وحلفائهم . انه برنامج وطنى ودمقراطى ، وثورى اجتماعيا ، فى الوقت نفسه . برنامج لا يستبدل القضية «القومية» بالقضية «الطبقية» ، ولا العكس ، ولا يستبدل المهام «الوطنية» بالمهام «الأممية» ، ولا العكس ، وانما يبين تمازج «الطبقى» «بالقومى» «بالأمى» ، راسما اضمن الطرق وافضل الوسائل لتحقيق المهام الوطنية الديمقراطية - التى هى مهام الساعة الآنية . موضوعيا ، كل الجماهير العربية فى اسرائيل والى حد بعيد ، كما أسرنا الى هذا سابقا ، هى شعب - طبقة ، شعب - شغيلة . أما البرجوازية العربية الصغيرة فهى ، وبالذات بين هذه الجماهير ، اقرب الى الشغيلة منها الى البرجوازية ، كما هو متعارف عليها فى البلدان الرأسمالية . كل الجماهير العربية فى اسرائيل تعاني من سياسة الاضطهاد القومى ومن الممارسات العنصرية - السوفينية للسلطة الحاكمة . وكلها تعاني ، وان كان بتفاوت ليس ذا بون شاسع ، من سياسة السحق الطبقي . لذلك فان غالبية جمهور البرجوازية الصغيرة ، يعمق من تحالفه مع السيوعيين ويقبل بقيادتهم ، مقررا انهم الفصيل الوطنى الطليعى ، القيادى والريادى حتى فى الدفاع

عن امانهم الطبقية . ويعرف البرجوازيون الصغار ان كل وجودهم معرض للضياع ، بما فيه مصالحهم الشرعية ، وذلك في حالة فسخ تحالفهم مع الطبقة العاملة وطلبتها الثورية .

ولا يطرح الحزب الشيوعي الاسرائيلي قضية الاستراكية ، كمهمة أنية في اسرائيل . [علما بأن الشيوعيين لا يستنون البرجوازية الصغيرة من الكفاح ، في سبيل تحقيق الثورة الاستراكية والبناء الاستراكي ، حتى الآن] . ولكنه يؤكد ان قضية الساعة ليست بناء الشيوعية ولا «الدولة الفلسطينية الاستراكية» . وإنما حق تقرير المصير للسعب العربي الفلسطيني وتحقيق السلام العادل والمساواة القومية والمدنية ... الخ . وكل الجماهير العربية تستطيع ، موضوعياً ، ومن وجهة نظر مصلحتها الوطنية ، والاجتماعية ايضا ، ان تكون قوة ديمقراطية موحدة ، في هذا الكفاح .

بما فيها البرجوازية الصغيرة ؟ - نعم . بل والمتوسطة والكبيرة ، اذا وجدت أصلاً . واذا كانت وطنية . لقد كان الشيوعيون وحلفاؤهم ومنذ سنة ١٩٤٨ ، وما زالوا ، الطليعة الكفاحية الريادية في الدفاع عن حق البرجوازية العربية الصغيرة في العيش والنمو . ودفعوا التضحيات ونظموا مقاطعة سرقة الباصات الاسرائيلية الاحتكارية ، دفاعاً عن سرقة الباصات العربية في الناصرة . وهكذا تصرفوا ويتصرفون ، دفاعاً عن كل مسغل أو ورسة أو سرقة أو مؤسسة عربية . وخاضوا ، وبخوضون المعارك ، لايجاد أرض . وضمان دعم مالي وفرص متكافئة لمصانع ومساغل عربية .

لذلك ليس صدقة أن يبادر الحزب الشيوعي الاسرائيلي لاقامة «الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة» . لضمان اوسع وحدة وطنية وأوسع مشاركة في الكفاح الوطني والديمقراطي العام . وليس صدقة أن ترفض البرجوازية العربية الصغيرة كل محاولات دق أسافين الخلافات المصطنعة بينها وبين الشيوعيين . ولم يكن لهذه البرجوازية ، دور الشريك الفعلي والمتساوي في هذه «الجبهة» فحسب ، وإنما دور المساهم الفعال ، أيضاً ، في البناء والتأسيس . ان تأسيس «الجبهة» ونجاحها ، كان تأكيداً أيضاً ، على ان البرجوازية الصغيرة اختارت طريقها : مع الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي ، لضمان المصالح القومية والطبقية ، معاً .

ويعلم الجماهير العربية ، على جلدتها وغير فسي التجارب ودفع التضحيات ، ان أمامها طريقتين ، لا ثالث لهما : إما النضال مع الشيوعيين ، عربا ويهود ، وبأوسع وحدة صف وطنية وبهامات مرفوعة وبكرامة موفورة ، ضد السياسة الصهيونية ، وضمان تحقيق الأمان القومي ، بناء عليه . وإما التوقيع في مستنقع العداء للشيوعية ولوحدة الصف الوطنية ، ضحية للسياسة الصهيونية ، ومن ثم التفريط بالأمان القومي والبقاء اصفارا منسية في خانة الاحزاب الصهيونية ، وخدمها وأعوانها . ولا تفتن بها هذه إلا عشية كل انتخابات ، ويهدف تزوير إرادة شعب وتزوير مؤامرة جديدة .

لذلك تبقى الدعوات الفوجية ، كدعوات الحركة «التقدمية» ، ضد ما يسمى «الهيمنة الشيوعية» و «الاحتواء الشيوعي» ، والقول ان «الجهة - ليست بقرة مقدسة» و «وحدة الصف ليست بكرة مقدسة» أى يجوز ذبحها ، دعوات معادية قوميا ووطنيا ، للفلسطينيين في الأساس . حتى لو قالها انسان وهو يحمل في يناه «العلم الفلسطيني» ، على مرأى «السن بى» (جهاز المخابرات الاسرائيلي) . وحتى لو كتبها في نسرة تصدر بأربعة ألوان ، وتوزع مجانا . وحتى لو تضمنها منشور ينتهى بهتاف «عاس المورده الفلسطينية وقاندها ابو عمار» ، ويوزع في الجامعات الاسرائيلية !

لا «هيمنة» إلا هيمنة وحدة الصف الوطنية . ولا «احتواء» إلا احتواء البرنامج الوطني السليم . ونعم ، وحدة الصف الوطنية ، هي «بقرة مقدسة» ، بل وأقدس من البقرة المقدسة ! والا يبقى الطريق الثانى - طريق «الاحتواء» الصهيوني والرجعى ، طريق «الهيمنة» الصهيونية والرجعية . طريق الاحتواء والهيمنة من قبل «العلم سام» .

يكفى هذه الجماهير العربية ما مر عليها من تجارب . تكفيها تجارب سعبها . تكفيها تجارب سعوها العربية ، من المحيط الى الخليج . وهى ليست بحاجة الى نقل أمراض وعجز البرجوازيات العربية الى صفوفها . وليست بحاجة الى قيادة قوجمية ، هي ظلال باهتة لتلك البرجوازيات ولتلك القيادات القديمة ، التى جرت المأساة تلو المأساة على جماهير السعب . وهذه الجماهير ليست بحاجة «لاحتواء» عربي رجعى ، ولا لاحتواء صهيوني ، وإنما هي احوج ما تكون - حتى في سبيل الحفاظ على كيانها المهدد ، الى

تعميق توجهها الوجدوي الوطني اليساري ، لا الارتداد نحو مزبلة اليمين الخياني .

ولقد أنبت هذه الجماهير ، من بين صفوفها ، قيادة على غرارها ومثالها . قيادة وطنية حقة استطاعت نجيبها اخطر المطبات الصهيونية وتقويت استيع المؤامرات العنصرية ، وبناء وحدة صفها وتحقيق المكاسب التي لا يستهان بها ، وتحذير انتماها وبقائها في وطنها ، الذي لا وطن لها سواه . في عقر دار الصهيونية ورغما عنها ! قيادة رفضت ، منذ اللحظة الأولى للنكبة ، ان تجلس صامتة في «الحزان»* . بل قرعته وقرعته وقرعته حتى كسرتة ، في وقت لم تسمع فيه صرختها قيادات الأنظمة العربية ، من المحيط الى الخليج ! قيادة لا يحرفها تيار الامتداد اليميني ، عن دون وعي ، ولا يستردها الجزر الرجعي . ولا تلقى نفسها ، طوعا ، «في اليه مكتوفة» ، لذا لا تفرق ولا تبطل .

ويأتي بعد كل هذه التجارب الغنية من يُزايد على هذه القيادة وهذه الجماهير ، «قوميا» ؟ ! ويأتي من يتجرأ على نشر أبخس الافكار الامبريالية والرجعية على مر التاريخ الحديث - ويعتبرها افكارا قومية ، بل وحتى «فلسطينية الجذور» [مسكنة فلسطين] ! - عن التناقض المزعوم بين طبقية وامة وقومية السيوطين ؟!

موضوعيا وذاتيا ، لم يكن بالامكان ان تكون قيادة هذه الجماهير ، هذه البقية الباقية من شعبها في وطنها ، إلا قيادة شيوعية - جهوية . ولو لم تجد هذه الجماهير هذه القيادة الشيوعية ، منذ لحظة المواجهة الأولى ، مع السلطة الاسرائيلية ، لخلقت من بين صفوفها قيادة كهذه . لذلك «فليهدأ» الوسواس الخناس ، الذي ما زال يحمل في جعبته امراض واحلام القيادات التقليدية لقطاع وبرجوازية الأمس ، أو امراض وأوهام برجوازية اليوم ، الرجعية ، في العالم العربي ، ويريد ان ينقل للجماهير العربية في اسرائيل هذه الامراض . ان شرب البحر أهون عليه ! موضوعيا ، هذه الجماهير بغالبيتها الساحقة ، جماهير عمالية

* الاشارة الى رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس» ، والتي مات فيها بضع فلسطينيين في خزان مفلق ، دون أن يقرعوا جدرانها

وموضوعيا يتمازج ، في سقائها وكفاحها ، الطبقي بالقومي بالأممي .
وموضوعيا يزداد وزن الطبقة العاملة وفئة المفقين ودينامية عنصر السباب ،
بين صفوفها . وموضوعيا تتبلور لديها ، يوما بعد يوم ، عقلية ونفسية عصرية
دمقراطية ، ذات محتوى اجتماعي تقدمي . وموضوعيا تتجانس برجوازياتها
الصغيرة مع عمالها ، ويصبح منقفوها وموظفوها - سفيلة . وموضوعيا يمتزج
في حياتها القهر الطبقي بالقهر القومي ، فيخلق قاعدة اتجاهها يسارا .
وموضوعيا ، عانت هذه الجماهير ، على جلدها ، مأسى ، هزيمة وافلاس
طريق القيادات القديمة منذ سنة ١٩٤٧ الى ١٩٦٧ ، وقبلها وبعدها .
وموضوعيا استوعبت هذه الجماهير عبر ودروس المأساة ، وأحست أهمية
الطرح الديمقراطي ونبد المساومات الخيانية أو المزادات القومجية .
وموضوعيا لا ترى هذه الجماهير أمامها ، من عدو للشيوعية أسرس وأكثر
همجية من الصهيونية .

وذايتا ؟! كل تلك التجارب الموضوعية - كانت تجارب ذاتية ايضا .
وذايتا وجدت هذه الجماهير حزبا سيوعيا حمل كل الهموم الوطنية -
القومية ، حتى عندما كان لوحده .

وذايتا ؟! أية مصلحة قومية ، أية مسألة وطنية ، لم يطرحها الحزب
السيوعي ولم يدافع عنها ؟ بل ولم يكن المبادر في طرحها وفي الدفاع عنها وفي
دفع التضحيات في سبيلها ؟ ! ليتفضل أصحاب التيار القومي ، الحاقد
والمتطاول على طبقية وأمية الشيوعيين ، بتقديم ولو مثال واحد - واحد
فقط ! - عن تقاعس الشيوعيين ، أو تجاهلهم للمطالب الوطنية -
القومية .

فمن معارك البقاء والصمود ضد الترحيل والتشريد ، الى الغاء
«الهويات الحمراء» والحكم العسكري ، وضد سلب الارض وهدم البيوت
والتهميد والتجهيل والعدمية القومية وسلب الاوقاف والقمع البوليسي
والاعتقالات وقوانين الطوارئ والمجازر والعنصرية والسوفينية والحروب
العدوانية ، وضد مجمل سياسة الاضطهاد والتمييز القومي ، بما فيه التمييز في
قانون الجنسية وسائر القوانين العنصرية والتمييز ضد العامل والفلاح
والمثقف والموظف والطالب العربي ، وضد التحريض والتفسيخ على أساس
قومي أو عائلي أو طائفي ، وضد التجنيد الالزامي وسلخ العرب الدروز عن

سعيهم . الى الكفاح في سبيل المساواة ولا اقل من المساواة . واعتبار الجماهير العربية جزءا لا يتجزأ من السعب العربي الفلسطيني . والنضال في سبيل حق تقرير مصيره والسلام العادل وضد الاحتلال الاسرائيلي واجراءاته القمعية . والكفاح من أجل حق الانتخاب والتنظيم . بما فيه التنظيم النقابي ايضا . وانتخاب سلطات محلية عربية . ومن أجل حق التعليم العالي وتطوير برامج التعليم ونسر الثقافة القومية - الوطنية والترات العربي . وحق الاجتماع والتعبير والنسر والاعلام والتظاهر والاضراب . ومن أجل التطوير المتساوي والميزات المتساوية والتصنيع وبناء المساكن ودعم الزراعة العربية واحترام حقوق العرب - البدو . وإرجاع اللاجئين في وطنهم . الى ديارهم واراضيهم . واحترام اللغة العربية لغة رسمية وضمان حرية التنقل والسكن وتوسيع مسطح البناء الخ . الخ . ألم يكن الشيوعيون وحلفاؤهم . في كل هذه المعارك ، الطليعة الكفاحية : طرعا للقضية ، ومعالجة لها ، ووقودا لمعاركها ؟! وحدث هذا حتى عندما كانوا أقلية ضئيلة . عدديا . وكان السعب بغالبيته ممزقا ويكاد يضيع بين اليأس القاتل . بسبب عجز العواصم العربية . وسراسة الهجمة الصهيونية الهمجية .

كذلك في كل حروب حكام اسرائيل . العدوانية . منذ العدوان اللامى ١٩٥٦ الى حرب ١٩٦٧ الى الحرب العدوانية على لبنان سنة ١٩٨٢ . مرورا قبلها وبعدها . بعسرات الغارات الهمجية والاعتداءات الفظة على الدول العربية والسعب العربي الفلسطيني . وكذلك مرورا بمجزرة كفر قاسم ١٩٥٦ وعثمان ايلول ١٩٧٠ وتل الزعر وصبرا وساتيلا ١٩٨٢ ... الخ . الخ . ألم يكن الشيوعيون وحلفاؤهم هم طليعة كل الاجراءات الاحتجاجية والكفاحية والتضامنية التي ارتبطت بهذه الاحداث ؟ !

ثم أصبحت للجماهير العربية . في اسرائيل . أيام وطنية مشهودة . نذكر منه أيام المؤتمرات الوطنية . على مختلف القضايا . والاضرابات المتعددة . وأيام المظاهرات والاضرابات والاجراءات الكفاحية مثل يوم الاضراب الاحتجاجي على مجزرة كفر قاسم ١٩٥٦ . ويوم أول ايار ١٩٥٨ . ويوم مقتل الشباب العرب الخمسة على الحدود الاسرائيلية . من

قبل حرس الحدود الاسرائيلي . سنة ١٩٦١ . ويوم تظاهرات الحداد على وفاة عبد الناصر سنة ١٩٧٠ . ويوم اضرابات ومظاهرات صبرا وساتيلا سنة ١٩٨٢ . الخ . ولم يكن بالامكان تنظيم واقامة الاجراءات الكفاحية . في هذه الايام وغيرها . لولا السيوغيين وحلفائهم .

وهناك يومان ذوا طعم خاص . علما مرحلة نفوج مخولات كمية وكيفية بين الجماهير العربية . وكانا تنويجا لكل التطور الاجتماعي والفكري والسياسي السابق . وكان لهما اوسع الأثر على كل التطور اللاحق . انها انتصار جبهة الناصرة الديمقراطية . في انتخابات البلدية . بتاريخ ١٩٧٥/١٢/٩ . واضراب «يوم الارض» بتاريخ (٣٠) آذار ١٩٧٦ . من هو ذلك القومجي الذي يحرز . ولو على الهمس . انه كان بالامكان تحقيق هذين اليومين - النصرين . لولا السيوغيين وحلفائهم وكفاحهم المتفاني . دون كلل أو يأس . على مر السنين التي سبقتها !؟

وبعد . لا نسجل هذه الحقائق مئة أو تفاخرا من السيوغيين . وإنما لتأكيد حقائق تاريخية . لا تجرؤ حتى الصهيونية الضليعة في تزوير الحقائق . على نكرانها . وفي كل هذه المعارك ليس فقط دعا السيوغيون الى اوسع وحدة وطنية والى اكبر استنفار للقوى المستعدة للكفاح . وليس فقط لم يستأثروا بالنضال ولم يفرضوا على أي خليف توجههم الايديولوجي . وإنما اعلنوا ويعلمون على رؤوس الاسهاد :

ليس من المفروض ان تكون شيوعيا حتى تكون وطنيا . ولكن ليس بالامكان ان تكون وطنيا ، اذا كنت معاديا للشيوعية . والشيوعية ليست شرطا للوطنية . ولكنها ضمان لها . أما العداء للشيوعية ، فانه خيانة وطنية .

هكذا استطاعت الجماهير العربية الفلسطينية . في اسرائيل . ان تعمس وتبقى وتكافح وتحقق الانجازات . ولا يمكن فصل هذه الحقيقة عن نوعية قيادة هذه الجماهير . ان الحزب السيوغي . بين الجماهير العربية في اسرائيل . هو قائد شعب . انه القائد الوطني التاريخي للجماهير العربية في اسرائيل . وهذا مكسب تاريخي لهذه الجماهير ولحزبها . اذ ان هذا الحزب «الطبقي» و «الأمني» هو الذي استطاع ان يصون الهوية القومية لشعب ، على أساس البرنامج الثوري للطبقة العاملة وحلفائها .

ولولا هذا ، ولولا خبرة هذه الجماهير معه ، لما اختارته قيادة لها . إذ انه ما من طليعة تستطيع فرض نفسها ، كطليعة ثورية معترف بها ، بالقوة . الطليعة هي مَنْ تعمل كطليعة وَمَنْ تقتنع الجماهير بها ، كطليعة ، عن طريق ممارستها وتجربتها الخاصة . أما محاولات فرض قيادة «وطنية» ، مستوردة من أقيسة الصهيونية ومن كهوف بين القوقية العربية ، فإنها تبقى محاولات مضطعة وضارة ومحكوم عليه بالفشل تاريخياً ، حتى لو مُلكت أموال قارون ! فالصمود الوطني يصنعه الصامدون ، لا المتاجرون ... والممولون ! لذلك نؤكد ان التاريخ لن يعود القهقري بهذه البقية الباقية الصامدة ، من السعب العربي الفلسطيني على ارض وطنها ، لا على سكل مأساة ولا على سكل مهزلة . فالتجربة الغنية لهذه الجماهير ، اكبر من ان تمحوها بضعة مرتزقة .

أما اتباع التيار القومي السريف ، الوطني حقاً ، فمكانهم مصون ودوره مرموق ، داخل الجبهة . وحتى خارجها ، لمن اختار ذلك ، واقصد ، ملا ، «الحركة الوطنية التقدمية» او بعض تنظيمات «أبناء البلد» . وذلك بفدر معرفة أبناء هذا التيار انه لا مجال لأبارة خلافات ثانوية تناقضية ، وعدائية ، مع الحزب السيوعى و «الجبهة» . اذ هكذا ، فقط ، تزداد مساهمتهم بالمعركة الوطنية ، والدمقراطية العامة ، لما فيه صالح الكفاح ضد سياسة حكام اسرائيل وممارساتهم .

ولكل المزايدين ، قوما ، على وطنية السيوعيين ، بسبب أُميتهم أو طبعيتهم ، نقول :

نحن ، السيوعيين العرب الفلسطينيين ، كما كل السيوعيين ، مُفعمون ومحبولون بالكرامة القومية وبالمسؤولية الوطنية تجاه وطننا . لسنا فقط خصوماً ألداء للعدمية القومية والكوسموبوليتية ، وإنما الاعتزاز بسبعينا وبتاريخه وبتراثه وبتقاليده ، هو المقدمة لطبقتنا ولأُميتنا . نحو مفتاح سيوعتنا .

هاماتنا المرفوعة تطاول الساء ، عزة قومية واعتزازاً وطنياً . نؤنا بين عمالٍ وفلاحٍ ومنقفي هذا الوطن ، وبرجوازيته الوطنية الصغيرة ، مقسمين بالاً نسقط علم الكفاح الوطني المشرع حتى نكنس كل أعدائه وبنبيه وطننا حراً سعيداً .

نعز بانتمائنا لسعينا الاقوى من كل احتلال وعدوان ، والاكبر من كل حصار . وكما قال الشاعر توفيق زياد ، لا ندعى ان سعينا هو افضل شعوب الارض . ولكن هنالك من سعب افضل من سعينا . وإن خير لنا ان نولد من جديد ، لما اخترنا إلا ان نولد فلسطينيين ، في جليل ومثل وكرممل وساحل ونقب ، وجبال وسهول هذا الوطن الجميل .

الموضوع الأول

الماركسية - اللينينية والمسألة القومية

الفصل الأول

المسألة القومية - مدخل وتعريفات

- * تعريفات ٧
- * مقومات تكوّن الأمة ١١
- * مراحل المسألة القومية ١٥
- * اتجاهها الرأسمالية في المسألة القومية ١٨

الفصل الثاني

الأممية البروليتارية والتعصب القومي سياستان متناقضتان في المسألة القومية

- * الخلفية الطبقية ٢٥
- * البرجوازية والمسألة القومية ٢٧
- * البروليتاريا والمسألة القومية ٣١
- مصلحة الكفاح الطبقي ٣٤

- التوجُّه العيني الملموس ٣٩
- التعاون مع البرجوازية ... ؟ ! ٤٤
- شوفينية الأمم الظالمة ٤٩
- وقومية الأمم المظلومة ٥٤
- احادية «ثنائية» التربية الأمية ٥٨
- الارهاب القومي «المتبادل» ٥٨
- فقط الاشتراكية تحل ٦١
- المسألة القومية ، ولكن ٦١

الفصل الثالث

حق تقرير المصير وحركة التحرر الوطني

- * حق تقرير المصير ٦٨
- * حركة التحرر الوطني ٧٨

الفصل الرابع

ثلاثة أمثلة ثلاث تجارب ، وتلخيص

- * مثال إيرلندا ٩٤
- * مثال التجربة السوفييتية ١٠٢
- * مثال الحزب الشيوعي الاسرائيلي والمسألة القومية ١٠٩
- الموقف من الصهيونية ١١٠
- الموقف من القضية الفلسطينية ١١٠
- وحق تقرير المصير ١١٦
- الموقف من المساواة القومية ١٢٣
- للجماهير العربية في اسرائيل ١٢٣
- * تلخيص ١٢٩
- * مصادر الموضوع الأول ١٣٣

الموضوع الثاني

«الطبقي و «الأممي» و «القومي»
على ضوء الماركسية - اللينينية
وفي كفاح الجماهير العربية الفلسطينية
في إسرائيل

الفصل الأول

«الطبقي» و «الأممي» و «القومي»
على ضوء الماركسية - اللينينية

- * إفتراء رجعي قديم ١٣٩
- * الطبقات والصراع الطبقي ١٤١
- ماذا نغني بالطبقات ؟ ١٤١
- الصراع الطبقي ١٤٣
- أشكال الصراع الطبقي ١٤٥
- * البنية الطبقية - الاجتماعية للمجتمع البرجوازي ١٤٨
- البرجوازية ١٤٨
- الفئات المتوسطة ١٥٤
- البروليتاريا ... ولماذا هي
- الطبقة الأكثر ثورية ؟ ١٥٨
- التحليل الطبقي ١٦٥
- * الأممية البروليتارية ١٦٨
- * النزعة القومية ١٧٩
- مرة أخرى عن «الطبقي» و «الأممي» ١٨٤

الفصل الثاني

وطنية البروليتاريا وحلفائها وقومية البرجوازية الخيانية

- * موضوعية وعلمية التقسيم الطبقي ١٨٩
- الثورة التي أحدثها كارل ماركس ١٩٣
- * حقيقة قومية البرجوازية ١٩٧
- * وطنية العمال وحلفائهم ٢٠٠
- عن الوطن وعن
- الدفاع عن الوطن ٢٠٥
- * مصادر الفصل الأول والثاني ٢١٦

الفصل الثالث

«الطبقي» و «الأُمِّي» و «القومي» في كفاح الجماهير العربية في اسرائيل

* البنية الاقتصادية - الاجتماعية

- للجماهير العربية في اسرائيل ٢٢٠
- التغير «الكمي» و «الكيفي» ٢٢٦
- * قومية «التقدمية للسلام»
- رجعية استسلام ٢٣٠
- * طبقية الصراع القومي ٢٣٨
- حقيقة الموقف الطبقي للحزب الشيوعي ،
- الاسرائيلي ، من المسألة القومية ٢٤١
- الموقف الطبقي السليم ، هو
- الموقف الوطني السليم ٢٤٩

* الظلم القومي وخلفيته الطبقية

٢٥٧ السحق الطبقي ومعالمه الشوفينية

٢٦١ □ الانتفاء القومي

٢٦٥ □ مشكلة الهوية ، «الأُسْرَلَة» و «الفَلَسْطَنَة»

□ عن الحزب العربي

٢٧١ وعن التنظيم القومي

□ وطنية النضال الأممي

٢٨٠ العربي - اليهودي المشترك

* الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، القائد

٢٨٦ الوطني التاريخي للجماهير العربية

المراجع

* ماركس وانجلس *

[مؤلفات ومجموعات مشتركة]

١. بيان الحزب الشيوعي .
٢. في الاستعمار [مجموعة من المقالات والرسائل] .
٣. رسائل مختارة [فقط الرسائل المتعلقة بموضوع الكتاب] .

* لينين *

[المختارات في عشرة مجلدات]

□ المجلد الثاني :

١. المسألة القومية في برنامجنا .

□ المجلد الخامس :

١. مصائر مذهب كارل ماركس التاريخية .
٢. مصادر الماركسية الثلاثة وأقسامها المكونة الثلاثة .
٣. استيقاظ آسيا .
٤. ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية .
٥. حول استقلال «الثقافة القومية» الذاتي .
٦. حق الأمم في تقرير مصيرها .
٧. مهمات الاشتراكية الديمقراطية الثورية في الحرب
الاوروبية .
٨. بصدد كرامة الروس القومية .
٩. افلاس الأمية الثانية .
١٠. الاشتراكية والحرب .

١١. الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية [فصول مختارة منه].

□ المجلد السادس :

١. الثورة الاشتراكية وحق الأمم في تقرير مصيرها موضوعات].

٢. بصدد «برنامج السلام».

٣. بصدد كراس يونيوس.

٤. خلاصة المناقشة حول حق الأمم في تقرير مصيرها.

٥. بصدد تيار «الاقتصادية الامبريالية» الناشيء.

٦. بصدد الكاريكاتور عن الماركسية وبصدد «الاقتصادية الامبريالية».

٧. الامبريالية والانشقاق في الاشتراكية.

٨. اللويبلانية.

٩. مهمات البروليتاريا في ثورتنا.

فصول : نزعة الدفاع الثوري ومعناها الطبقي.

البرنامج الزراعي والبرنامج بشأن القوميات.

الحالة في الأهمية الاشتراكية.

إفلاس أممية زيميرفالد. ينبغي تأسيس الأممية

الثالثة.

١٠. الدفاعية النزيمية تكشف نفسها.

١١. ماذا يفهم الرأسماليون «بالعار» وماذا يفهم

البروليتاريون به.

١٢. أهمية التأخى.

١٣. أ.غ. تسيريتيلي والنضال الطبقي.

□ المجلد السابع :

١. المؤتمر الثاني لسوفييتات نواب العمال والجنود في عامة

روسيا .

التقرير عن السلام .

التقرير عن الارض .

٢. اعلان حقوق الشعب الشَّغِيل والمستثمر .

٣. الوطن الاشتراكي في خطر .

□ المجلد الثامن :

١. الثورة البروليتارية والمُرتد كاوتسكي .

فصل : ما هي الأُمِّيَّة ؟

□ المجلد التاسع :

١. المبادرة الكبرى [قِسْم : السبوت الشيوعيَّة] .

٢. بصدد مهمات الأُمِّيَّة الثالثة [أراء رمسي ماكدونالد في

الأُمِّيَّة الثالثة] .

٣. مرض «اليسارية» الطفولي في الشيوعية . [فصول

مختارة منه] .

□ المجلد العاشر :

١. الموضوعات الى المؤتمر الثاني للأُمِّيَّة الشيوعية .

الفصل الأول : مسودة أولية للموضوعات في المسألة

القومية ومسألة المستعمرات .

٢. المؤتمر الثاني للأُمِّيَّة الشيوعية .

الفصل الثالث : تقرير اللجنة المختصة بالمسألة القومية

ومسألة المستعمرات .

٣. حول مسألة القوميات أو «الحكم الذاتي» .

* لينين *

[مجموعات مقالات وخطابات]

١. حركة شعوب الشرق التحررية الوطنية .

٢. في الأُمِّيَّة البروليتارية .

* مراجع إضافية *

١. كُتِبَ مؤتمرات الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، خصوصا : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرين . الفصول عن الصهيونية والمسألة الفلسطينية والجماهير العربية في اسرائيل .
٢. س. غيليلوف : «لينين وحل المسألة القومية في الاتحاد السوفييتي» .
٣. ف. زوتوف : «التعاليم اللينينية حول ثورات التحرر الوطني والعصر الراهن» .
٤. د. اميل توما : «جذور القضية الفلسطينية» .
٥. د. اميل توما : «الماركسية - اللينينية وحل القضية الفلسطينية اليوم» .
٦. د. اميل توما : «طريق الجماهير العربية الكفاحي في اسرائيل» .
٧. اعتمدت ، ايضاً ، في الفصل الأخير من هذا الكتاب ، على مقالات اميل حبيبي وسالم جبران التي ظهرت في «الاتحاد» و«الجديد» ، في السنوات الأخيرة ، بخصوص موضوع البحث .

* موسوعات ومعاجم *

١. الموسوعة الفلسفية .
 ٢. معجم الشيوعية العلمية .
 ٣. الموسوعة الاقتصادية .
- ملاحظة : مؤلفات ماركس وانجلس ولينين وغيليلوف وزوتوف والموسوعات والمعاجم ، من إصدار دور النشر في الاتحاد السوفييتي .